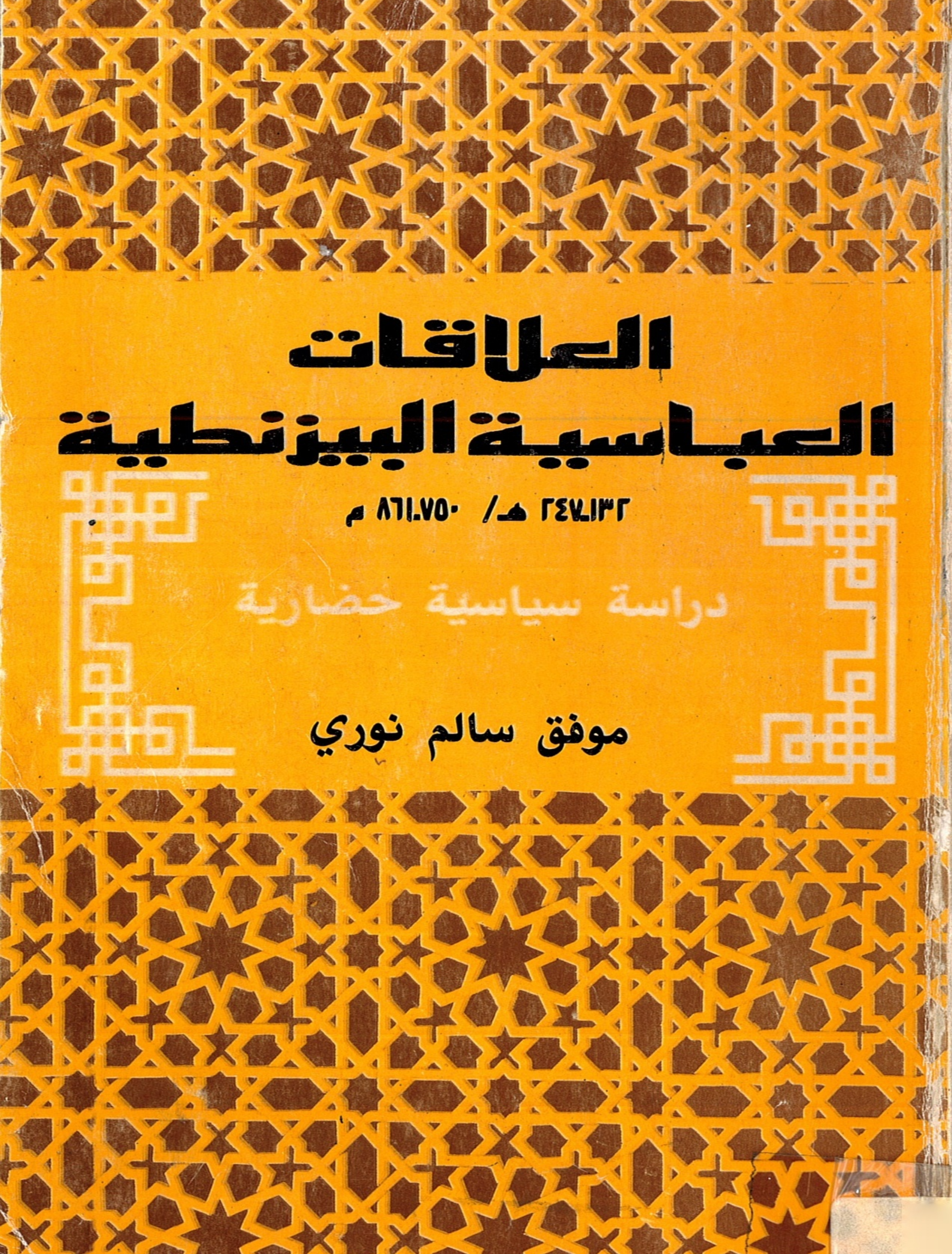


العلاقات العباسية البيزنطية

٢٤٧-١٣٢ هـ/ ٧٥٠-٨٦١ م

دراسة سياسية حضارية

موفق سالم نوري

العلاقات العباسية البيزنطية

١٣٢-٢٤٧ هـ / ٧٥٠-٨٦١ م

دراســة سياسية حضارية

موفق ســالم نوري

الطبعــة الاولى ١٩٩٠

المقدمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

حظيت العلاقات بين الأمم والشعوب بمكانة خاصــة في الدراســات التاريخية ، لما لهذه العلاقات من أثر مهم وفعــــال في حركة التاريخ ورسم مساراته باتجاه تراكم خبرات الشعوب وتجاربها بما يسهم في تطور الانسانية وتقدمها • وما يظهره من ميادين متجددة للفعل الانساني الخلاق •

لذا احتلت العلاقة بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، مساحة واسعة في البحث التاريخي لدى المعنيين عرباً ومستشرقين هدفها الكشف عن أبعاد هذه العلاقة ودوافعها ونتائجها •

ويأتي عملنا هذا ، إسهاماً متواضعا واستكمالا للاعمال السابقة ، أوجبه ما يكشف باستمرار من أصول تاريخية ، تضيف الجديد من المادة التاريخية • وأوجبه أيضا ضرورة اعادة كتابة تاريخ أمتنا المجيدة ، وفق مفاهيم أكثرعدالة وانصافا ، وأكثر ايجابية في التعامل مع مفردات تاريخ هــذه الامة العظيمة • وكذا العمل دوما على تعميق مناهج البحث التاريخي ، بما يكشف عن المكنات الهائلة في النصوص التاريخية، التي تأصل البحث التاريخي وتوسع من ميادينه •

وعبرت العلاقات العباسية البيزنطية عن مرحلة جديدة في اطار العلاقات العربية البيزنطية ، كانت لها أبعادها الخاصة والمميزة التي أفرزتها طبيعــة هذه المرحلة • ففي العصر العباسي الاول، تحولت ادارة الدولة الاسلامية من الادارة

العسكرية ، التي أوجبتها وفرضتها ظروف تاريخية معينة ، الى الادارة المدنية، التي مثلت مرحلة الاستقرار والتحول الى البناء الداخلي للدولة والمجتمع • وبعث عوامل الازدهار السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي •

وعلى الرغم من ذلك ، بقيت العلاقات الحربية بين الدولتين تحتل المساحة الاوسع بينهما • اذ مثلت الامبراطورية البيزنطية عامل تحدٍ واجهته الامة العربية الاسلامية • فسعت هذه الامبراطورية الى استعادة أمجادها القديمة في المنطقة ، باعثة الحياة في الصراع القديم بين الشرق والغرب • في حين بذلت الدولة العباسية جهدها لحماية تخومها من أي خطر أجنبي • كما كان هذا الصراع وجهاً من أوجه العلاقة بين أية قوتين عظميين متجاورتين ، تحاول كل منهما فرض سيادتها على مناطق التخوم بينهما ، وتأمين أراضيها من أي عملية توسع على حسابها •

ولم تكن العلاقات الحربية ، الوجه الوحيد للعلاقة بين العباسيين والبيزنطيين ، بل ثمة أوجه أخرى سياسية وحضارية بينهما • اذ احتلت العلاقات السياسية مكانتها الخاصة ، والتي جسدتها المعاهدات والاتفاقيات وتبادل السفراء بينهما • وعززتها أيضا عملية تبادل أسرى الطرفين • واستمرت هذه العملية طوال العصر العباسي الاول ، طالما كانت هناك علاقات حربية بينهما •

واحتلت الاتصالات الحضارية بين الدولتين ، مكانها في تاريخ العلاقات بينهما • وأخذت الاتصالات الثقافية أوجهاً وسبلا متعددة عكست التأثيرات المتبادلة في هذا الميدان ، وأخذت العلاقات التجارية ، هي الاخرى ، أشكالا وسبلاً متعددة ، عبرت عن رغبة الطرفين في ادامة الاتصال السلمي بينهما •

وعسى أن يكون هذا الجهد المتواضع اسهاما بسيطا في الكشف عن الأوجه المشرقة في تاريخ أمتنا المجيدة •

والله من وراء القصد •

الباب الاول

دراسة في الجغرافية السياسية

١ ـ التمهيد

العلاقات الدولية في الاسلام بين
المنظور الفقهي والواقع التاريخي .

٢ ـ الفصل الاول

الدولة العباسية .

٣ ـ الفصل الثاني

الامبراطورية البيزنطية .



تمهيد

العلاقات الدولية في الاسلام

بين المنظور الفقهي والواقع التاريخي

الجهاد :

أوردت المعاجم العربية تعريفا للجهاد بأنه « محاربة الاعداء » وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل »[1] « وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر والشيطان والنفس . »[2]. وفي الاصطلاح فان الجهاد: « بذل الجهد بالنفس والمال واللسان في القتال ، دفاعا عن الدين والديار دفعاً للظلم والعدوان . »[3].ويتضح: ان المعنى الفقهي الاصطلاحي لا يختلف كثيرا عن المعنى اللغوي للكلمة . فكلا المعنيين يؤكد بذل أقصى جهد يمكن للمسلم بذله من أجل غايات محددة .

وتضمنت السنّة النبوية الشريفة أحاديث عدة عن فضل الجهاد، من ذلك: « عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل قال ايمان بالله وجهاد في سبيله . »[4] . وأيضا « جاء رجل الى رسول

---

١ ــ ابن منظور ، لسان العرب ، ٣/١٣٥ ، الزبيدي ، تاج العروس ٢، ٣٢٩/٢.
٢ ــ الزبيدي ، ٢/٤ .
٣ــ صبحي محمصاني ، الاوزاعي ، ٢:٣٥٢ .
٤ ــ البخاري ، صحيح البخاري ، ٣/١٧٨ .

الله صلى الله عليه وسلم فقال دلني على عمل يعدل الجهاد ، قال لا أجده»[٥].

ويظهر من المفهوم الفقهي للجهاد ، أنه شرع أساسا لنصرة الاسلام بعد وجود مقتضياته من قبل العدو . أي ان الجهاد قتال دفاعي عن الاسلام عقيدة وأمة وأرضا . وحاول الدكتور محمد علي الحسن أن يناقش هذه المسألة وأن يصل الى نتيجة أخرى ، فهو يرى ان آيات الجهاد في سورة التوبة هي من آخر ما نزل من سور القرآن الكريم ، فهي بذلك لا يمكن نسخها أو تخصيصها أو تحديدها ، وورد فيها الامر بالقتال عاما مطلقا ، وحكمها ظاهر فيه العموم والاطلاق ، فهي تقدم بذلك دليلا على أن الجهاد يعني مقاتلة الكفار سواء كان الامر مباشرة قتال العدو من قبل المسلمين أو مقاتلته دفاعا عنهم[٦] . بيد أنه بتدقيق هذه الآيات الكريمة نجد فيها تخصيصا واضحا ودقيقا ، قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »[٧] . وقال تعالى :«وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين .»[٨]. وقال تعالى: « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير .»[٩] . وقال تعالى أيضا : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين .»[١٠] . ان هذه الآيات الكريمة حددت تحديدا واضحا وجوب مباشرة قتال « من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، المشركين ، الكفار والمنافقين » وهؤلاء ، كما سنوضح ، واجب على المسلمين قتالهم . غير أن هذه الآيات الكريمة لم تتضمن قتال أهل

---

٥ — المصدر السابق ، ٤/١٨ .
٦ — العلاقات الدولية في القرآن والسنة ، ١٢١ .
٧ — التوبة ، ٢٩ .
٨ — التوبة ، ٣٦ .
٩ — التوبة ، ٧٣ .
١٠— التوبة ، ١٢٣ .

الكتاب ، الذين عدّهم الاسلام في ذمة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وهذا ما سنأتي أيضا على توضيحه .

على أن الدكتور الحسن يعود ليناقض نفسه في مكان آخر من كتابه حيث يقول « وبعد هذا العرض أستطيع القول ان السلم هو الاصل في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم.»[11]. فكيف له أن يوفق بين تعميمه السابق، بأن واجب المسلمين الجهاد بمبادأة قتال غير المسلمين وبين استنتاجه الاخير هــذا ؟

ولا بد لنا أن نميز بين الحرب وأسبابها وغاياتها والجهاد وطبيعته ، فالحرب غالبا ما تكون لاغراض عدوانية، في حين ان الجهاد شرع أساسا للدفاع عن حوزة الاسلام ونصرته . من هنا جاء استعمال مفهوم « جهــاد » بدلا من مفهوم « حرب »[12] تأكيدا للتباين الواضح في مضامين كل من المفهومين . واذا كان هناك من يرى ان الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة « جهاد » جاءت مرادفة لكلمتي الحرب والقتال[13] ، فان هـذا الترادف لم يكن يعني أكثر من ترادف شكلي مظهري ، مع تباين جوهري في المضامين والاخلاقيات التي تحكم كلاً منهما . وهنا لابد من تأكيد مسألة أساسية هي أن الجهاد تكون وسائله سلمية الا عند اقتضاء الضرورة ودفعا للخطر ، حيث يتم اللجوء الى استخدام أساليب القوة والقتال[14] . ولا أعتقد ان الآية الكريمة الآتية تجاوز هذا المعنى ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[15] . فهي لا تعني مباشرة قتال العدو ، بل ضرورة اتخاذ حالة الأهبة والاستعداد على الدوام لارهاب هـذا العدو

١١ـ العلاقات الدولية في القرآن والسنة ، ٢٦٦ .
١٢ـ وهبة الزحيلي ، آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، ٣٤ .
13—Majid Khadduri, War and Peace in the Law of Islam, P. 56.
١٤ـ وهبة الزحيلي ، آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، ٣٤ .
١٥ـ الانفال ، ٦٠ .

والحيلولة دون تفكيره في شن العدوان ، أو دفع عدوانه وصده عند وقوعه. ويؤكد هذا المعنى قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله تعالى العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف . »[١٦] .

ويتخذ الجهاد في سبيل الله أشكالا وأساليب عدة ، فكما أشرنا ، فان الجهاد لا يعني بالضرورة اتخاذ أساليب القتال ، بل أنه يتخذ طابعا سلميا على شكل دعاية دينية[١٧]. وقد أشار القرآن والسنّة النبوية الشريفة الى أساليب الجهاد في مناسبات عدة ، جاء في القرآن الكريم : « أنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون .»[١٨] . والآية السابقة أيضا « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. » وجاء في السنّة النبوية الشريفة : « قيل يا رسول الله أي الناس أفضل ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ..»[١٩] ، وأيضا « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم »[٢٠] . ومن هذا يتبين ان وسائل الجهاد هي :

١ ــ الجهاد بالمال : وهذا الضرب من الجهاد له مظهران ، أولهما المشاركة في تجهيز الجيوش واعدادها للقتال ، وثانيهما المساهمة في تدعيم أساليب ووسائل الدفاع كبناء الحصون والقلاع أو تدعيمها.

٢ ــ الجهاد بالنفس : أي أن يشارك المسلم بنفسه في القتال ، ويحمل سلاحه دفاعا عن الدين والديار .

١٦ــ ابو داؤد ، السنن ، ٢/١٠ .

17 — Majid Khadduri, P. 56.

١٨ــ التوبة ، ٤١ .

١٩ــ البخاري ، ٤/١٨ ، مسلم ، الصحيح ، ٣/١٥٠٣ .

٢٠ــ ابو داؤد ، ٢/١٠ .

٣ ــ الجهاد باللسان : باتخاذ أشكال الدعاية السياسية والدينيــة ، أو ممارسة صيغ الحرب النفسية الهادفة الى رفع معنويات الجنـــد المسلمين ، وادخال الرعب في نفوس الاعداء •

حتى الجهاد الذي يتخذ شكل القتال ، فان المفاهيم الاسلامية تحكمـه باخلاقيات خاصة تميزه عن الحرب وطابعها العدواني • فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يوصي قواد جيوشه عند توجههم للقتال بتجنب الخيـــانة والغدر والتمثيل بجثث قتلى العدو في المعركة[٢١] • وهذا ما كان يفعله أيضا الخلفاء الراشدون ، فقد أوصى أبو بكر (رض) يزيد بن أبي سفيان عندتوجهه الى الشام بألا يقتل الاطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين ، وألا يعقر نباتا ولا حيوانا ، وأن يتجنب الخيانة والغدر في تعامله مع الاعداء[٢٢] •

وغايات الجهاد واضحة محددة لا لبس فيها ولا ابهام • وفي هذا المجال كان أمام المسلمين العرب صنفان من المواقف هما : المشــركون أولا ، وأهل الكتاب ثانيا • وفيما يتعلق بالمشركين، فان غايات الجهاد تمثلت فيالقضاء على الشرك وازالته ، قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنــة ويكون الدين لله»[٢٣] • وتفسر الفتنة بأنها الشرك[٢٤] • لذا توجب على المسلمين مباشرةقتال المشركين عندما شرع لهم الجهاد • ولا يمكن أن نحسب هذا عدوانا ، بل هو عمل يهدف الى اخراج الجماعات البشرية المشركة من هذا الاسفاف والانحطاط الفكري والعقلي المتمثل بعبادة أصنام وأوثان لا نفع منها ولا ضرر • لذا فان الاسلام لم يضع أمام المشركين من العرب خيارا غير الاسلام أو القتل •وباتساع نطاق حركة التحرر العربية ، فان عمر بن الخطاب (رض) عــدّ المجوس أهل

٢١ــ ابن سلام ، كتاب الاموال ، ٣٢ •
٢٢ــ الواقدي ، فتوح الشام ، ١/٤ •
٢٣ــ البقرة ، ١٩٣ •
٢٤ــ الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ، ٢/١٩٤ •

كتاب ــ أهل ذمة ــ وفرض عليهم الجزية[٢٥] . وعلى الرغم من أن كتابهم غير سماوي ، فانهم لم يعاملوا معاملة المشركين من العرب بتخييرهم بين الاسلام أو القتل . ان هذا الموقف لم يمثل تنازلا عن المبادىء ، بقدر ما عبّر عن سعة أفق وبعد نظر اتسم بهما عمر (رض) ، فمن ناحية ، لم يكن بالامكان عمليا تخيير هؤلاء المجوس بين الاسلام أو القتل لكثرة أعدادهم . ومن ناحية أخرى ، فانهم كانوا بعد لا يفهمون اللغة العربية ، وليس بمقدورهم فهم الاسلام وعقيدته على وجه سليم ، لذا تركهم عمر (رض) ومنحهم الحرية الدينية ، كبقية أهل الذمة . مرتئياً أنهم بامتزاجهم بالمسلمين العرب سيكون بامكانهم فهم مبادىء الاسلام ثم يقبلون على اعتناقه طائعين راغبين . وهو عين ما حصل بالفعل خلال السنوات القليلة اللاحقة .

أما الموقف الثاني الذي واجهه المسلمون ، فقد تمثل بأهل الكتاب ، وفي الوقائع التاريخية خير دليل على موقف الاسلام منهم ، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يرغم يهود المدينة على اعتناق الاسلام ، حتى بعد أن أصبح مركزه في المدينة قويا وأصبح المسلمون سادة الموقف في فترة لاحقة بعد الهجرة . بل انه ــ صلى الله عليه وسلم ــ اكتفى باتخاذ الاجراءات العقابية ردا على مواقفهم العدائية من العرب المسلمين . كما أن القادة العرب في مصر والشام وغيرهما ، لم يرغموا النصارى على اعتناق الاسلام ، عملا بقوله تعالى: « لا اكراه في الدين »[٢٦] . وقوله تعالى أيضا : «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن .»[٢٧] . وكان قبول الجزية من أهل الذمة دليلا على ذلك ، فلم يخيروا بين الاسلام أو القتل مثل المشركين، بل أكثر من ذلك انهم أصبحوا في حماية رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو ما يعنيه مفهوم أهل الذمة . اذن، وكما سبقت الاشارة ، فان الجهاد كان واجبا

٢٥ــ ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ٢٨ ، ٣٥ .

٢٦ــ البقرة ، ٢٥٦ .

٢٧ــ النحل ، ١٢٥ .

دفاعيا • وبهذا نفهم حركة التحرر العربية ، اذ لم يكن هدفها القضاء على الدول أو الديانات السماوية القائمة أو ازالتها • ان الدولتين الكبيرتين في المنطقة — الساسانية والبيزنطية — لم تكونا لتوافقا على دولة جديدة متزايدة القوة، في منطقة كانتا تتصارعان من أجل اقتسام النفوذ فيها أو السيطرة عليها • لا سيما ان هذه الدولة مباينة لهما دينياً وسياسيا ، فضلا عن امكان سيطرتها على طرق التجارة الرئيسة بين الشرق والغرب ، بما يهدد مصالحهما التجارية، وخصوصا الامبراطورية البيزنطية • لذا لم يكن أمام هاتين الدولتين سوى القضاء على الدولة الجديدة هذه • وهو ما أدركته القيادة العربية الاسلامية في المدينة ، ووفقا لذلك تم رسم ستراتيجية واسعة النطاق لمواجهة احتمالات العدوان ، وتمثلت هذه الستراتيجية في :

١ — ان خير وسيلة للدفاع هي الهجوم •

٢ — العمل على جعل ساحة المواجهة خارج الجزيرة العربية لاعتبارات عدة أهمها : صغر مساحة الدولة العربية المتمثلة بشبه جزيرة العرب ، قياسا بالمساحة الواسعة للدولتين الساسانية والبيزنطية • فاذا ما كانت المبادرة بيد الاعداء ، فسيكون بامكانهم اطباق الحصار على هذه الدولة وخنقها داخل حدودها • ولا يستبعد قيام تحالف بين اعداء الامس على الدولة العربية الاسلامية • ثم ان مقر ادارة هذه الدولة — في المدينة — لم يكن بعيدا عن متناول اليد البيزنطية ، لا سيما اذا كان زمام المبادرة بهذه اليد • ومن ثم فان ضرب هذا المقر ومعه المقدسات الاسلامية ، ربما كان سيتسبب بنتائج لم يكن سهلا تلافيها • وفضلا عن ذلك اعتبار آخر مهم يتمثل بالفقر الاقتصادي للجزيرة العربية ، اذ ان اقتصادياتها عاجزة عن توفير الامدادات والمؤن الكافية للقوات المحاربة • لذا فان جعل ساحة المواجهة في الشمال — الهلال الخصيب — يوفر الامدادات والمؤن لهذه القوات بما يمكنها من الاستمرار في تأدية مهماتها القتالية على خير وجه •

كان الدفاع عن الدولة العربية الاسلامية، اما مباشرا ضد عدوان مباشر من قبل العدو ، أو غير مباشر يتمثل بهجوم وقائي ضد عدوان متوقع حصوله، من أجل اضعاف قوة العدو، والقضاء على قدراته العدوانية لاحباط أي محاولة للعدوان • وهذا ما فعله المسلمون بتحرير الشام ومصر وشمال أفريقية والاندلس[٢٨] •

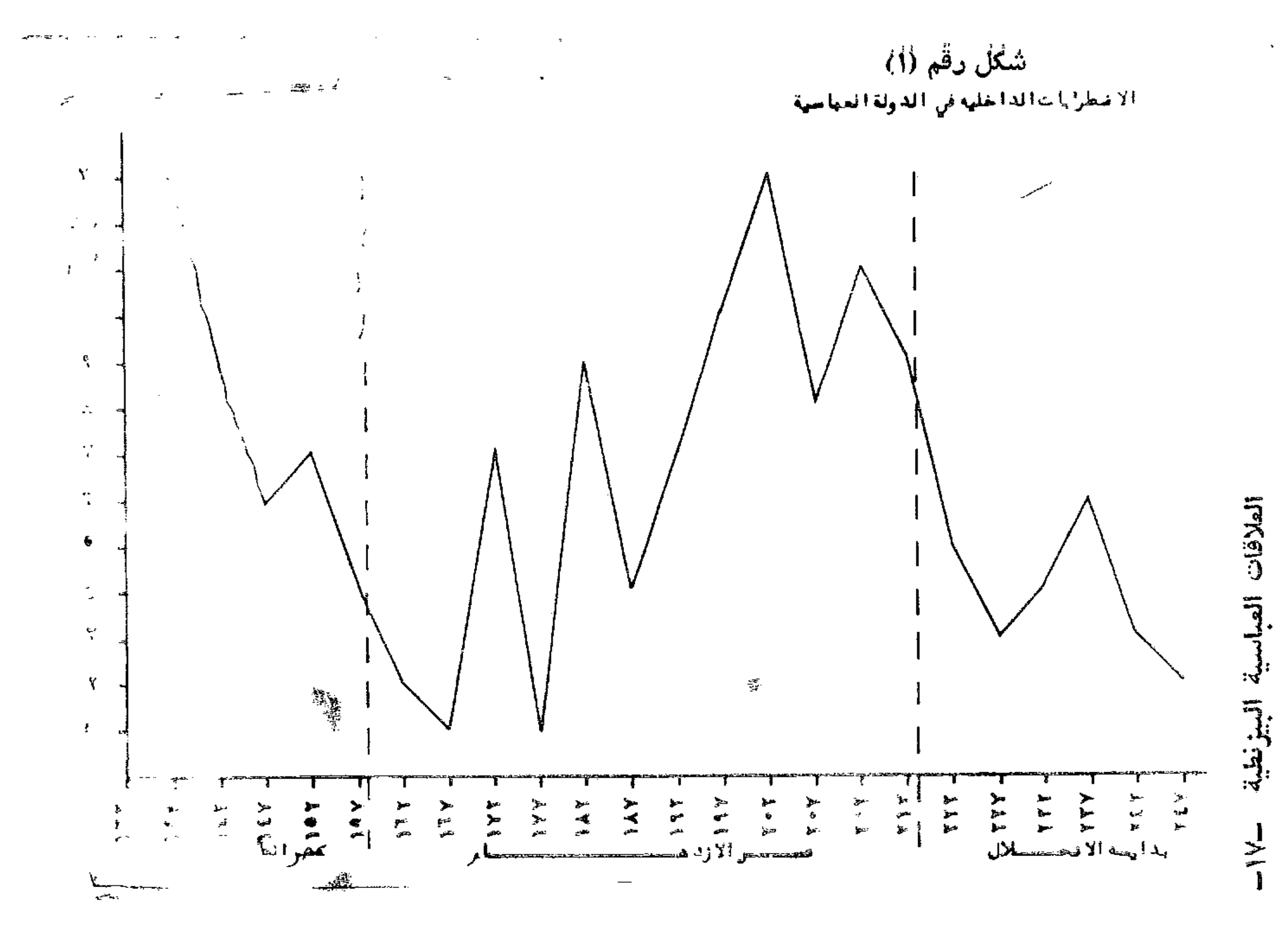
ان ما يراه بعض المستشرقين ، من أن الجهاد كان نشرا للاسلام بالسيف[٢٩] • واسترقاق الاعداء أو قتلهم أو اجبارهم آخر الامر على دفع الجزية[٣٠] • وأمثال هذه التصورات لا تعدو أن تكون قصورا في فهم حقيقة الاسلام وتاريخه أو تشويها متعمدا لذلك •

والعلاقات الحربية بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية، لاتخرج عن حدود هذا الفهم للعلاقة بين العرب المسلمين وغيرهم ، لا سيما وأن البيزنطيين هم الذين كانوا في غالب الاحيان يثيرون العمليات العسكرية على التخوم ، دون أن يكون لذلك سبب ظاهر[٣١] • وهذا ما سنوضحه في الفصل المخصص للعلاقات الحربية بين الطرفين •

بعد هذا لابد من القاء نظرة سريعة على مسألة تقسيم العالم الى « دار اسلام ودار حرب » • اذ كان الغرض من هذا التقسيم ، تبيان وضع المسلم في أماكن مختلفة من العالم • فهو ـ أي المسلم ـ في أمن وسلام في الاراضي العربية الاسلامية • في حين يكون في وضع مغاير في اراضي تناصب الاسلام والمسلمين العداء وتحاربهم • خصوصا اذا ما علمنا ان هذه الفكرة ـ أعني تقسيم العالم الى دار اسلام ودار حرب ـ نشأت وتطورت في فترة كان فيها

٢٨ـ وهبة الزحيلي ، نظام الاسلام ، ٦٩ـ٧٠ .
٢٩ـ احمد الشنتناوي وآخرون ، دائرة المعارف الاسلامية ، ١٨٨/٧ .
٣٠ـ ديمومبين ، النظم الاسلامية ، ١٣٥ .
٣١ـ فازيليف ، العرب والروم ، ١٩٦ .

شكل رقم (١)
الاضطرابات الداخلية في الدولة العباسية



الاجتهاد الفقهي ينمو في ظل أوضاع علاقات حربيـــة مستمرة بين الدولتين العباسية والبيزنطية • غير أن هذه الفكرة لا تعني بالضـرورة استمرار حالة الحرب • بل تزول بزوال أسبابها ودوافعها[٣٢] •

شاع في عبارات جمهور الفقهاء في القرن الهجري الثاني ، ان القتال هو الاصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم • واستند الفقهاء في ذلك الى ظواهر الآيات القرآنية الداعية الى القتال ، والتي كانت باطلاقها وعمومها ، قد نسخت كل ما عداها من الآيات القرآنية الداعية الى السلام [٣٣]• وهو ما يراه مثـلا الشافعي[٣٤] وأبو حنيفة[٣٥] • في حين يرى آخرون من الفقهاء : ان القتـال ليس فرضا ، الا أن تكون البداية من المعتدين ، مما يوجب قتالهم[٣٦] •

ان حقيقة فلسفة الاسلام للعلاقات الدولية ، تتمثل في أنها لا تقوم على أساس القتال أصلا • لان الاسلام دين الفطرة ، وان الفقهاء أنفسهم أشاروا الى أن الاصل في الاشياء الاباحة ، والاصل في الذمـــة البراءة حتى يثبت العكس ، والاصل الخلو من الالتزامات والتكاليف • من هنا فان أصل علاقة الانسان بغيره هو السلم وليس الحرب ، وهو ما أقره الاوزاعي والثوري[٣٧] • فالاصل هو السلام حتى يكون الاعتداء الذي يوجب الرد بالمثل — لا اكثر — دفاعا عن النفس والعقيدة والحرية الدينية[٣٨] • وقد رويت بعض الاحاديث

٣٢ـ وهبة الزحيلي ، نظام الاسلام ، ٣٧٢ـ٣٧٣ ، آثـار الحرب في الفقـه الاسلامي ، ١٧٢ـ١٧٣ ، محمد ابو زهرة ، العلاقات الدولية في الاسلام ، ٥١ •

٣٣ـ وهبة الزحيلي ، نظام الاسلام ، ٣٥٩ ، آثار الحرب في الفقه الاسـلامي ، ١٣٠ — ١٣١ •

٣٤ـ الشافعي ، كتاب الأم ، ٤/١٨٨ •

٣٥ـ الشيباني ، شرح كتاب السير الكبير ، ١/١٨٧ •

٣٦ـ نفس المصدر والصفحة •

٣٧ـ وهبة الزحيلي ، نظام الاسلام ، ٣٦ •

٣٨ـ محمد ابو زهرة ، ٤٧ •

النبوية الشريفة التي يشير ظاهرها الى دوام حالة القتال بين المسلمين وغيرهم، منها : «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[39] . وواضح من هـذا الحديث الشريف ان المسلمين يقاتلون من ناوأهم وعاداهم ، وهـذا يعني أنهم ـ أي المسلمون ـ يقاتلون دفعا للعدوان ، وليس مباشـرة القتـال من جانبهم . كما روي عن الاوزاعي أن « الجهاد ماض الى يوم القيامة منذ بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى آخر عصابة من المسلمين لا ينقض ذلك جور ولا عدل[40] . ولا يمكن أن نفهم هذا الحديث الا في ضوء الحديث السابق .

وأشار عدد من الآيات القرآنية الكريمة ، الى أن قتـال المسلمين غيرهم يكون ردا ودفعا لعدوان المعتدي ، وليس بمباشرتهم قتال غيرهم ـ على أننا يجب أن نميز هنا بين المشركين وأهل الكتاب وفق ما أسلفنا ـ . ومن آيـات الله تعالى التي تؤكد ذلك ، قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين .»[41]. أما ما جاء في قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجـدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم .»[42] . وهذا النص القرآني واضح كل الوضوح بتحديده وجوب مقاتلة المسلمين غيرهم من « المشـركين» فقط وليست هناك اشارة لاهل الكتاب .

ويتماشى مع هذا عدد آخر من النصوص القرآنيـة الداعية الى السلام والمودة ، قال تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو

٣٩ـ أبو داؤد ، ٢/ ١٠ .
٤٠ـ انظر : صبحي محمصاني ، ٣٥٤ .
٤١ـ البقرة ، ١٩٤ .
٤٢ـ التوبة ، ٥ .

السميع العليم •»[٤٣] • بمعنى : اذا رغبوا في السلم بالدخول في الاسلام ، أو باعطاء الجزية ، أو بموادعة ، ونحو ذلك من أسباب الصلح والسلام ، فعلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يميل الى قبول السلام[٤٤] • والمفسر هنا لم يحدد مدة للهدنة والصلح ، وربما قصد بذلك الاطلاق • وقال تعالى أيضا: « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم• لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين• انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون •»[٤٥]• وتقوم هذه الآيات أوضح دليل على أن مسالمة المسلمين لمن لم يقاتلوهم أو يظاهروا على قتالهم بأي شكل من الاشكال ، خصوصا وأن الطبري يشير الى أن هذه الآيات محكمة وغير منسوخة[٤٦] • بعد هذا يحق لنا أن نؤكد ان أصل العلاقات في الاسلام ، هو السلم والمسالمة مع من لم يعاد المسلمين ، مع التأكيد على ضرورة مجاهدة المعتدين بأقصى ما يمكن وفقا لما ذكر من مفهوم ومعنى الجهاد • وهذا ما كان عليه الامر تاريخيا ، فالدولة العباسية لم تكن هي البادئة بالقتال • وعليه فانها كانت مجاهدة دفاعا عن حوزة المسلمين سواء أكان هذا الدفاع ردا لاعتداء حاصل ، أو قتالا وقائيا لاحباط عدوان متوقع •

بقي لنا أن نعرف مدى جواز مهادنة المسلمين لغيرهم ، اذ اختلف الفقهاء في تفاصيل هذه المسألة •

فالاوزاعي أجاز لهم مهادنتهم على أن يؤدوا — غير المسلمين — لهم شيئا

٤٣— الانفال ، ٦١ •
٤٤— الطبري ، جامع البيان ، ٣٣/٧ •
٤٥— الممتحنة ، ٧ـ٩ •
٤٦— جامع البيان ، ٢٨ ، ٦٦ •

معلوما حتى ان اشترطوا على المسلمين أن لا يدخلوا أراضيهم[٤٧] . أما الشافعي فأجاز مهادنة غير المسلمين بالشكل الآتي :

أن لا تكون الهدنة أو الصلح معهم الا في حالة وجود ضعف في جانب المسلمين لا يمكنهم من مقاتلتهم والانتصار عليهم ، عند ذلك فقط تجوز مهادنتهم . غير أنه اذا ما استعاد المسلمون قوتهم وقدرتهم على القتال جاز لهم نقض الهدنة والصلح . أما اذا بقوا على ضعفهم جاز لهم تمديد الهدنة . كما أنه لا يجوز مهادنة غير المسلمين لفترة من الزمن تزيد على ماهادن عليه الرسول – صلى الله عليه وسلم – قريشا في صلح الحديبية وكان عشر سنوات ، فهي عنده الحد الاقصى لعقد هدنة معهم . الا أنها قابلة للتمديد عند الضرورة لكن يجب أن يفهم أن الشافعي لم يجز الهدنة المطلقة مع هؤلاء – غير المسلمين – . كما أنه اذا كان قد أجاز خرق الهدنة ونقضها من قبل المسلمين، فانه كان بشرط أن ينبذوا اليهم ، أي أن يعلموهم برغبتهم بانهاء الهدنة والصلح من جانبهم ، قبل قيامهم بأي عمل حربي ، وعلى العموم فان الهدنة يجب أن تحقق مصلحة المسلمين ، أي أن تقيهم من عدوهم في حالة ضعفهم ، يمكنهم نقضها عند استعادتهم لقوتهم[٤٨] . كما أن الشافعي من ناحية أخرى أجاز مهادنة المسلمين لغيرهم ، اذا كان هؤلاء بعيدين لا تطالهم أيديهم ، حتى وان لم يؤدِ هؤلاء – غير المسلمين – شيئا كالجزية مثلا[٤٩] .

أما أبو حنيفة فأجاز مهادنة المسلمين لغيرهم لسنين معلومة لم يحددها ، اذا حقق ذلك مصلحة المسلمين ، كأن يكون ذلك لضعفهم وعدم تمكنهم من غيرهم . أو أن يكون هؤلاء متمكنين من المسلمين ، فأجاز لهم مهادنتهم،ولكن لهم نقض الهدنة عند استعادتهم لقوتهم ، على أن يسبق ذلك النبذ الى عدوهم

٤٧– الطبري ، كتاب الجهاد ، ١٤ .
٤٨– الطبري ، كتاب الجهاد ، ١٥–١٦ .
٤٩– الأم ، ٤/١٨٨ .

واعلامه برغبتهم في انهاء الهدنة من جانبهم ، قبل القيام أو المباشرة بأي عمل عسكري[٥٠] .

ولا يرى الاوزاعي بأسا في مصالحة المسلمين لغيرهم ، حتى ان اضطروا الى أن يؤدوا لهم شيئا معلوما ، وذلك في حالة ضعف المسلمين ، غير انه لم يجز اجراء أحكام غيرهم عليهم[٥١] . وللثوري رأي مشابه في هذه المسألة[٥٢] . غير أن الشافعي رفض ذلك — أي أن يهادن المسلمون غيرهم بأن يؤدوا اليهم شيئا — الا في حالة واحدة هي الخوف على المسلمين من الابادة ، وهي حالة الضرورة ، والضرورات تبيح المحضورات[٥٣] .

وأجاز أبو حنيفة مهادنة المسلمين لغيرهم ، حتى ان اشترط هؤلاء ألا يؤدوا للمسلمين شيئا . ومثل الشافعي فانه أجاز مصالحة المسلمين لغيرهم بأن يؤدي المسلمون لهم شيئا ، وذلك في حالة الخوف على المسلمين من الابادة[٥٤] .

الا أن اللؤلؤي ، لم يجز مثل هذه المصالحة ، لان ذلك عنده بمنزلة الجزية ، وعلى المسلمين واجب القتال والجهاد حتى ينزل الله حكمه[٥٥] .

وأجمع الفقهاء على أن موادعة المسلمين للمشركين من عابدي الاوثان ، غير جائزة مطلقا حتى وان كانت أحكام المسلمين عليهم جارية[٥٦] . فهم — كما أسلفنا — ليس لهم الا أن يخيروا بين الاسلام أو القتل .

من خلال هذا العرض نرى أن مهادنة المسلمين لغيرهم — من وجهة نظر الفقهاء — جائزة لسببين :

٥٠— الطبري ، كتاب الجهاد ، ١٧ .
٥١— المصدر السابق ، ١٧—١٨ .
٥٢— المصدر السابق ، ١٨ .
٥٣— المصدر السابق ، ١٨—١٩ ، الشافعي ، ٤/١٨٨ .
٥٤— الطبري ، كتاب الجهاد ، ١٩ .
٥٥— المصدر السابق ، ١٩—٢٠ .
٥٦— المصدر السابق ، ١٤ .

١ ــ اختلال ميزان القوى لغير صالح المسلمين ، بأن يكون جانبهم هو الاضعف لاسباب عسكرية أو سياسية •

٢ ــ البعد الجغرافي بين المسلمين وغيرهم، لوجود حاجز طبيعي أو بشري بين الطرفين ، لا يمكن اجتيازه والوصول الى هؤلاء ومقاتلتهم•

ان موقف الفقهاء هذا من مدى ــ جواز أو عدم جواز مهادنة غير المسلمين ــ انما جاء منطلقا من موقفهم السابق ، بأن القتال هو الاساس في العلاقة بين المسلمين وغيرهم •

أما عن واقع المهادنات ــ تاريخيا ــ فاننا نلحظ أن هنالك نوعين من هذه المهادنات بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية ، تمثل الاول منها بما جرى عليه الاتفاق رسميا بين الطرفين ، كالمعاهدة التي عقدت بين هارون الرشيد والامبراطورة ايريني ، والتي كان أمدها ثلاث سنوات ــ وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا ــ • وتمثل النوع الآخر في مهادنات غير معلنة ، استمرت في بعض الاحيان أكثر من عشر السنوات التي حددها قسم من الفقهاء •وتمثلت مهادنات هذا النوع بفترة الصراع الدامي بين الامين والمأمون •

وأخيرا ، هل كان الجهاد في سبيل الله بكل أشكاله حرباً دينية شنها الاسلام على غيره من الاديان ؟ ثم هل أن القتال بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية كان حربا دينية ؟ كما يرى البعض[٥٧] •

ان ما قدمناه من أغراض الجهاد وأهدافه وأشكاله ، يرينا أن الجهاد لم يكن حربا دينية ــ مثل الحروب الصليبية ــ ولم تكن أهدافه دينية بحتة ، بقدر ما كان قتالا سياسيا من أجل الدفاع عن المسلمين ــ أرضا وأمة وعقيدة ــ• وشبيه بذلك القتال بين العباسيين والبيزنطيين ، اذ كان قتالا سياسيا وليس

57 — C.M.H, V. 4, P. 1, P. 696.

حربا دينية • ونحن لا نتفق مع جرجي زيدان في ان الشغل الشاغل للخلفاء العباسيين كان منصبا على التوسع والغزو[٥٨] • فالخليفة أبو جعفر المنصور أوصى ابنه المهدي بتحصين الثغور والمحاماة عن الدين[٥٩] • ولم يوصه بنشر لواء الحرب والقتال ، ادراكا منه لطبيعة المهام الملقاة على عاتق الدولة بالدفاع عن المسلمين أرضا وأمة وعقيدة •

٥٨ـ تاريخ التمدن الاسلامي ، ١/٢٠٤ •

٥٩ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٧ـ١٣٨ •

الفصل الاول

الدولة العباسية

١ ـ طبيعة العصر العباسي الاول :

لماذا العصر العباسي الاول ؟

ان الفهم العلمي الصائب للتاريخ يحتم النظر اليه بمنظار تحليلي ، يجعل من التاريخ سلسلة متصلة ، ليس بالمعنى الشكلي المظهري للسلسلة ، ولكن بمعنى التوالد المستمر والصيرورة للتكون التاريخي . فكل حدث تاريخي يحمل في رحمه ميلاد حدث جديد.من هنا فان حركة التاريخ تتقدم في عملية متصاعدة نحو الارتقاء والتقدم ، فكل حدث تاريخي نتيجة لما قبله وسبب لما بعده . وهذا يعني عدم وجود أي قطع في حركة التاريخ . بيد أن هذا لا يعني عدم جواز تقسيم التاريخ الى مراحل ، تحمل كل منها خصائصها المميزة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، متولدة عن ظروف تاريخية ذاتية وموضوعية. من هنا جاء استخدامنا لاصطلاح « العصر العباسي الاول » وهو شائع لدى جمهور مؤرخينا المحدثين . ويمتد هذا العصر بين السنوات ١٣٢ــ٢٤٧هـ / ٧٥٠ــ٨٦١م . مبتدئا بخلافة أبي العباس ، ومنتهياً بمقتل الخليفة المتوكل ، الذي عدّ مقتله فاصلا سياسيا بين العصر العباسي الاول والفترات الاخرى اللاحقة . وفي اعتقادنا ، ان هذا الاصطلاح له ما يسوغ استعماله تاريخيا .

الثورة العباسية :

ليس غرضنا أن نعرض للثورة العباسية في جوانبها التفصيلية ، بل نعرض لأهم الآراء التي قيلت في صدد تفسير هذه الثورة ، فقد رأى فان فلوتن : ان هذه الثورة مثلت ثورة الفرس على العرب لما عانوه من اضطهـــاد سياسي واجتماعي واقتصادي ، نجم عنه تذمر الموالي ودفعهم الى الثورة[1] • وسايره في هذا التفسير يوليوس فلهوزن ، مع تغيير طفيف باعطائه بعض الدور للعرب، حيث عدّهم « حلفاء » للاعـــاجم في ثورتهم هذه[2] • ان تفســـير هـــذين المستشرقين ، وقد جاء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كان متأثرا بالروح القومية التي سادت في أوربا آنذاك[3] • وســـار وراءهما عدد من المستشرقين الذين بحثوا في هذا الموضوع[4] • وردد هـــذا التفسير أيضا مؤرخون عرب وشرقيون[5] • على الرغم مما ظهر من نصوص تاريخية جديدة أسهمت في تغيير هذا الفهم للثورة العباسية[6] •

ان الثورة العباســـية مـــا كانت ولا يمكن أن تكون ثورة الفرس على العرب ، بل هي ثورة العرب الذين استوطنوا في خراسان بعد الفتح الاسلامي وشاركهم فيها المقاتلة العرب الذين كانوا يجاهدون في سبيل الله في تركستان والسند ، وشارك فيها أيضا سكان البلاد المحليون في خراسان • ثم أنهـــا ليست ثورة عنصرية أو قومية ، بل هي ثورة ذات واجهات متعددة : سياسية ودينية واجتماعية ، صفتها الغالبة عربية اسلامية ، مثلت عودة الى مبـــادىء

---

١ ـ السيادة العربية ، ٣٥ـ٣٦ •
٢ ـ تاريخ الدولة العربية ، ٥٠٦ •
٣ ـ فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ١٢ •
٤ ـ انظر مثلا : Saunders, A History of Medieval Islam, PP. 97-98.
٥ ـ انظر مثلا : فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٢/٤٠٥ ، مولوي حسيني، الادارة العربية ، ٢٧٧ •
٦ ـ فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ٣٧ـ٣٨ •

الاسلام الصحيحة[٧] • ذلك أن العرب الذين قدموا الى خراسـان في فترة لاحقة من حركة التحرر العربية ، لاقوا أشـد الضـرر جراء سياسة الحكم الاموي • فعلى الرغم من أنهم لم ينتفعوا من صفتهم العربيـة ، فانهم خضعوا للدهاقين المحليين أيضا • لذا فانهم كانوا في حال أسوأ حتى من حال السكان المحليين ، فشكلوا بذلك المادة الاساسية للثورة[٨] •

نجم عن التفسير الاول للثورة ، أن بنى عليه أصحابه نتائج لاحقة حول طبيعة العصر العباسي الاول بأسره ، اذ رأى فلوتن انه بعـد انتصار الثورة أسند الى الفرس كافة المناصب الرئيسة المهمة في القصـر والجيش والماليـة والادارة ، حتى حسدهم العرب[٩] • ورأى فلهوزن : ان السـيادة العربيـة انتهت بمعناها الحقيقي الذي كان يمثله بنو أمية[١٠] • بيد أنـه عاد وقال ان رجحان النفوذ الفارسي لم يكن أمرا مؤكدا[١١] • وهو بذلك غير واضح بشأن تقرير نتيجة نهائية بهذا الصدد • ويرى Becker ان انتصار العباسيين كان يعني انتصار الفرس على العرب[١٢] • ويرى آخر ان الخلفاء العباسيين كانوا يفضلون اختيار مستشاريهم من الفرس[١٣] • وان النفوذ الفارسي في البلاط العباسي كان كفيلا بابعاد العرب وطيهم في زوايا النسيان[١٤] • وعمل بعض مؤرخينا المحدثين على ترديد هذه العبارات دون سابق تمحيص أو تدقيـق ،

---

٧ ــ فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ١٣ •
٨ ــ محمد عبدالحي شعبان ، الثورة العباسية ، ٢٤٧ •
٩ ــ السيادة العربية ، ١٣٤ •
١٠ ــ تاريخ الدولة العربية ، ٥٢٧ •
١١ ــ المرجع السابق ، ٥٢٨ •
12 — Bury, The Cambridge Medieval History, Vol. 2, P. 364.
13—Lambton Holt, The Cambridge History of Islam, Vol. 1 A, P. 108.
١٤ ــ أوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب ، ٢٠٦ •

فرأى بعضهم ان هذا العصر هو عصر النفوذ الفارسي ، الذي شهد سيطرة الفرس على كافة مناحي الحياة(١٥) .

أما جرجي زيدان ، فقد عدّه عصرا فارسيا محضا . فالدولة ، عنده ، فارسية في سياستها وادارتها(١٦) . ان هذه التخريجات وأشباهها دفعت بالمبالغة الى أقصى نقطة ممكنة ، بتعميمها صفة فارسية مطلقة على هذا العصر ، مجافية بذلك الحقيقة والواقع . فعمال أبي جعفر المنصور كانوا من بين أقاربه ، ومعه عدد من كبار الشخصيات العربية تشكل خاصته المقربة اليه « فكان ينقل هؤلاء في أعماله لثقته بهم واعتماده عليهم» مع عدد قليل من مواليه(١٧) . وقبله أيضا كان مجلس خاصة أبي العباس يتكون من العرب أساسا(١٨) . فمن المبالغة الى حد كبير أن نعدّ الوجود السياسي للعرب قد انتهى بسقوط الدولة الاموية . فاذا كان قد تم تقريب عناصر من غير العرب ، فان الخلفاء بقوا عرباً هاشميين . ومعظم عمالهم وموظفيهم كانوا عربا أيضا . فولاة أقاليم الدولة كانوا عرباً في أصولهم ، حتى تلك الاقاليم الشرقية من الدولة مثل أرمينيه وخراسان وغيرهما ، مع وجود آخرين من غير العرب ، وان وجودهم كان تأكيدا للطابع الاسلامي في ادارة الدولة . ففي الفترة ١٣٢–٢١٨هـ/٧٥٠–٨٣٣ م كان ولاة أقاليم الدولة العباسية – المركز والاقاليم الشرقية – على الشكل الآتي : كان عدد الولاة العرب ١١٦ والياً ، مجموع سنوات حكمهم ٢٣٢ سنة ، أما الولاة من غير العرب فكانوا ٤٤ والياً مجموع سنوات حكمهم ١٢٥ سنة ، وهناك ١٧ والياً غير معروفي الاصول حكموا ٢٥ سنة(١٩) . وكذا الحال في تولية أعمال الادارة والدواوين ، فلم تكن حكرا لاحد ، بل كانت مشاركة بين العرب وغير

---

١٥ – عبدالعزيز سالم ، العصر العباسي الاول ، ٦ .
١٦ – تاريخ التمدن الاسلامي ، ٤/٣٨٢ .
١٧ – اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٢٨–١٢٩ .
١٨ – المصدر السابق ، ٣/١٠٧ .
19 — Norman Douglas Nicol, Early Abbasid Administration, P. 213.

العرب ، فاذا كان الذين تولوا أعمال الحجابة من الموالي ، فان أصحاب الشرطة والحرس والمظالم — على سبيل المثال — كانوا عرباً ، أمـا ديوانا الخراج ، والجند فقد تولاهما العرب وغير العرب[٢٠] • وكذلك الحال في الجيش أيضا، الذي تألف من فرق عربية وخراسانية تطغى عليه صفة عربيةاسلامية عامةتجمع عناصره • واذا كان قد أسند الى الفرس القيام بأعمـال الوزارة ، فان الخلفاء اتخذوا مواقف حاسمة تجاه محاولة تزايد نفوذ هؤلاء ، وهذا ما حصل بالفعل مع الخلال والبرامكة وبني سهل[٢١] • وواضح جدا السبب الذي دفع الخلفاء العباسيين الى اتخاذ عاصمة لهم في مصر من الأمصار العربية وليس في خراسان•

وكان من أبرز أهداف الثورة العباسية المساواة بين العرب والموالي في الميادين كافة بما في ذلك الادارة والحكم[٢٢] • واعتقد ان ما عنـاه الجاحظ بقوله : دولة بني مروان عربية ، ودولة بني العباس أعجمية خراسانية[٢٣]• انما كان يشير الى ظهور دور العجم ومشاركتهم في ادارة البلاد • وان أفضـل ما يمكن أن نصف به العصر العباسي الاول: أنه عصر تمثلت فيه عملية الاندماج بين عناصر الامة الاسلامية كافة ، وتماسكت فيه هذه العناصر متحدة في ظل الدين الاسلامي والثقافة العربية الاسلامية ، التي تبناهـا المجتمع العباسي بعناصره المكونة له كافة •

ويعد أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، لما بذله من جهود جبارة لترسيخ أركان الدولة وضبطها ، وارساء قواعد الحكم[٢٤] •

---

٢٠ — انظر :
David White Biddle, The Development of the Bureaucracy of the Islamic Empire during the Umayyad and Early Abbasid Period.

٢١ — عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الاول ، ٤٢ •

٢٢ — المرجع السابق ، ٥٤ •

٢٣ — البيان والتبيين ، ٤/٦٤ •

٢٤ — الفخري في الآداب السلطانية ، ١٦٠ •

ووصف ابن الطقطقى الدولة العباسية ، بعبارة مختصرة موجزة ، حيث قال : « دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارّة ، والدنيا عامرة والحرمات مرعية ، والثغور محصنة.»[٢٥] . وهي بهذا تمثل مرحلة النضج السياسي والاقتصادي والثقافي للدولة العربية الاسلامية ، في ظل حدود آمنة مستقرة ، بفضل الدفاعات القوية في مناطق التخوم ، وما تحمله الجيش من اعباء في الدفاع عن حوزة البلاد.ولم تظهر للدولة الجديدةمشاريع للفتح ، بل كان طابعها دفاعيا يتخذ أحيانا شكل الهجمات الوقائية . ويمكننا القول ــ بصورة عامة ــ ان الدولة العربية الاسلامية تحولت من دولةعسكرية ــ اضطرتها اليها ظروف معينة ــ الى دولة مدنية، انصرفت في ظلها الجهود نحو الثقافة والعلوم والآداب والازدهار الاقتصادي .

٢ ــ الاوضاع السياسية الداخلية :

أشرنا في الفقرة السابقة الى أن العصر العباسي الاول ، يمثل مرحلةالنضج السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للدولة العربية الاسلامية . وهذا ما كان عليه الواقع فعلا . غير ان ذلك لا يعني صفاء الجو وخلوه من عوامل الاضطراب والقلق ، اذ عانى الجو السياسي الداخلي ، للدولة العباسية ، من الكثير من حركات المعارضة ، التي اطلق عليها مؤرخونا القدامى في احيان كثيرة صفة « الثورة » مع أنها لا تمت الى مفهوم الثورة بصلة ، والافضل أن نطلق على هذه الحركات صفات أخرى مثل : هياج ، فتن ، تمرد ، عصيان مسلح ، حركة معارضة ، أو حتى مغامرات تعبر عن طموحات شخصية لا غير. وأشار كلودكاهن الى هذه الحقيقة ، اذ يرى ان أخبار هذه الاضطرابات ، الواردة في المصنفات التاريخية ، ينبغي ألا تتجاوز في قيمتها أكثر من كونها

---

٢٥ ــ المصدر السابق ، ١٤٩ ــ ١٥٠ .

أخبارا تفصيلية ، لا تعبر عن حقيقة الطابع العام الذي اتسم به هذا العصر • وبات حقيقة تاريخية أن يعد هذا العصر أجمل حقب الحضارة الانسانية بأسرها، ولم تكن هذه الاضطرابات سوى أزمة من أزمات النمو والاستقرار، والتوجهات المعارضة لذلك(٣٦) •

ومن تحليلنا للشكل رقم ـ١ـ ، نلحظ أن العباسيين وصلوا الى السلطة في ظروف بالغة التعقيد من الاضطراب والقلق السياسي • ففي السنوات الاولى من حكمهم اندلعت حركات معارضة واسعة النطاق في الشام مؤيدة للامويين(٢٧) • وحركات اخرى خارجية(٢٨) • وان خراسان نفسها وبلدان المشرق، عموما ، شهدت عددا من الحركات المعارضة للسلطة(٢٩) • وفي أرمينية اضطر المنصور للقيام بعدة عمليات عسكرية لتأكيد سلطة الدولة في هذا الاقليم ، عندما كان والياً على الجزيرة(٣٠) • ثم أن البيت العباسي نفسه لم يخل من الطامعين في السلطة ، فأعقب وفاة أبي العباس ، تمرد عبدالله بن علي وادعاؤه الخلافة(٣١) • وقام العلويون في هذه الفترة بحركة رئيسة قادها محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم مدعيين حقهما في الخلافة(٣٢) • كما أن مصر وشمال أفريقية عانتا من عدد من التمردات السياسية المسلحة مما اضطر العباسيين في هذه الظروف الحرجة الى ارسال جيش كبير الى شمال أفريقية لفرض النظام والاستقرار هناك(٣٣) • وفي أواخر مرحلة التأسيس هذه، كانت

---

٢٦ ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ٦٢ •
٢٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٣٣ ، ٤٤٦ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٥/٤٣٢، ٤٣٤ •
٢٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٩٥ •
٢٩ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥١٢ ، ابن الاثير ، ٥/٤٩٨ •
٣٠ ــ البلاذري ، أنساب الاشراف ، مخطوط ، ٣/٣٥ ب •
٣١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٧٦ •
٣٢ ــ المصدر السابق ، ٧/٥٥٢ •
٣٣ ــ ابن الاثير ، ٥/٤٤٨ ، ٥٨٦ ، ٥٩٨ ، ٦/١٠ ، الكندي ، الولاة والقضاة، ١٠٣ ، ١١٩ •

الاوضاع ، على العموم ، تسير نحو استقرار نسبي ، بفضل الجهود الهائلة التي بذلها الخليفة المنصور ورباطة جأشه وحنكته السياسية البالغة .

وفي المرحلة الثانية من العصر العباسي الاول ، أي فترة الازدهار ، شهدت الدولة العباسية عشر سنوات اولى من الاستقرار النسبي ، ويعود الفضل في ذلك طبعا الى جهود المنصور السابقة ، بيد أن الاوضاع أخذت تتباين وتختلف بعد ذلك وبوضوح . فالقلاقل السياسية المسلحة ، كانت تشتد تارة وتخف تارة أخرى . حتى بلغت الذروة من التصعيد في الفترة ١٩٧ــ٢٠٢ هـ / ٨١٣ــ٨١٨ م ويعود ذلك بشكل رئيس الى تخلخل اوضاع السلطة المركزية ، الناجمة عن الصراع السياسي الدامي بين الامين والمأمون ، الذي كان قد بدأ قبل ذلك بسنوات قليلة ، اي في عام ١٩٤ هـ / ٨٠٩ــ٨١٠م[٣٤] ، فاضطراب اوضاع السلطة المركزية قد شجع وفسح المجال لعدد من قوى المعارضة لان تمارس نشاطا سياسيا مسلحا واضحا ، فالفيانيون انتهزوا الفرصة وقاموا بتمرد[٣٥] . وكذلك الخوارج[٣٦] . ثم قام العلويون بتمردات متتابعة في هذه الفترة في القسم الجنوبي من العراق[٣٧] . كما ان شمال افريقية ومصر شهدتا تصعيدا ملحوظا في النشاط المعارض للسلطة المركزية[٣٨] . وفي هذه الفترة أيضا بدأ تحرك الخرميون[٣٩] الذين مضت عليهم سنوات طويلة قبل أن يتم القضاء على حركتهم[٤٠] . وفي الموصل نشبت

---

٣٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٣٧٤/٨ .
٣٥ ــ المصدر السابق ، ٤١٥/٨ .
٣٦ ــ المصدر السابق ، ٥٥٨/١٨ .
٣٧ ــ المصدر السابق ، ٥٣٤/٨ ، ٥٣٥ ، ٥٤٤ ، ٥٥٨ .
٣٨ ــ ابن الاثير ، ٢٣٥/٦ ، ٢٦٩ ، الكندي ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٦٨ .
٣٩ ــ الخرمية : حركة اشتق اسمها من الكلمة الفارسية (خرم) ومعناها (مقبول) ، على اساس ان اتباعها يعدون كل مقبول جائز شرعا . غير ان الارجح ان هذا الاسم مشتق من خرم وهي ناحية باردبيل ، ولعل الفرقة نشأت فيها . للتفاصيل انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ٢٩٩/٨ .
٤٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٥٦/٨ .

فتن متعددة[٤١] . وكذلك الحال في أرجـــاء اخـرى من الدولة، فضلا عن الصدامات المسلحة الدامية تين قوات الاخوين الامين والمأمون[٤٢] .

استمرت اوضاع الاضطراب هذه متواصلة حتى نهاية مرحلة الازدهار ، وبذلت السلطة المركزية ما في وسعها لانهاء هـذه الاوضاع المتردية ، حتى شهدت الفترة التالية تحسنا نسبيا في الاوضاع السياسية الداخلية للدولة . وربما يثير هذا تساؤلا مشروعا، وهو أن الفترة التي شهدت بداية تدهور العصر العباسي الاول،كيف تشهد هذا النوع من الاستقرار السياسي الداخلي نسبيا؟ وهنا يمكننا أن نقول : ان جهود المأمون والقبضة الحديدية للمعتصم ،أسهمت في تسكين حدة الاضطراب ، بحيث ان القوى التي طالما اسهمت في خلق هذه الاجواء ، لم تجد في نفسها القدرة على اثارة تمردات جديدة، وعلى الرغم مما شهدته هذه المرحلة من ضعف نسبي في السلطة المركزية قياسا الى خلفاء مثل المنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم . فان أبرز ما شهدته هذه المرحلة تمثل بالصراع العنيف مع حركـــة بابك الخرمي[٤٣] . وظهرت فتن أخرى متناثرة في خراسان[٤٤] . واذربيجان[٤٥] وشمال أفريقية[٤٦] أيضا .

ان هذه الاضطرابات التي شهدها العصر العباسي الاول ، كمنت وراءها **الدوافع الآتية :**

١ ـ سوء الادارة :

مثّل هذا السبب دافعا رئيسا لعدد من الاضطرابات التي قامت فيأرجاء مختلفة من الدولة . ويبدو ان معظم هذه الاضطرابات كانت في مصر ، ففيعام

---

٤١ ـ ابن الاثير ، ٦/ ٣٠٠، ٣١٧ .
٤٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/ ٣٩٠ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥ .
٤٣ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/ ١١ ، ٢٣ ، ٣١ .
٤٤ ـ المصدر السابق ، ٩/ ٧ .
٤٥ ـ المصدر السابق ، ٩/ ١٠٢ ، ١٦٤ .
٤٦ ـ ابن الاثير ، ٧/ ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٤ .

١٨٦ هـ/٨٠٠م انتفض أهل الحوف في مصر ، لان المكلفين بمسح الاراضي الزراعية أنقصوا من المقياس بضع أصابع، بغية زيادة ما يفرض على الارض من ضريبة[٤٧] . وفي عام ١٩١هـ/٨٠٦ـ٨٠٧ م امتنع أهل الحوف أيضا ، عن اداء الخراج[٤٨]. وكان الدافع وراء تمرد الاقباط في عام ٢١٤هـ/٨٢٩ـ٨٣٠م هو الضرائب[٤٩] . وفي عام ٢١٦ هـ/٨٣١ـ٨٣٢ م اضطرب العرب والاقباط في مصر بسبب سوء الادارة[٥٠] . ويبدو ان معظم تمردات الاقباط كانت بسبب الضرائب[٥١] . وفي عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ـ٨٢٦ م لم يلب المأمون طلب أهل قم في تخفيف الضرائب عنهم مما أدى الى اضطرابهم[٥٢] . وفي عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ـ٧٦٣ م ، تمرد السودان في المدينة المنورة بسبب سوء الادارة[٥٣] .

٣ ـ **الدوافع السياسية :**

تمثلت أبرز الحركات ، ذات الدوافع السياسية، بالحركات المناصرة للامويين، وحركات العلويين والخوارج أيضا. ففي مطلع قيام الدولة العباسية، واجهت السلطة المركزية عددا من الحركات المناصرة للامويين[٥٤] . وفي فترة الاضطراب بين الامين والمأمون ، ظهرت في الشام حركة السفياني المنتظر[٥٥]. وهي حركات كانت تدعو الى عودة الامويين الى الحكم . أما ابرز حركات العلويين فقد تمثلت في حركة محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم في عام

٤٧ ـ الكندي ، ١٤٠ .
٤٨ ـ المصدر السابق ، ١٤٣ .
٤٩ ـ لومبار ، الاسلام في مجده الاول ، ٣٧ .
٥٠ ـ الكندي ، ١٩٠ ، المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ١/٧٩ .
٥١ ـ سيدة إسماعيل كاشف ، مصر في عصر الولاة ، ١٣١ .
٥٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦١٤ .
٥٣ ـ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ٦/١٩ .
٥٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ .
٥٥ ـ المصدر السابق ، ٨/٤١٥ .

١٤٥هـ/٧٦٢-٧٦٣م[٥٦] . وفي عام ١٦٩ هـ/٧٨٥-٧٨٦م قامت حركة الحسين بن علي بن الحسن في فخ[٥٧] . وفي عام ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م ظهرت حركة علوية اخرى في الطالقان[٥٨] وهدفت حركات العلويين الى نقل الخلافة اليهم[٥٩] . وكانت للخوارج حركات امتدت من مشرق العالم الاسلامي حتى مغربه[٦٠] . وتقوم حركاتهم على أساس مبادىء متطرفة ، فكانت من أكثر الحركات عنفاً .

٣ ـ الدوافع الشعوبية[٦١] والانفصالية :

وتقف هذه الدوافع وراء معظم الحركات التي قامت في بلاد فارس واذربيجان ، كما هدفت الى ادخال مفاهيم الديانات الايرانية القديمة الى الاسلام ، ووقف هؤلاء الى جانب كل والٍ متمرد على السلطة المركزية ، وعارضوا في الوقت نفسه كل والٍ سعى الى تدعيم السلطة المركزية هناك . وانظموا أيضا الى كل حركات المعارضة السياسية والدينية بهدف اضعاف

---

٥٦ ـ المصدر السابق ، ٧/٥٥٢ .
٥٧ ـ المصدر السابق ، ٨/١٩٢ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، ٦/٩٩ .
٥٨ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٧ .
٥٩ ـ انظر رسالة محمد النفس الزكية التي وجهها الى المنصور : المصدر السابق ، ٧/٥٧٦-٥٧٨ .
٦٠ ـ المصدر السابق ، ٧/٤٦٢ ، ٤٩٥ ، ٨/١٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣٢٢ ، ٥٥٨ ، الازدي ، تاريخ ، ٣٩٥ ، ابن الاثير ، ٦/٧٨ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٠/١١٠ .
٦١ ـ الشعوبية : فرقة تأبى على العرب دورهم الحضاري وتفضل الاعاجم عليهم وتصغر من شأنهم ودورهم التاريخي (ابن منظور ، ١/٥٠٠) وبدأت الحركة في اواخر العصر الاموي ، ونشطت بشكل بارز في العصر العباسي الاول ، معبرة عن محاولاتها لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة ، ولما كان سلطان العرب يستند الى الاسلام ، فان بعض الشعوبيين استهدف حتى مهاجمة الاسلام .
عبدالعزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ٩ . ـ فاروق عمر ، مباحث في الحركة الشعوبية ، بغداد ، ١٩٨٧ .

نفوذ السلطة المركزية هناك[٦٢] . واستلهم هؤلاء المتمردون فكرهم الديني في الديانات والهرطقات الايرانية القديمة ، وخاصة المزدكية[٦٣] ، فتعاليم مزدك بقيت عالقة في أذهانهم ، ولعبت دورا أساسيا في تكوين مجموعة من حركات المعارضة الدينية في أواخر العصر الاموي واستمرت خلال العصر العباسي الاول[٦٤] .اذ وجدوا في هذا العصر فرصة سانحة لاظهار نحلهم القديمة[٦٥] . كما عمد هؤلاء الى الزندقة[٦٦] لمحاربة الاسلام ونشطوا في سبيل تمجيد العنصر الفارسي والحط من العرب[٦٧] . ويمكن أن نضع الخرمية ضمن هذا الاطار أيضا ، والتي اختلطت بأهداف قومية وشعوبية ودينية ايرانية ، لاحياء أمجادهم القديمة[٦٨] . ومن أبرز الحركات التي مثلت هذه التوجهات

---

٦٢ ــ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ١/١٨٨ ، عبدالعزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ١٠ .

٦٣ ــ المزدكية : وتنسب الى مزدك الذي ظهر في ايام قباذ والد انوشروان . وتقوم المزدكية على الثنوية في الاشياء ، مثل الكونين والاصلين ، ويرى مزدك ان النور يفعل بالقصد والاختيار وان الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق . وكان ينهى الناس عن الاختلاف فيما بينهم وترك المباغضة والقتال . ولما كان ذلك يحدث بسبب النساء والاموال ، لذا فانه أحل النساء وأباح الاموال ، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والكلأ ومن اتباعه فيما بعد الابومسلميه ، وظهرت امثال هذه الحركات في ايران .
الشهرستاني ، الملل والنحل ، ٢/٨٦-٨٧ . مطبوع على هامش كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم الاندلسي .

٦٤ ــ برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، ١٤٢ .

٦٥ ــ محمد جمال الدين سرور ، الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ، ١٨٤ .

٦٦ ــ الزندقة : حركة اعلنت معارضتها للاسلام باتجاه هدمه ، مستندة الى اسس فكرية مناقضة له ، تقوم على المفاهيم والديانات الايرانية القديمة . وهي أحدى واجهات الحركة الشعوبية .
عبدالله سلوم السامرائي ، الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية ، ٧٩ .

٦٧ ــ عبدالعزيز سالم ، ٨ .

٦٨ ــ عبدالمنعم ماجد ، العصر العباسي الاول ، ٤٠ .

حركات : الراوندية[٦٩] واستاذ سيس[٧٠] والمقنع الخراساني[٧١] والخرمية[٧٢] .

٤ ـ الدوافع الشخصية :

ولعل أبرز حركة في هذا المجال ، هي حركة عبدالله بن علي[٧٣] وكان ذا طموح شخصي تمثل في رغبته وسعيه للوصول الى الخلافة ، مدعيا أحقيته بها . وربما كان لوفاة الخليفة ابي العباس المفاجئة ، وامتلاك عبدالله بن علي قوة عسكرية كبيرة ومدربة الدور الرئيس في اثارة هذه الطموحات من مكمنها ، معتقدا أنها الفرصة المناسبة لتحقيق مآربه[٧٤] .

يمثل الشكل رقم ـ٢ـ التوزيع الجغرافي الكمي للاضطرابات السياسية المسلحة في أرجاء الدولة العباسية ، وقد عمدنا الى تقسيم الدولة الى خمسة أقاليم رئيسة عامة هي :

١ ـ السواد .
٢ ـ الشام والجزيرة والموصل .
٣ ـ شبه جزيرة العرب .
٤ ـ مصر وشمال فريقية .
٥ ـ بلاد فارس والمشرق .

وبعملية احصائية تتضح النتائج الآتية :

ان بلاد فارس والمشرق حظيت بأعلى نصيب من الاضطرابات السياسية

---

٦٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٥٠٥ .
٧٠ ـ المصدر السابق ، ٨/٢٩ .
٧١ ـ المصدر السابق ، ٨/١٣٥ .
٧٢ ـ المصدر السابق ، ٨/٢٣٩ .
٧٣ ـ المصدر السابق ، ٧/٤٧٤ .
74 — Tuqan, Abdallah Ibn Ali, P. 21.

المسلحة المعارضة للسلطة المركزية ، وتليها الشام والجزيرة والموصل ، ثم مصر وشمال افريقية ، بعد ذلك السواد وتليه شبه جزيرة العرب .

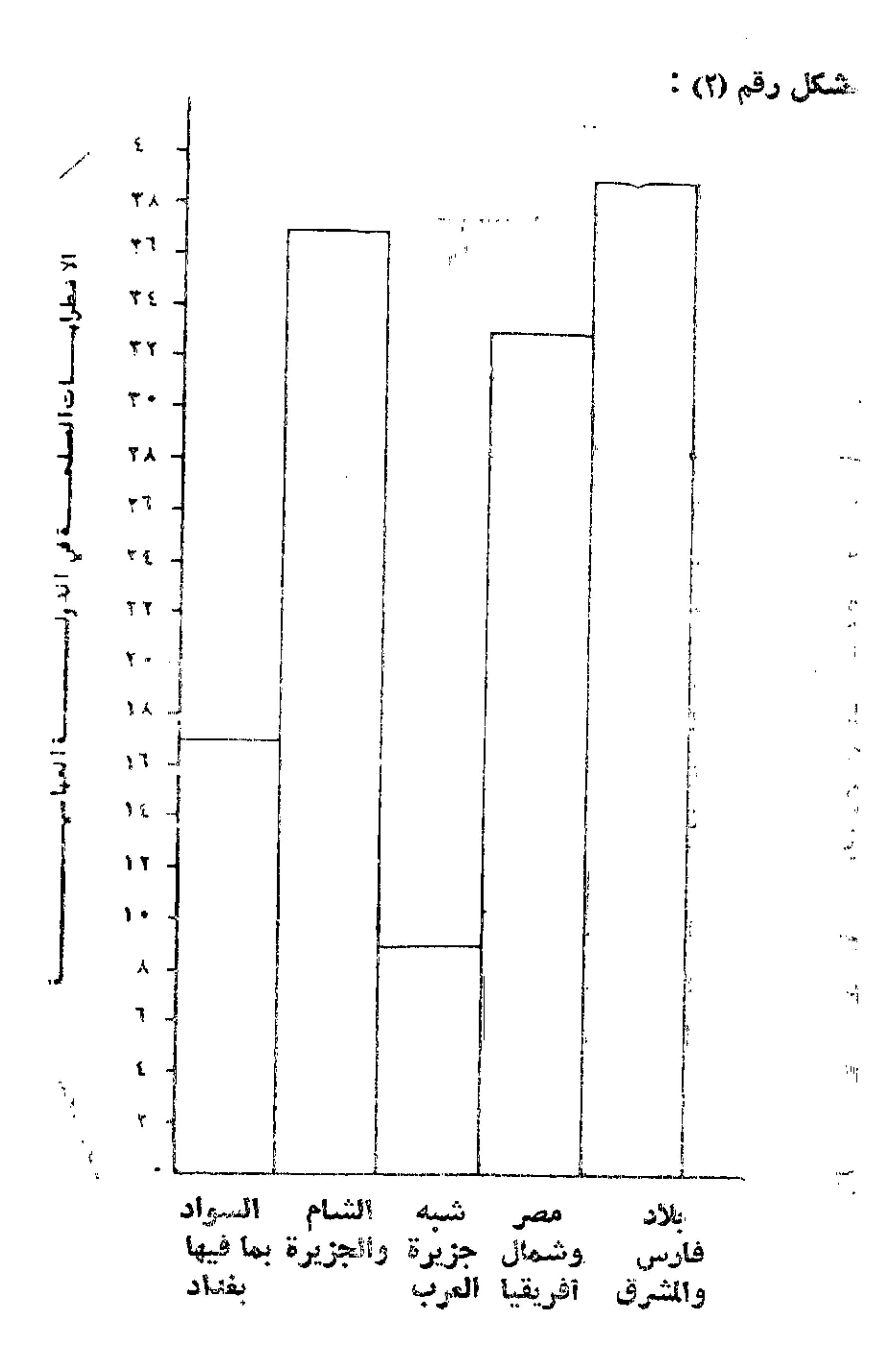
وتكمن وراء هذه النتيجة الاحصائية أسباب عدة ، فبالنسبة لايران والمشرق ، فانها كانت مهدا للحركات الشعوبية والانفصالية ، والتي عملت بدأب للانفصال عن جسم الدولة العربية الاسلامية . وتمكنت هذه الحركات بالفعل من تحقيق غايتها في المراحل التاريخية اللاحقة . ولهذا السبب نفسه فان المتمردين الآخرين ، وجدوا في هذا الاقليم مرتعا خصبا لتنفيذ تطلعاتهم بالتمرد على الدولة ، ووجدوا فيه أيضا الدعم والتأييد ، من أجل هدف مشترك هو اضعاف السلطة المركزية .

ومن العوامل المهمة في كثرة الاضطرابات في ايران ذلك الوعي السياسي الذي خلقته الثورة العباسية في سكان تلك المنطقة ، اذ ان هذه الثورة نمت وتطورت واندلعت من هناك ، فكان لابد أن تترك أثرا بيناً في النشاط والوعي السياسي في هذه المنطقة الذي انعكس بدوره في الحركات والاضطرابات التي نشبت هناك . هذا فضلا عن خيبة أمل سكان هذه المنطقة في الثورة العباسية . اذ أن هذه الثورة اتبعت تكتيكا بارعا زرع لدى العديد من الفئات احساسا بأن الثورة تعمل لمصلحتهم . لذا فان سكان ايران عندما أحسوا بخيبة الامل هذه عبروا عن استنكارهم لذلك بالعديد من حركات المعارضة[٧٥] .

أما فيما يتعلق بالشام والجزيرة والموصل ، فان الشام بقيت لفترة طويلة على ولائها للامويين وبانتظار مقدم السفياني المنتظر . وأما الجزيرة والموصل ، فقد كانتا مرتعا للحركات الخارجية الناشطة . وهنا يجب ألا ننسى النتيجة الخطيرة التي ترتبت على هذا الاندلاع الخطير للاضطرابات في الشام والجزيرة والموصل ، اذ شكلت هذه المناطق الظهير المباشر لمناطق الثغور والتخوم مع

٧٥ ــ فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت ، ١٩٧٠ ، الفصل الثاني .

شكل رقم (٢) :



التوزيع الجغرافي للاضطرابات الداخلية في الدولة العباسية

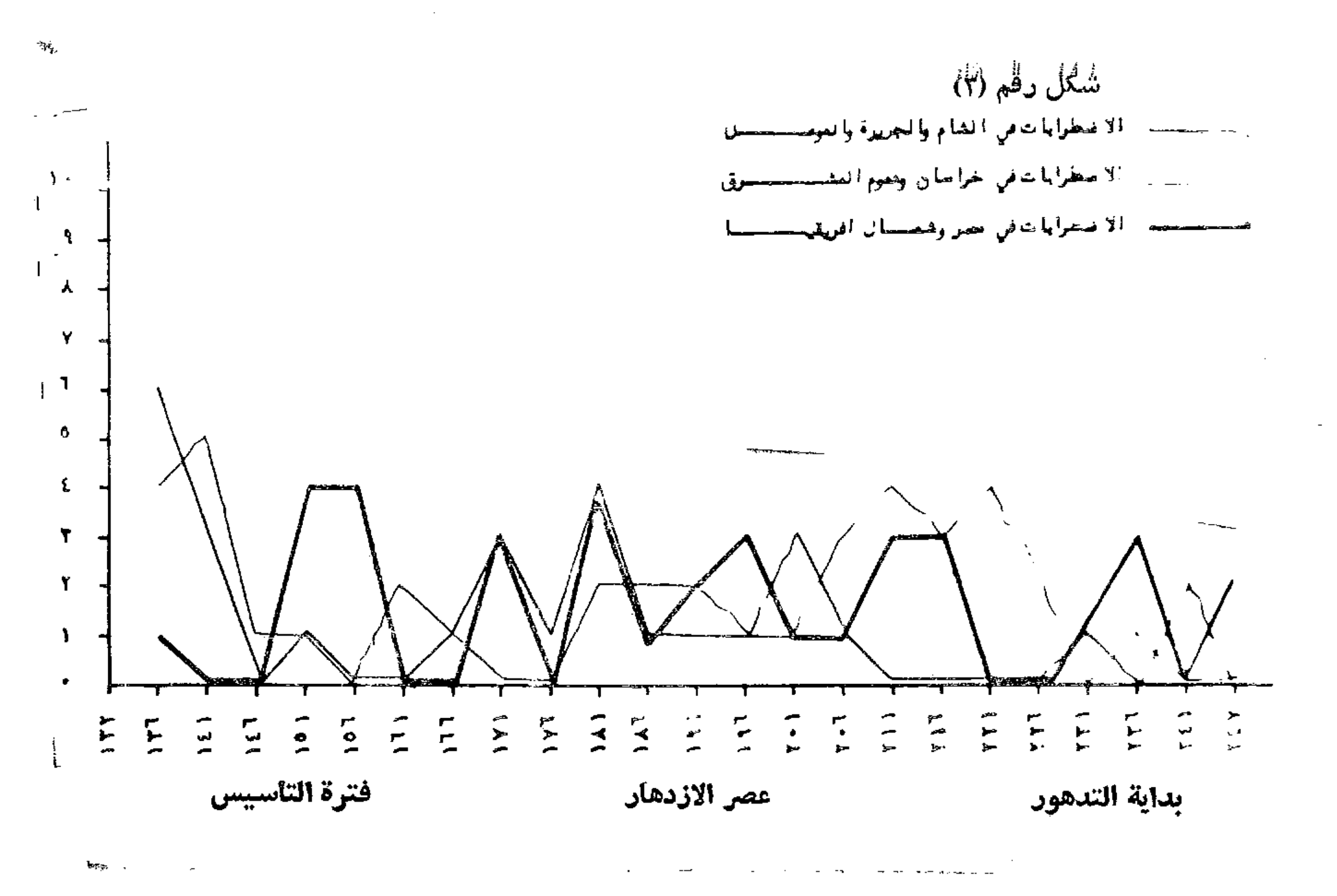
البيزنطيين • ويعني هذا ، بالنتيجة ، أن الامدادات السـريعة المباشـرة التي يفترض وصولها بسرعة ، من هذا الظهير الى مناطق التخوم ، عنـد تعرضها للخطر البيزنطي ، كانت معرضة دائما لعدم الانتظام بسبب هـذه الاوضاع المضطربة وانشغال السلطات المعنية باخمادها •

أما فيما يتعلق بمصر وشمال أفريقية ، فان معظم الفتن التي اندلعت في مصر قام بها الاقباط وفي بعض الاحيان العرب أيضا ، ويبدو ــ كما ذكرنـا سابقا ــ ان سوء الادارة كان السبب الاساس في اندلاع هذه الاضطرابات• ويبدو أيضا ان عدم تحسن هذه الاوضاع، كان السبب في استمرار اندلاعها• أما شمال أفريقية ، ففضلا عن كونه بعيدا عن السلطة المركزية ونفوذها ، فقد أصبح هو الآخر مرتعا لحركات الخوارج ، والتي نشطت في سـبيل تكوين دويلات خاصة بها هناك •

ان هذه الاقاليم الثلاث ، حققت أعلى نصيب من الاضطرابات المسلحة • أما المنطقتان الاخريان ــ السواد وشبه جزيرة العرب ــ فقد كانتا الاقل في هذا المجال • ولم يكن الفقر الاقتصادي والسكاني لشبه جزيرة العرب يسمح لها بظهور مثل هذه الحركات ، حيث يمكن محاصرتها وخنقها بسهولة ويسر• وهذا عين ما حصل مع حركة محمد النفس الزكية • فضلا عن ذلك فان هـذه المنطقة أصبحت شبه ميتة سياسيا ، منذ أن خرج منها مقر الحكم الى الشام ، ولم يبق منها سوى طابعها الديني المقدس المتمثل بوجود مكة والمدينة •

أما بخصوص السواد ، فان وجود مقر السلطة المركزية فيه ، مكنها من الاشراف الدقيق والمباشر عليه ، وضبط أوضاعه وعدم السماح لاي اضطراب بالنشوب فيه ، لا سيما ان اراضيه هي المصدر الرئيس لواردات بيت المال • وعليه فانه لابد أن يكون مستقرا على الدوام حفاظا على هذه الواردات•

ويظهر الشكل رقم ــ٣ــ التغيير التاريخي للاضطرابات المسلحة للاقاليم الثلاثة الرئيسة • ففي بلاد فارس والمشرق ، اللتين بقيتا مضطربتين لفترة طويلة


شكل رقم (٣)
الاضطرابات في الشام والجزيرة والموصل
الاضطرابات في خراسان وعموم المشرق
الاضطرابات في مصر وبلدان افريقيا
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
٢
١
٠
١٣٢
١٣٦
١٤١
١٤٦
١٥١
١٥٦
١٦١
١٦٦
١٧١
١٧٦
١٨١
١٨٦
١٩١
١٩٦
٢٠١
٢٠٦
٢١١
٢١٦
٢٢١
٢٢٦
٢٣١
٢٣٦
٢٤١
٢٤٧
فترة التأسيس
عصر الازدهار
بداية التدهور

من الزمن ، ظهرت عدة تصعيدات للاضطراب المسلح ، لكنها في أواخر العصر العباسي الاول ، مالت الى الهدوء نسبيا ، وربما عاد ذلك الى ظهور الطاهريين وتشكيلهم لسلالة حاكمة في خراسان ، أشبعت بعض طموحات هؤلاء الانفصالية •

أما الشام والجزيرة والموصل ، فقد شهدت في السنوات الاولى من العصر العباسي الاول تصعيدا مستمرا للاضطراب المسلح المناوىء للعباسيين ولصالح الامويين، بيد أن هذا التصعيد أخذت تخف حدته تدريجيا في أواخر العصر العباسي الاول• وربما عاد ذلك الى اليقين التام بأن بني أمية لن يعودوا الى السلطة ثانية • أما فيما يخص مصر وشمال أفريقية ، فقد كانا هادئين نسبيا في مطلع العصر العباسي الاول ، الا أنهما عانيا من اضطرابات متزايدة على الدوام طوال بقية هذا العصر ، ويبدو ان دوام عوامل الاضطراب ، قد أسهم في استمرارها •

ترتب على هذه الاوضاع المضطربة ، نتائج سلبية انعكست على طبيعة العلاقة بين العباسيين والبيزنطيين ، وحدّت من نشاطهم العسكري في بعض الاحيان • على أنه في أحيان أخرى لم يكن لها تأثير كبير • وبتحليلنا للشكل رقم ــ٤ــ نخلص الى النتائج الآتية :

١ ــ فيما يتعلق بفترة التأسيس ، فلأن الخلفاء الجدد كانوا منهمكين بتوطيد وجودهم في السلطة بالقضاء على كل أشكال المعارضة والاضطراب المسلح ، لذا نجد ان عمليات العباسيين العسكرية مع البيزنطيين كانت معدومة في أول الامر، بيد أنها أخذت وتيرة متصاعدة مع بدايات انحسار الاضطرابات المسلحة •

ومكنت هذه الحالة الامبراطورية البيزنطية من ممارسة نشاط عسكري عدائي منذ البداية ، الا أن هذا النشاط أخذ ينحسر مع تصاعد النشاط العسكري للعباسيين أولا ، وبانحسار الاضطرابات الداخلية ثانيا •

٣ ـ فيما يخص **فترة الازدهار** ، فانها تنشطر الى مرحلتين :

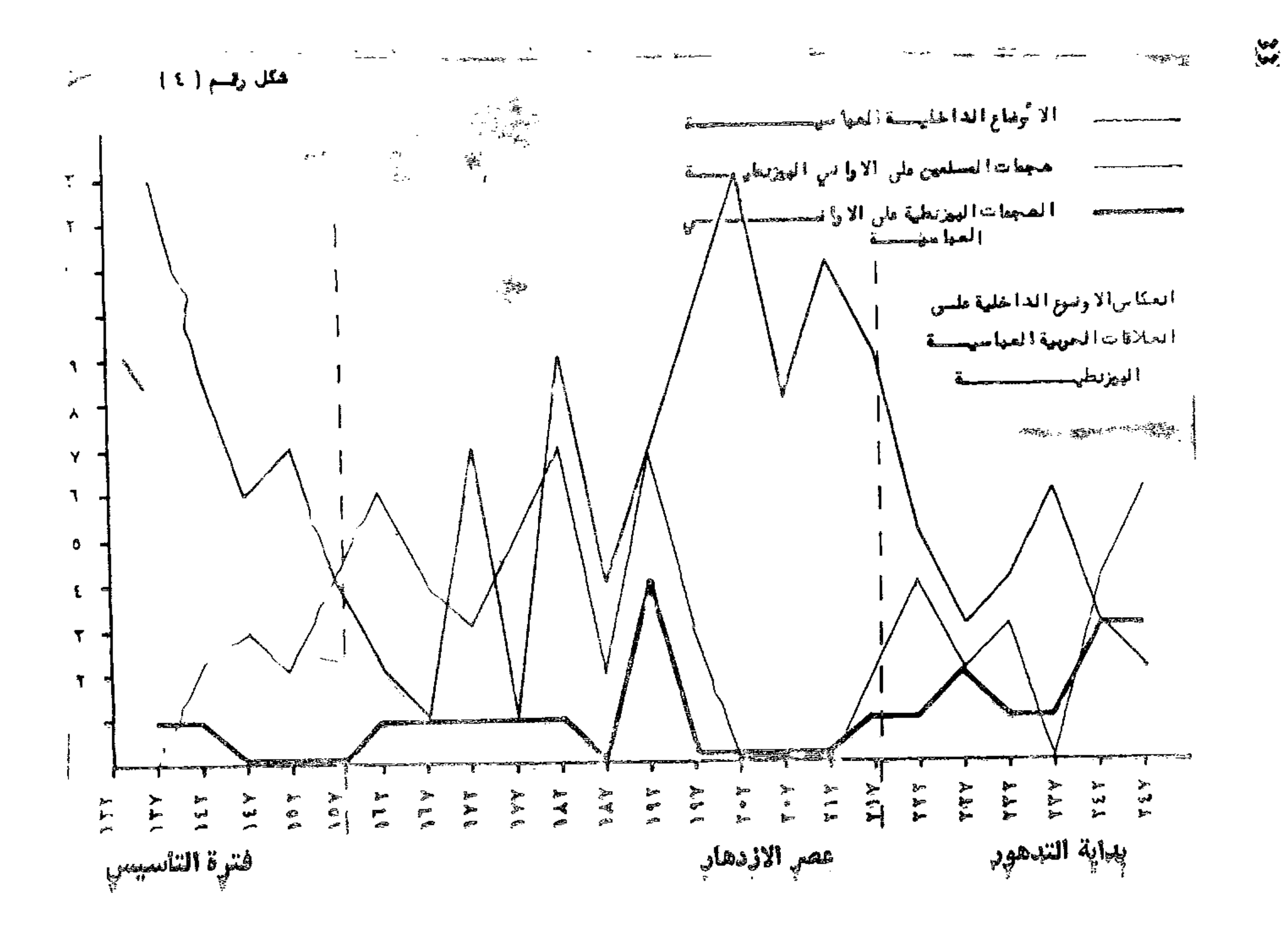
أ ـ المرحلة **الاولى بين عامي ١٥٨ـ١٩٣هـ/٧٧٥ـ٨٠٩م** التي تراوحت بين تصعيد التمردات المسلحة وبين فتورها،بيد أن الشاط العسكري العباسي تجاه البيزنطيين كان متصاعدا على الدوام، حتى في فترات الاضطراب الداخلي، مما يعبر عن متانة الدولة وقوتها وقدرتها على مواجهة خطرين في آن واحد ـ الخطر الداخلي والخطر الخارجي ـ وفي الوقت نفسه فان نشاط البيزنطيين العسكري تجاه الدولة العباسية بلغ ذروته في هذه المرحلة ، حيث انتقلت الامبراطورية البيزنطية من هدوء نسبي في نشاطها العسكري في مناطق التخوم ، استغرق معظم هذه الفترة الى التصعيد الحاد في السنوات ١٨٧ـ١٩٢هـ/٨٠٢ـ٨٠٨ م • ويبدو ان لوجود الامبراطور نقفور في الحكم في هذه الفترة دورا أساسيا في هذا التصعيد •

ب ـ المرحلة الثانية بين عامي ١٩٣ـ٢١٨ هـ / ٨٠٩ـ٨٣٣ م • ومثلت فترة الصراع الدامي بين الامين والمأمون وما ترتب عليه من نتائج ، تزامن معه تصعيد حاد للفتن الداخلية • مما جعل الدولة العباسية مشلولة وغير قادرة على القيام بنشاط عسكري جاد ، عدا ما حدث في أواخر هذه الفترة ، اذ قاد المأمون بنفسه العمليات العسكرية على الاراضي البيزنطية •

أما الامبراطورية البيزنطية فانها لم تتمكن من استثمار الاوضاع المضطربة في الدولة العباسية بنطاق واسع، بل اكتفت بتقديم العون لحركة بابك الخرمي ـ وهو ما سنأتي على تفصيله لاحقا ـ • وعلى العموم فان الامبراطورية البيزنطية لم تقم بنشاط عسكري جاد في مناطق التخوم ، وسببه التأزم الحاد في علاقة الامبراطورية مع مملكة البلغار •

٣ ـ أما بخصوص الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول، التي شهدت هدوءا نسبيا في الاوضاع الداخلية ، قياسا الى المراحل السابقة فقد أسفر عنه تصعيد عسكري في مناطق التخوم ، اذ شهدت هذه الفترة سقوط عمورية

شكل رقم (٤)


الأوضاع الداخلية العباسية
هجمات المسلمين على الأراضي البيزنطية
الهجمات البيزنطية على الأراضي العباسية
انعكاس الأوضاع الداخلية على العلاقات الحربية العباسية البيزنطية
فترة التأسيس
عصر الازدهار
بداية التدهور

على يد المعتصم • أعقبه حملات متتالية من قبل ولاة مناطق التخوم ، لم يكن فيها للسلطة المركزية دور كبير • أما الجانب البيزنطي ، فقد نشط في عملياته العسكرية في مناطق الثغور ، بعد تحسن علاقاته مع البلغار في هذه الفترة•

لقد كان لهذه الاضطرابات نتائج مباشرة وأخرى غير مباشرة على طبيعة العمليات العسكرية العباسية تجاه البيزنطيين • فمن بين تلك النتائج المباشرة: تعطيل النشاط العسكري للدولة ، فمثلا كان عبدالله بن علي متوجها الى مناطق التخوم للقيام بعمليات عسكرية ، وعندما كان بافواه الدروب علم بوفاة الخليفة أبي العباس ، فعدل عن توجهه الاول وعاد معلنا حقه في الخلافة[٧٦] • وكذلك لم تكن في عام ١٣٧هـ/٧٥٤ـ٧٥٥م صائفة لانشغال السلطة المركزية بقتال سنباذ[٧٧] • وكذا الحال في عام ١٣٩هـ/٧٥٦ـ٧٥٧م ، لانشغال أبي جعفر المنصور بأمر محمد وابراهيم ولدي عبدالله بن الحسن[٧٨] •

أما النتائج غير المباشرة لهذه الاضطرابات فيتمثل أهمها في :

أولا ــ استنزاف القدرة البشرية للدولة ، فقد استلزم الامر تجهيز جيوش كبيرة العدد ، لاخماد هذه القلاقل ، ففي عام ١٥٤هـ/٧٧٠ـ٧٧١م جهز المنصور جيشا بلغ تعداده نحوا من (٥٠) ألف جندي لحرب الخوارج في شمال افريقية[٧٩] • وكذا فعل الرشيد في عام ١٧٦هـ/٧٩٢ـ٧٩٣م حيث أرسل (٥٠) ألفا من الجنود حين اشتدت شوكة يحيى بن عبدالله بن الحسن في الديلم[٨٠] • وكان حرب بن عبدالله الريوندي يقيم في الموصل وتحت امرته ألفان من الجند تحسبا لتحركات الخوارج[٨١] • ومهما يكن من أمر هذه

---

٧٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٧٤ ، ابن العديم ، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، ١/٥٧ •

٧٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٩٦ •

٧٨ ــ المصدر السابق ، ٧/٥٠٠ •

٧٩ ــ المصدر السابق ، ٨/٤٤ •

٨٠ ــ ابن الجوزي ، المنتظم ، مخطوط ، ٩/١٨ أ •

٨١ ــ الذهبي ، ٦/٢٩ •

الارقام التي أوردتها المصادر التاريخية ، فإن هـذه الاضطرابات استنزفت الكثير من القدرات البشرية للدولة ، وعطلت جـزءا كبيرا آخر وحالت دون قيامه بدوره في مقاومة الاعداء •

ثانيا ــ استنزاف الموارد المالية للبلاد : وأخذ هذا الاستنزاف شكلين ، تمثل الاول بما تطلبه أمر تجهيز الجيوش واعدادها لاخمادهذه الاضطرابات• أنفق المنصور على الجيش الآنف الذكر مبلغا قدره (٦٣) مليون درهم[٨٢] • ويذكر عن مقدار ما أنفقته الدولة لاخماد تمرد بابك الخرمي، انه بلغ (٥٠٠) وقر من الدراهم أو أكثر[٨٣] • وعلى الرغم من أن هذه الارقام قد يكون فيها شيء غير يسير من المبالغة ، الا أنها على أية حال تعكس مدى ما تحملته الدولة من أعباء مالية في سبيل تحقيق الاستقرار الداخلي • ويمثل الشكل الثـاني لاستنزاف موارد البلاد ، في أن مناطق الاضطراب قد لا يصل منها الى بيت المال خراجها السنوي • اذ ذكر الازدي انه في عام ١٧٥هـ/٧٩١ــ٧٩٢م، كسر خراج الموصل بسبب اضطراب الاوضاع الناجم عن تحركات الخوارج ، فلم يصل الى بيت المال الا الربع لاحتجاج السكان بهذه العلة[٨٤] •

وثمة شكل آخر من أشكال الاضطراب شهدته الدولة العباسية ، تمثل في الصراع ــ الذي اتخذ أحيانا شكلا دمويا ــ داخل أجهزة الحكم العباسي• وكان لهذا الصراع وجهان : تمثل الاول بالنزاع داخل البيت الحاكم، والثاني بالصراع بين الخلفاء ووزرائهم وعمالهم •

وفيما يتعلق بالوجه الاول من النزاع ، شهدت الدولة العباسية حـالات متكررة ومتصاعدة في حدتها ، ولعل البداية كانت بتمرد عبدالله بن علي، أعقبه النزاع بين المنصور وولي العهد عيسى بن موسى ، حول ولاية العهد، حيث

---

٨٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٤٤ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، ٦/٨٧ .
٨٣ ــ مؤلف مجهول ، العيون والحدائق ، ٣/٣٨٩ .
٨٤ ــ تاريخ ، ٢٧٥ ــ ٢٧٦ .

بذل المنصور مجهودا كبيرا لنقل ولاية العهد الى ولده المهدي[٨٥] • ويبدو ان النزاع حول هذه المسألة قد رافق العصر العباسي الاول في معظمه • اذ كان الخلفاء يعمدون ، في أغلب الاحيان ، الى تعيين أكثر من ولي للعهد، الامرالذي تسبب في قيام نزاعات بين ولاة العهد هؤلاء • فسعى الهادي الى ابعاد أخيه الرشيد من ولاية العهد[٨٦] • ويبدو أنه دفع حياته ثمنا لذلك[٨٧] • وتصاعد هذا النزاع بشكل حاد ودموي باشتداد الازمة بين الامين والمأمون ، واستمرت طوال حكم الامين[٨٨] • وقد أشرنا آنفا الى النتائج التي ترتبت على هـــذا النزاع بين الاخوين •

أما أبرز الحالات التي شهدها الوجه الثاني من النزاع ، تمثلت بالصراع بين المنصور وأبي مسلم الخراساني ، حيث كانت بينهما منافسة حول الزعامة والامساك بزمام الامور ، وبرهن على ذلك تصرفاته تجاه المنصور عندما كان ولياً للعهد ، متجاهلا ما كان يحتله ـــ المنصور ـــ من مكانة سياسية مبرزة ، الا أن أبا مسلم لم يكن ليعبأ بكل ذلك[٨٩] • فطبيعة الصراع بين الاثنين تعود أساسا لاسباب سياسية موضوعها النزاع حول السلطة والنفوذ[٩٠] • وكان الثمن المتوقع هو رأس أبي مسلم • أعقب ذلك وفي خلافة الرشـيد ، قضائه على نفوذ البرامكة المتعاظم ، وكان الثمن أيضا ، رأس جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي والايقاع ببقية أفراد الاسرة[٩١] • وكانت وراء هذه الخطوة أسباب سياسية تمثلت في تعاطف البرامكة مع يحيى بن عبدالله بن الحسن وموسى بن

---

٨٥ ـــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٩ـ٢٥ •
٨٦ ـــ المصدر السابق ، ٨/٢٠٧ـ٢١٣ •
٨٧ ـــ المصدر السابق ، ٨/٢٠٥ ـــ ٢٠٧ •
٨٨ ـــ المصدر السابق ، ٨/٣٧٤ـ٣٧٨ •
٨٩ ـــ حسين فاضل زعين العاني ، سياسة المنصور الداخلية والخارجيـــة ، ١٦٤ •
٩٠ ـــ المرجع السابق ، ١٩١ •
٩١ ـــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٨٧ •

جعفر ، متجاهلين ومخالفين تعليمات الرشيد بهذا الصدد مما ولد لديه شكاً بنياتهم[٩٢] . كما أن للميول الايرانية للبرامكة ، التي أظهروها في مناسبات عدة ، دورا في القضاء عليهم[٩٣] .

ومن ظواهر النزاع الاخرى ، الصراع بين الخليفة المتوكل والقادة الاتراك[٩٤] . اذ اتخذ المتوكل جملة من الاجراءات للتخلص من نفوذ وسطوة هؤلاء القادة . وايقاف حالة التدهور وبدايات ضمور دور الخلفاء العباسيين في الحياة السياسية للبلاد . فبعد فترة من توليه الخلافة أقصى المعتزلة بانهائه الجدل في خلق أو قدم القرآن[٩٥] . وكان هدفه من ذلك اكتساب شعبية وتأييد من عامة الناس الذين كانوا لا يتعاطفون مع المعتزلة[٩٦] . كما أنها كانت، في الوقت نفسه ، ضربة للاتراك الذين حظوا بتأييد المعتزلة[٩٧] . ان خطوته هذه كانت سياسية أكثر منها دينية . وفي عام ٢٣٥هـ/٨٤٩ـ٨٥٠م تخلص من إيتاخ [٩٨]. وفي العام نفسه قسم الدولة بين اولاده الثلاثة لتأكيد سيطرته على البلاد[٩٩] . وفي عام ٢٤٣هـ / ٨٥٧ـ٨٥٨ م توجه المتوكل الى دمشق ليجعلها عاصمة له[١٠٠] . حتى يكون بعيدا عن تأثير ونفوذ هؤلاء القادة ، وقرر أن يجعل مقامه فيها وينقل اليها الدواوين[١٠١] . وفي عام ٢٤٥هـ/

---

٩٢ ــ عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الاول، ١٦٨ــ١٦٩ .
٩٣ ــ المرجع السابق ، ١٧١ ــ ١٧٢ ، فازيليف ، العرب والروم ، ١١ .
٩٤ ــ انظر : فاروق عمر ، نظرات في سياسة الخليفة العباسي المتوكل ، بحث منشور .
٩٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٩٠ .

96 — Bahjat Kamil Al-Tikriti, The Religious Policy of Al-Mutawakkil Ala Allah Al-Abbasi, PP. 35-54.

97 — Ibid, P. 49.

٩٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٦٩ وما بعدها .
٩٩ ــ المصدر السابق ، ٩/١٧٦ .
١٠٠ ــ المصدر السابق ، ٩/٢٠٩ .
١٠١ ــ المصدر السابق ، ٩/٢١٠ .

٨٥٩ــ٨٦٠ م بنى الجعفرية.[١٠٢] لتكون عاصمته بعد فشل الخطوة السابقة، مبتعدا عن نفوذ القادة . أما في عام ٢٤٧ هـ/٨٦١ــ٨٦٢ م عمل المتوكل على سحب الامتيازات الاقتصادية من هؤلاء القادة.[١٠٣] لاضعـــاف نفوذهم الاقتصادي ، الامر الذي يؤدي الى الايقاع بينهم وبين جندهم . اذ أن اقطاعات القادة كانت مورد دفع مرتبات هؤلاء الجند ، وسحب هذه الاقطاعات ، يعني عدم قدرة القادة على الدفع مما يبعد جندهم عنهم . وبذلك تحـين للمتوكل الفرصة ليضرب ضربته . أعقب ذلك تخطيطه لقتل هؤلاء القادة والتخلص منهم نهائيا[١٠٤] . وكان المتوكل قد أسس فرقة عسكرية مكونة من جماعات عرقية عديدة ، لتحقيق التوازن بين أفرادها الذين تراوح عددهم بين عشرة آلاف في رواية وخمسة آلاف في رواية أخرى ، ومهمتها تصفية القادة الاتراك والتخلص منهم[١٠٥] . بيد أن هؤلاء القادة أدركوا أبعاد تحركات المتوكل فانقضوا عليه قبل أن يتمكن منهم .

ان مظاهر النزاع ، آنفة الذكر ، كان لا بد لها أن تترك أثرا وانعكاسا على النشاطات السياسية والعسكرية للسلطة المركزية ، فطالما شغلت هـذه النزاعات الخلفاء وعطلت جهودهم سياسيا وعسكريا .

٣ ــ نظرة في اقتصاديات الدولة :

مثّل العصر العباسي الاول مرحلة متقدمة جدا من الازدهار الاقتصادي، الذي اتخذ أشكالا عدة ، مثلتها ، ارتفاع المستوى المعاشي للافراد في مختلف المستويات . واستثمار الاموال استثمارا واسعا في المجالات الزراعية والتجارية، الامر الذي عكس صورة زاهية عن ازدهار اقتصادي متنام ومتصاعد الوتائر.

١٠٢ ــ المصدر السابق ، ٢١٢/٩ .
١٠٣ ــ المصدر السابق ، ٢٢٢/٩ .
١٠٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٢٢٥/٩ .
١٠٥ ــ المصدر السابق ، ٢٢٩/٩ .

وترك لنا أحد المؤرخين صورة واضحة لتحسن أوضاع عامة الناس ، تمثلت في رخص الاسعار رخصا ملحوظا ، مما يدلل على طبيعة التوفر الواسع للسلع والبضائع(١٠٦) . وهو بدوره انعكاس لازدهار الانتاج الزراعي ــ النباتي والحيواني ــ والنشاط التجاري أيضا . حيث تضافرت هذه الانشطة لتوفير هذا العرض الكبير للسلع .

وعلى الرغم مما كان للعوامل الخاصة بهذه المرحلة من دور مهم في خلق هذا الازدهار ، وهو ما سنأتي عليه تباعا ، فان هناك عوامل رئيسة أسهمت اسهاما كبيرا في خلقه . وأسهم لومبار بدور أساس في تحديد هذه العوامل وهي :

اولا :

ظهور المدن الكبيرة وازدهار العمران فيها . اذ تحولت المدن الصغيرة الى مدن كبيرة ، إما عن طريق الهجرة أو الزيادة الطبيعية في السكان بارتفاع معدل الولادات . وأدى هذا النمو الى ازدياد كبير في الطلب على السلع ، كما ونوعا(١٠٧) . وكان الاقبال على الاستهلاك أهم الخصائص التي نما في ظلها الانتاج الاقتصادي(١٠٨) . وترتب على هذه الخصيصة نشاط كبير لاستثمار أقصى ما يمكن استثماره من عوامل الانتاج الهادف الى تلبية الطلب المتزايد على السلع الاستهلاكية وتحقيق أعلى ربح ممكن أيضا .

ثانيا : حركة الذهب :

ففي الفترة التي سبقت حركة التحرر العربي ، شهدت حركة الذهب توجها متزايدا نحو الشرق ، واستنزفت هذه الحركة معظم ذهب غرب البحر

---

١٠٦ ــ البغدادي ، تاريخ بغداد ، ١ / ٧٠ .
١٠٧ ــ لومبار ، ٢٣٩ ، عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ٦٧ .
١٠٨ ــ لومبار ، ٢٣٩ .

المتوسط لصالح الشرق وشواطىء المحيط الهندي ، واســتقر بالنهاية في صناديق الكنازين الساسانيين والهنود[١٠٩] • وبعد استقرار الاوضــاع في أعقاب حركة التحرير العربية ، اتجه هذا الذهب نحو الدولة العربية الاسلامية بأشكال ثلاثة : وضع الذهب المكتنز ــ المذكور آنفا ــ في دائرة التداول من جديد ، فضلا عن وصول ذهب جديد الى المنطقة ، ثم التقدم التقني في معالجة الذهب[١١٠] والذي أسهم بارتفاع انتاجيــة مناجم الذهب ، ومن ثم وصول كميات كبيرة منه أيضا •

وترتب على هذه الكميات المتدفقة من الذهب ، ان قيمته بدأت تنخفض ، لازدياد عرضه ، وهذا يعني انخفاض في القدرة الشرائية للنقد ــ المسكوك من الذهب ــ ، ولان عامة الناس لا يكتنزون النقد المنخفض القيمة باستمرار ، فقد جرى التوجه نحو استثمار هذا الذهب بما يحقق عائدا مرتفعــا لرؤوس الاموال المستثمرة • لذا فاننا نلحظ حركة واسعة هدفها الحصول على الثروة وتنميتها ، لا سيما بين التجار[١١١] •

ثالثا ــ الاستقرار السياسي :

فمهما قيل وما ذكرناه عن الاضطرابات في الدولة العباسية ، فان نظاما حكمه المنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم ، يعدّ نظاما مســتقرا وراسخا وقادرا على تأمين أجواء مناسبة للازدهار الاقتصادي للدولة ، لاسيما ان الفترة التي حكمها الخلفاء المذكورون تشكل معظم فترة العصر العباســي الاول •

لقد أسهمت هذه العوامل في ازدياد سرعة وحيوية التبادل التجــاري ، والارتفاع الكبير في الانتاج الزراعي ــ النباتي والحيواني ــ والصناعي أيضا ،

---

١٠٩ ــ المرجع السابق ، ١٦١ •
١١٠ ــ المرجع السابق ، ١٧٤ •
١١١ ــ اومبار ، ١٧٤ •

حيث مثلت هذه الظواهر أوجه النشاط الاقتصادي للدولة • أما الدور الاكثر حيوية بين هذه المظاهر ، فقد تمثل بالانتاج الزراعي ويعقبه النشاط التجاري، لذا كان الاقتصاد العباسي زراعياً ـــ تجاريا • أما الانتاج الصناعي ، فان دوره في تكوين البناء السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة والمجتمع كـــان محدودا • وهذا عائد الى أن البشرية لم تكن بعـــد قد دخلت مرحلة الثورة الصناعية ، لذا فان معظم اقتصاديات العالم ، في هذه المرحلة، كانت إمازراعية أو تجارية أو زراعية تجارية •

الانتاج الزراعي :

تعد الزراعة بشقيها النباتي والحيواني ، حتى مطلع العصور الحديثـــة المصدر الاساس في التكوين الاقتصادي للدول والمجتمعـــات والافـــراد • فبالنسبة للدول، كانت الزراعة المصدر الرئيس للموارد المالية للخزينةالمركزية، وطألما تأثرت هذه الموارد ، سلبا أو ايجابا ، بحالة وظروف الانتاج الزراعي ، وبالنسبة للمجتمع ، فان حاجاته الاساسية كان يتم تجهيزها عن طريق هـــذا الانتاج • أما الافراد ، فان الزراعة كانت بالنسبة لهم المصدر الرئيس للدخل والثراء والوجاهة الاجتماعية• ومن هنا كان لابد للدولة أن تهتم والافراد أيضا برعاية هذا النمط من الانتاج ، والمحافظة عليه حفاظا يمكنه من اداء دوره•

لقد أدركت الدولة العباسية هذه الحقائق وسعت في سبيل تنمية الانتاج الزراعي[١١٢] • اذ اعتمدت الدولة سياسة واضحة للاعمار والتنمية الزراعية تهدف الى الارتفاع بمستوى هذا الانتاج • الامر الذي نجم عنـــــه اتساع المساحات المزروعة المروية والمستصلحة ولا سيما في سواد العراق[١١٣] • وأثر موقف (أبو يوسف) ـــ فقيه الدولة العباسية ـــ في ذلك الامر • اذ قرر أن

١١٢ ـــ حسام السامرائي،السياسة الزراعية للدولة العباسية ، بحثمنشور•
١١٣ ـــ لومبار ، ٣٩ •

للمسلم أن يحيي الاراضي الموات حتى بدون اذن من السلطات الرسمية ــ على أن لا يتسبب ذلك في الضرر بمصالح المسلمين ــ مستندا الى أن ما أذن به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائم الى يوم القيامة[114] • وخلق هذا نشاطا واسعا في مجال استصلاح الاراضي وزراعتها •

واهتمت الدولة أيضا اهتماما كبيرا باحياء وحفر الانهار القديمة ، وحفر أنهار أخرى جديدة ، حتى أن السواد كان عبارة عن شبكة متصلة من الانهار والترع والجداول[115] • ومارس هذا النشاط الخلفاء والولاة والقادة والافراد • وأشار العديد من كتاب الجغرافية الى هذه الظاهرة[116] • ولم يكن الاهتمام الرسمي منصبا على العراق فقط ، فقد اهتم المتوكل بالزراعة في مصر ، فأمر ببناء مقياس جديد للنيل دعي « بالمقياس الهاشمي »[117] لا سيما وأن الزراعة في مصر تقوم أساسا على فيضانات النيل •

وثمة مظهر آخر لاهتمام الدولة بالزراعة ، فقد ضم ديوان الخراج عددا كبيرا من المتخصصين بامور الارواء ومساحين ومهندسين يقومون بالاشراف على الاعمال الخاصة بالزراعة ، مثل وضع التصاميم لحفر الترع والجداول وبناء النواظم والسدود[118] • أما فيما يتعلق بالانفاق على هذه المشاريع ، فقد أوصى الوزير أبو عبدالله ، الخليفة المهدي بأن تكون النفقات على هذه المشاريع وما يلحق بالفلاحين من ضرر عام ، من بيت المال[119] • الا أننا نلحظ أن المهدي قام بمقاسمة الفلاحين الذين استثمروا نهر الصلة الذي قام بحفره ،

---

١١٤ ــ ابو يوسف ، الخراج ، ٦٤ •
١١٥ ــ الاصطخري ، مسالك الممالك ، ٨٤ــ٨٥
١١٦ ــ قدامة بن جعفر ، الخراج ، ١٧٠ ، الاصطخري ، ٨٠ ، الحموي ، معجم البلدان ، ٥/٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٣١ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، عبدالحميد العبادي وآخرون ، الدولة الاسلامية ، ٣٧ •
١١٧ ــ الكندي ، ٢٠٣ •
١١٨ ــ حسام السامرائي ، ١٤٢ •
١١٩ ــ قدامة ، ٢٤٨ •

على الـ ٢/٠ لمدة خمسين عاما .(١٢٠) لتغطية نفقات هذا النهر . ويشبه هذا ما قرره أبو يوسف وأوصى به الرشيد ، والمتمثل في أن يكون الانفاق على الانهار التي تقدم فائدة خاصة لعدد من الزراع ، مشاركة بين هؤلاء الفلاحين لادامتها والحفاظ عليها (١٢١) . بينما يكون الانفاق على الانهار الكبيرة ذات الفائدة العامة ــ مثل دجلة والفرات وسواهما ــ موقوفا على بيت المال لاغراض الادامة والكري وبناء السدود والنواظم(١٢٢) . هذا فضلا عن سعي الخلفاء في مناسبات عدة الى التخفيف من وطأة الضرائب على الفلاحين . فأبطل المهدي النظام السابق ــ نظام المساحة ــ وأحل محله نظام المقاسمة(١٢٣) . وجعل المأمون هذه المقاسمة من النصف الى الخمسين .(١٢٤) مخففا من أعباء المزارعين ، على الرغم من أن النظامين ــ المساحة والمقاسمة ــ لهما العديد من المحاسن والمساوىء . ومن بين الظروف التي شجعت الانتاج الزراعي ، ما كان مطبقا في مصر ، فالمستأجر كان يلزم بدفع ما يقع عليه من الخراج في حالة تركه الارض بدون زراعة ، وطبيعي ان الفلاح لا يرضى أن يدفع خراجا عن أرض غير مزروعة . مما دفعه الى استثمار أرضه على الدوام وعدم تركها بدون زراعة(١٢٥) . لقد تميز الفلاح في هذه الفترة بحسن تعامله مع الارض ، فكان يجيد حرثها واعدادها ، ويتقن استخدام الاسمدة ، وهو على معرفة بخصائصها ، ويعرف كيف يقاوم الحشائش والحشرات الضارة بالانتاج الزراعي . وغالبا ما استخدم أساليب مجدية ذات نفع ، بيد أنه استخدم أحيانا بعض الخرافات البالية(١٢٦) . ان القاء نظرة سريعة على القوائم التي عرضها كل من

١٢٠ ــ المصدر السابق ، ١٧٠ .
١٢١ ــ ابو يوسف ، الخراج ، ٩٤ .
١٢٢ ــ المصدر السابق ، ٩٧ .
١٢٣ ــ ابن الطقطقى ، ١٨٢ .
١٢٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٧٦/٨ .
١٢٥ ــ سيدة كاشف ، ١٤٨ .
١٢٦ ــ ريسلر ، الحضارة العربية ، ١١٠ .

الجهشياري[١٢٧] وقدامة[١٢٨] وابن خرداذبه[١٢٩] تعطينا فكرةواضحة عن مدى ازدهار الانتاج الزراعي ٠

النشاط التجاري :

امتد نشاط التجارة العربية الاسلامية الى أرجاء مختلفةوواسعة من العالم، لوجود طبقة من التجار عملت على استثمار ثرواتها في النشاط التجاري بشكل واسع ، ليس في بلدان الخلافة فقط ، بل امتد ذلك أيضا خارج أراضيهامتمثلة في مستوطنات وجاليات ومراكز تجارية وصلت الى الهند وأواسط آسيا وأفريقية والاراضي البيزنطية ، وكذا الحال في العلاقات التجارية مع أوربا ولا سيما أقسامها الشمالية ، فقد عثر في السويد واسكندنافيا على عشرات الآلاف من القطع النقدية العربية يرجع تاريخها للفترة بين أواخر القرن السابع وأوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، وهي تؤشر بذلك فترة ازدهار التجارة العربية الاسلامية مع شمال أوربا ٠ ووجدت أيضا قطع نقدية عربية على طول مجرى الفولغا ، وهذا يؤيد ما جاء في المصادر الادبية العربية، عن قيام علاقات تجارية بين بلدان الخلافة الاسلامية وبلاد البلطيق عبر بحر قزوين والبحر الاسود وروسيا[١٣٠] ٠ وان ما يبرهن على عمق ورسوخ ومتانة التجارة العربية الاسلامية والثقة العالية بها ، ان سفاتج التجار المسلمين كانت تصرف في البلاد غير الاسلامية[١٣١] ٠

وأسهمت عوامل عدة في رسم صورة هذا الازدهار التجاري ، لعل من أبرزها :

---

١٢٧ ــ الوزراء والكتاب ، ٢٨١ــ٢٨٨ ٠
١٢٨ ــ الخراج ، ١٦٣ ــ ١٦٨ ٠
١٢٩ ــ اعدها ورتبها ، ضياءالدين الريس ، الخراج في الدولة الاسلامية ، ٤٤٠ــ٤٤٦ ٠
١٣٠ ــ برنارد لويس ، ١٣٥ ٠
١٣١ ــ حسن احمد محمود ، العالم الاسلامي في العصر العباسي ، ٢٠٨ ٠

ان العالم الاسلامي مثّل موقعا ستراتيجيا على طرق التجارة الرئيسة ، اذ يقع على مفترق الطرق التجارية الكبرى ، ولم يفلت من سيطرته سوى طريق واحد ، وهو الطريق المار من أواسط آسيا نحو سهول المجر مارا بشمال الحضارات القديمة في شرقي البحر المتوسط ، ولم يفلت أيضا من سيطرة هذا الموقع سوى مركز تجاري واحد هو بيزنطة[132] . فكانت قوافل التجار تسلك طريقين مهمين هما - الطريق البري ، ويعرف بطريق الحرير ، والثاني هو الطريق البحري[133] . وأعطى هذا الموقع الممتاز للتجار العرب المسلمين مكانة ممتازة[134] . ويجب ألا ننسى ان العباسيين أدركوا أهمية الموقع التجاري لبغداد ، ووفقا لهذا الاعتبار اختاروا موقعها لبناء عاصمتهم[135] .

ومن العوامل الاخرى التي ساعدت على ازدهار النشاط التجاري، اتساع نطاق الدولة الاسلامية ، حيث شكلت سوقا داخلية كبيرة ، فكان ذلك بداية العصر الذهبي للازدهار الاقتصادي[136] . وكذلك التخصص المكاني داخل الدولة الاسلامية في الانتاجين الحرفي والزراعي، اذ حوت المصنفات الجغرافية الكثير من الاشارات الى هذا التخصص[137] .

---

١٣٢ ــ لومبار ، ٢٠ .

١٣٣ ــ طريق الحرير : ويربط الصين بالغرب وكان يمر بسمرقند وبخارى في تركستان والري وهمدان في ايران ثم بغداد وفيها يزدوج الطريق ليصل من جهة الى القسطنطينية والقرب بواسطة نهر الفرات والبحر المتوسط. ومن جهة أخرى بالجزيرة العربية وافريقية مارا بالكوفة ومكة والمدينة . اما الطريق البحري : فيربط ايران وموزمبيق ومدغشقر بالشواطىء الشرقية والغربية للهند والملايو وسومطرة وكمبوديا وميناء كانتون بالصين، ريسلر ، ١٢٩ .

١٣٤ ــ ريسلر ، ١٢٨ ــ ١٢٩ .

١٣٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٦١٤ ، عبدالعزيز الدوري ، مقدمة ، ٦٠ .

١٣٦ ــ رودنسون ، الاسلام والرأسمالية ٤٥ ، حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٢/٤٢٠ .

١٣٧ ــ رودنسون ، ٤٨ .

وكان لنجاح السلطة المركزية في توطيد الامن والاستقرار الداخلي ونجاحها في مواجهة المشكلات الدولية أثر كبير في توفير أجواء آمنة أسهمت في ازدهار النشاط التجاري[١٣٨] . ومن العوامل الاخرى المهمة ، اتباع سياسة حرية التجارة ، فلم تتدخل الدولة في تحديد الاسعار الا في حالات الضرورة ، وبما يخص المواد الغذائية فقط[١٣٩] . وثمة عامل آخر مهم أسهم في تطوير هذا النشاط ، ذلك هو النظام المالي ، فقد كان للصيارفة دور كبير في تسليف التجار وتنشيط معاملاتهم ، كما أنهم كانوا يسددون حسابات التجار في الموانيء الكبرى ، حتى أن التاجر لم يكن يضطر للدفع مباشرة ، واستعمل التجار أيضا السفاتج للدفع في البلاد الاخرى.[١٤٠] فأسهم هذا النظام بعمق في تسهيل وتيسير أعمال التجارة ومن ثم تنشيط حركتها .

الانتاج الصناعي :

كان من بين مظاهر الازدهار الاقتصادي للدولة ، ذلك الارتقاء الصناعي الملحوظ الذي شهدته هذه الفترة ، حيث تعددت الصناعات وتوسعت ، على أنها على أية حال لم تبلغ مبلغا كبيرا من الرقي يمكنها من خلق تفاوت طبقي بين فئات المجتمع . وتراوحت مظاهر الانتاج الصناعي بين أعمال فردية، وأعمال صناعية يشترك فيها عدد من الافراد في حانوت أو مصنع صغير ، وكانت ثمة مصانع كبيرة نسبيا للنسيج والزجاج ، ومصانع حكومية أيضا أوسع نسبيا مثل دور الطراز ودور السكة[١٤١] . ثم أن الدولة كانت تمتلك مصانع الاسلحة وقطع الاسطول والبردي في حالة وجوده[١٤٢] . ونجم عن اتساع انتشار

١٣٨ ــ حسن احمد محمود ، ٢٠٢ .
١٣٩ ــ عبدالعزيز الدوري ، مقدمة ، ٧٠.
١٤٠ ــ المرجع السابق ، ٧٠ــ٧١ .
١٤١ ــ عبدالعزيز الدوري ، مقدمة ، ٧٢ .
١٤٢ ــ كاهن ، ١٤٢ .

زراعة المواد الاولية الخاصة بالنسيج ومواد الصباغة، أن حصل تقدم كبير في الطرق التقنية لصناعة النسيج وتلوين المنسوجات[١٤٣] .

وكان لتوفر المواد الاولية اسهام كبير في هذا النمو الصناعي ، الواسع نسبيا . كما كان لاتساع السوق الاستهلاكية دور مهم لزيادة الانتاج ، اذ شكلت الدولة الاسلامية سوقا واحدة ، لا توجد فيها عقبات تحول دون انتقال السلعة من مكان الى آخر ، وتعززت سعة السوق هذه بالعلاقات التجارية الواسعة مع شرق آسيا وأفريقية وشمال اوربا .

واردات الدولة :

تعددت الموارد التي تصب في بيت المال لتشكل في نهاية الامر مصدر دخل الخزينة المركزية ، وبالامكان الاشارة الى أهم هذه الموارد ، وحددها القدماء والمحدثون بما يلي : ١ ــ الفيء ، ٢ ــ الخراج ، ٣ــ زكاة واعشار الاراضي ، ٤ــ الجزية ، ٥ ــ صدقات الماشية ، ٦ ــ أخماس الغنائم ، ٧ ــ أخماس المعادن والركاز ، ٨ ــ سيب البحر وما يقذف به ويستخرج منه، ٩ ــ عشور تجارات المسلمين وأهل الذمة والحربيين ، ١٠ ــ اللقط في الطرق وما جرى مجرى ذلك ، ١١ ــ أثمان الآباق وما يؤخذ من اللصوص من الاموال والامتعة ولم يطالب بها أحد ، ١٢ ــ ما يؤخذ من مواريث لا وارث له[١٤٤]. يضاف اليها ما يؤخذ من العدو من ضرائب ومال هدنة[١٤٥] . كما ويضاف اليها أموال المصادرات، اذ كان يجري مصادرة أموال الوزراء وكبار الموظفين، لا سيما في الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول[١٤٦]. وجبيت أيضا ضرائب

---

١٤٣ ــ لومبار ، ٢٧٣ .
١٤٤ ــ قدامة ، ٢٠٤ــ٢٠٥ ، عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الاول ، ٢١٧ــ٢١٨ ، سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ٣٦٤ .
١٤٥ ــ حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٣٩٦/٢ .
١٤٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ١٢٥/٨ ، ١٥٨ .

عن الاسواق والمحلات . وأشارت المصادر الى أن المنصور هو الذي أوجد هذه الضريبة[147] ، في حين أشارت مصادر أخرى الى أن المهدي هو الذي بدأها[148] .

وقدمت لنا المصادر التاريخية ثلاث قوائم رئيسة لواردات الدولة خلال العصر العباسي الاول ، وهذه القوائم قدمها : الجهشياري وقدامة وابن خرداذبة . أما فيما يتعلق بقائمة ابن خلدون ، فقد أثبتت أدلة وافية أنها نفس قائمة الجهشياري ، أي أنها لعصر الرشيد ، وان الناسخ وقع في الخطأ بنسبته اياها الى عصر المأمون[149]. واذا كانت قائمة الجهشياري تمثل عصر الرشيد ، فان قائمة قدامة تمثل عصر المأمون وأوائل عصر المعتصم[150] . في حين ان قائمة ابن خرداذبة جاءت بعد قائمة قدامة بنحو عشر سنوات[151] .

وذكرت بعض المصادر التاريخية مجموع ما خلفه المنصور بعد وفاته في بيت المال . وكان المنصور قد قال للمهدي في وصيته ، انه ترك لـه في بيت المال خراجا بقدر خراج عشر سنوات اذا ما كسر عليه خراجها[152]. وذكر المسعودي في مروج الذهب : ان المنصور بعد وفاته ترك مبلغا قدره (٦٠٠) مليون درهم و (١٤) مليون دينار[153]، فاذا كان الدينار مساويا لـ (١٥)درهما فان المنصور ترك وراءه (٨١٠) مليون درهم، في حين ان المسعودي نفسه قال في التنبيه والاشراف ان المنصور ترك وراءه مقدار (٩٦٠) مليون درهم[154].

---

١٤٧ ـ المصدر السابق ، ٦٥٣/٧ ، ابن الفقيه ، بغداد مدينة السلام ، ٣٨ .
١٤٨ ـ الكندي ، ١٢٥ ، البغدادي ، ٨١/١ ، اليعقوبي ، تاريخ، ١٤٣/٣ .
١٤٩ ـ الريس ، ٤٢٨ ـ ٤٣١ .
١٥٠ ـ المرجع السابق ، ٤٣٦ .
١٥١ ـ المرجع السابق ، ٤٤١ .
١٥٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ١٠٣/٨ .
١٥٣ ـ ٣٠٨/٣
١٥٤ ـ ٢٩٦ .

واتفق معه في ذلك المقدسي[155] وصاحب العيون والحدائق[156] • وأضاف المقدسي ان ذلك كان بخلاف سائر الاصناف •

ويبدو ان تقدير الريس لقيمة الدينار بأنها تساوي (١٥) درهما غير صحيح ، اذ لا يعقل أن يناقض المسعودي نفسه ويتفق معه في ذلك كل من المقدسي وصاحب العيون والحدائق • ويبدو ان القيمة الاصح للدينار انه كان يساوي أكثر بقليل من (٢١) درهما ، ويتضح هذا من تحليلنا للفرق بين القيمتين اللتين ذكرهما المسعودي لمبلغ ما تركه المنصور • ان الكفاءة المالية والقدرة الفائقة في رسم سياسة مالية سليمة كانت وراء ما تركه المنصور من ثروة[157] •

وذكرت مصادر أخرى قيمة الخراج في عصر الخليفة الرشيد ، اذ بلغ في نهاية عام ١٧٩هـ/٧٩٥–٧٩٦م ، مقدار (٣٣٨ر٩٠٠ر٠١٠) درهم ومن الدنانير (٥ر٠٣٨ر٠٠٠) دينار[158] • وبحساب أن الدينار يساوي (٢٢) درهم[159] ، فان مجموع خراج هذه السنة لا يقل عن (٤٦٧ر١٦٠ر٠٠٠) درهما • وبعد دراسة الريس لقائمة الجهشياري اتضح ان مجموع خراجها بلغ (٥٣٠ر٣١٢ر٠٠٠) درهما[160] ، أما الفرق بين ما ذكره الصابي وما ذكره الجهشياري ، فمرده في الاغلب الى أن الصابي لم يشمل بما ذكره قيمة المواد العينية من بضائع وسلع كانت ترد في العادة مع الخراج النقدي ، في حين ورد ذلك عند الجهشياري بالتفصيل •

وأورد الصابي مجموع ما كان مذكورا في الدواوين من خراج لعام ١٩٩هـ/٨١٤–٨١٥ م ، فبلغ بالدراهم (٤١٦ر٩٢٢ر٠٠٠) درهم[161] • وهو

---

١٥٥ – البدء والتاريخ ، ٩٢/٦ •
١٥٦ – العيون والحدائق ، ٢٦٩/٣–٢٧٠ •
١٥٧ – حسن فاضل زعين العاني ، ٤٥٢–٤٦٠ •
١٥٨ – الصابي ، رسوم دار الخلافة ، ٢٨–٢٩ •
١٥٩ – الجهشياري ، ٢٨٨ •
١٦٠ – الريس ، ٤٣٤ •
١٦١ – رسوم دار الخلافة ، ٢٩ •

لا يختلف كثيرا في القيمة عما ذكره الجهشياري عن عصر الرشيد . وربما عاد النقص الى عاملين : ان الصابي لم يذكر هذه المرة أيضا المواد العينية المرفقة بالخراج النقدي . أو الى ما سببته الحرب الدامية بين الامين والمأمون من نتائج سلبية ، لابد أن تترك آثارها على الحياة الاقتصادية في البلاد . أما مجموع قائمة قدامة ، فقد استنتج الريس بعد دراسته لها ، أنها لا تقل عن (٤٠٠) مليون درهم[١٦٢] . في حين بلغ مجموع قائمة ابن خرداذبة ، على العموم ، حوالي (٣٣٤٫٧٥٥٫٨٤٠) درهما[١٦٣] .

وربما عاد هذا التناقص في قيمة خراج الدولة الى أسباب عديدة ، سياسية واقتصادية . ويجب ألا ننسى أثر التحول من خراج المساحة الى خراج المقاسمة ، وانقاص قيمة هذه المقاسمة كما مر بنا . وأشار المقدسي الى أن خراج عام ٢٣٢هـ/٨٤٦ــ٨٤٧ م بلغ بالدنانير حوالي (٢٫٣٢٠٫٠٦٤) دينار عدا المواد العينية[١٦٤] . ومهما تكن قيمة هذه المواد ، فان هذا الرقم يبقى غير معقول . فاذا ما احتسبنا ان الدينار يساوي (٢٢) درهما ، فان مقدار هذا الخراج يساوي (٤٦٫٤٠٥٫٢٨٠) درهما تقريبا . في حين ان قائمة الجهشياري أوردت مجموع ما جبي من السواد وكوره فبلغ حوالي (١٢٧٫٩٨٠٫٠٠٠) درهما[١٦٥] . وفي فترة ليست بعيدة كثيرا عن السنة التي ذكر المقدسي خراجها . ثم أن السواد بالذات ، كما لاحظنا ، لم يعان من اضطرابات خطيرة في أوضاعه السياسية والاقتصادية ــ عدا فترة الصراع بين الامين والمأمون ــ فضلا عن هذا فان الزراعة في العراق كانت في حالة جيدة

١٦٢ ــ الخراج في الدولة الاسلامية ، ٤٤٠ .
١٦٣ ــ المرجع السابق ، ٤٤٦ .
١٦٤ ــ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ٦٤ .
١٦٥ ــ الجهشياري ، ٢٨١ــ٢٨٢ .

حتى في القرن الرابع الهجري[١٦٦] • أي ان خراج سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦–٨٤٧م المنخفض جدا كان بين فترتين ، كانت الزراعة فيهما في العراق في الاقل بحالة جيدة • الامر الذي يثير شكوكا قوية حول الرقم الذي قدمه المقدسي •

واذا تعذر علينا أن نرسم شكلا بيانيا دقيقا للارقام الخاصة بالخراج ،الا أننا على أية حال ، نلحظ بوضوح ، مدى الانحدار الذي بدأ منذ أواخر عصر الرشيد ، وبلغ نقطة حرجة في أواخر العصر العباسي الاول ، الامر الذي ربما يفسر لنا لجوء الواثق والمتوكل الى اسلوب مصادرة أموال الوزراء والكتاب وكبار الموظفين •

ان متانة الموقف المالي ، الذي ساد معظم العصر العباسي الاول ، كان له أعظم الاثر في طبيعة العلاقة مع الامبراطورية البيزنطية • فهذا الوضع المالي الراسخ ، مكّن بشكل كبير من اقامة تحصينات دفاعية في مناطق التخوم ، اذ بذلت السلطات المركزية جهدا كبيرا لتدعيم هـذه التحصينات على الدوام ، لتكون قادرة على الصمود أمام غارات الاعـداء — وسيأتي تفصيل ذلك في فقرة لاحقة — كما أن هذا الوضع المـالي أسهم في تموين وتمويل وتجهيز الجيوش المتوجهة الى مناطق التخوم • وبهذا كانت موارد بيت المـال السند الاساس للنشاطات العسكرية العباسية الموجهة الى الامبراطورية البيزنطية •

٤ — العلاقات الخارجية العسكرية :

تتناول هذه الفقرة ملاحظة مدى تأثير العمليات العسكرية للدولة العباسية مع البلاد المجاورة ، على علاقاتها الحربية مع الامبراطورية البيزنطيـة • فمن خلال ما يمثله الشكل رقم —٥— نرى أن الدولة العباسية في مرحلة التأسيس واجهت تصعيدا في العمليات العسكرية مع الجيران الشرقيين، مما دفعها للعمل على تعزيز الامن والاستقرار هناك لتأكيد سلطتها ونفوذها • ففي عام١٣٢هـ/

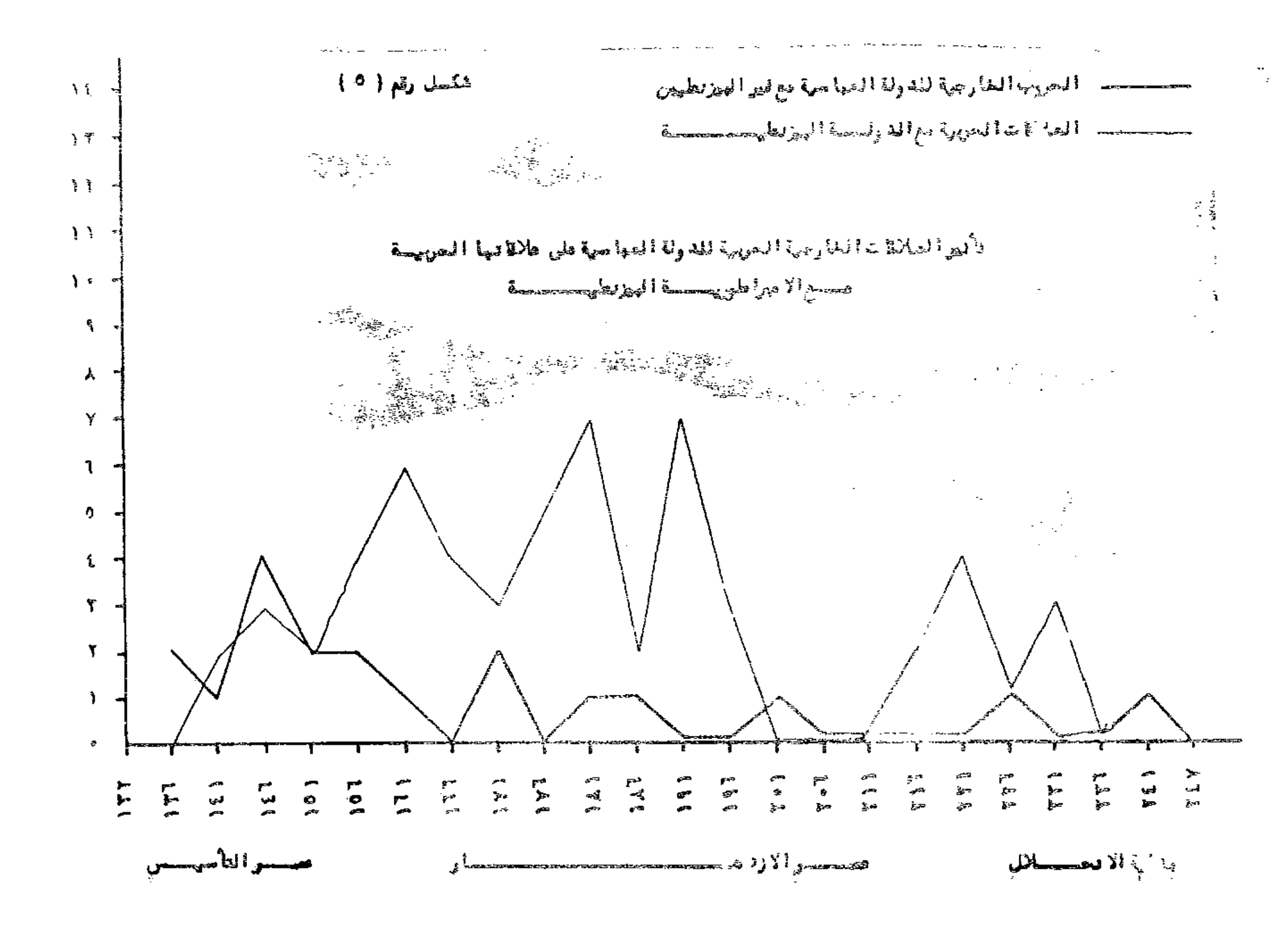
١٦٦ — انظر الفصل المخصص للزراعة عند/ عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، ٣٧–٧١ •

٧٥٠ـ٧٥١ م أرسلت حملة بقيادة أبي داؤد خالد بن ابراهيم لقتـال جيش ابن الشبل الذي اضطر للجوء الى الصـين[١٦٧] • وفي عـام ١٣٤هـ/ ٧٥١ـ٧٥٢ م كان لابد من مواجهة الصين المتحالفة مع الاتراك فوقعت معركة طلخ ، التي انتهت باندحار القوات المتحالفة واصابتها بخسائر فادحة[١٦٨] • وفي هذه السنة أيضا كان على أبي داؤد القيام بحملة أخرى على الاخريد حاكم كش[١٦٩] • وخلال بضع سنوات لاحقة كانت التخوم الشرقية تتمتع بالهدوء حتى عام ١٤١هـ/٧٥٨ـ٧٥٩م حيث كان لابد من فتح طبرستان ، فهي لكونها منطقة جبلية مستعصية ، شكلت على الدوام مصدر خطر على الدولة ، فأرسل المهدي وبتوجيه من المنصور ، أبا الخصيب لقتال اصبهبذ طبرستان ، وبعـد قتال شاق ومرير وارسال امدادات تمكنت جيوش الدولة من فتح المنطقة[١٧٠] • وفي السنة التالية نقض الاصبهبذ عهده مع المسلمين فأرسلت السلطة المركزية خازم بن خزيمة وروح بن حاتم وأبا الخصيب ، وأعملوا الحيلة حتى تمكنوا من فتح المنطقة ثانية[١٧١] •

وفي عام ١٤٣هـ/٧٦٠ـ٧٦١م ارسل المنصور الى البصـرة والكوفة وغيرهما بتجهيز الجيوش لفتح بلاد الديلم ، بعد أن أوقعوا بالمسلمين[١٧٢] • وفي السنة التالية كان بالامكان تسيير هذه الجيوش الى هدفهـا ـ بلاد الديلم ـ ؛ فسار محمد بن أبي العباس بن عبدالله بن علي على رأس جيوش البصرة والكوفة وواسط والموصل والجزيرة[١٧٣] • وفي عام ١٤٥هـ/٧٦٢ـ

---

١٦٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٦٠ •
١٦٨ ـ الفسوي، المعرفة والتاريخ ، ٣/٣٥١، المقدسي، البدء والتاريخ، ٦/٧٤•
١٦٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٦٣ـ٤٦٤ •
١٧٠ ـ المصدر السابق ، ٧/٥١٠ـ٥١١ •
١٧١ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١١٨ ، الطبري ، تاريخ ، ٧/٥١٢ •
١٧٢ ـ الفسوي ، ١/١٢٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٧/٥١٥ •
١٧٣ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٥١٧ •



شكل رقم (٥)
الحروب الخارجية للدولة العباسية مع غير البيزنطيين
العلاقات الحربية مع الدولة البيزنطية
تأثير العلاقات الخارجية الحربية للدولة العباسية على علاقاتها الحربية
مع الامبراطورية البيزنطية
عصر التأسيس
عصر الازدهار
بداية الانحلال

٧٦٣م تحالف الترك والخزر على المسلمين ، فهاجموا أرمينية ولحقوا بسكانها خسائر كبيرة[١٧٤] ، الامر الذي اضطر باجراءات دفاعية ، وليست هجومية ، لانشغاله بحركة محمد النفس الزكية ، فقام بارسال الجيوش للمرابطة هناك ومواجهة العدو[١٧٥] . كما قام ببناء وتعمير وتحصين مدن الثغور مثل كمخ والمحمدية وباب واق ومدن أخرى وشحنت اليها الجيوش للمرابطة والاقامة فيها[١٧٦]. وربما كان السبب وراء هجمات الخزر هذه ، احتكار العرب المسلمين للتجارة مع الصين اثر الوفاق الذي قام بين المنصور وامبراطور الصين ، اذ تحول خط سير القوافل التجارية بالمرور في خراسان بدلا من المرور عبر شمال بحر قزوين[١٧٧] . وفي عام ١٤٧هـ/٧٦٤–٧٦٥ م تدهورت الاوضاع مرة أخرى بقيام استراخان الخوارزمي ، وتحت امرته حشود هائلة من الاتراك ، بالهجوم على أرمينية ، وألحق بقواتها هزيمة ساحقة ودخل مدينة تفليس ، وانهزم أمامه جبريل بن يحيى البجلي ، وقتل حرب بن عبدالله الريوندي صاحب الحربية ، وكان المنصور قد أرسله لتعزيز قوات الدولة هناك[١٧٨] ، فاضطر مرة أخرى الى ارسال التعزيزات العسكرية ، حيث أرسل حميد بن قحطبة الذي وصل بعد رحيل الترك[١٧٩] . وفي عام ١٥٠هـ/٧٦٧م ، عبث أهل هراة وباذغيس بخراسان وغلبوا على معظمها والحقوا الهزيمة بعدد من القادة مثل جبريل بن يحيى ومعاذ بن مسلم وغيرهما ، عندئذ أرسل المنصور خازم بن خزيمة وألحق بهم هزيمة كبيرة ، مما أدى الى استتباب الاوضاع في خراسان

---

١٧٤ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١١٧/٣ ، الطبري ، تاريخ ، ٦٤٩/٧ ، ابن اعثم الفتوح ، ٢٣١/٨ .
١٧٥ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١١٧/٣ ، ابن اعثم ، ٢٣٢/٨ .
١٧٦ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١١٧/٣ ، ابن اعثم ، ٢٣٢/٨ .
١٧٧ ـ شاكر مصطفى ، ٣٥٨/١ .
١٧٨ ـ الفسوي ، ١٣٢/١ ، الطبري ، تاريخ ، ٧/٨ .
١٧٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٢٧/٨ .

وعادت الى مجراها الطبيعي(١٨٠) . وفي عام ١٥٢ هـ/٧٦٩ م فتح حميد بن قحطبة مدينة كابل(١٨١) . وفي عام ١٥٣هـ/٧٧٠م جهز المنصور جيشا من أهل البصرة لحرب الكرك الذين كانوا قد هاجموا جدة(١٨٢) . ان كل هذا يشير الى أن عصر المنصور شهد أخطارا جدية هددت أمن واستقرار البلاد في التخوم الشرقية والشمالية الشرقية ، مما دفع الى اتخاذ جملة من الاجراءات العسكرية المتتابعة لتهدئة الاوضاع في هذه التخوم .

أما عصر الازدهار ، فقد شهد نوعا من الاستقرار النسبي على التخوم الشرقية والشمالية الشرقية ، ولم تتحمل الدولة أعباء كبيرة للدفاع عن هذه التخوم ، عدا حملات قليلة متفرقة ، حيث أرسل المهدي حملة الى الهند في عام ١٥٩هـ/٧٧٥–٧٧٦ م منطلقة من البصرة(١٨٣) . ووجه حملة أخرى الى طبرستان في عام ١٦٧هـ/٧٨٣–٧٨٤ م (١٨٤). وحملة ثانية في السنة التالية مكونة من (٤٠) ألف جندي(١٨٥) . وفي عام ١٧٨هـ/٧٩٤–٧٩٥ م توجه الفضل بن يحيى والياً على خراسان ، فأمن الاوضاع في بلاد ما وراء النهر ، كما توجه ابراهيم بن جبريل الى كابل فأتم فتحها(١٨٦) . أما الخطر الاساس الذي ظهر في هذه الفترة ، فقد تمثل في الخزر أيضا . وربما كان هجوم هؤلاء في هذه المرة بدفع من البيزنطيين ، اذ قاموا بمهاجمة أرمينية وألحقوا بالمسلمين وأهل الذمة خسائر كبيرة(١٨٧) . مما دفع الرشيد الى تولية يزيد بن مزيد على أرمينية وأمده بالتعزيزات ، كما أنزل خازم بن خزيمة في نصيبين ليكون جنده

---

١٨٠ ــ الفسوي ، ١٣٦/١ .
١٨١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٤١/٨ .
١٨٢ ــ المصدر السابق ، ٤٢/٨ .
١٨٣ ــ المصدر السابق ، ١١٦/٨ .
١٨٤ ــ المصدر السابق ، ١٦٤/٨ .
١٨٥ ــ المصدر السابق ، ١٦٧/٨ .
١٨٦ ــ المصدر السابق ، ٢٥٩/٨ .
١٨٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٢٧٠/٨ ، ابن أعثم ، ٢٥٨/٨ .

امدادا على أهمية الاستعداد عند الحاجة[188] . وفي عام ١٨٩هـ/٨٠٤–٨٠٥م وعند مسير الرشيد الى خراسان أرسل بالامان الى حاكم الديلم وطبرستان ، فأجابوه الى الطاعة[189] ، وفي عام ٢٠١هـ/٨١٦–٨١٧م تم افتتاح مناطق من الديلم وطبرستان ، لم يجر فتحها من قبل[190] . ومثل عصر الازدهار هذا ، على العموم ، استقرارا في أوضاع الدولة على تخومها الشرقية والشمالية الشرقية .

أما الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول ، فلم تشهد من العمليات العسكرية مع المناطق المجاورة – عدا التخوم مع البيزنطيين – سوى عمليات محدودة أكدت سلطة الدولة على طبرستان ، بعد أن أظهر صاحبها الخلاف على المعتصم . فأرسل والي خراسان ، عبدالله بن طاهر ، جيشا . وأرسلت السلطة المركزية جيشا آخر . وأحاطت هذه القوات بالمازيار ، حيث سحقت قوته . وكان الافشين يقف وراء تمرده[191] . كما شهدت هذه الفترة حرب البجة ، فعند تولي المتوكل الخلافة ، امتنع أهل هذه المنطقة عن اداء الخراج الخاص بالذهب لعدة سنوات[192] ، مما اضطر السلطة المركزية الى ارسال حملات متعاقبة ، انتهت باخضاع البجة ودفعهم الخراج[193] . وعموما فقد كانت هذه الفترة أكثر هدوءا من سابقتيها ، في مجال العمليات العسكرية مع الدول المجاورة ، عدا بيزنطة .

ان العمليات العسكرية مع الدول المجاورة ، ومعها تلك الاضطرابات الداخلية ، أسهمت اسهاما كبيرا في استنزاف القدرات البشرية للدولة . وكذا

---

١٨٨ – الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٧٠ .
١٨٩ – المصدر السابق ، ٨/٣١٦ .
١٩٠ – المصدر السابق ، ٨/٥٥٦ .
١٩١ – المصدر السابق ، ٨/٨٠–٨١ ، ٨٥–١٠١ .
١٩٢ – المصدر السابق ، ٩/٢٠٣ .
١٩٣ – المصدر السابق ، ٩/٢٠٤ .

الحال في استنزاف القدرات المالية • أما عن مدى تأثير هذه العمليات العسكرية — على التخوم الشرقية والشمالية الشرقية — على العلاقات الحربية مع الامبراطورية البيزنطية ، فان الشكل رقم —٥— لا يظهر أي تأثير مباشر• ذلك ان هذا النوع من العلاقات بين الدولتين استمر حتى في الفترات التي اضطرت فيها الدولة العباسية للدفاع وتأمين الاوضاع على التخوم الشرقية والشمالية الشرقية •

٥ — نظام الثغور :

من غير الممكن استخدام مصطلح « حـــدود »[١٩٤] بالمعنى السياسي القانوني المتعارف عليه اليوم ، للدلالة على حالة كانت قائمة في مطلع العصور الوسطى • فهو اصطلاح حديث لا يعبر عن مفاهيم تلك الفترة • ومن الافضل استخدام مصطلح « تخوم »[١٩٥] الذي سبق أن رددناه من قبل ، لانه الافضل في التعبير عن الحالات التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية •

تألفت منطقة التخوم — التي كانت تفصل بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية — من سلسلتي جبال طوروس ، التي أطلق عليها البلدانيون الاسلاميون جبل اللكام • كما ضمت منطقة التخوم هذه ، عددا كبيرا من القلاع والحصون والاستحكامات العسكرية ، والتي طالما كانت مثار نزاع بين الطرفين للسيطرة عليها ، لاهميتها الستراتيجية بوصفها نقاط دفاع

---

١٩٤ — الحدود : ظاهرة قانونية شرعية اوجدها الانسان ، وهي وان كانت تبدو بصورة افقية على سطح الارض ، الا انها ذات مساقط عمودية تمتد من السماء الى سطح الارض فبطنها لتحدد المجال الاقليمي لسيادة الدولة. احمد محمود الديب ، الجغرافية السياسية ، ٢٨٧—٢٨٨ .

١٩٥ — التخوم : منطقة جغرافية لا تعبر عن حالة قانونية ، كما لا يشترط ان يكون معناها سياسيا ، فهي ظاهرة طبيعية ثابتة في مكانها لا تتغير بتغير الظروف والاحوال ، مع انها قد تفقد قيمتها ووظيفتها بتغير الظروف.

وهجوم في آن واحد[١٩٦] • وكان يخترق هـذه المنطقة ، اثنان من الممرات الستراتيجية الخطيرة ، ومنهما كانت تعبر الجيوش ، من كلا الطرفين الى الطرف الآخر ، للقيام بعملياتها العسكرية • وهذان الممران هما :

١ ـ ممرات الابواب القيليقية •

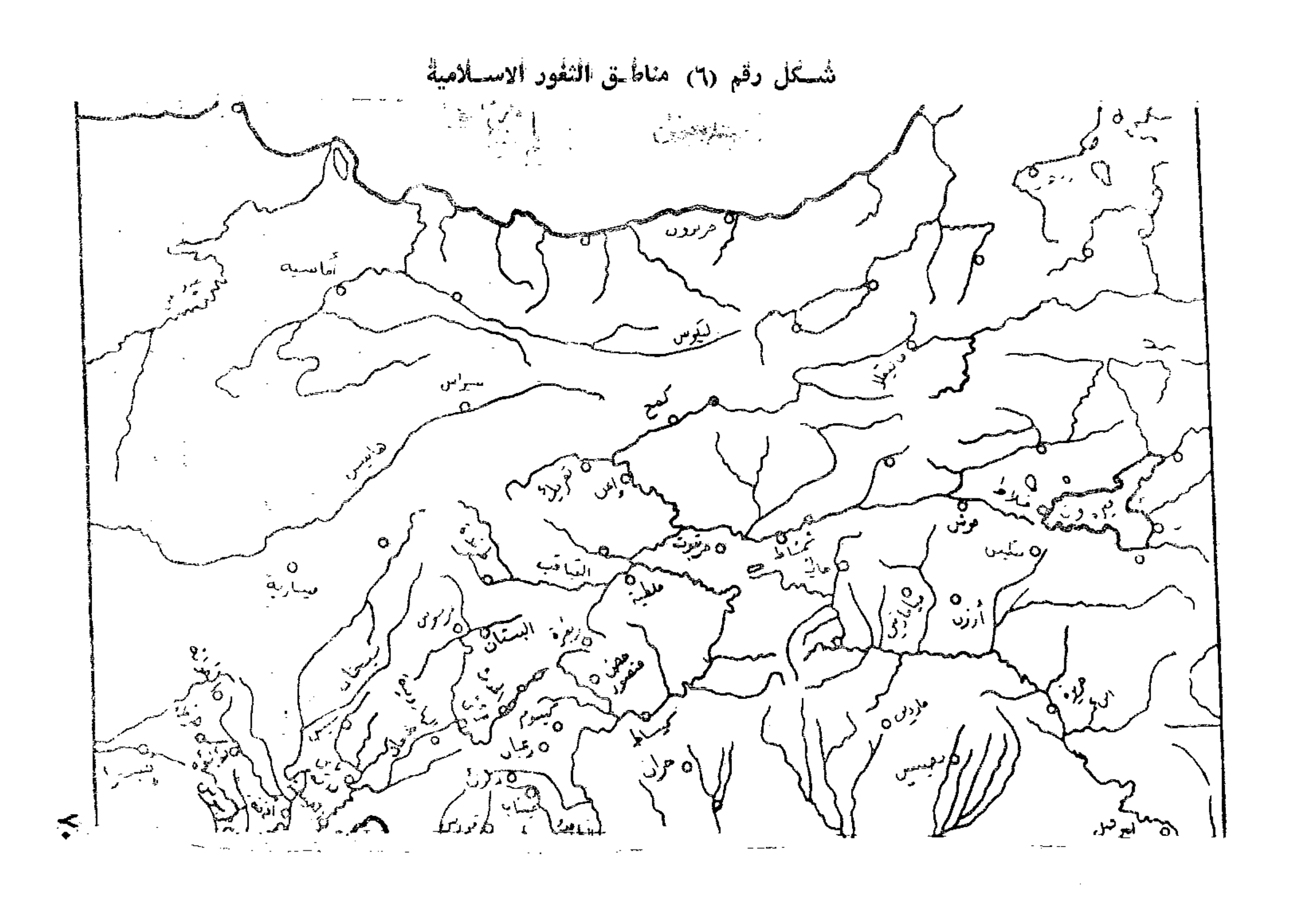
٢ ـ درب الحدث الذي يربط بين مرعش وعربسوس •

وممرات الابواب القيليقية معروفة في الماضي والعصر الوسيط • انظر الشكل رقم ـ٦ـ وتبعد هذه الممرات حوالي سبعين ميلا عن المنطقة التي يبدأ بها الصعود عند هضبة آسيا الصغرى المركزية جنوب الطوانة عند المنطقة التي تلتقي بها سفوح طوروس مع السهول القيليقية • وعد الطرف الشمالي للممر، قمة شاهقة منعزلة تصل الى ارتفاع حوالي ألف قدم، وتشرف تماما على سهول قبادوقيا الجنوبية وعلى منحدرات طوروس الشمالية • وعند هـذا الارتفاع المنيع تقوم قلعة لؤلؤة (لولون) لتتحـدى أي هجوم مسلح حتى وان كان بخيانة أو حصار طويل • وانتقلت هـذه القلعة مرارا بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، اذ تشكل مفتاح هذا الممر • فاذا ما كانت بيد البيزنطيين فانه من الصعوبة البالغة على الجيش الاسلامي اجتياز الممر والعبور الى قبادوقيا • وكذلك الحال اذا كانت بيد المسلمين ، فانه ليس بمقدور الجيش البيزنطي أن يغامر بالدخول الى الممرات •وعنـد لؤلؤة في مقدمة الممر ، ينتهي الطريق الشمالي الى الطوانة أو الغربي الى هرقلة، اذ تشرف القلعة على كلا الطريقين• وينعطف الطريق أولا باتجاه الشرق ثم نحو الجنوب ، ثم يصعـد الى وادي البدندون البيضوي الشكل ، حيث يقع معسكر كيروس القديم ، ثم يصعـد الطريق من البدندون ، خلال وديان ضيقة وعميقة ، الى قمـة الممر • وفي الجانب الشرقي عاليا فوق قمة الجبل ، تشرف قلعة قوية من الحجارة السوداء

---

١٩٦ ـ لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ١٦٠ ـ ١٦١ ، فيليب حتي ، تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان ، ٢/٤٤ •

شكل رقم (٦) مناطق الثغور الاسلامية



تدعى حصن الصقالية ، ثم يأتي هبوط يمتد ثلاثة أميال يقود الى ممر صخري ضيق ، هو الذي يعرف بالابواب القيليقية Cilician Gates والتي أعطت الاسم للممر كله . وتتكون الابواب من مسافة تقرب من مائـة ياردة طولا وعدد قليل من الياردات عرضا بين جدارين صخريين قاما بشـكل عمودي . وبامكان عدد قليل من الرجال الاشداء الامساك به ضد قوة كبيرة . يضاف الى ذلك وجود بقايا قلعة تعود الى فترة سابقة من تاريخ الصراع بين الطرفين للسيطرة على هذه المناطق[197] .

وشكلت الاجناد[198] الخلفية والظهير للثغور الاسلامية على التخوم مع البيزنطيين . فجعل عمر بن الخطاب (رض) من الشـام عـدة أجنـاد ـ فلسطين والاردن وحمص ـ[199] ثم جعل عبدالملك بن مروان من الجزيرة جندا مستقلا[200] . ثم أن يزيد بن معاوية كان قد جعل من قنسرين وانطاكية جندا مستقلا أيضا[201] وهناك من يرى أن الاجناد نظام مقتبس من الموروث البيزنطي في الشام[202] . بيد أن هذا الاستنتاج فيه الكثير من المغـالاة في تقدير النتائج والحكم عليها . فالاجناد ليست نظاما بالمعنى الذي تعنيه هذه الكلمة . اذ أنها ليست أكثر من منطقة أو اقليم تسد ايراداته رواتب الجنـد

197 — Bury, E.R.E, PP. 245-246.

١٩٨ ـ الاجناد : جمع جند وتعني في المصطلح الاداري ، الاقليم العسكري الذي تقيم فيه حامية من الجيش ، وقد اطلقت بعد الاسلام على الاقسام الادارية في الشام .
جهادية القرغلي ، التنظيمات الادارية والعسكرية في العـراق والشام ، ٤٨ هامش ٣ .

١٩٩ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/١٥٦ ، ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ١٠٧ .

٢٠٠ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/١٥٦ .

٢٠١ ـ نفس المصدر والصفحة .

٢٠٢ ـ فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ١/٢٩٠ ، كذلك :
Irit Irene Bigy-Abramski, From Damascus to Baghdad, P. 14.

المقيمين فيه،فلا تدفع من قبل الخزينة المركزية[٢٠٣]•وهذه الصيغةكانت عامة في أرجاء الدولة العربية الاسلامية كافة ، فكل اقليم مسؤول عن دفع مرتبات جنده • ثم ان الشام على أيام البيزنطيين كانت مقسمة الى سبعة أقسام ادارية[٢٠٤] • في حين ان عمر بن الخطاب (رض) قسمها الى أقل من ذلك كما مر بنا • أما اختصاص الشام بهذه التسمية ــ اعني الاجناد ــ فربما عاد الى دوام حالة القتال على التخوم مع البيزنطيين ، ولما كانت الشام الظهير المباشر لهذه التخوم ، كان لابد من تكثيف الحاميات العسكرية في مدنها ، حتى تكون قادرة على امداد هذه التخوم عند الحاجة •

وضمت منطقة التخوم بين الدولة العربية الاسلامية والامبراطورية البيزنطية الكثير من القلاع والحصون التي شكلت خطا من الاستحكامات العسكرية،حالت بينالبيزنطيينوبين نفاذهم الى داخلالاراضيالاسلامية•ودعيت هذه القلاع والحصون بـ « الثغور »[٢٠٥] • وقد شهد خط الثغور هذا تغيرا مكانيا عبر مراحل قيام الدولة العربية الاسلامية ، فكانت هذه الثغور فيفترة خلافتي عمر وعثمان (رض) تتمثل في المنطقة الواقعة بين أنطاكية ومنبجوبقية المدن حولهما ــ وهي الاقليم الذي سماه الرشيد فيما بعد باقليم العواصم ــ وانطلق المسلمون للقتال من هذه المناطق تجاه الاراضي البيزنطية[٢٠٦]•وحملت هذه المناطق بحق اسم الثغور • كما كانت هذه المناطق ــ من شمال أنطاكية وحلب وحتى طرسوس وجبال طوروس ــ خالية من السكان ، لقيام هرقل

---

٢٠٣ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٥٦ •

204—Irit Irene Blay-Abramski, P. 14.

٢٠٥ ــ الثغور : جمع ثغر ، وهو كل موقع أو مكان وراء موضع قريب من ارض العدو ، كأنه مأخوذ من الثغرة وهي الفرجة في الحائط • ياقوت،٢/٧٩•

٢٠٦ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٩٤ ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١١١، كذلك :

E.I (2) Vol. 1, P. 761.

بترحيلهم معه عند رحيله من سوريا • ولم يترك البيزنطيون فيها سوى نقاط حراسة ، تتكون قواتها من السكان المحليين[٢٠٧] • وأطلق على هذه المنطقة الخالية من السكان ــ اسم « الضواحي »[٢٠٨] • وفي العصر الاموي ، بدأ المسلمون بكسب مواطىء أقدام في هذه المنطقة ، فأتموا بناء القلاع القديمة والمدن الكبيرة المحطمة التي هجرها البيزنطيون ، الى جانب بناء قلاع جديدة لتعزيز هذا الخط الدفاعي • وكانت النقاط المهمة والستراتيجية في هذه المنطقة هي : طرطوس وأذنة والمصيصة ومرعش والحدث وملطية • واقيمت هذه النقاط عند التقاء الطرق العسكرية أو عند مداخل الممرات الجبلية[٢٠٩] • وتتيجة للمعاهدة التي عقدت بين عبدالملك بن مروان وجستنيان الثاني ، قام البيزنطيون بترحيل الجماعات المحلية التي كانت تقوم بمهمة الحراسة في مناطق التخوم ، الى العمق البيزنطي • فبقيت هذه المناطق بلا مدافعين عنها[٢١٠] • اذن فخط الثغور انتقل من أنطاكية ومنبج في عصر عمر وعثمان (رض) الى مناطق أكثر تقدما تجاه الاراضي البيزنطية وهي : طرسوس وأذنه والمصيصة ومرعش والحدث وملطية وغيرها من الثغور الاخرى ، في العصر الاموي • وبقيت الثغور السابقة بمثابة خط دفاعي ثانٍ للثغور الامامية •

وقسم البلدانيون منطقة الثغور الى قسمين رئيسين هما: الثغور الشامية والثغور الجزرية[٢١١] • بيد أن قدامة كان أكثر تفصيلا حين قسم خط الثغور الى : ثغور شامية وثغور جزرية وثغور بكرية • فأما الثغور الشامية فتظم :

---

٢٠٧ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٩٤ ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان، ١١١، كذلك : E.I (2) Vol. 1, P. 761.

٢٠٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٦/٥٣٢ ، كذلك : E.I (2) Vol. 1, P. 761.

209 — E.I (1) Vol. 1, P. 515.

210 — E.I (2) Vol. 1, P. 761.

٢١١ ــ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٩٧ــ٩٩؛ الاصطخري، ٥٥؛ ابن رسته، ١٠٦ــ١٠٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ١٥٤٠

طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة السوداء والهارونية وبياس، يقابلها في الجانب البيزنطي مناطق : قبادوقيا والناطليق ومن جهة البحر سلوقية . ثم تأتي الثغور الجزرية وتضم : مرعش والحدث وزبطرة وكيسوم وحصن منصور وشميشاط وملطية ، ويواجهها في الجانب البيزنطي : خرشنة وخالديا . أما الثغور البكرية فتظم : سميساط وحاني وملكين وقاليقلا، يقابلها في الجانب البيزنطي : الارمنياق وجزء من خالديا كما يقرب منهما بند أفلاجونيا [٢١٢]. ويفصل بين الثغور الشامية والثغور الجزرية جبل اللكام (أنتي طوروس أو أمانوس) ويمتد في الاراضي البيزنطية ، ثم يظهر في الاراضي الاسلامية بين مرعش والهارونية وعين زربة ثم يمتد جنوبا [٢١٣] . ويقرر البلدانيون أن الثغور جميعها شامية من الناحية الجغرافية فكل ما وراء الفرات هو من الشام ـ أما الثغور التي عرفت بالجزرية ، فقد عرفت بذلك لان أهل الجزيرة هم الذين يرابطون بها ويمدونها عند الحاجة [٢١٤]. والثغر الوحيد الذي يمكن عدّه جزريا فعلا فهو شمشاط [٢١٥] . ويستطرد قدامة في ذكر نوع آخر من الثغور ، تلك هي الرباطات الساحلية . وأشار الى أن جميع سواحل الشام ومصر، تعدّ مدنها ربطا يرابط بها المسلمون ، وان قطع الاسطول السورية والمصرية تجتمع سوية في عملياتها الحربية ، وباشراف صاحب الربط الشامية [٢١٦] .

قدم البلدانيون صورة مفصلة عن الاوضاع الجغرافية ـ الطبيعية

---

٢١٢ ـ قدامة، ١٨٦ـ١٨٨ .

٢١٣ ـ الاصطخري، ٥٦ .

٢١٤ ـ المصدر السابق، ٥٥؛ ابن حوقل، ١٥٤؛ ابو زيد البلخي، صور الاقاليم، مخطوط، ورقة ٥٤.

٢١٥ ـ الاصطخري ، ٧٥ .

٢١٦ ـ الخراج ، ١٨٨ .

والسكانية ــ لمنطقة الثغور[٢١٧] • ثم تناولتهـا المراجع الحديثة بتفصيلات مسهبة[٢١٨] •وسأتناول بصورة مقتضبة جدا بعضها : انظر الشكل رقم ــ٦ــ •

ملطيـة :

من أكبر مدن الثغور ، تحف بها الجبال[٢١٩] ، ولا تبعد كثيرا عن الفرات الاعلى على السفح الشمالي لجبال طوروس ، ليس بعيدا عن نهر تخمة صوــ القباقب سابقا ــ عند ملتقى الطرق المهمة في ســهل خصب غني باتتاجـــه الزراعي[٢٢٠] •

سميساط :

وتعدّ تارة من الثغور وتارة أخرى من العواصم • ذات موقع ستراتيجي مهم ، فهي تشكل معبرا للجيوش المتوجهة الى الاراضي البيزنطية • وتقع عند ملتقى الطرق المتوجهة الى ملطية ومرعش ودلوك[٢٢١]• وتمتاز بوفرة انتاجها الزراعي[٢٢٢] •

مرعش :

وتقع على ارتفاع حوالي ألفي قدم فوق مستوى سطح البحر على الحد الشمالي لغور مرعش • وكانت تدعى عند الرومان بـ «جرمانيقا»وموقعها هذا جعل منها عقدة مهمة لطرق المواصلات المؤدية الى كل من أنطاكية وعين زربة

---

٢١٧ ــ انظر : ابن خرداذبة ، الاصطخري ، ابن رسته ، ابن حوقل، ياقوت •
٢١٨ ــ انظر : لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، فتحي عثمان •
٢١٩ ــ الاصطخري ، ٦٣ •
220—E.I (2) Vol. 3, P. 192.
٢٢١ ــ فتحي عثمان ، ١/٢٤٦ •
٢٢٢ ــ الاصطخري ، ٦٢ ، البلخي ، ورقة ٥٤ •

والمصيصة والبستان وقيسارية[٢٢٣] • وهي الاخرى خصبـــة في انتاجهـا الزراعي[٢٢٤] •

الحدث :

لم يتم التعرف على موقعها بصورة نهائية ، الا أنها لا تبعـد كثيرا عن مدينة انكلي الحالية على نهر آق‌صو — حوريث سابقا — • تمتعت بأهميـة ستراتيجية كبيرة عند المسلمين لاشرافها على أحد الطرق الحربية المتوجهة من حلب الى البستان في آسيا الصغرى،وشيدت قلعتها على تل يدعى«الاحيدب» وأصبحت في ايام العباسيين نقطة ستراتيجية ، اذ كانت قاعدة لحملاتهم[٢٢٥] كما كانت عامرة بزروعها أيضا[٢٢٦] •

الهارونية :

وتحمل نفس الاسم في تركية الحديثة • وهي مدينة حصينـة تقع بين مرعش وعين زربة[٢٢٧] •

عين زربة :

وهي من الثغور المهمة عرفت بحصانة موقعهـا ، وجودة انتاجهـا الزراعي[٢٢٨] •

طرسوس :

من أكبر مدن الثغور ، تضم على الدوام الكثير من الحشود العسكرية ،

223—E.I (1) Vol. 3, P. 268.

٢٢٤ — الاصطخري ، ٦٢—٦٣ ، البلخي ، ورقة ٥٤ •

٢٢٥ — دائرة المعارف الاسلامية ، ٢٢٦/٧ •

٢٢٦ — الاصطخري ، ٦٢ — ٦٣ •

227—E.I (2) Vol. 3, P. 234.

٢٢٨ — الاصطخري ، ٦٣ ، البلخي ، ورقة ٥٥ •

من الفرسان والمشاة . وتعدّ خصبة وحصينة . وكان لمعظم المدن الاسـلامية المهمة ، مرابطون يرسلون اليها ، لذا كانت حاميتها كبيرة جدا(٢٢٩) .

أما عن رباطات السواحل البحرية ، فقد أشرنا الى ما ذكره قدامـة ، عن الربط الممتدة على طول سواحل مصر والشام ، بوصفها مواجهـة للسواحل البيزنطية التي يمكن أن تنطلق منهـا غارات وحملات بحرية على السواحل الاسلامية . لذا كانت هناك ربط في دمياط(٢٣٠) وفي الاسـكندرية ربط تضـرب أمواج البحر حيطانها.(٢٣١) فضلا عن أنه كان في صور دار لصناعة السفن الحربية(٢٣٢) .

لقد حظيت منطقة الثغور برعاية كبيرة من قبـل السلطة المركزية ، حيث جعل أبو جعفر المنصور من الجزيرة والثغور اقليمـا اداريـا مستقلا ولاه لاقاربه(٢٣٣) . ومما يروى عن مبلغ اهتمـام الخلفاء بامور الثغور ، ان بريـد أرمينية وصل ليلا ، في مرة من المرات الى دار الخلافة ، غير أن الربيع أخره عن المنصور حتى الصباح،مما أثار غضبه وسخطه عليه ، لما لبريد « الثغر الاعظم» من أهمية بالغة(٢٣٤) .

وكان يتم في العادة تولية الثغور لأفراد البيت العباسي ، وأعرب الخلفاء بذلك عن مدى اهتمامهم بامور هذه الثغور بوصفهـا الدرع الواقي من أي خطر تتعرض له الامة الاسلامية من قبل البيزنطيين(٢٣٥) . فضلا عن هذا فان منطقة الثغور كانت تعيش حالة ازدهار اقتصادي واضح ، وكما مر ذكره ، فان

٢٢٩ ــ الاصطخري ، ٦٤ .
٢٣٠ ــ الكندي ، ٢٠٣ .
٢٣١ ــ ابن رسته ، ١١٨ .
٢٣٢ ــ اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٧ .
٢٣٣ ــ حسن احمد محمود ، ١٥٦ .
٢٣٤ ــ البلاذري ، انساب الاشراف ، مطبوع ، ١٩٨/٣ .
٢٣٥ ــ انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، ١٢٨/٣ ، ابن العديم ، ٦١/١ .

معظم مدن الثغور وصفت بخصوبتها ووفرة انتاجها الزراعي ، فضلا عن آن السلطات المركزية كانت تعمل باستمرار على التخفيف من الضرائب المجبية من هذه المناطق . اذ الغى المأمون ضريبة كانت تجبى عن منازل كفربيا[٢٣٦]. وان المتوكل جعل أرض شمشاط عشرية بعد أن كانت خراجية[٢٣٧] . وذكر قدامة ايرادات مناطق الثغور ، فكان ايراد مناطق الثغور الشامية (١٠٠) ألف دينار ، في حين انها تحتاج لنفقاتها (٢٠٠) ألف دينار ، قد تصل في بعض الاحيان الى (٣٠٠) ألف دينار[٢٣٨] . أما ايرادات الثغور الجزرية فبلغت (٧٠) ألف دينار ، في الوقت الذي بلغ اجمالي نفقاتها حوالي (٢٠٠) ألف دينارعدا نفقات العمليات العسكرية ، والتي يجري الانفاق عليها في حينه[٢٣٩] . أما الثغور البكرية ، فيصل ايرادها الى مليون وثلثمائة ألف درهم ، وان مجمل اتفـاقها يصل الى (٣) ملايين درهم[٢٤٠] . فاذا احتسبنا ان الدينار يساوي (٢٢) درهما ، فان اجمالي ايرادات الثغور يصل الى (٥٫٠٤٠٫٠٠٠) درهم ، في حين ان اجمـالي انفاقها في الظروف الاعتيادية يصل الى ما يقرب من (١٢) مليون درهم ، أي ان السلطات المركزية تقدم ما يقرب من (٧) ملايين درهم لتغطية هذه النفقات ، غير ان هذا المبلغ يزداد في أثناء القيام بنشاطات عسكرية .

وفي عام ١٧٠هـ/٧٨٦ـ٧٨٧ م ، عزل الرشيد « الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيزا واحدا وسميت بالعواصم . »[٢٤١] في حين ان البلاذري كان أكثر وضوحا بقوله : « وأفرد منبج ودلوك ، ورعبان ، وقورس ، وأنطاكية

---

٢٣٦ ـ قدامة ، ٣٠٨ .
٢٣٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٠٣ .
٢٣٨ ـ الخراج ، ١٨٦ .
٢٣٩ ـ المصدر السابق ، ١٨٧ .
٢٤٠ ـ المصدر السابق ، ١٨٨ .
٢٤١ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٣٤ .

وتيزين ، وسماها العواصم .»[٢٤٢]. فالفرق بين العبارتين واضح تمام الوضوح ، فالطبري جعل الثغور ضمن منطقة العواصم ، الا أن البلاذري ذكر المناطق التي سبق لها وكانت ثغور في فترات سابقة ــ كما مر بنا ــ وفي هذه الفترة شكلت الخط الدفاعي الذي يلي الثغور ــ الخط الدفاعي الاول ــ . وبخطوة الرشيد هذه ، شكل اقليم العواصم اقليما اداريا مستقلا عن الجزيرة وقنسرين . أما الغاية من ايجاد هذا الاقليم ، على ما قال البلاذري ان تعصم المسلمين وتحميهم اذا عادوا من نشاطهم العسكري وخرجوا من منطقة الثغور[٢٤٣] . أي ان اقليم العواصم أصبح بما يسمى في المصطلح العسكري الحديث بمنطقة « المثابة » التي تتجمع فيها القوات العسكرية بعد انهاء مهماتها القتالية لاعادة تنظيم الصفوف من جديد . كما أنه يجب أن يفهم من كلمة « عاصم » انها « الواقي من الخطر » ، ولما كان هناك خط دفاعي أول تمثل بخط الثغور ، فان اقليم العواصم في هذه الحالة يكون الخط الدفاعي الثاني . وذكر قدامة أنها سميت عواصم ، لانها تعصم الثغر وتمده في اوقات النفير[٢٤٤] . وهناك اذن وظيفة أخرى لاقليم العواصم ، تمثل في كونه ظهيرا لخط الثغور يمده بالتعزيزات عند الحاجة .

أما عن قصبة هذا الاقليم ، فيبدو انه لم يكن هناك اتفاق بين البلدانيين حول هذه المسألة . فالبلاذري جعل من منبج قصبة للاقليم[٢٤٥] . في حين جعل آخرون من انطاكية قصبة له[٢٤٦] . وهنا اقترح تفسيرين لهذه المسألة ، الاول : ان كلتا المدينتين كانتا قصبتين للاقليم ، في فترتين مختلفتين . فأولا

---

٢٤٢ ــ فتوح ، ١/١٥٦ .
٢٤٣ ــ نفس المصدر والصفحة .
٢٤٤ ــ الخراج ، ١٨٦ .
٢٤٥ ــ فتوح ، ١/١٥٦ .
٢٤٦ ــ ياقوت، ٤/١٦٥، ابن حوقل، ابن عبدالحق ، مراصد الاطلاع ١، ١٢٤/١، ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ٢٠١ ، البلخي، ورقة ٥٤ .

كانت منبج هي القصبة ، ثم أعقبتها بعد ذلك أنطاكية • أي أنه في الفترات التي شهدت قوة الدولة العباسيةوقدرتها الفائقة على توجيه العملياتالعسكرية لصالحها ، مما استلزم من والي اقليم العواصم أن يكون قريبا من خط الثغور ليمارس اشرافه المباشر على هذه المنطقة• وبما أن منبج هي الاقرب من انطاكية الى خط الثغور ، لذا فانها في هذه الفترة كانت هي قصبة الاقليم ، أما في الفترات اللاحقة ، التي شهدت انحسارا في النشاط العسكري للدولةالعباسية وتفوقا من الجانب البيزنطي ، أصبحت انطاكية قصبة للاقليم ، وربما تجنبا للخطر البيزنطي • أما التفسير الثاني : فهو أن تكون كلتا المدينتين قصبتين للاقليم في آن واحد ، وذلك استنادا الى ما جاء عند قدامة ، اذ أشار الىوجود عواصم خاصة بالثغور الشامية وهي انطاكية والجومة وقورس[٢٤٧] •وعواصم أخرى خاصة بالثغور الجزرية وهي دلوك ورعبان ومنبج[٢٤٨] • ففي هذه الحالة تكون هناك قصبة لعواصم الثغور الشامية وهي انطاكية ، وقصبة لعواصم الثغور الجزرية وهي منبج،يقيم في احداهما والي الاقليم وفيالاخرى نائبه • على أننا نرجح التفسير الاول للمسألة •

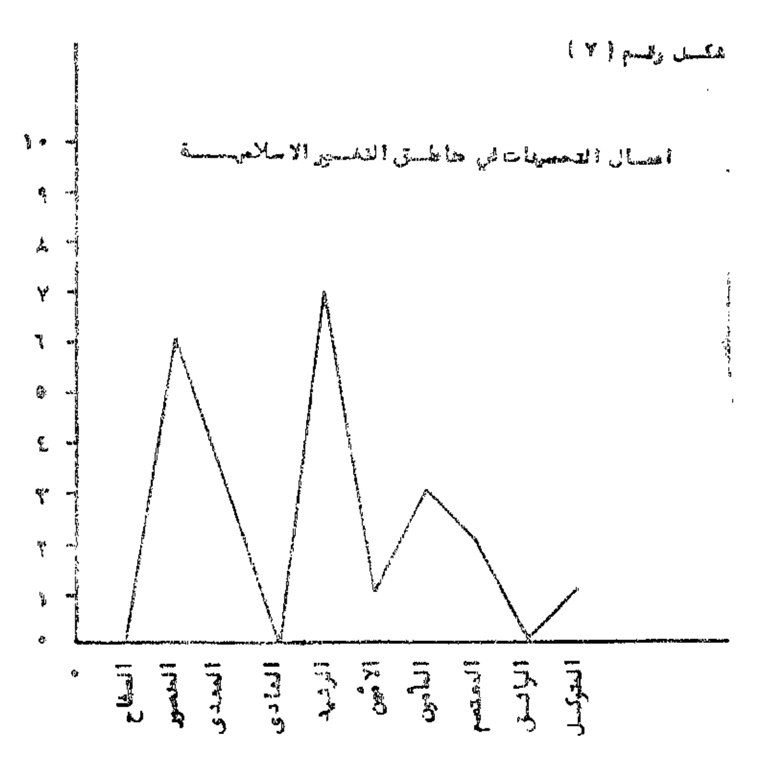
وأخيرا لابد من ملاحظة مدى اهتمام السلطة المركزية بأمور التحصينات والاستحكامات العسكرية في مناطق الثغور ، ويدلنا الشكل رقم ـ٧ـ على الفترات الزمنية التي برز فيها اهتمام السلطة المركزية بهذا الامر • اذ ظهرت فترتان رئيستان شهدتا مثل هـذا الاهتمام ، تمثلت الاولى في فترة حكم المنصور ، وهو أمر طبيعي جدا ، ففي هذه الفترة سعت الدولة الى تثبيت أركانها وتعزيز وجودها في السلطة ، كما أنه لا تتوفر فرص كافية للقيام بنشاط عسكري واسع في مناطق التخوم ، وفي ضوء توقع قيام العدو باستغلال هذه

---

٢٤٧ ـ الخراج ، ١٨٦ •

٢٤٨ ـ المصدر السابق ، ١٨٧ •

الاوضاع الداخلية ، لشن غارات على مناطق التخوم • الأمر الذي دفع السلطة المركزية الى تحصين هذه المناطق وبناء الاستحكامات فيها، فشهدت فترة حكم المنصور تعمير وتحصين الثغور التالية : قاليقلا وملطيـــة ومرعش وزيطرة والمصيصة وأذنه وقلوذية(٢٤٩) • وفي الوقت نفســه اهتم المنصور بالمنـاطق الساحلية فحصنها ورممها(٢٥٠) • أما الفترة الاخرى التي شهدت نشاطا واسعا في الثغور ، فهي فترة حكم الرشيد ، حيث بلغ نشاطه الذروة في هذا المجال، حتى ذكر عنه انه بنى ثمانية ثغور(٢٥١) • وهذه الثغور هي : الحدث وزبطرة



٢٤٩ ـ ابن خيـــاط ، تاريخ ، ٦٤٧/٢ ، البلاذري ، فتوح ، ١٩٦/١ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ١٣١/٣ ، قدامة، ٣٠٨، ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، الازدي ، ١٧١ ، ١٧٣ .

٢٥٠ ـ البلاذري ، فتوح ، ١٩٣/١ .

٢٥١ ـ اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ٢٤ـد٢ .

وكفربيا وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء وطرسوس[٢٥٢] . وتوافق مع نشاط الرشيد هذا ، تصعيده للعمليات العسكرية على التخوم ــ كما سيرد لاحقا ــ اذ انه حرص حرصا شديدا على توطيد أمن واستقرار الدولة ورد أي خطر تتعرض له . وبصورة أقل أسهم خلفاء آخرون في تدعيم منطقة التخوم، فقد قام المهدي بتحصين ثلاثة من الثغور المهمة هي: الحدث وطرسوس وحصن منصور[٢٥٣] . وقام المأمون بدور مماثل اذ قام بتحصين كل من زبطرة وكفربيا والطوانة ، التي نوى أن يجعل منها مركزا للقيام بعمل عسكري واسع النطاق[٢٥٤] . أما المعتصم فقام باعادة بناء وتحصين زبطرة وقاليقلا[٢٥٥] . أما بقية الخلفاء العباسيين فقد كان نشاطهم محدودا في هذا المجال . فأما بالنسبة لابي العباس ، فان الاوضاع السياسية والمالية لم تمكنه من القيام بهذا النشاط . في حين ان فترة الحكم القصيرة للهادي لم تمكنه من ممارسة هذا النشاط . وان الصراع الدامي للامين والمأمون لم يمكن الاول من ذلك . وبالنسبة للواثق والمتوكل ، فان أوضاع البلاد المالية والسياسية لم تمكنهما من القيام بدورهما في هذا المجال . وهنا لا يفوتنا أن نذكر دور بعض نساء البيت العباسي ، فأم جعفر بنت جعفر بن المنصور أنفقت أموالا كبيرة في اقامة المباني العامة والخيرية في مناطق الثغور ، وبلغت قيمة هذه الاموال (١٠٠) ألف دينار[٢٥٦] . اذ أن ذلك يعد من أعمال الجهاد . وكان لبعد العاصمة

---

٢٥٢ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، الطبري ، التاريخ ، ٨/٢٣٤ ، قدامة ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، الازدي ٢٦٢ ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١١٣ .

٢٥٣ ــ ابن خياط ، ٢/٦٩٢ ، البلاذري ، فتوح ، ١/٢٠٠ ، قدامة ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١١٣ .

٢٥٤ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٨ ، قدامة ، ٣٠٨ ، ٣٢١ .

٢٥٥ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٨ ، ٢٣٦ ، قدامة ٣٢١ .

٢٥٦ ــ اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ٢٦ .

العباسية عن مناطق التخوم ، دور مهم في هذا التوجه نحو تحصين هذه المناطق وتأمين استحكاماتها ، فكان لابد للسلطة المركزية ــ وهي البعيدة ــ من أن تطمئن الى أن الثغور محصنة وآمنة من أي اعتداء قد تتعرض له(٢٥٧) .

ومن الطبيعي جدا أن يرافق هذه السياسة ، القيام بتعزيزات مستمرة للحاميات العسكرية في مناطق الثغور وادامة شحنها بالرجال والمقاتلة ، حتى تكون قادرة على القيام بواجبها الدفاعي . ولان المرابطة في الثغور ، حالة استثنائية يعيشها الجندي المرابط ، تختلف عن حالة جندي آخر في معسكرات المدن الداخلية في بقية أقاليم الدولة . لذا كان لا بد للسلطة المركزية من مراعاة هذه الحالة ، فعمدت الى زيادة مرتبات هؤلاء الجند المرابطين ، ومنحهم الاراضي الزراعية والمساكن . ولا أظن ان مثل هذه الاجراءات ــ الطبيعية والاعتيادية ــ كانت بحاجة الى تقليد للنظام البيزنطي المتبع بهذا الخصوص ، كما يظن البعض(٢٥٨) . فاذا كان النظام البيزنطي يشترط لمنح الاراضي الزراعية للجنود في مناطق التخوم ، أن تكون الخدمة العسكرية وراثية في اسرهم ، فان الدولة العباسية لم تشترط مثل هذا الشرط . ان هذه الاجراءات متوقعة ولا تحتاج الى تقليد الآخرين لتعلمها ومعرفتها .

وفي هذا الصدد ، قام الخليفة أبي العباس بتعزيز حامية المصيصة بـ(٤٠٠) مقاتل منحهم أراضي زراعية . وأعقبه المنصور باجراء مشابه بأن أمدها بـ(٤٠٠) آخرين . وفي عام ١٤٠هـ/٧٥٧ــ٧٥٨م نقل اليها أهل الحصون المجاورة وعوضهم فيها عن منازلهم . وعند مجيء المهدي أرسل الى المصيصة ألفي مقاتل لتعزيزها ، غير أنهم في هذه المرة لم يمنحوا أرضا زراعية(٢٥٩) . ومن

---

٢٥٧ ــ مصطفى علي الحياري ، طرسوس مدينة الثغور الشامية ، بحث منشور ، ٥١ .
٢٥٨ ــ عبدالرؤوف عون ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، ٢٩٣ .
٢٥٩ ــ قدامة ، ٣٠٨ ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١١٣ .

الامثلة الاخرى على هذه السياسة ، قيام الرشيد بتعزيز حامية أذنة في أواخر حكمه بأن زاد في اعطياتهم[٢٦٠] • فضلا عن نقل أعـداد كبيرة من العرب من الجزيرة والعراق واسكانهم في دبيل وقاليقلا والمنـاطق الاخرى شمال بحيرة وان[٢٦١] • واستمر ارسال مثل هذه التعزيزات الى مناطق الثغور طيلة العصر العباسي الاول • حتى أن المعتصم نقل الزط المشاغبين من جنوب العراق الى الثغور ، فنقل (٢٧) ألفا منهم الى عين زربة ، وعدد المقاتلة بينهم كان يقرب من (١٢) ألفا[٢٦٢] •

وقدم لنا قدامة تحديدا للاوقات المناسبة لعمليات الهجوم والاغارة على الاراضي البيزنطية ، وهي أوقات متفق عليها في مثل هذه العمليات • اذ يبدأ الهجوم الربيعي بعد مرور عشرة أيام من شهر أيار ، أي بعد أن يبدأ الربيـع بالانتهاء ، فتكون الخيل قد أربعت وقويت ، ويقيم المهاجمون في الاراضي البيزنطية (٣٠) يوما ، حيث يجدون فيها ربيعاً ثانياً ، بفعل تلطف درجات الحرارة في هذه المناطق ، فتربع الخيول ربيعا ثانيا ، فيعودون بعد انقضاء عشرة أيام من حزيران • ثم يقيم المهاجمون في مناطق الثغور (٢٥) يوما ، يتم خلالهـا التهيوء لهجوم الصائفة ، التي تستمر (٦٠) يوما لحين العودة • أما الشاتيـة ــ فاذا كان لابد منها ــ فانه يجب أن لا تستمر اكثر من مسير (٢٠) يوما في عمق الاراضي البيزنطية ، أي بمقدار ما يحمل المقاتل من مؤونة له ولفرسـه ، على أن يكون ذلك في آخر شباط فيقيمون بضعة أيام من آذار ، يكون العدو خلالها في أضعف حال ، هو وخيله[٢٦٣] •

---

٢٦٠ ــ قدامة ، ٣٠٩ ــ ٣١٠ •

261—Norman Douglas Nicol, P. 85.

٢٦٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٠ •

٢٦٣ ــ الخراج ، ١٩٢ ــ ١٩٣ •

٦ ـ الجيش العباسي :

يعدّ الجيش العباسي مرحلة متقدمة ومتطورة في تاريخ الجيوش العربية الاسلامية، فهو أول جيش نظامي من حيث المصطلح المتعارف عليه في النظم العسكرية[٢٦٤] . اذ أصبح هذا الجيش دائما له معسكراته الثابتة ، كما أصبحت الجندية حرفة يلتزم أصحابها بالتكيف وفق ظروف هذه المهنة والانضباط بتعليماتها الخاصة .

وثمة دوافع أساسية كمنت وراء هذا التحول ، فأولا وكما أسلفنا ، فان الجندية أصبحت مهنة وحرفة ثابتة ومصدر الرزق الوحيد للجندي الذي ليس له مصدر غيره . ثانيا ، وهو الاهم ، ان الدولة العباسية مثلت مرحلة الركون الى الاستقرار وتركز مؤسسات الدولة وفق نظم ثابتة ، فكان الجيش بطبيعة الحال واحدا من هذه المؤسسات التي مالت الى التبلور والاستقرار .

وسبب آخر ، تمثل في أن من أسباب سقوط الدولة الاموية ، افتقارها الى جيش نظامي ثابت ودائم ، فاستفاد العباسيون من نقطة الضعف هذه ، فجعلوا جيشهم نظاميا ثابتا[٢٦٥] . وسعى العباسيون في أن يكون ولاء جيشهم للدولة لا للقبيلة[٢٦٦] . وآية ذلك أن تسجيل الجند في الدواوين قام على أساس مناطق سكنهم وليس على أساس انتمائهم القبلي[٢٦٧] .وكان لهذه العملية أثر مهم في انحسار النزعة القبلية من الجيش العباسي . أما أن تكون انتصارات الجيش وولاء قيادته للسلطة الحاكمة وحاجة الدولة الماسة اليه ، سببا في هذا التحول[٢٦٨] . وهذه العوامل وحدها لا تكفي ، لانها كانت

---

٢٦٤ ـ فاروق عمر ، الجند الاموي والجيش العباسي ، بحث منشور ، ٢٣٧ .
٢٦٥ ـ نفس المرجع والصفحة .
٢٦٦ ـ نفس المرجع والصفحة ، انظر كذلك :
٢٦٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٣٦٦/٧ .
٢٦٨ ـ نزار محمد قادر ، الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة العربية الاسلامية ، ١٥٤ .

متوافرة في الفترات السابقة لقيام الدولة العباسية ، ومع هذا لم يتحول الجيش الى جيش نظامي ودائم .

ولغرض تأكيد الطابع النظامي للجيش ، عملت السلطة المركزية على بناء معسكرات ثابتة له . ولعل بناء بغداد والرصافة وسامراء كان أساسا لاغراض عسكرية . اما أن يكون بناء معسكرين ـ هما بغداد والرصافة ـ قصد منه ضرب أحد الجيشين بالآخر اذا ما تمرد أحدهما[٢٦٩] . فلا يمكن أن يكون هذا الدافع ـ الغارق في التبسيط ـ السبب الحقيقي لذلك . بل أن السبب يكمن في ذلك التوسع الكبير الذي أصاب هذه المؤسسة المهمة . وكان لابد من مجاراة هذا التوسع في بناء المعسكرات ، حتى تتمكن من استيعاب هذا العدد المتزايد من الجند . ثم أن الجيش نفسه كان أكثر من فرقة ، مما حتم ايجاد أكثر من معسكر لهذه الفرق ، لتكون قادرة على اجراء تدريباتها دون تداخل أو اضطراب ، وان معسكرا واحدا لا يمكنه استيعاب هذا العدد الكبير من الجند . ناهيك عن أن بغداد نفسها أصبحت مدينة سكنية ، وليست معسكرا فقط . فكان لابد من بناء الرصافة للجيش . وأشرف الخلفاء بأنفسهم على اعداد جيوشهم وتدريبها واستعراضها ، اذ استعرض المنصور جيشه ، مرتديا مع أهل بيته وقادته الزي العسكري[٢٧٠] .

أما بخصوص الطابع الذي طبع به الجيش العباسي ، فقد تراوحت الآراء بين جعله فارسيا ، تسيطر عليه العناصر الفارسية أفرادا وقادة ، وانهم ـ أي الفرس ـ وضعوا حدا نهائيا لنفوذ العرب في الجيش[٢٧١] ، وبين آراء ردت

---

٢٦٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٨ـ٣٩ ، فاروق عمر ، الجند الاموي والجيش العباسي ، ٢٣٧ .
٢٧٠ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٥٢ .
٢٧١ ـ كاهن ، ١٦٦ ، حسيني ، ٤٠٧ ، عبدالرؤوف عون ، ٢٩١ ، حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٣/٤٠٥ .

على ذلك بتأكيد الصفة العربية للجيش العباسي[٢٧٢] . وفي مرحلة لاحقة من تاريخ هذا الجيش ، أضفى البعض عليه صفة تركية مطلقة[٢٧٣] . ان كلاً من هذه الآراء حاول الميل بقدر أو بآخر ، الى المبالغة في تقدير ظواهر الامور . وانه ليس ميلاً الى الحلول التوفيقية ، أن نعـد الجيش العباسي ، جيشاً اسلاميا ، لم يكن يحمل صبغة طاغية لاي من الجماعات المكونة له . لان الدولة العباسية في تكوينها وبنائها للجيش انطلقت من أهدافها وشعاراتها في المساواة بين المسلمين ، وكما أن الواقع الاداري للدولة قد عبر عن هذه الصيغة الاسلامية ، فكذلك كان الجيش العباسي اسلاميا ضم مجموعات عربية وأخرى غير عربية . مع ثقل كمي ونوعي أكبر للعرب ، متمثلا بالفرق العربية في الجيش وبقادته المبرزين الذين قادوه في هذا العصر مثل : خازم بن خزيمة وقحطبة الطائي وهرثمة بن أعين ويزيد بن مزيد الشيباني وحميد بن قحطبة الطائي وغيرهم .

فئات الجيش :

تكوّن الجيش العباسي من ثلاث فئات أساسية هي :

١ ـ الفرق النظامية :

وهم المرتزقة يقبضون مرتبات ثابتة من خزينة الدولة ، ومثبتون في الديوان[٢٧٤] . وشكّل هؤلاء الجزء الاساس والاكثر حيوية في المؤسسة العسكرية ، بحكم تدريبهم المستمر واشراف قادتهم عليهم .

---

٢٧٢ ـ فاروق عمر ، الجند الاموي والجيش العباسي ، ٢٣٨ .
٢٧٣ ـ كاهن ، ١٦٧ .
٢٧٤ ـ نعمان ثابت ، الجندية في الدولة العباسية ، ١٩٧ ، حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٢/٤٠٣ .

٢ ـ المتطوعة :

وهؤلاء ليسوا مثبتين في الديوان ، ومصدرهم الاساس العرب والبدو وسكان القرى والامصار الذين يخرجون للنفير استجابة لداعي الجهـاد في سبيل الله(٢٧٥) . ويتقاضى هؤلاء مرتبات خلال فترة خدمتهم العسكرية الفعلية فقط(٢٧٦) . غير ان من العيوب التي امتاز بها هؤلاء المتطوعة ، عدم انضباطهم التام والكامل ، لقصر فترة خدمتهم العسكرية قياسـا الى الجند النظامي ، فضلا عن ذلك فان بامكانهم العودة اذا ما أحسوا أن المعركة ستطول أكثر مما يجب ، وهذا عين ما فعله المتطوعون الذين اشتركوا في الحملة المتوجهة الى بابك الخرمي(٢٧٧) .

٣ ـ البعوث :

وهم غير الجند النظامي ولا المتطوعة(٢٧٨) . فاذا ما اضطرت الدولة الى تجنيد اعداد اضافية من المقاتلين لمواجهة ظروف خاصة ، فان للخليفة أن يطلب من أقاليم الدولة أن تمده بعدد معين من الجند يحدده الخليفة نفسه مسبقا . كما فعل المأمون عندما كان يستعد للقيام بعمل عسكري واسـع في الاراضي البيزنطية قبيل وفاته ، اذ فرض الفروض على أقاليم الدولة(٢٧٩). وثمة طريقة أخرى يتم فيها تحديد من يشترك في البعوث ، فقد فرض المنصور على أهل البصرة والكوفة : ان على من يمتلك منهم (١٠) آلاف درهم فصاعدا أن يشترك بنفسه في جهاد الديلم(٢٨٠) . وهذه البعوث هي أشبه ما يكون بالنفير الجزئي الذي تضطر اليه الدولة في حالات معينة .

---

٢٧٥ ـ نعمان ثابت ، ١٩٧ .
٢٧٦ ـ حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٢/٢٠٣ـ٢٠٤ .
٢٧٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٤١ .
٢٧٨ ـ نعمان ثابت ، ٢١٣ .
٢٧٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٣١ .
٢٨٠ ـ المصدر السابق ، ٧/٥١٥ .

أصناف الجيش :

١ ــ الفرسان :

وهم بطبيعة الحال الصنف الاكثر حيوية في الجيش ، بحكم ما يتمتع به هذا الصنف من سرعة في الحركة وقدرة أكبر على المناورة . واستخدمت الجيوش الاسلامية الخيالة في الاجنحة على العكس مما كان شائعا عند الساسانيين والبيزنطيين،الذين جعلوا الخيالة في الصفوف الامامية أو الخلفية. ان استخدام الفرسان في الاجنحة يعطيهم حرية أكبر في الحركة[٢٨١] . أما أهم واجبات الفرسان فهي :

١ ــ الاستطلاع ، ٢ــ الاغارة على العدو ، ٣ــ المطاردة ، ٤ــ حماية الجيش في أثناء تنقله ، ٥ ــ حماية قوافل الامداد والتموين ،٦ــ حماية الجيش في أثناء المعركة.[٢٨٢] ، ٧ ــ السيطرة على المواقع المهمة في ساحة القتال لمنع استفادة العدو منها ، ٨ــ عمل الكمائن للعدو[٢٨٣] . وأسلحة الفرسان عادة هي السيوف والرماح الطويلة والحراب ويلبسون الدروع[٢٨٤] .

المشاة :

وهم غالبا ما يكونون العدد الاكبر في الجيش ولهم دورهم المهم في القتال وبعد انتهائه . فاذا كان من واجب الفرسان مطاردة العدو المنهزم ، فانه يترتب على المشاة الامساك بالاماكن التي تتم السيطرة عليها ، والاستمكان في القلاع والحصون للدفاع عنها أمام غارات العدو .

---

٢٨١ ــ نعمان ثابت ، ١٣٥ .
٢٨٢ ــ جهادية القرغلي ، ١٦٥-١٦٦ .
٢٨٣ ــ الهرثمي ، مختصر سياسة الحروب ، ٣٩ .
٢٨٤ ــ نعمان ثابت ، ١٣٨ .

وأسلحة المشاة في العادة هي السيوف والحراب والرمـاح والسهام ، ويلبسون الدروع ويحمون رؤوسهم بالخوذ ويتقون ضربات السيوف والرماح بالدرق وغيرها . ويجب أن يكون أمراء المشاة من الفرسان (٢٨٥).

٣ ـ رجال الحصار :

وهم وان كانوا عـادة من المشاة ، الا أنهم يختلفون عنهم في طبيعـة الواجبات ، اذ أن واجبهم الاساس دك الحصون والقلاع وفتح الثغرات فيها أمام الجيش لاقتحامها . وأبرز أسلحتهم المنجنيقات والعـرادات والدبابات ورأس الكبش(٢٨٦) . ومعهم أيضا النفاطون ، الذين يرمون الحصون بالنفط المحترق(٢٨٧) . وعندما حاصر المعتصم عمورية استعمل الجيش دبابات ، تتسع الواحدة منها لعشرة رجال(٢٨٨) . وامتلك بعض رجال هـذا الصنف ملابس خاصة بهم يخترقون بها النار ، وهو ما حدث في احدى حملات الرشـيد على نقفور(٢٨٩) .

وتفنن الجيش العباسي في أساليب محاصرة القلاع والحصون ، وعرف أنواعها من قلاع شامخة وآكام ومطامير وغير ذلك . ولكل منها طريقة خاصة في حصارها(٢٩٠) . واتبع رجال هذا الصنف وصايا خاصة في عمليات الحصار من قبيل : اذا كان بالامكان مفاجأة أهل الحصن بالفرسان فيعد ذلك أفضل تدبير . فاذا لم يكن ذلك ممكنا ، فيجب العمل على اخراج أهـل الحصن من حصنهم ، وهو ما يكفل تحقيق النصر التام . واذا كان لابد من الحصار ، فانه

---

٢٨٥ ـ نعمان ثابت ، ١٣٨ـ١٣٩ .
٢٨٦ ـ للمعلومات عن هذه الاسلحة انظر عبدالرؤوف عون ، ١٥٦ـ١٥٧ .
٢٨٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٤٤٦/٨ .
٢٨٨ ـ المصدر السابق ، ٦٥/٩ .
٢٨٩ ـ الاصبهاني ، الاغاني ، ٤٥/١٧ .
٢٩٠ ـ الهرثمي ، ٥٦ـ٦٠ .

يجب أولا احكامه بجيش يستحيل دخول أحد الى الحصن أو الخروج منه ؛ لقطع الاتصال تماما بين أهل الحصن والآخرين خارجه حتى وان كان بالاشارة أو الكلام ، ثم العمل ثانيا على انزال الرعب في نفوس المحاصَرين لاضطرارهم الى الاستسلام ، ويجب ثالثا الحذر من رسلهم ، ثم لابد من معرفة دقيقة بأماكن الضعف والوهن والقوة في الحصن ، واستطرد الهرثمي في تفاصيل كيفية اتمام الحصار بشكل ناجح[٢٩١] • ويعد حصار المعتصم لعمورية نموذجا جيدا لدراسة فنون وأساليب الحصار التي اتبعها الجيش العباسي • فمن بين الاجراءات التي تشدد فيها المعتصم اتخاذه الفرسان على شكل نوائب يحرسون الاسوار لمنع دخول أحد أو خروجه من الحصن[٢٩٢] مما كان له أثره في كسر معنويات العدو وجعله يائسا من الخلاص •

يضاف الى هذه الاصناف الاساسية من الجيش ، أصناف أخرى ليست أقل أهمية ، بل تعدّ من العوامل الرئيسة في انجاح العمل العسكري ، وهذه الاصناف أو الفرق هي :

١ ـ فصيل الاستخبارات :

ويبدو أنه حظي باهتمام كبير وبالغ من لدن السلطة المركزية ، لدوره في التمهيد للعمليات العسكرية ، بما يقدمه من تقارير لازمة يبنى عليها نجاح الخطط العسكرية • وقدم الهرثمي العديد من التوجيهات بشأن التعامل مع أفراد هذا الفصيل وكيفية الاستفادة منهم ، بل والاستفادة من جواسيس العدو نفسه[٢٩٣] • وكان للسلطة المركزية استخباراتها في الدول المجاورة حيث قدم هؤلاء تقارير منظمة للجهات الرسمية عن المهمات التي أُنيطت بهم • وعمل

---

٢٩١ ـ المصدر السابق ، ٥٧ـ٦٠ •
٢٩٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٦٤ـ٦٥ •
٢٩٣ ـ الهرثمي ، ٢٢ـ٢٥ •

أحد أفراد استخبارات الرشيد لمدة (٢٠) سنة في الاراضي البيزنطية دون أن يتم كشفه • ومن التقارير التي قدمها هؤلاء اتخذ ابن خـــرداذبة وصفـه للامبراطورية البيزنطيـة وأوضاعهـا الداخلية العسكرية والاقتصـــادية والسياسية[٢٩٤]• وكانت السلطة المركزية تتبين دائما الاوضاع الخاصة بالعدو ــ كما سيمر بنا تباعا ــ ودعي أعضاء الاستخبارات هؤلاء بالكوهبانية[٢٩٥]•

٢ ــ ويرافق الجيش أيضا فصيل من المهندسين «الفعلة» ومنهم أصحاب الفؤوس والمكاتل والمناسف التي يتم بها قلع البناء وتهديمـه ، ومنهم الذين يزيحون الثلوج من أمام الجيش في أثناء تقدمه ، ومنهم أيضا الذين يعقدون الجسور على الانهر والقنوات ، وكل ما شابه ذلك من الاعمال[٢٩٦] • ويطلق على هؤلاء عادة « الكلغرية »[٢٩٧] •

يضاف الى هؤلاء الاطباء الذين لابـد منهم لاسـعاف جرحى المعارك ومعالجتهم ، وهناك أيضا المجموعات المكلفة بحمل الاثقال الخاصة بالجيش من مؤن وأسلحة ومخيمات وهم أشبه ما يكون بفصائل الخدمة المدنية •

أما عن التعبئة ، فقد أدركوا ضرورتها وأهميتها ، وانه لا بد من اتخاذها عند المسير مهما بعدت الشقة عن العدو ، ولا يجوز انتظار الاقتراب منه للبدء باتخاذها[٢٩٨] • وأبرز أشكال التعبئـة هو نظام الخميس أو الخماس ، وفيه يقسم الجيش الى خمسة أقسام رئيسة هي : الميمنة والميسرة في الجناحين،ثم المقدمة والساقة ، وتكون المقدمة في طليعة القلب والساقة وراء الجيش•ولهذا النوع من التعبئة فوائد عدة ، فهي تعطي فرصة أفضل للمناورة وقدرة أكبر

---

٢٩٤ ــ حسيني ، ٤١٨ــ٤١٩ •
٢٩٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٤ •
٢٩٦ ــ نعمان ثابت ، ١٥٢ ــ ١٥٣ •
٢٩٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٣٢ •
٢٩٨ ــ الهرثمي ، ٢٥ــ٢٦ •

على الثبات وحماية أكثر على المسير[٢٩٩] • وفي الوقت نفسه لها سلبياتها ، اذ يصعب أحيانا السيطرة على الجيش خصوصا اذا ما كان كبيرا جـدا أو اذا تفرقت القوة وتبعثرت على نطاق واسع ، وترتب عليه عـدم رؤية كل قسـم للقسم الآخر ، مما يعيق ايصال التبليغات والتعليمات بسهولة ويسـر[٣٠٠] • ويبدو ان هذا الشكل من التعبئة كان الاكثر شيوعا في العصر العباسي الاول ، اذ جرى اتباعه في الحروب الداخلية والخارجية على السواء[٣٠١] • وثمـة أشكال أخرى للتعبئة منها : الكر والفر ونظام الصفوف أو الزحف ونظـام الكراديس ونظام الانفتاحات[٣٠٢] • وكل واحد من هذه الاشكال له ظروفـه وحالاته الخاصة •

ومن خلال ما قدمه الهرثمي في كتابه ــ المعاصر لهذه الفترة ــ ويعـد كتابه بحق مهماً في الستراتيجية والتكتيك ، ومن خلال ما قدمـه الطبري من تفاصيل المعارك التي جرت في هذه الفترة ، ولا سيما معركتي : الافشين مـع بابك الخرمي ومعركة اقتحام عمورية ، يمكن أن نلحظ مدى الكفاءة العالية التي تمتع بها الجيش العباسي ، ومقدرته الفائقة على انجاز المهام الموكلة اليـه وبفعالية عالية • الامر الذي يعكس مدى الاهتمام البالغ الذي أولته السلطة المركزية لهذه المؤسسة المهمة بحكم قيامها بمهمة الدفاع عن حوزة المسلمين • وحوت كتب الادب المعاصرة لهذه الفترة الكثير من النصـائح والتوجيهات بشأن القتال ، حيث أكدت على ضرورة التنبه واليقظة والحذر واذكاء العيون وضرورة المشاورة مع من يكون ثقة وذا رأي وحكمة ، والتأكيـد أيضا على ضرورة حفظ الاسرار والاحتراز من جواسيس العدو[٣٠٣] ، كما أن الجهات

---

٢٩٩ ــ نعمان ثابت ، ٢٢٩ ــ ٢٣١ •

300—Reuben Levy, The Social Structure of Islam, P. 434.

٣٠١ ــ انظر : الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٩٨ ، ٨/٤٠٩ــ٤١٠ ، ٩/٦٣ •

٣٠٢ ــ انظر : نعمان ثابت ، ٢٣٣ــ٢٤٩ ، كذلك : Levy, P. 467.

٣٠٣ ــ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ١/٢٧ــ٢٨ ، ٣٢ ، الهرثمي ، ٢١ــ٢٣ •

الرسمية كانت تؤكد باستمرار ضرورة مراعاة القادة لجندهم وعدم التفريط بهم من أجل غنيمة أو ربح سريع ، فالقائد « تاجر الله لعبـاده »[٣٠٤] وكانت أوامر تولية القادة وولاة الثغور والصوائف والشـواتي تتضمن جملة من التوجيهات تؤكد على الالتزام بها ، ويبدأ الامر بالدعوة الى التمسك بتقوى الله وخشيته ، ثم تعهد الجند بالرعاية وتفقدهم وتفقد أسلحتهم ، ومن ثم رعاية الثغور ومصالحها ، وغيرها من التوجيهات الضرورية الاخرى[٣٠٥] .

وثمة مسألة أخيرة مهمة لابد من الخوض فيها ، وهي تعـداد الجيوش العباسية ، فالمصادر التاريخية ، لم تشر الى حقيقـة ما مثبت في الدواوين من اعداد الجيش النظامي ، بيد أنه وردت اشارات متفرقة لاعداد الجنـد الذين شاركوا في بعض الحملات ، مثل الحملة التي قادها الرشيد لفتح هرقلة ، اذ شارك فيها من الجند النظامي (١٣٥) ألفا يضاف اليهم الاتبـاع والمتطوعـة وغيرهم[٣٠٦] . وهنا لابد من السؤال عن مدى امكان حشد مثل هذا العدد الهائل من الجند النظامي . ثم انه يجب أن يضاف الى هذا الرقم ، رقم آخر مثله ــ في أقل تقدير ــ يمثل بقية الجيش النظامي الذي بقي لحماية الاوضاع الداخلية من أي اضطراب ، وهو أمر متوقع جدا حسب ما مر بنا . وهنـاك اشارات أخرى تعود الى هذه الفترة أيضا ، فقد ذكر ان الفضل البرمكي أنشأ جيشا في خراسان بلغ تعداده (٥٠٠) ألف مقاتل ، أرسل منهم الى بغداد (٢٠) ألفا[٣٠٧] . وفي هذه الحالة أيضا لابد من اثارة الشكوك حول صحة مثل هذه الارقام . وجاء في الطبري ان المنصور قال عند قيام حركة ابراهيم أخي محمد النفس الزكية : « والله ما أدري كيف أصنع ، والله ما في عسكري الا ألفـا

---

٣٠٤ ــ ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ١/١٠٩ .
٣٠٥ ــ قدامة ، ٤٥ــ٤٩ .
٣٠٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٢٠ .
٣٠٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٥٧ .

رجل ، فرقت جندي ، فمع المهدي بالري ثلاثون ألفا ، ومع محمد بن الاشعث بافريقية أربعون ألفا ، والباقون مع عيسى بن موسى ، والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفا »[٣٠٨] • وفي رواية مشابهة للذهبي ، يفهم أن جيش المنصور بلغ حوالي (٧٦) ألفا كانوا موزعين بحسب ما ذكر الطبري آنفا[٣٠٩] • ويبقى ان هذا الرقم أو ما يقاربه زيادة أو نقصانا هو الاكثر قبولا وانسجاما مع ظروف تلك الفترة وامكانياتها التقنية على توفير حاجة هؤلاء الجند من مؤن وسلاح ومعسكرات وغير ذلك • ولا بأس أن يكون هذا الرقم قد تزايد بعض الشيء خلال الفترة اللاحقة ، بما يتماشى مع الازدهار الاقتصادي • الا أنه على أية حال لا يمكن أن نستشف نتائج دقيقة عن عدد الجند مما قدمته المصادر التاريخية •

أما المراجع الحديثة ، فهي الاخرى لم تعطِ أكثر من تعميمات غامضة حول هذه المسألة ، اذ نقل حسيني عن فون كريمر قوله ان الجيوش العباسية بلغت مئات الالوف[٣١٠] • ويبقى هذا الرقم مستحيلا اذا ما كان المقصود منه جيشا مركزيا واحدا ، غير أنه يكون مقبولا اذا قصد منه مجموع الجيش المركزي مع جيوش الاقاليم الاخرى للدولة • وذكر أحد المراجع الحديثة أيضا ان جيشا تم اعداده لحملة في عام ١٦٢هـ/٧٧٨—٧٧٩م بلغ تعداده (٣٠٠) ألف جندي ، دون الاشارة الى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة[٣١١] • ان مثل هذا الرقم ليس ممكنا ، اذ يبدو مستحيلا حشد مثل هذا العدد في حملة واحدة • وحاول آخر أن يحدد عدد جيش المنصور ، الا أنه وقع في خطأفادح في فهمه للنصوص التاريخية التي تعامل معها ، فقد أشار الى أن جيش المنصور

---

٣٠٨ — المصدر السابق ، ٧/٦٣٨—٦٣٩ •
٣٠٩ — الذهبي ، ٦/٢٤ •
٣١٠ — الادارة العربية ، ٤١٢ •

311—Levy, P. 416.

بلغ (١٢٥) ألفا[٣١٢] . الا أنه جمع في عملية حسابية بعض قوات المنصور مع قوات ابراهيم بن عبدالله الخارج على الخلافة في البصرة ، ليخرج من ذلك بحجم جيش المنصور ، مشيرا في الهامش الى أنه اعتمد على ابن الاثير ذاكرا الجزء الخامس والصفحة (٦٧) ، بيد أنه عند التدقيق في هذا المكان من الطبعة نفسها التي استخدمها ، لم نجد أية اشارة عن جيش المنصور ، الا أن ابن الاثير وفي الصفحة (٥٦٧) من الجزء نفسه تكلم عن حركة ابراهيم هذه ، ذاكرا في سياق الحديث بعضا من قوات المنصور ، وكذلك حجم قوة ابراهيم ويبدو أن الكاتب وقع في اللبس فجمع هاتين القوتين . وعلى أية حال يمكننا القول ان جيوش الدولة العباسية بلغت في حجمها اعدادا كبيرة بفضل اتساع رقعة الدولة وغناها الاقتصادي وتحول الجندية الى مهنة مربحة .

---

٣١٢ ــ عبدالجبار منسي العبيدي ، دور الخليفة المهدي العباسي في اقرار النظم العباسية ، ١٩٠ .

الفصل الثـــاني

الامبراطورية البيزنطيـــة

١ ـ طبيعة عصر اللاايقونية(١) في الامبراطورية البيزنطية(٢) :

الخلفية التاريخية لهذا العصر :

عندما توج الامبراطور هرقل في عام ٦١٠ م ، فان ذلك جرى في عصر اتسم بالمشكلات الخطيرة التي هددت الامبراطورية البيزنطية في وجودها نفسه، وكان بحق عصر الانهيار، ولم يكن بمقدور هرقل أن يوقف هذا الانهيار الخطير الذي اجتاح الامبراطورية، اذ احتل القوط شبه جزيرة ايبريا ـ اسبانيا

---

١ ـ الايقونة : لفظ يوناني معناه الصورة أو الرسم ، وجرى استعماله في المصطلحات الدينية للاشارة الى صور القديسين ، والايقونة في عرف الكنيسة نوعان : عادية وعجائبية .

٢ ـ ان تسمية الامبراطورية ب « البيزنطية » تسمية ابتدعها المؤرخون الغربيون حديثا ، ليصفوا بها امبراطورية لم تستعمل هذه التسمية، وكان العرب وبقية جيران الامبراطورية يستعملون كلمة « الروم » للدلالة على هذه الامبراطورية ، وهي الادق تاريخيا . فهذه الامبراطورية كانت امتدادا للامبراطورية الرومانية ، وكان مواطنوها يطلقون على أنفسهم «الرومان»، بيد ان كلمة بيزنطة Byzantium يوجد ما يبرر استعمالها. فمثلما كانت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية ، ومنحتها اسمها ، فكذلك الحال مع الامبراطورية البيزنطية ، التي كان مقرها بيزنطة القديمة، والتي قامت عليها مدينة القسطنطينية ، فكانت عاصمة للامبراطورية الجديدة. رانسيمان ، المدنية البيزنطية ، ٢١ .

والبرتغال — في الفترة ٦١٦—٦٢٤ م ، وغزا الصقالبة شبه جزيرة البلقان في الفترة ٦١٩—٦٢٦ م ، كما احتل الساسانيون سوريا في الفترة ٦١٣—٦١٤ م ثم فلسطين في عام ٦١٥م ، أعقب ذلك احتلال مصر في عام ٦١٦م[٣] .

واذا كان عام ٦٢٧ م حاسماً في موضوع النزاع بين البيزنطيين والساسانيين ، بمعركة فاصلة بينهما أمام أسوار نينوى ، انتهت بهزيمة ساحقة للساسانيين ، وواصل هرقل تقدمه حتى استولى في عام ٦٢٨ م على داستجرد ، مقر اقامة الملك الساساني ، أعقبه عزل كسرى وتولي ابنه قباذ الثاني للسلطة ، الذي أبرم الصلح مع الامبراطور البيزنطي[٤] . وبهذا تمكن هرقل من استعادة الاقاليم التي احتلها الساسانيون ، الا أنه سرعان ما فقدها ثانية بعد قيام حركة التحرير العربية في الفترة الواقعة بين عامي ٦٣٥—٦٤١ م/١٣—٢١هـ[٥] . اذ شهدت هذه الفترة حالة تفكك فعلية خطيرة ، قبيل وفاة هرقل ، فكما أشرنا ، أصبحت مصر والشام في حوزة العرب المسلمين ، واجتاح اللومبار أكثر من نصف ايطاليا . وبذلك تكون الامبراطورية قد اقتصرت على آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان وأجزاء من ايطاليا . وحتى هذه المساحات الصغيرة كانت مهددة من كل الجهات لغارات اللومبار والصقالبة والعرب المسلمين . واذا كانت الامبراطورية حتى سنوات قليلة قبيل هذه الفترة ذات طابع عالمي ، فانها في هذه الفترة أصبحت امبراطورية بيزنطية خالصة[٦] . وبصورة أدق فقد تجرد البيزنطيون من لقبهم كرومان ، وأصبحوا اغريقا كما تجردوا من طابعهم اللاتيني[٧] . وتركزت كل قوى الامبراطورية حول القسطنطينية ، وترتب على هذا نتائج عبرت عن تغيرات عميقة وشاملة في هيكل ومحتوى هذه الامبراطورية

3 — The Encyclopedia Americana, Vol. 14, P. 111.

4 — Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 103.

5 — The Encyclopedia Americana, Vol. 14, P. 111.

٦ — جارلس ديل ، تكوين الامبراطورية البيزنطية ، ٣٢٤ .

7 — Arbagi Martin George, Byzantium in the Latin eyes, PP. 40-41.

حيث تغيرت الاجناس التي استقرت فوق أراضيها ، فقد استقر الصقالبة في البلقان ونزل الصربيون والكرواتيون في الشمال الغربي والبلغار في الجنوب الشرقي ، كما اكتسبت الامبراطورية طابعا حربيا ، ورافق كل ذلك تغيرات اجتماعية بأن حقق العنصر الهلليني مكانة متقدمة في الدولة بمرور الوقت ، واختفت اللغة اللاتينية لتحل محلها اللغة الاغريقية ، وحلت أيضا العادات والتقاليد الاغريقية في المجتمع • ومن الناحية السياسية ، فقد زادت الخلافات مع روما مما مهد السبيل للقطيعة التي وقعت بعد ذلك بين بيزنطةوالغرب[٨] • وشهدت هذه الفترة تدهور الاحوال الاقتصادية والمالية ، وأصاب الادارة الحكومية شلل كبير • كما أن النظام الحربي ، الذي كان يقوم أساسا على المرتزقة ، أصبح الآن بلا فاعلية ، ولم يعد بمقدور الدولة أن تستمد مقاتلين من مصادر المرتزقة القديمة[٩] • ان مثل هذه الاوضاع اضطرت الامبراطور هرقل للتفكير جديا في نقل مقر قيادته من القسطنطينية الى قرطاجنة في شمال أفريقية ، كي يتمكن من اعداد هجوم مضاد على الساسانيين ، الا أن الهياج الذي ثار في العاصمة ، وموقف البطريرك سرجيوس ، حال بين هرقل وبين تنفيذ فكرته هذه[١٠] •

لقد مضت فترة طويلة قبل اعتلاء ليو الثالث عرش الامبراطورية في عام ٧١٧م/٩٨ـ٩٩هـ ليعمل على ايقاف حالة التدهور ، والتي دبت في جسم الامبراطورية منذ أيام جستنيان ٥٢٧ـ٥٦٢ م ، اذ ترك ليو الثالث أثرا واضحا في ادارة البلاد ، باعادة تنظيم الادارة الحكومية ، التي بقيت تتصف بالقوة ثلاثة قرون تالية ، وهذا بحد ذاته يعدُ عملا كبيراء لا سيما في أعقاب ماشهده

---

٨ ـ ديل ، ٣٥ ـ ٣٦ •

9 — Ostrogorsky, P. 92.

10—Ibid, P. 93.

القرن السابع من تدهور خطير[11] • ويعود هذا الى ما في الامبراطورية من موارد متعددة مكنتها من خلق نهضة اجتماعيـة وسياسية وثقافيـة عميقـة الجذور[12] •

ولم يكن لتولي عرش البلاد قواعد ثابتة محكمة ، وهو ما أدركـه ابن خرداذبة بقوله: «وليس الملك فيهم وراثة ولا كتاب متبع وانما هو غلبة»[13]• وربما كان هذا نتيجة لسابقة وقعت في الامبراطورية ، باستيلاء فوكاس على العرش بعد مقتل الامبراطور موريس ، ممـا شكل خطرا داهمـا رافق الامبراطورية بعد ذلك لفترة طويلة ، بعدما كانت الامور تسير بهدوء وانتظام وفقا لنظام ولاية العهد[14] • وتكررت هذه الحالة ، حتى أصبحت الاضطرابات المسلحة وسيلة للوصول الى العرش الامبراطوري ، فقد تمكن ارتباسدوس، قائد بند الارمنياق ، من الاستيلاء على الحكم لبضعة أشهر ، بحركة عصيان مسلح قام بها بعد مضي ما يقرب من عام على تولي قسطنطين الخامس عـرش الامبراطورية ، في عام ٧٤١م/١٢٣ـ١٢٤هـ[15] • وكذا الحال باستيلاء نقفور على العرش باقصاء الامبراطورة ايريني عنه[16] • وأعقب ذلك حالات عديدة أخرى ، سنأتي عليها عند الضرورة •

وعلى الرغم من أن الامبراطور كان محور الدولة ، بيد أنه لم تكن هناك أسس ثابتة لتعيينه وتوليته العرش • فالامبراطور وفقا للشكل الرسمي ينتخبه مجلس للشيوخ والجيش والشعب • الا أن مجلس الشيوخ هذا لم تكن لـه قيمة تذكر وكان مغلوبا على أمره • وكان الامبراطور ينتخب أحيانا لمجرد كونه

---

١١ ـ اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ١٥٣ •

12—Ostrogorsky, P. 92.

١٣ ـ المسالك والممالك ، ١٠٩ •

١٤ ـ اومان ، ١٠٠ •

15—Ostrogorsky, P. 165.

16—Vasiliev, History of the Byzantine Empire, P. 271.

ابرز القادة العسكريين . مع أن ذلك كان يستلزم موافقة وتأييد سكان العاصمة لمدعي العرش . فقد ظهر مطالبون بالعرش يدعمهم الجيش ، لكنهم لم يفلحوا في مسعاهم ، لعدم امتلاكهم تأييدا من قبل سكان العاصمة[17]. وبعد تتويج الامبراطور يصبح من حقه تعيين أباطرة اضافيين .. وكان أمـرا مألوفا أن يشرك الامبراطور معه في الحكم ابنه او صهره.أما تتويج الامبراطور المشارك، فيقوم به الامبراطور نفسه ، غير أنه لم يكن للامبراطور المشارك أي دور في ادارة البلاد، لكن اذا ما مات الامبراطور الاكبر ، فان المشارك يعقبه تلقائيا دون الحاجة الى تتويجه من جديد . وهـذا بحد ذاته أحـد أشـكال التعاقب الوراثي[18] . ولا يقتصر الامر على تتويج الامبراطور وحده ، بل يستوجب الامر تتويج امبراطورة معه ، مع أنه لا يشترط أن تكون زوجته ، فقد تكون أخته أو بنته أو امه ، بل ان أحدهم توج احدى عشيقاته امبراطورة. واذا مات الامبراطور دون أن يترك مشاركا يخلفه ، فان للامبراطورة الكبرى حق تعيين خلف له ، وأحيانا تكون هي الامبراطور الجديد . ففي عام ٧٩٧م/١٨٠ — ١٨١ هـ عزلت الامبراطورة ايريني ابنها الامبراطور الشرعي وسملت عينيه ، ولم ترشح خلفا له ، بل باشرت بنفسها السلطة الامبراطورية[19] .

وقامت نظرية الحكم في الامبراطورية البيزنطية على الاوتوقراطيـة والثيوقراطية — وهو ما كان سائدا في العصور الوسطى — ففضلا عن كون الامبراطور مستبد أو مطلق الارادة ، فانه كان يرى في نفسه أيضـا ، ممثلا للسلطة الالهية ، فكتب الامبراطور ميشيل الثاني مـرة يقول : انـه يستمد سلطته من الله. وكتب الامبراطور باسيل الاول الى ابنه : « انك تستلم السلطة الامبراطورية من الله . وانك تستلم التاج من الله من خلال يـدي » . فليس

---

١٧ — رانسيمان ، المدنية البيزنطية ، ٥٦ .
١٨ — المرجع السابق ، ٥٧—٥٨ .
١٩ — المرجع السابق ، ٥٨ .

مدهشا بعد ذلك أن يرى الامبراطور ومعه البيزنطيين ان الامبراطور انما هو صورة أرضية للقوى الالهية[٢٠] .

أما عن ادارة الامبراطورية ، فانها كانت بيروقراطية محكمة تعمل على تنفيذ رغبة الامبراطور [٢١] . ففي العاصمة مجموعة من المؤسسات التنفيذية حول الامبراطور ، تتكون من وزراء ورؤساء أقسام تدير ماكنة الحكم وتنفذ مراسيم الامبراطور في كل مكان فهنـــاك مثلا Logothete of Dromus وتعني وزير النقل والمواصلات ، ويعد أحد أهم عناصر الادارة . وهناك أيضا الوزير المعني بشؤون السياسة الداخلية للبلاد . وهناك أيضا سكرتير الدولة للشؤون الخارجية ، والذي عرف فيمـــا بعـد بـ Grand Logothete ثم هناك أيضا Logothete of the Treasury ، أي وزير المالية . ويضـاف الى هؤلاء مجموعة من المناصب العسكرية . وكل هذه تشكل بمجموعهـا عناصر السلطة المركزية[٢٢] . ان هذا الكادر في السلم الاداري ، من القمة الى القاعدة ، يخضع مباشرة لاشراف الامبراطور ، فهو الذي يعين وهو الذي يرقي أو يفصل كبار موظفي الحكومة[٢٣] .

واتسمت ادارة الاقاليم بالطابع العسكري ، وكان ذلك من نتائج تطور الاوضاع في القرن السابع ، فتم وضع السلطات كلها بيد القادة العسكريين ، تيسيرا لامر الدفاع عن البلاد[٢٤] . ففقد نظام حكومات الاقاليم أهميته وحل محله نظام البنود الذي شمل معظم أرجاء الامبراطورية ـ وهو مـا سنفصله

20—Norman Baynes and Moss, Byzantium, P. 262.
21—Ibid, P. 288.
22—Charles Diehl, Byzantium, P. 66.
23—Ibid, P. 67.

٢٤ ـ ديل ، ٣٣٥ .

لاحقا ـ ولم يبق لهذا النظام من وجود الا على الورق[٢٥] • ولقرون عديدة لاحقة ، فان نظام البنود هذا بقي من أبرز خصائص الادارة البيزنطية ، مما أدى الى طغيان النزعة العسكرية على هذه الادارة[٢٦] • ولعل ذلك يوصلنا الى نتيجة مهمة بصدد العلاقة بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية ، ففي الفترة التي شهدت تحول الدولة العربية الاسلامية من الطابع العسكري الى الطابع المدني بقيام الدولة العباسية ، فانه في هذه الفترة تحولت الامبراطورية البيزنطية من الادارة المدنية الى الادارة العسكرية ، وهذا كفيل بالتعرف على حقيقة نيات كل من الطرفين تجاه الآخر •

ومن أبرز الخصائص التي اتسم بها هذا العصر ، ذلك النزاع الديني الذي أخذ أحيانا طابعا دمويا ، متمثلا بالصراع حول الايقونات(*) • وعبّر هذا الصراع عن تناقضات واختلافات عميقة سياسية وفلسفية وحتى جمالية وعنصرية أيضا ، امتدت جذورها واصولها في الماضي البعيد[٢٧]• واذا كان قد رافق تحطيم الايقونات ومناهضتها عصرا من القوة تمثل في وقوف ليو الثالث أمام الجيوش العربية الاسلامية ، ووقوف قسطنطين الخامس بوجه البلغار ، واصلاحات نقفور المالية وازدهار الفن المعماري على أيام ثيوفيل[٢٨] • فان هذا الصراع خلف وراءه أيضا اضطراب أوضاع البلاد الداخلية[٢٩]• لاسيما وقد ظهرت نوبات حادة من الاضطهاد الديني ، فكان قسطنطين الخامس أكثر شدة في سياسته اللا ايقونية ، وكان معقدا يعاني من انفصام في الشخصية ، مما جعله مفرطا في وحشيته وتعذيبه لخصومه الدينيين[٣٠] • وفضلا عن

25—Ostrogorsky, PP. 92-99.
26—Ibid, P. 100.

(*) انظر الفقرة الخاصة بالموضوع في هذا الفصل •
٢٧ ـ موس ، العصور الوسطى ، ٣٠٣ •
٢٨ ـ نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ٦٠ •
٢٩ ـ ديل ، ٣٣٨ •

30—Ostrogorsky, P. 167.

الصراع حول الايقونات ، ظهر في أواخر هذه الفترة العداء الحاد للبيالقة أو البوليسيين[٣١] . اذ كانت هذه الجماعة تعيش في أمان في آسيا الصغرى منذ أيام قسطنطين الخامس ، غير أنه في حدود عام ٨٥٠م/٢٣٥–٢٣٦ هـ اتخذت الحكومة البيزنطية قرارا قاسيا بارجاع هؤلاء الى الارثوذكسية،حتى وان كان الثمن فناءهم . فتم اعداد حملة لهذا الغرض،فاضطرت هذه الجماعة للفرار الى ما وراء التخوم البيزنطية وتوجهوا الى العرب الذين احتضنوهم[٣٢] . بل واعتمدوا عليهم في توجيه مزيد من الضربات على الامبراطورية ، بحكم ما أصبح بين هؤلاء وبينها من عداء . ان أمثال هذه الصراعات المحتدمة كان لابد لها أن تترك آثارا سلبية حادة في الاوضاع الداخلية للبلاد ، وبما ينعكس أيضا على علاقاتها الخارجية مع جيرانها من المسلمين والبلغار بشكل خاص .

٢ ـ الاوضاع الداخلية :

الاضطرابات السياسية المسلحة :

من خلال ملاحظتنا للشكل رقم ـ ٨ ـ يتضح لنا بشكل عام ان الامبراطورية البيزنطية تمتعت بهدوء واستقرار كبيرين نسبيا . اذ أن ما حدث فيها من اضطرابات سياسية مسلحة تعدّ محدودة جدا مقارنة بما لاحظناه في الدولة العباسية . ويعود ذلك لاسباب عديدة ، لعل في مقدمتها التجانس الملحوظ بين سكان الامبراطورية ، أو بتعبير أدق ، انخفاض عدد أفراد

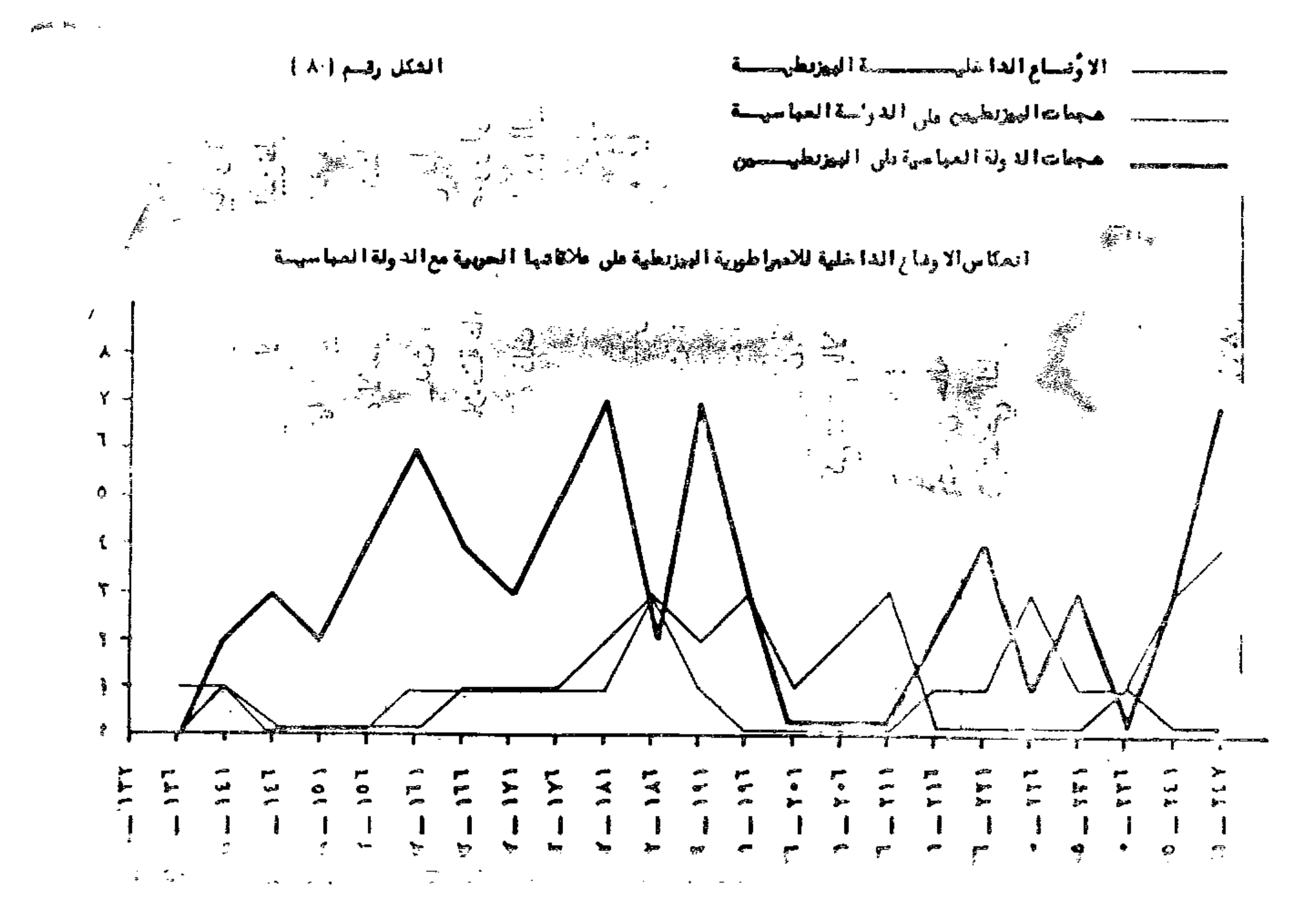
٣١ ـ البيالقة : طائفة غير كاثوليكية ، نشأت على الاغلب في مطلع القرن السابع ، عانوا مرات عديدة من الاضطهاد القاسي من قبل اتباع الامبراطورية . وكان اول ظهور لهم في الاقاليم الشرقية : ارمينية والجزيرة وشمال سورية . ومن ابرز مفاهيمهم : الثنوية في الحكم والبنوية في شخص السيد المسيح، كما رفضوا بشدة عبادة الايقونات ، وبشكل اخف رفضوا استخدام الطلاسم والرموز في الامور الدينية .
Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol. 9, P. 695.

٣٢ ـ فازيليف ، العرب والروم ، ٢٠٠–٢٠٢ .

الجماعات العرقية الموجودة ، الامر الذي تسبب عنه انخفاض حدة فاعليتها السياسية المسلحة ، اذا ما قارنا ذلك بالدولة العباسية التي ضمت العديد من الجماعات العرقية مثل الايرانيين والترك والبربر • وكان بعض هذه الجماعات العرقية يقف وراء الاضطرابات السياسية المسلحة بدوافع شعوبية وانفصالية• في حين ان مثل هذه الحالة كانت شبه مختفية في الامبراطورية البيزنطية • كما أن صغر مساحة الامبراطورية وقلة سكانها نسبيا بالمقارنة أيضا مع الدولة العباسية ، لابد أن يترك أثرا في هذا الجانب، لا سيما اذا ما افترضنا ان هناك تناسبا طرديا بين عدد السكان وبين ما يحـــدث في المجتمـع والدولة من اضطرابات•وهذا ليس تعميما بقدر ما هو ملاحظة عامة عن العصور الوسطى• هذا فضلا عن عامل آخر مهم ليس أقل أهمية ، ذلك ان الامبراطوريةالبيزنطية كانت ذات ماضٍ بعيد يمتد لعدة قرون بوصفها استمرارا طبيعيا للامبراطورية الرومانية القديمة ، وهو ما أكسبها نوعا من الاستقرار السياسي • في حين ان الدولة العربية الاسلامية كانت بشكل عام، حديثة نسبيا ، لا سيما ان الدولة العباسية كانت في دور النشوء والتأسيس في هذه الفترة ، على الرغم من أنها وريثة لدولة سابقة ، الا أن عمرها الزمني لم يكن قد تجاوز الـ ١٣٢ سـنة • فكان لابد من مضي فترة زمنية أطول كي تتمتع بالاستقرار السياسي • غير أن الامبراطورية البيزنطية اذا كانت قـد نعمت بانخفاض نسبة الاضطرابـات السياسية المسلحة ، الا انها عانت كثيرا من حالة أخرى لا يمكن احصاؤها ، تلك هي حالة الاضطراب الديني والاجتماعي الناجمين عن الدعوة الى محاربة الايقونات وتحطيمها •

وعلى أية حال ففيما يتعلق بواقـع الاضطرابات السياسية المسلحة في الامبراطورية ، فاننا نلحظ ان هناك ثلاث فترات متميزة في هـذه الحقبة من التاريخ البيزنطي والتي تمتد بين عامي ٧٥٠–٨٦١م/١٣٢–٢٤٧هـ • امتدت الفترة الاولى بين ٧٥٠–٧٩٢م/ ١٣٢–١٧٦هـ ، وتميزت هذه الفترة بهدوء

الشكل رقم (٨٠)



الأوضاع الداخليـــــة البيزنطيـــة
هجمات البيزنطيين على الدولـة العباسيــة
هجمات الدولة العباسية على البيزنطيــين
انعكاس الاوضاع الداخلية للامبراطورية البيزنطية على علاقاتها الحربية مع الدولة العباسية
٠
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
١٣٢
١٣٦
١٤١
١٤٦
١٥١
١٥٦
١٦١
١٦٦
١٧١
١٧٦
١٨١
١٨٦
١٩١
١٩٦
٢٠١
٢٠٦
٢١١
٢١٦
٢٢١
٢٢٦
٢٣١
٢٣٦
٢٤١
٢٤٧

كبير نسبيا ، فلم تشهد سوى القليل من الاضطرابات ، لعل أهمهـا اضطراب اوضاع الصقالبة في تراقية في عام ٧٥٨م/١٤٠ـ١٤١هـ ، واستلزم الامـر اخضاعهم بالقوة ونقل أعداد كبيرة منهم الى آسيا الصغرى ، مع اعداد أخرى من الصقالبة القادمين من بلغاريا[٣٣]. وكذا الحال في عام ٧٨٣م/١٦٦ـ١٦٧هـ اذ كان لابد من تجنيد حملة لتأديبهم ، وفي مقدونية هذه المرة[٣٤] . وتنقلت هذه الحملة بين سالونيك ومقدونيا واليونان والبلوبونيز ، وأتمت اخضـاع الصقالبة ومعاقبتهم ، كما تم في السنة التالية ارسال حاميات وتعزيزات لقطع الاتصال بين صقالبة الامبراطورية والصقالبة في مملكة البلغار[٣٥] . وفي عام ٧٨٢م/١٦٥ـ١٦٦هـ اضطرت الامبراطورة ايريني الى ارسال حملة كبيرة الى صقلية لاخماد تمرد هلبيديوس حاكم الجزيرة[٣٦] . وفي اواخر هـذه الفترة كان لابد من توجيه ضربة للعناصر غير الايقونية ، التي وجدت في قسطنطين السادس أملا في التحرك والتمرد على أمه وسياستها المناصرة للايقونات ، فقد رفض الجيش في بند الارمنياق أن يؤدي يمين الطـاعة للامبراطورة ايريني بمفردها ، وما لبث أن تحول الامر الى عصيان مسلح انتشـر في بقية بنود آسيا الصغرى ، وتعرضت ايريني ومركزها الى خطر فادح ، لولا ضعف وتردد قسطنطين السادس ، الذي دعا القوات الموالية له للعودة الى الهدوء[٣٧]. وعلى العموم فان هذه الفترة ـ وكما ذكرنا ـ اتسمت بهدوء كبير نسبيا . ولعـل الفضل الرئيس في ذلك يعود الى جهود قسطنطين الخامس وقبضته الحديدية،

33—C.M.H, 4/1, P. 24; Wiliam Langer, An Encyclopedia of World History, P. 191.

34—Wiliam Langer, P. 191.

35—George Finlay, History of the Byzantine State, P. 81; Ostrogorsky, P. 1,2.

36—Louis Brehier, The Life and Death of Byzantium, P. 61.

37—Ostrogorsky, PP. 179-180.

حيث أمسك بزمام الامور بقوة ، داخليا وخارجيا • وان ما حدث من اضطرابات قليلة انما تعود أساسا الى فترة الحكم المزدوج بين الامبراطور القاصر قسطنطين السادس وامه الوصية عليه الامبراطورة ايريني •

أما الفترة الثانية فتمتد بين عامي ٧٩٢ـ٨٢٧م/١٧٦ـ٢١٢هـ ، والتي شهدت اضطرابا واضحا في الاوضاع الداخلية ، اذ تراوحت هذه الاوضاع بين هدوء نسبي محدود أعقبه تصعيد حاد في الاضطراب • ولعل ذلك يعود في أحد أسبابه الى وجود الامبراطورة ايريني في السلطة ، وضعف قدرتها على ادارة البلاد ادارة سليمة ، داخليا وخارجيا • ثم قتل الامبراطور نقفور في معركة له مع البلغار ، وتعاقب الاباطرة بعده بسرعة ، وكان ذلك كفيلا بأن يترك آثارا سلبية على الاوضاع الداخلية •

ففي عام ٧٩٣م/١٧٦ـ١٧٧هـ ، اندلع تمرد خطير في بند الارمنياق ،مرة أخرى ، وكان قسطنطين السادس قد سمل عيني قائد البند ـ الذي كان قد وقف الى جانبه في صراعه مع أمه الامبراطورة ـ مما أدى الى اندلاع عصيان مسلح خطير في هذا البند ، واستلزم الامر من قسطنطين تجريد حملة كبيرة لتهدئة الاوضاع في البند(٣٨)•وفي السنوات الاخيرة من القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين ، عملت بيزنطة جاهدة لتعزيز وجودها في البلقان ، بسبب تعاقب تمردات الصقالبة هناك(٣٩) • وفي عام ٨٠٢م/١٨٦ـ١٨٧هـ أطاح نقفور بالامبراطورة ايريني واعتلى العرش بدلا منها، وتعد هذه الحركة متميزة في التاريخ البيزنطي ، لان معظم الثورات البيزنطية ، تولى تنظيمها وقيادتها قادة عسكريون ، أما هذه الثورة فقد تولى تنظيمها وتنفيذها نقفور الذي لم يكن يمت للجيش بصلة ما ، بل كان يشغل منصب وزير المالية(٤٠) • وبعدفترة

38—Ibid, P. 180.
39—Ibid, P. 192.
40—Vasiliev, P. 271.

قصيرة من توليه العرش حدث عصيان مسلح خطيرقاده بردانس توركس الذي كان قد عين أساسا لمواصلة الحرب على الدولة العباسية ، لما اشتهر به في هذا المجال ولشعبيته بين الجند ، فعهد اليه بقوة عسكرية كبيرة تمثلت بقوات بند الناطليق والارمنياق وبقية البنود الآسيوية ، وهذه القوة الكبيرة التي كانت تحت تصرفه هي التي حركت طموحاته ومطامعه في السلطة . فأعلنته هذه القوات امبراطورا ــ عدا قوات بنــد الارمنياق ــ وذلك في عام ٨٠٣م/١٨٧ــ١٨٨ هـ[٤١] . وأعقب ذلك في عــام ٨٠٥م/١٨٩ــ١٩٠هـ أن أعلن صقالبة البلوبونيز الثورة على السلطة المركزية ، اذ شعروا بسطوتهم وقوتهم، لا سيما بعد اضطراب الاوضاع الذي أعقب تولي نقفور للعرش ، وكانوا يتحينون الفرص لاعلان استقلالهم ، فحشدوا اعــدادا كبيرة منهم وتجهزوا بالسلاح . وكان ميناء باتراس أول هدف لهجومهم ليضمنوا الاتصــالات الخارجية مع حلفائهم من سكان شــواطىء بحر الادرياتيك ومسلمي شــمال افريقية ، ففرضوا الحصار على هذا الميناء ولم يكن بمقدور السلطة المركزية ارسال أية امدادات أو نجدات ، وبعد حصار طويل فوجئت القوات المحاصرة بهجوم من قبل سكان المدينة ، والحقوا بهم هزيمة ساحقة وخسائر فادحة أفشلت الحصار[٤٢] . وخلال السنوات القليلة اللاحقة ، وفي أثناء قيام نقفور بالاعداد لهجوم على البلغار في عام ٨٠٧م/١٩١ــ١٩٢هـ اندلعت مؤامرة في أدرنة أدت الى فشل هذا الهجوم والحيلولة دون تحقيقه ، وكذا كانت الحال عندما شن البلغار هجومهم في عام ٨٠٩م/ ١٩٣ــ١٩٤هـ اذ لم يتمكن نقفور من تحريك ساكن بسبب مؤامرة قامت بين قادته[٤٣] . وفي أعقاب مقتل نقفور في معركة مع البلغار في عام ٨١١م/١٩٥ــ١٩٦هـ انتقــل العرش الى ابنــه

41—Bury, E.R.E, PP. 10-11.
42—Ostrogorsky, P. 192; Finlay, PP. 96-97.
43—Brehier, P. 67.

ستاوراكيوس ، الذي لم يبق في الحكم سوى أشهر قليلة ، ثم اقصي عنه من قبل أنصار ميشيل الاول الذين تمردوا عليه(٤٤) • بيد أن هذا الاخير لم يبق هو الآخر طويلا في الحكم ، فقد دبـر ليو الخامس الارمني مؤامرة انتهت بابعاد ميشيل الاول عن العرش ، وقيامه هو عليه بدلا منه(٤٥)• بيد أنه دفع حياته ثمنا لهذه المؤامرة ، ففي عام ٨٢٠م/٢٠٤ـ٢٠٥ هـ قتـل ليو الارمني وانتقل العرش الى أحد قادة الحرس وهو ميشيل الثاني(٤٦) الذي كان عليـه أن يواجه أوضاعا داخلية بالغة الخطورة والتعقيد ، فقد اندلعت في آسـيا الصغرى ثورة تعد من أخطر ما واجهته الامبراطورية في هذه الحقبة، تلك هي ثورة توماس الصقلبي ٨٢٠ـ٨٢٣م/٢٠٥ـ٢٠٨هـ اذ رفع هـذا راية الثورة مدعيا انه قسطنطين السادس ابن الامبراطورة ايريني • وتجمع حوله عدد كبير من الاتباع والانصار من الطبقات الاجتماعية الدنيا ــ التي وعـدها بالآمال العراض ــ وكانت من عناصر وأجناس مختلفة ، كما تحالفت معه قوات البنود الآسيوية ــ عدا بندي الارمنياق والابسيق ــ فضلا عن تحالفه مع الخليفـة المأمون • وخلال الفترة ٨٢١ـ٨٢٣م/٢٠٦ـ٢٠٨هـ تمكن توماس من تحقيق انتصارات عديدة في آسـيا الصغرى ، مكنتـه بعـد ذلك من الوصول الى القسطنطينية ومحاصرتها برا وبحرا • الا ان العاصمـة بقيت صـامدة • ان الانتصارات التي حققتها البحرية الامبراطورية والمساعدة التي قدمها أومرتاج ــ خان البلغار ــ الى ميشيل الثاني ، ألحقت بتوماس هزيمة ساحقة في المعركة الحاسمة بينه وبين أومرتاج ، اندحر توماس على اثرها الى الابد(٤٧) • وفي السنة الاخيرة من هذه الفترة أعلن ڤيمي تمرده ــ وكان قائـدا للاسـطول

44—Vasiliev, P. 271.

٤٥ ــ أومان ، ١٦٠ ، كذلك : C.M.H, 411, P. 95; Ostrogorsky, P. 200.

٤٦ ــ المرجع السابق ، ١٦١ ، كذلك : Vasiliev, P. 272.

47—C.M.H, 4/1, P. 100.

الامبراطوري في صقلية ــ وطلب مساعدة الاغالبة في نزاعه مع السلطة المركزية[48] • فكان ثمن تمرده كما هو معروف ، أن خسرت الامبراطورية جزيرة صقلية هذه ، والتي أصبحت في حوزة الاغالبة •

أما الفترة الثالثة والاخيرة ، فقد امتدت بين عامي ٨٢٨ــ٨٦١م / ٢١٢ــ٢٤٧ هـ وفيها نعمت الامبراطورية باستقرار داخلي شبه تام • وأبرز أحداث هذه الفترة ، تجريد حملة على البيالقة في عام ٨٥٠م/٢٣٥ــ٢٣٦هـ ، وهو ما سبق ذكره •

وبخصوص النتائج التي ترتبت على هذه الاضطرابات الداخلية ، فانه لا بد من ذكر ملاحظة مهمة في هذا الصدد • تلك هي أن هذه الاضطرابات رغم قلتها عدديا ، الا أن النتائج التي ترتبت عليها كانت في غاية الخطورة ، وهو ما سنقوم بعرضه •

١ ــ فيما يتعلق بتأثير هذه الاضطرابات على النشاط العسكري للامبراطورية مع الدولة العباسية ، فان الشكل رقم ــ٨ــ يظهر لنا هذه العلاقة بوضوح ، ذلك ان فترات الاضطراب الحاد كانت تشهد خمولا في نشاط الامبراطورية العسكري ، في حين أن فترات الاستقرار الداخلي ، كانت تشهد تصعيدا في هذا النشاط • أما عن مدى استفادة الدولة العباسية من الاضطرابات الداخلية للامبراطورية واستغلالها لها ، فيبدو من هذا الشكل البياني ، انه ليست هناك علاقة مباشرة واضحة في هذا المجال ، فالدولة العباسية كانت تصعد أحيانا من عملياتها العسكرية على التخوم في فترات استقرار الاوضاع الداخلية للامبراطورية ، لكنها في أحيان أخرى كانت تقلل من هذا النشاط ، بل وربما ينعدم هذا النشاط حتى في الفترات التي ساد فيها اضطراب الاوضاع الداخلية للبيزنطيين • ويبدو جليا ، ان الاوضاع الداخلية للدولة العباسية ،

48—Brehier, P. 74.

كانت هي المؤشر الاساس لمدى فاعلية وحيوية نشاط العباسيين العسكري على هذه التخوم •

٢ ــ ولا بد أن مثل هذه الاضطرابات تترك آثارا واضحة في استنزافها لموارد البلاد البشرية والاقتصادية ، وهو أمر طبيعي لاحظناه في الدولة العباسية أيضا •

٣ ــ ومن النتائج الخطيرة، ما ترتب على ثورة توماس الصقلبي من آثار، فهي علاوة على ما سببته من مضار اقتصادية ، فان عرب الاندلس، الذين نزحوا الى الاسكندرية ، استغلوا النتائج التي ترتبت على هذه الثورة واستولوا على جزيرة كريت(٤٩) • كما ترتب على ثورة فيمي في صقلية ــ وكما سبقت الاشارة ــ ان فقدت الامبراطورية جزيرة صقلية •

٤ ــ ولعل من أخطر النتائج قاطبة ، ما ترتب على هذه الاضطرابات من تخلخل في أوضاع العرش الامبراطوري ، الذي أصبح ــ كما يبدو ــ سهل المنال لكل طامع فيه ، ولا يخفى ما يتركه ذلك من عدم استقرار سياسي داخلي، انعكس بالنتيجة على مجمل أوضاع الامبراطورية ، بما في ذلك علاقاتها الخارجية ، مع العباسيين والبلغار على حد سواء •

وتباين أباطرة القسطنطينية في مدى قدرتهم على ادارة الامبراطورية بصورة تحقق الاستقرار الداخلي والخارجي للبلاد • كما تباينوا تباينا كبيرا في مزاياهم الشخصية ، فضلا عن اتجاهاتهم في السياسة الدينية • اذ تفوق قسطنطين الخامس حتى على والده ليو الثالث في مزاياه العسكرية وشدة عدائه للايقونات ومناهضته لها ، الا أنه كان يعاني من أزمات شخصية نفسية، فكان يعتقد بأنه غير سوي ، الامر الذي ولّد لديه نزوعا نحو الوحشية(٥٠)•

---

٤٩ ــ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ١٢٦ .
50—Ostrogorsky, P. 167.

وعلى أية حال فانه بقبضته الصارمة والحازمة حقق نوعا من الاستقرارالداخلي مكنه من التفرغ لعلاقاته الخارجية(٥١) . وعلى النقيض منــه ، كان ميشيل الاول ، ضعيف الشخصية ، يتأثر بالشخصيات القويــة من حوله ، تنقصــه الشجاعة والاقدام فضلا عن عدم قدرته على اتخاذ اجراءات حاسمة بخصوص مختلف القضايا ، كما أنه ولغرض استرضاء المحيطين به كان يغتنم كل فرصة ومناسبة لتوزيع الهدايا والاعطيات عليهم ، كرجال الجيش والبلاط ولا سيما رجال الدين(٥٢) .

واذا كانت امبراطورة مثل ايريني قد شغلت جزءا كبيرا من وقتها تخطط للتخلص من ابنهـــا قسطنطين السادس ، حتى تنفرد وحـــدها بالعـــرش الامبراطوري(٥٣) . فان امبراطورا مثل ليو الخامس الارمني ، شـــهد عصره حركة تجديد في الامبراطورية ، وهو ما كلفه الكثير من التضحيات ، كان من أبرزها التنازل عن مكانة الامبراطورية في الغرب(٥٤) . لقد كان هناك شـــبه كبير بين كل من ليو الخامس وليو الثالث ، فكلاهما من شرق الامبراطورية ، وكلاهما ناصب الايقونات العداء ، وكلاهما كان أيضا قائدا لبند الناطليق قبل اعتلائه العرش(٥٥) .

السياسة الدينية :

شكل النزاع حول الايقونات، بداية مرحلة جديدة في التاريخ البيزنطي، حيث أن معارضة ليو الثالث لعبادة الايقونات ، خلقت الازمة التي ميّزت هذا

---

٥١ ـ محمود سعيد عمران ، ١٠٢ .

52—Ostrogorsky, P. 197.

٥٣ ـ عمر كمال توفيق ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ١٥٥ـ١٥٦ .

54—Brehier, P. 70.

55—Ostrogorsky, P. 200.

العصر ، وجعلت الامبراطورية مسرحا لما حدث من صراع داخلي خطير لمدة زادت قليلا على القرن ٠

وكان عصر جستنيان ٥٢٧ـ٥٦١ م قد شهد ، وما أعقبه ، اقبالا شديدا على عبادة الايقونات،والتي انتشرت بسرعة في أرجاء الكنيسة الاغريقية(٥٦)٠ ونشأت الحاجة الى الايقونات ، أول الامر، جراء تزايد عدد القديسين وضرورة معرفتهم وتذكرهم، فظهر لهم وللعذراء الكثير من الصور ، بيد أن عامة الناس أطلقوا لفطرتهم العنان ، فحولوا هذه الصور والتماثيل الى معبودات يسجدون لها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ٠ وكان أتبـــاع الكنيسة البيزنطية ــ بصورة خاصة ــ يضعون هذه الصور في كل مكان ، في الكنائس والاديرة والبيوت والحوانيت ، بل وحتى على الاثـاث والحلي والملابس ، وكانوا يظنون انها تأتيهم بالمعجزات(٥٧) ٠ لا سيما الصور والتماثيل القديمة منها ، اذ جرت عبادتها على أنها أشياء الهية ، وان امتلاك احداها يجلب الحظ الحسن للكنيسة أو الدير(٥٨) ٠ ووصل الاعتقاد بالناس ، حدا تصوروا به ان انتصارات هرقل في حربه مع الساسانيين ، كان سببهـا حمله صورة صغيرة للعذراء ظنوا أنها سقطت من السماء(٥٩) ٠

ويجب ألا يغرب عن بالنا ان مثل هذه الافكار ، كانت واحدة من عوامل الضعف والوهن في جسم الامبراطورية ، فالاعتقـاد بمثل هـذه الخوارق والمعجزات يلغي دور القدرة البشرية على العمل والانجاز ، بانتظار معجزة تأتي بها أيقونة ما ٠ وعلى الرغم من هذا الاغراق، ظهر عدد من النصارى استنكروا هذه الحظوة للصور والتماثيل المقدسة ، وكان هؤلاء يتواجدون بشكل أساس

56—Ibid, P. 160.

٥٧ ــ محمود سعيد عمران ، ٩٣ ٠

٥٨ ــ اومان ، ١٥٠ ٠

٥٩ ــ المرجع السابق ، ١٥١ ٠

في أقاليم آسيا الصغرى ، كما وجد بعضهم في العاصمة القسطنطينية ، حيث شاهد الرحالة الغربي آركولف في عام ٦٧٠م/ ٥٠ هـ أحد المتعصبين وقد حطم تمثالا للعذراء • وفي أواخر القرن السابع، كانت هناك حركة قوية ضد الايقونات في أرمينية والاقاليم المجاورة(٦٠)• ان أصحاب هذا المذهب عدّوا احترام الناس وتبجيلهم للصور والتماثيل على أنه عبادة أصنام ونوع من أنواع الانحطاط الفكري والعقائدي(٦١) •

وجاء الاجراء اللاأيقوني الاول من قبل الدولة الاموية في عام ٧٢٣م / ١٠٤ـ١٠٥ هـ حيث صدر مرسوم بتحطيم الصور والتماثيل في البيوت والكنائس النصرانية • وفي الوقت نفسه فان عددا من قساوسة آسيا الصغرى حرموا وضع التماثيل في أبرشياتهم، وان اثنين منهم ، هما قسطنطين وتوماس، قدما الى العاصمة لعرض مذهبهما وكسب البطريرك جرمانوس الى جانبهما ، غير أنه رفض بسخط•وفي عام ٧٢٦م/١٠٧ـ١٠٨هـأصدرالامبراطورليوالثالث مرسوما بتحريم عبادة الايقونات ، وفي السنة التالية جرى تنفيذ الاجراءات اللا أيقونية ، مما نجم عنه تأزم خطير جراء التحطيم العنيف لايقونة السيد المسيح المعلقة على الباب البرونزي للقصر الكبير(٦٢) •

وينقسم تاريخ الحركة اللا ايقونية الى مرحلتين رئيستين، امتدت الاولى للفترة ٧٢٦ـ٧٨٠م/١٠٧ـ١٦٤هـ ، في حين شملت المرحلة الثانية الفترة بين عامي ٨١٣ـ٨٤٣م/١٩٨ـ٢٢٩هـ(٦٣) • وليس من غايتنا أن نعرض للتفاصيل المتشعبة لهذه الحركة ، بل تناول أهم أسبابها ونتائجها ، بقدر ما يترك الامر انعكاسا على موضوع بحثنا هذا • وقد كثر الكلام حول أسباب ودوافع هذه الحركة ، ويمكن أن نلخص أبرز هذه الآراء بالشكل الآتي :

60—Runciman, The Byzantine Theocracy, PP. 66-67.

٦١ ـ بينز ، ١١٥ •

62—Ostrogorsky, PP. 163-164; Brehier, P. 54.

٦٣ ـ السيد الباز العريني ، الامبراطورية البيزنطية ، ١٧٩ ، اسد رستم ، ١٧٩/١ ، كذلك : Vasiliev, P. 161.

١ ــ التأثيرات الاسلامية :

وحول مدى هذه التأثيرات تعددت الآراء أيضا، اذ رأى البعض أنها كانت أساسية ، من ذلك أن خصوم ليو الثالث لقبوه بـ « ذي العقليـــة العربية » مشيرين الى هذه التأثيرات . ان صراع ليو مع المسلمين لا يمنع امكان تقبله للثقافة الاسلامية ، كما أن المسلمين لم يحملوا معهم سيوفهم فقط في أثنـــاء تجوالهم في آسيا الصغرى، بل حملوا معهم أيضا ثقافتهم وآراءهم الفكرية(٦٤) . كما أورد يوحنا الاورشليمي نصاً في تقرير له ألقاه في مجمع نيقيـــة في عام ٧٨٧م/١٧٠ــ١٧١هـ أشار فيه الى تأثر قسطنطين أسقف ناقوليا ــ الســـابق الذكر ــ وأتباعه بالقرار الذي اتخذته الدولة الاموية بتحريم الصور والتماثيل في البيوت والكنائس(٦٥) . في حين رأى البعض الآخر أن اللاأيقونية البيزنطية لا يمكن أن تكون مدينة مباشرة لهذا القرار ، حتى في الفترات اللاحقـــة من تاريخ هذه الحركة(٦٦) . ورأى آخر انه من الصعوبة البالغـــة أن نفترض ان الامبراطورية ــ الغارقة في صراع عنيف حول الوجود مع الدولة العربيـــــة الاسلامية ــ أن تأخذ متعمدة عنها مثل هذه الافكار(٦٧) .

وهناك من يرى ان للعالم الاسلامي تأثيرا غير مباشـــر تمثل في ذلك التحدي المصيري الذي واجهته الامبراطورية من قبل هذا العالم ، مما حفزها للبحث عن موارد مالية جديدة ، في وقت كان يصرف فيه على هذه الايقونات ثروات سخية، كانت العمليات العسكرية للامبراطورية بأمس الحاجة اليها(٦٨) . وهناك من قدم رأيا عاما ، بأن هذا التأثير كان موجودا بشكل ما(٦٩) .

64—Ostrogorsky, P. 161.
65—Bernard Lewis, Byzantium and Islam, P. 27.
66—Ibid, P. 37.
67—C.M.H, 4/1, P. 67.
68—Bernard Lewis, Byzantium and Islam, P. 25.
69—Vasiliev, P. 255; Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, P. 626.

٢ ـ الدوافع الاصلاحية :

ورأى البعض ان هذه الحركة ، كانت ذات أهداف ومرامٍ اصلاحية ، دينية وسياسية واجتماعية عامة[٧٠] .

٣ ـ الدوافع الاقتصادية :

وتمثلت برغبة الاباطرة في السيطرة على الممتلكات الواسعة للاديرة ، اذ استحوذت الاديرة على مساحات واسعة من أخصب الاراضي ، المعفاة من الضرائب والمتزايدة المساحة ، وهو ما كان يهدد الخزينة المركزية باستمرار ، ويضاف الى هذه الممتلكات ، النذور الهائلة التي كانت تقدم الى الايقونات في الاديرة ، حتى كانت خزائنها عامرة دوما ، وكذلك خزائن الكنائس . مما جعل لرجال الدين ولا سيما الرهبان ، سطوة ونفوذا واسعين في المجتمع . لذا فانهم كانوا من أشد وأعنف معارضي سياسة الاباطرة اللا ايقونية[٧١] .

٤ ـ تأثير بعض الجماعات النصرانية :

ورأى البعض أن للبيالقة ، الذين نشأوا في أرمينية وآسيا الصغرى ، وكانوا يمقتون الرهبنة ، ويحتقرون الخزعبلات والايقونات ، دورا أساسيا في قيام الحركة اللا أيقونية ، لا سيما وان معظم الاباطرة اللا أيقونيين نشأوا في هذه الاقاليم[٧٢] . وفي عام ١٩٣٨ نشرت نصوص مكتشفة في مدينةافسوس ـ غرب آسيا الصغرى ـ تعود الى أيام الامبراطور جستنيان ٥٢٧ـ٥٦١ م ، تضمنت أوامر وتعليمات بشأن تحطيم التماثيل المقدسة وعدم السماح بعملها

---

٧٠ ـ عمر كمال توفيق ، ١٠٩ ، كذلك :
Howat, Dictionary of World History, P. 722; Vasiliev, PP. 252-253.

٧١ ـ بروي ، تاريخ الحضارات العام ، ٣/١٤٢ ، عمر كمال توفيق ، ١١٢ ، كذلك :
Vasiliev, P. 253.

72—Runciman, PP. 66-67; Vasiliev, P. 256; Encyclopedia of Religion and Ethics, Vol. 7, P. 78.

وصنعها[٧٣] • وهذه الامور تشير الى وجود تراث دعا الى تحطيم الصور والتماثيل المقدسة ، فربما كانت الحركة اللا ايقونية امتدادا لهذا التراث •

٥ ـ الكسب السياسي لولاء سكان آسيا الصغرى :

حيث رأى البعض ان هدف الحركة تمثل في كسب ولاء النساطرة واليعاقبة[٧٤] • أو ربما بشكل أوسع كسب ولاء سكان آسيا الصغرى ، الى جانب السلطة المركزية في صراعها العنيف مع العرب المسلمين•[٧٥] اذ مثّل سكان آسيا الصغرى الدرع الواقي للعاصمة القسطنطينية •

٦ ـ الدافع الديني :

كما أن هناك من رأى ، ان الظاهرة بمجموعها ظاهرة دينية لاهوتية بحتة ، وأنه يجب أن تفهم على هذا الاساس فقط[٧٦] •

على أننا على أية حال ، لا يمكن أن نعطي لهذه الحركة ، دافعا وسببا واحدا ، أو أن نضفي عليها صفة خاصة مفردة ، فهي ظاهرة بالغة التعقيد في أهدافها وغاياتها ، تقف وراءها جملة عوامل متشابكة ومتداخلة لتخرج هذه الحركة بالشكل الذي ظهرت به • شأنها شأن أية ظاهرة تاريخية • فهي نتاج التأثيرات الاسلامية والنصرانية الخالصة ، فضلا عن دوافعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

وتمخض عن هذه الحركة جملة من النتائج،رافقت هذه الحقبة من التاريخ البيزنطي ، وطبعتها بطابعها الخاص، ولعل أبرز هذه النتائج :

73—Norman Baynes, Byzantine Studies, PP. 226-227.

٧٤ ـ محمود سعيد عمران ، ١٠١ •

٧٥ ـ عبدالقادر أحمد اليوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ١٠٦ •

76—C.M.H, 4/1, P. 62.

١ ــ الشقاق السياسي والديني بين القسطنطينية وروما : فالامبراطورية لم تتمكن من تنفيذ سياستها اللا ايقونية في ايطاليا ، واحتدم النزاع بين الامبراطور والبابا، وفشل كل منهما في حمل الطرف الآخر على اعتناق مذهبه. ثم تحول الخلاف الديني الى خلاف سياسي ، رافقه انهيار مكانة الامبراطورية في ايطاليا[٧٧] التي أصبحت ملاذا للخصوم السياسيين والدينيين للامبراطور[٧٨] . ومما زاد في حدة الخلاف بين الطرفين ، عجز الادارة البيزنطية المالي عن دعم البابوية وروما أمام الخطر اللومباردي ، مما دفع الحبر الاكبر الى التحول الى الفرنجة[٧٩] . حتى أن البابا باول الاول كتب الى بيبين ينشد المساعدة قائلا : « ليس من أجل هؤلاء الاغريق الشنيعين الذين يضطهدوننا ، ولكن من أجل الارثوذكسية المقدسة ومن أجل تعاليم الآباء الورعين الذين يريدون استئصالهم .»[٨٠] وتعمق الصراع بخطورة عند قيام البابا في عام ٨٠٠م/١٨٤هـ بتتويج شارلمان امبراطورا ، والذي كان دافعه النفور من سياسة اللا ايقونية البيزنطية[٨١] .

٢ ــ اضطراب الاوضاع الداخلية : وهو ما أعقب تنفيذ الاجراءات اللا ايقونية وما رافقها من اضطرابات خطيرة في ايطاليا واليونان ، لم يتم اخمادها الا بعد اراقة دماء غزيرة[٨٢] .وحتى مقر السلطة المركزية لم يسلم من مثل هذه الاضطرابات العنيفة . ونتج عن هذه الاضطرابات استنزاف موارد البلاد[٨٣] .

77—Ostrogorsky, PP. 164-165.
78—Brehier, P. 57.
79—Arbagi Martin George, P. 22.
80—Ibid, P. 45.

٨١ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١٤٠ــ١٤١ ، كذلك :
Vasiliev, P. 290.

٨٢ ــ اومان ، ١٥٢ .
٨٣ ــ ابراهيم احمد العدوي ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ٨٧ .

٣ ــ وفي الوقت نفسه أفرزت هذه الحركة مجموعة من الاباطرة الاكفاء تركوا آثارا كبيرة في تاريخ الامبراطورية، وبفضل جهودهم ومساعدة الجيش لهم استمرت هذه الحركة أكثر من قرن(٨٤) • وقد سبقت الاشارة الى أبرز ما تميز به كل من هؤلاء الاباطرة وما قدموه من خدمة للامبراطورية •

٣ ــ نظرة في اقتصاديات الامبراطورية :

الخلفية التاريخية لحركة الذهب من والى الامبراطورية :

لم يكن الاقتصاد البيزنطي قائما ، بمجمله ، على نتائج العمل التجاري، لان المصلحة السياسية للامبراطورية كانت فوق المصلحة الاقتصادية في هذا النشاط الاقتصادي ، فالبيزنطيون ورثوا عن الرومان حقيقة اقتصادية تمثلت في أن البضائع المستوردة كانت على الدوام أكثر بكثير من البضائع المصدرة• مع ملاحظة ان البضائع المستوردة كانت في الغالب سلعا كمالية، وليست من أساسيات الحياة اليومية • وكان الميزان التجاري يؤدى عادة بالذهب، أي ان العملة التي تدفعها الامبراطورية مقابل السلع المستوردة ، هي الدينار الذهبي، وهذا يعني ان الازدهار الاقتصادي للامبراطورية كان مستقلا الى حد كبير عن حركة الذهب • وفي الوقت نفسه عملت الامبراطورية على تحقيق الاكتفاء الذاتي ، وفي الضروري من الامور على الاقل ، في حين أنها ــ كما نوهنا ــ كانت تستورد الكماليات من الشرق كالحرير والاحجار الكريمة والتوابل، وكانت تؤدي قيمتها بالذهب • أما مصادر هذا الذهب فهي بلاد النوبة وأحيانا من القوقاز والاورال ، في حين كانت المصادر المحلية في تناقص مستمر• ورافق هذا حقيقة ان الذهب الذي كان يدخل ايران ، كان يخرج من حيز التداول، لان ايران كانت تكتنز الذهب وتسك عملتها من الفضة وبها يكون الدفع• هذا فضلا عن حقيقة أخرى مفادها ان الكنائس والاديرة كانت تقوم هي الاخرى

---

٨٤ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١٣٤ .

باكتناز الذهب والفضة • وذهبت هباءا كل جهود قسطنطين الكبير عندما حاول اخراج الذهب الى حيز التداول• وفي عهد جستنيان ٥٢٧ــ٥٦١ م بدأت الحالة تقلق السلطات الرسمية • وفي الوقت عينه فان التجارة في البحر المتوسط كانت تدار من قبل تجار سوريين ومصريين ، وترتب عليه ان الذهب الذي يدخل هذين الاقليمين من الامبراطورية ، كان يبقى فيهما ، عدا نسبة منه تذهب الى القسطنطينية على شكل ضرائب ، ونسبة أخرى تذهب الى دور السكة في الاسكندرية وانطاكية ، ونسبة أخرى تستقر في كنائس وأديرة الاقليمين • في حين ان القسم الاكبر منه كان يذهب الى الشرق ثمنا للسلع المستوردة منه • وبهذه الصورة كان يتم سحب الذهب من التداول ، وحتى القرن السابع كان كل من سوريا ومصر أغنى اقليمين في الامبراطورية ، حتى من تلك التي تحف بالعاصمة • فضلا عن أن مصر كانت تزدهر فيها بعض الصناعات كالزجاج والفخار الراقي والمجوهرات والمنسوجات الخام التي كانت تصدر الى الغرب • كما كانت هناك صناعة مزدهرة للسفن في الاسكندرية وبيروت(٨٥) •

ووجد جستنيان عند تتويجه ان الخزينة المركزية ممتلئة ، مما مكنه في الداخل من اتباع سياسة اعمار واسعة النطاق ، الا أن الحرب مع الساسانيين أوقفت هذه المشروعات ، وعرقلت في الوقت نفسه وصول الحرير الصيني الى العاصمة ، فحاولت الدبلوماسية البيزنطية التعاون مع الحبشة لابقاء طريق البحر الاحمر مفتوحا أمام التجارة البيزنطية ، غير ان الحبشة عانت من هزيمة كبيرة في جنوب غرب الجزيرة العربية ، وهزيمة أخرى على يد بعض القبائل الافريقية ، مما جعل جهود البيزنطيين غير ذات نفع • ثم حاولت الامبراطورية البحث عن طريق آخر للحرير ، فجاء قيام امبراطورية تركية في أواسط آسيا فرصة لتحقيق هذا الغرض • بيد أن هذا المشروع فشل هو الآخر بسبب سقوط

85—Postan and Rich, The Cambridge Economic History of Europe, Vol. 2, PP. 88-89.

دولة الاتراك هذه • الا أن بيوض دودة القز نقلت الى بيزنطة ، التي تمكنت بعد ذلك من انتاج الحرير[٨٦] •

وفي ظل حكم خلفاء جستنيان ، توافق كل من الانهيار الاقتصادي والسياسي معا • ففي مطلع القرن السابع ، أصيبت ادارة الامبراطورية بشلل عام ، كما أن الحرب مع الساسانيين قد تجددت ، اذ واجهها هرقل لمدة ١٥ سنة بدون موارد كافية ، وأضرت هذه الحرب بأقاليم الامبراطورية أشد الضرر ، حيث فقدت أموال طائلة في أثناء هذه الحرب باستيلاء الساسانيين على الشام ومصر • وعقب انتهاء هذه الحرب ، فان الذهب وجد طريقه ثانية الى خزائن الاديرة والكنائس • وفي عام ٦٣٠ م كان الذهب المتداول أقل بنسبة ٣٠٪ مما كان عليه قبل قرنين من الزمن • ثم جاءت حركة التحرير العربية وبها فقدت الامبراطورية أغنى اقليمين ـ الشام ومصر ـ كما أن تجارة هذين الاقليمين أصبحت مستقلة عن بيزنطة • فبدأت هذه المدينة بالاعتماد على الاقاليم المحيطة بها لتوفير حاجاتها من القمح بعد فقدان القمح المصري • وفي هذه الفترة يكون التاريخ الاقتصادي الخاص ببيزنطة قد بدأ ، حيث بدأت القسطنطينية بالاستفادة من موقعها كنقطة اتصال بين الشرق والغرب • وفي هذه الفترة أيضا قطعت الدولة العربية الاسلامية امدادات الذهب عن الامبراطورية • ولم يبق أمام الدبلوماسية البيزنطية سوى أن تنشط في سبيل الوصول الى ذهب الاورال والقوقاز • وفي أواخر القرن الثامن ، أخرجت سياسة الاباطرة اللا ايقونية الى حيز التداول مدخرات الكنائس والاديرة من الذهب ، غير أن المصدر الرئيس للذهب الذي كان يصل بيزنطة ، في هذه الفترة كان يصل من المسلمين أنفسهم ، ذلك ان تجارة الدولة العربية الاسلامية مع غرب وشمال أوربا حملت الى هذه المناطق الكثير من الذهب ، الذي مكن هؤلاء الاوربيون من شراء السلع الترفية البيزنطية به • وبقدوم القرن التاسع

86—Postan and Rich, P. 90.

تمكنت بيزنطة من بناء رصيد جيد من الذهب ، استطاعت به مرة أخرى من الحصول على الواردات من الشرق[٨٧] .

موارد الخزينة المركزية :

ان الموارد الرئيسة للخزينة المركزية جاءت من الضرائب ، التي كانت على نوعين : ضرائب مباشرة وأخرى غير مباشرة . فأما المباشرة فهي :

١ ــ ضريبة الارض : وتجمع أولا عن الارض نفسها ، وتقدر حسب قيمتها وموقعها ونوعية تربتها . وثانيا على المحاصيل وبخاصة ما يتعلق بالثروة الحيوانية . وكانت القرية في العادة تشكل وحدة ضرائبية ، وهي مسؤولة كوحدة واحدة عن الدفع . وان المزارع غير القادر على الدفع تكون القرية مجتمعة مسؤولة عن دفع حصته من الضريبة[٨٨] . ثم قام نقفور بتغيير هذا النظام ، فجعل المسؤول عن دفع حصة المزارع العاجز عن الدفع ، أقرب أغنى مزرعة اليه . بيد أن هذا النظام ألغي وتم الرجوع الى النظام القديم في عهد ميشيل الثاني[٨٩] .وكان يعاد النظر في ضريبة الارض من حيث قيمتها وتقديرها كل ١٥ سنة[٩٠] .

٢ ــ ضريبة الرؤوس : وهذه يكتنفها بعض الغموض ، ولعلها كانت قاصرة على غير النصارى من رعايا الامبراطورية وعلى العبيد كذلك[٩١] .

٣ ــ الضرائب المفروضة على الماشية والحيوانات التي تستخدم في حراثة الارض ، وكذلك على الخنازير والنحل[٩٢] .

87—Ibid, PP. 90-92.
88—Baynes-Moss, P. 82.

٨٩ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١٠٨ .
٩٠ ــ نفس المرجع والصفحة .
٩١ ــ المرجع السابق ، ١٠٩ ، كذلك :

Baynes-Moss, P. 82.
92—loc, cit.

٤ ــ هناك ضرائب أخرى تفرض بين آونة واخرى مثل ضريبة الديكيراتون التي أوجدها ليو الثالث لاصلاح أسوار القسطنطينية[٩٣] .

٥ ــ ضريبة السكن ، وهي تعديل لضريبة الرأس ، ولا تجمع من الافراد وانما عن الاسر[٩٤] .

أما الضرائب غير المباشرة فهي :

الضرائب الكمركية : وتفرض على الصادرات والواردات وتكون ثابتة بنسبة ١٠٪[٩٥] . فضلا عن أن البضائع التي تدفع عنها الضرائب الكمركية لا يعني أنها معفاة من ضرائب البيع بالتجزئة[٩٦] . ويضاف الى هذه الضرائب واردات أخرى عامة ، مثل العقارات التي لا يترك أصحابها وصية ولا وارثا ، والهدايا التي تقدم للاباطرة مباشرة من قبل الرعايا ، وما يدفعه المرشحون لوظائف البلاط أو الخدمة المدنية[٩٧] . وهناك أيضا ايرادات اخرى مستمدة من ممتلكات الدولة الصناعية والزراعية والمدنية . وتشمل الصناعية الصناعات العسكرية والترفية ، وخاصة الاقمشة . واذا كان هـذا الانتاج لا يباع في العادة ، الا أنه لم يكن يضطر الدولة الى الشراء والانفاق . وكان للاباطرة اراض زراعية ، وهي وان كانت متناقصة بسبب ما يوزع من هبات ، وبسبب حالات الاضطراب التي قام بها قادة الجيش، فان انتاجها كان يغطي بعض الشيء من النفقات العامة . كما كان للدولة اسواق وخانات يستغلها التجار عن طريق

---

٩٣ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١١٢ .

94—Bury, E.R.E, P. 213.

95—Ioc, cit.

٩٦ ــ بينز ، ١٦٥ ، كذلك :

Baynes-Moss, P. 82.

٩٧ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١١١ ، كذلك :

Baynes-Moss, P. 83.

ايجارها ، فضلا عن هذا مقالع الحجر والممالح التي يعود واردها للخزينة المركزية[٩٨] .

كان نقفور ابرز من اهتم بالمالية العامة ، ولا عجب ، اذ كان وزيرا للمالية قبل اعتلائه العرش . فقد امر باعادة الضرائب التي كانت ايريني قد اسقطتها ، ثم أمر باعادة تقدير الضرائب على السكان ، ومقارنتها بالمستوى السابق ، كما أمر باخضاع المزارعين المستأجرين لاراضي الاديرة والكنائس لضريبة الارض. وقام أيضا بالاستيلاء على خزائن الكنائس ووضعها تحت الادارة الامبراطورية. وفرض ضرائب على الاشخاص الذين أصبحوا أغنياء بصورة مفاجأة بعدما كانوا فقراء[٩٩] .

الانشطة الاقتصادية :

كان للموقع الجغرافي للامبراطورية دور مهم في تجارتها ، اذ مثل نقطة التقاء آسيا باوربا ، حيث توجد نهايات أو التقاءات طرق التجارة العالمية النشطة . فثمة طرق مهمة تربط القسطنطينية بوسط أوربا وجنوبها ، وطرقا أخرى تربطها بالاقاليم الروسية ، من جهة أخرى فعند ميناء طربرون — على الساحل الجنوبي للبحر الاسود — تنتهي الطرق المهمة القادمة من الصين وأواسط آسيا .

وهناك طرق أخرى مهمة عبر سوريا وميناء الاسكندرية ، تربط الامبراطورية بطريق بحري مع الهند والصين . غير أن هذه الطرق أصبحت بيد المسلمين لاحقا،حيث انخفضت قيمتها التجارية بالنسبة للامبراطورية[١٠٠] . ويبدو ان هذا الموقع المهم كان سببا في بقاء الامبراطورية ودوام وجودها قرونا عديدة[١٠١] . غير أن التجارة البيزنطية —كما يبدو— عانت من احباطات

98—Baynes-Moss, P. 81.

99—Ostrogorsky, PP. 187-189; C.M.H, 4/1, P. 93.

100—Diehl, P. 65.

101—Baynes-Moss, P. 65.

وأزمات عديدة سببتها الادارة الحكومية بالتدخل المتزايد في شؤون التجارة فضلا عن سلسلة من التشريعات عرقلت نمو النشاط التجاري • كما كان للضرائب الثقيلة دورها في هذا المجال[١٠٢] • ثم جاء تدخل النقابات في تحديد الاسعار — في هذه الفترة بالتحديد — لتؤدي الى فقدان الحرية التجارية ، ومعها ذهب الازدهار التجاري للامبراطورية[١٠٣] • ومر في مقدمة هذه الفقرة ، أن الميزان التجاري في أغلب الاحيان ، لم يكن في صالح الامبراطورية ، بسبب استيرادها المتزايد للسلع الكمالية من الشرق ، وهذا يعني استنزاف مواردها من الذهب على الدوام •

أما فيما يتعلق بالانتاج الزراعي ، فقد اهتم به الاباطرة البيزنطيون اهتماما كبيرا ، بوصفه أهم مصادر الثروة في العصور الوسطى ، اذ كانت الزراعة النشاط الاقتصادي الاكثر أهمية ، ومثلت باستمرار مجالا متزايدا في عموم الامبراطورية[١٠٤] • وقام قسطنطين الخامس باصلاحات داخلية أدت الى ازدهار أحوال البلاد ، ووجه اهتماما خاصا نحو الزراعة ، فأنشأ عددا من المستوطنات الزراعية في الاراضي البور في الجانب الغربي من الامبراطورية وأسكنها بعضا من أهل أرمينية[١٠٥] • وأقام مستوطنات اخرى في الجانب الشرقي ، واسكنها الصقالبة لزراعتها، فضلا عن الاهداف السياسية من ذلك[١٠٦] • ومع هذا فان المعلومات الواردة عن الزراعة — في هذه الفترة — كانت متناقضة الى حد بعيد • اذ روى بعض المعاصرين انها كانت في ازدهار مذهل ، وان الامبراطورية لم تكن تطعم نفسها فقط ، بل أنها كانت تصدر الى الخارج[١٠٧] •

102—loc, cit.

103—Ibid, P. 66.

104—Robert Lopez, Byzantium and the World around it P. 1/345.

١٠٥ — محمود سعيد عمران ، ١١١ •

106—Finlay, P. 57.

107—Baynes-Moss, PP. 59-60.

من جهة أخرى أشارت الوثائق الرسمية الى صورة مغايرة لذلك تماما ، تمثلت في تدهور أحوال الزراعة بسبب غارات المسلمين وانتشار الطاعون والمجاعات وانسحاق أعداد كبيرة من الفلاحين تحت وطأة الضرائب الثقيلة واستغلال الرهبان لهم • وربما لم تكن أي من الصورتين هي الاصح دون الاخرى ، فلعلهما تعودان الى ظروف زمانية ومكانية متباينة(١٠٨) •

أما الانتاج الصناعي ، فان ما تعرض له من مشاكل ، كان أقل نسبيا مما تعرض له الانتاج الزراعي • وانصرف هذا الانتاج أساسا نحو الصناعات الترفية ، لتلبية حاجات البلاط وعشرات الالوف من الكنائس والاديرة في الامبراطورية وعموم أوربا • كما عملت هذه الصناعة أيضا على تلبية الاحتياجات المنزلية(١٠٩) • وكان للدولة مصانعها الخاصة للاسلحة والاقمشة الحريرية ، وهي في العادة لا تبيع انتاجها لعامة الناس ، بل هدفت الى تلبية حاجة البلاد والكنائس والاديرة(١١٠) •

أما ما يتعلق بايرادات الدولة ، فقد رأى بينز أن أية محاولة لتقدير هذه الايرادات لا يمكن أن تكون سوى رجم في الغيب(١١١) • ومع هذا أورد رانسيمان ارقاما عن ايرادات الامبراطورية ، وأنها بلغت في أيام جستنيان ٥٢٧–٥٦١ بين (١٠٥) الى (١٢٠) مليونا من الفرنكات الذهبية ، في حين بلغت (٦٤٠) مليون فرنك ذهبي في القرن العاشر الميلادي ، ويرى ان الرقم الاول أقل بكثير مما يجب(١١٢) • وهنا لابد من ملاحظة ان الرقم الثاني مبالغ فيه جدا ، فاذا كانت هذه الايرادات أيام جستنيان — بهذا المستوى المذكور أو أكثر — وفي وقت كانت فيه الامبراطورية في أقصى اتساع لها ، فكيف ازدادت

108—Ibid, P. 60.
109—Ibid, P. 61.
110—Baynes-Moss, P. 86.

١١١ — الامبراطورية البيزنطية ، ٦١ •
١١٢ — الحضارة البيزنطية ، ١٠٧ •

هذه الايرادات بهذا الشكل الكبير في القرن العاشر؟ في وقت أصبحت فيه الامبراطورية في أضيق مساحة لها قياسا بالقرن الميلادي السادس.

أما مصادرنا الجغرافية فقد عبرت عن اهتمام الجهات الرسمية في الدولة العباسية بمعرفة مقدار ايرادات الامبراطورية البيزنطية،فأوردت بعض المقارنات بين ايرادات الدولتين ، بيد انها وللاسف ، جاءت مقتضبة جدا . من ذلك : انه حسب خراج الروم ـ بناءا على طلب المعتصم ـ فبلغ ثلاثة ملايين دينار،فكتب المعتصم الى الامبراطور ، ان ايراداته هذه أقل من ايرادات أفقر ولاية في الدولة العباسية[١١٣]. ومما ورد أيضا ، ان بعض المسؤولين استفسر من أحد بطارقة ـ الستراتيج قائد البند ـ الروم عن مقدار خراج الامبراطورية ، فقال كذا وكذا ، وعند تدقيق الرقم من قبل الجهات الرسمية في الدولة اتضح أنه أقل من خراج مصر[١١٤] . كما ورد أيضا ان الوزير محمد بن عبدالملك الزيات استفسر من أحد رسل الامبراطور عن مقدار ايرادات بلاده ، فأجابه انها أكثر من (١٠٠) ألف دينار ، فرد عليه الوزير ان هذا أقل من ايراد ضياع الخليفة[١١٥] .

والحقيقة ان هذه الارقام لا تعبر عن نتائج دقيقة ، الا أنها على أية حال تظهر بوضوح مدى التباين الكبير بين ايرادات كل من الدولتين . ولا بد أن يكون هذا أمرا طبيعيا ، وفقا لما عرضناه من ازدهار وانتعاش كبيرين للاقتصاد العباسي ، في حين ان الاقتصاد البيزنطي ظل يعاني ويقاسي من الصعوبات والعراقيل في نموه وحركته . وعلاوة على ذلك فان قلب الامبراطورية، آسيا الصغرى ، غالبا ما كان ميدانا للقتال بين الطرفين ، مما ترك آثارا سلبية

---

١١٣ ــ المقدسي ، احسن التقاسيم ، ٦٤ .
١١٤ ــ الجاحظ ، البلدان ، ٤٩٢ .
١١٥ ــ ابن الفراء ، رسل الملوك ، ٣٥ .

خطيرة على الزراعة ، والتجارة الداخلية على الاقل ، في وقت كانت مظاهر النشاط الاقتصادي العباسي بعيدة على الدوام من أية أخطار حربية •

٤ ــ العلاقات الحربية مع البلغار :

عانت الامبراطورية البيزنطية من علاقات دامية مع البلغار ، استمرت سنوات طويلة دفعت الامبراطورية ثمنها غاليا ، وتركت آثارا رافقت وجودها لفترة طويلة ، ومن خلال ملاحظتنا للشكل رقم ــ٩ــ يتضح لنا أن العمليات العسكرية بين البيزنطيين والبلغار ، شهدت عدة حالات تصعيد رئيسة • امتد التصعيد الاول بين عامي ٧٥٣ــ٧٦٤م/١٣٦ــ١٤٦هـ ، والتصعيد الثاني بين عامي ٧٨٧ــ٧٩٢م / ١٧١ــ١٧٦هـ ، في حين امتد التصعيد الثالث للفترة ٨١١ــ٨١٧م/١٩٦ــ٢٠١ هـ ، أعقب ذلك اتفاق للسلام دام سنوات طويلة فيما بعد • وكان كلا الجانبين مسؤولا عن هذه التصعيدات • فالبلغار كانوا يعمدون الى التوسع على حساب الامبراطورية، بينما كان البيزنطيون يحاولون دوما رد هذه الاعتداءات والثأر من نتائجها •

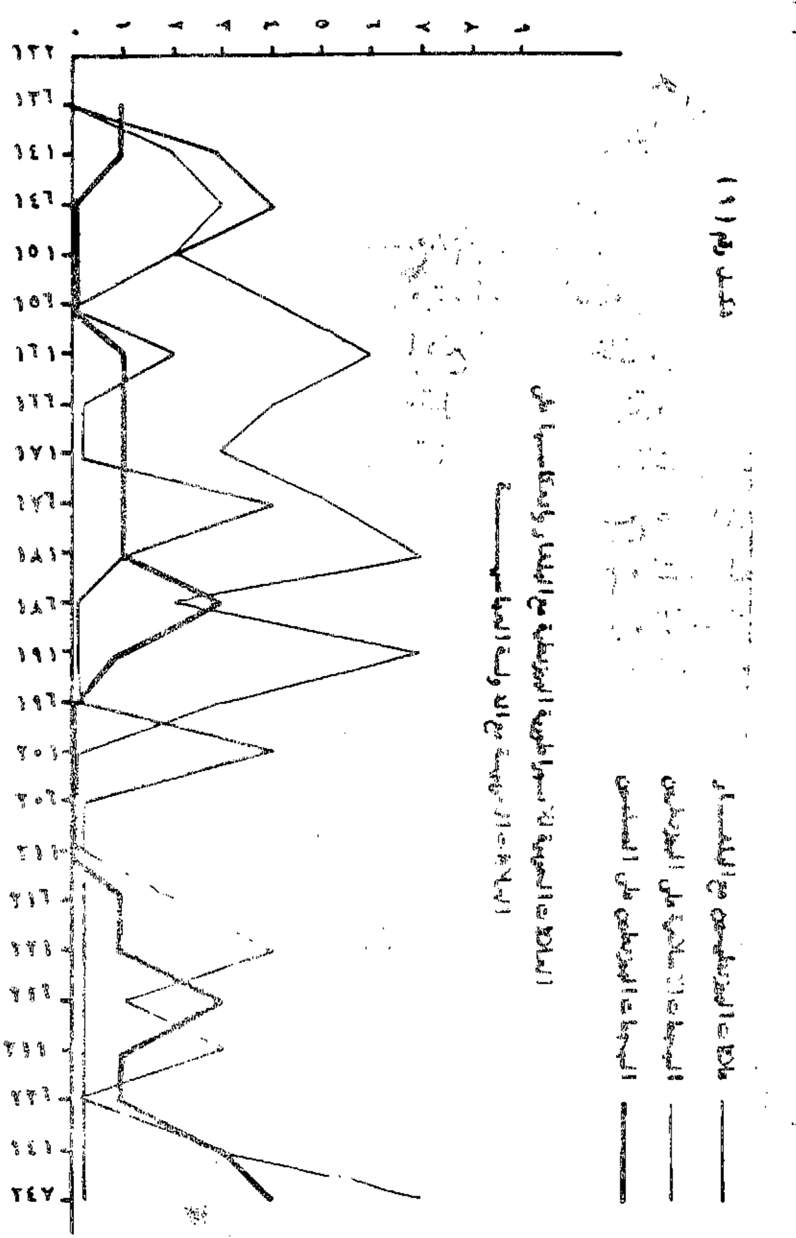
وكان قد سبق عقد اتفاق للسلام بين الطرفين في عام ٧١٦م/٩٧ــ٩٨هـ، غير أن البلغار بدأوا في عام ٧٥٥م/١٣٧ــ١٣٨ هـ يطالبون بزيادة الجزية ، وبرفض الجانب البيزنطي لهذا الطلب ، عبر البلغار الى البلقان وقاموا بأعمال النهب ، وكانت العاصمة نفسها مهددة بالخطر(١١٦) • واستمروا في السنة التالية بأعمال الاعتداء هذه(١١٧) • لذا فان قسطنطين الخامس أدرك مدى التحول الذي أصاب السياسة الخارجية البلغارية ، فبدأ بتوجيه معظم جيوشه في ما لا يقل عن تسع حملات على الاراضي البلغارية(١١٨) • وتعاقبت الحملات

116—Brehier, P. 59.
117—Ostrogorsky, P. 168.
118—Ioc, cit.

بعد ذلك ، ففي عام ٧٥٩م/١٤١ــ١٤٢هـ تمكن قسطنطين الخامس من دفــع خطر البلغار عن الامبراطورية[١١٩]. وكذا الحال في عام ٧٦٠م/١٤٣ــ١٤٤هـ و ٧٦٣م/١٤٥ــ١٤٦هـ و ٧٦٥م/١٤٧ــ١٤٨هـ حيث سار بعيدا في الاراضي البيزنطية[١٢٠] . خصوصا وان هذه الفترة شــهدت وصول تيلتز الى حكم البلغار في عام ٧٦٢م/١٤٤ــ١٤٥ هـ، والذي مثل حزبا معاديا للبيزنطيين[١٢١]. اذ قام باجتياح تراقية في عام ٧٦٣م/١٤٥ــ١٤٦ هـ ، الا أنه اندحر في آخر هجومه هذا[١٢٢]. وشهد عام ٧٦٦م/١٤٨ــ١٤٩ هـ تحطم حملة بحرية كبيرة أرسلها قسطنطين الخامس لدخول الدانوب ومهاجمة البلغــار ، فتحولت الى أشلاء بفعل عواصف مدمرة صادفتها في أثناء رحلتها في البحر الاســود ، مما دفع قسطنطين الى التخلي عن المشروع برمته ، وعقد هدنة مع البلغار[١٢٣] . وفي السنوات ٧٧٣ــ٧٧٥م/١٥٧ــ١٥٩ هـ تصاعــد النزاع بين الطــرفين بحملات متبادلة ، وكان البلغار يعدون بسرية حملة من (١٢) ألف جندي لغزو أراضي الامبراطورية ، الا أنهم فوجئوا بهجوم قاده قسطنطين بجيش قوامه (٨٠) ألف جندي[١٢٤] . غير ان هــذه الحملات انتهت بوفاة قسطنطين في آخرها[١٢٥] . وبفضل الضربات القوية هــذه ، فان البلغار مالوا الى الهدوء سنوات عديدة .

وفي عام ٧٨٨م/١٧١ــ١٧٢هـ حطم البلغار جيشا بيزنطيا كان مرابطا في تراقية ، وألحقوا به خسائر فادحــة ، مما دفع قسطنطين السادس ، الذي كان يأمل في احراز هيبة عسكرية ، الى قيادة حملة على البلغــار في عام ٧٩١م/

119—C.M.H, 4/1, P. 74.
120—Finlay, P. 49.
121—Ostrogorsky, P. 168.
122—Ibid, PP. 186-187; C.M.H, 4/1, P. 74.
123—Finlay, P. 50.
124—C.M.H, 4/1. P. 75.
125—Finlay, P. 49; Ostrogorsky, P. 169.



١٧٤ـ١٧٥هـ ، غير أن نتائجها لم تكن حاسمة كما توقع • وفي السنة التالية مُني الامبراطور بهزيمة كبيرة ، قتل فيها عدد من كبار قـادته ، وحاول مرة

أخرى أن يجرب حظه العاثر هذا ، فقام في عام ٧٩٦م/١٧٩ــ١٨٠هـ • بحملة جديدة لم تحقق سوى نجاح محدود[١٢٦] • اعقبتها فترة هدوء وسلام استغرقت عشر سنوات بين عامي ٧٩٧ــ٨٠٧م/١٨١ــ١٩١هـ • انشغل البلغار خلالهـا بالوضع السياسي الناشيء في اقليم الدانوب الاوسط الناجم عن تقدم الفرنجة وسحقهم للآفار[١٢٧] • وفي عامي ٨٠٧ــ٨٠٨م/١٩١ــ١٩٣ هـ قـام نقفور باعداد قواته مرتين لشن هجوم على البلغار مبتدءا حالة العداء بين الطرفين، الا أنه لم يتمكن من تحقيق هذه الهجمات ، مما دفع كروم ــ خان البلغار ــ الى شن هجوم واسع حطم فيه مدينة سارديكا وقتل حاميتها المكونة من (٦) آلاف جندي ، ودمر استحكاماتها ثم أحرق المدينة في آخر الامر ، فاضطر نقفور للقيام بعمل سريع تمثل بمهاجمـة بليسكا[١٢٨] • وفي ربيـــع عام ٨١١م / ١٩٥ــ١٩٦هـ اكمل نقفور استعداداته واستحكاماته، ثم تقدم مخترقا الحدود بقوة هائلة ، ورفض كل عروض السلام التي توسل بها البلغار ، الذين أفزعهم الجيش المتقدم في أراضيهم • اذ كان الامبراطور مصمما على وضع نهاية لدولة البلغار ، فهرب كروم من عاصمته وسيطر نقفور على قصوره وخزائنه • وكان لجوء كروم الى الجبال خطة أراد منها مهاجمة جيش نقفور عندما تحين الفرصة • واعتقد نقفور انه أنهى كل شيء • بيد أنه فوجيء بقواته محاصرة باحكام في المناطق الجبلية • وفي معركة نشبت بين الطرفين اندحر الامبراطور ، وفي آخر المعركة كانت جثته بين الجثث ، الا ان رأسه كان بيد كروم ، الذي جعل من جمجمته قدحا يستعمله في المآدب[١٢٩] • وفي السنة التالية استولى البلغـار على ديفيلتوس ، وقام كروم بنقل سكانها الى ما وراء الجبال البلغـارية ، ثم نهب المدينة ودمرها • غير أن رد الفعل البيزنطي لم يكن بمستوى الحدث ،

126—Ostrogorsky, P. 182; Finlay, PP. 84-85; Brehier, P. 64.
127—Bury, E.R.E, P. 340.
128—Ibid, PP. 340-341; C.M.H, 4/1, P. 92.
129—Ibid, PP. 343-345; Ostrogorsky, P. 196; C.M.H, 4/1, P., 94.

لوقوع تمرد في الجيش البيزنطي حال دون قيامه بواجبه[130]. وفي هـذه السنة أيضـا استولى البلغار على مسمبريا ونهبوا ثروتها من ذهب وفضـة وما وجدوا فيها من نار اغريقية[131] . وفي عـام ٨١٣م/١٩٧ـ١٩٨ هـ تقرر القيام بحملة على البلغار ، بعد خلافات حادة بين مستشاري الامبراطور ميشيل وانجاب ، غير ان هذا الامبراطور لم يكن بالقائد الكفء . وكان قد أتم تجهيز جيشا كبيرا اشتركت فيه البنود الآسيوية تحت قيادة ليو الارمني، بيد أنه عند بدء العمليات العسكرية تخلفت القوات الآسيوية عن الاشتراك في القتال . فألحق ذلك هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطي ، انسحب الامبراطور على اثرها الى عاصمته ، منتظرا اقصائه عن العرش بعد أيام قليلة ، واعتلاء ليو الارمني لهذا العرش بدلا منه[132]. ثم أصر البلغار على محاصرة القسطنطينية وأدرنة. وفي أثناء حصار العاصمة ، طلب ليو الارمني من كروم التفاوض من أجل عقد معاهدة للسلام بينهما ، وتم الاتفاق على مكان عقـد الاجتمـاع . الا أن الامبراطور كان يخطط لاغتيال كروم والتخلص منه ، وفي اللحظات الاخيرة اكتشفت المؤامرة ، ولم ينج منهـا كروم الا باعجوبـة . ودفعـه ذلك الى القيام بأعمال انتقامية رهيبة ، فعبث وحرق ودمر وخرب المنـاطق المحيطـة بالعاصمة والاقاليم المجاورة لها ، ولم يسلم من يديه شيء . وفي خريف عـام ٨١٣م/١٩٧ـ١٩٨هـ تمكن ليو الارمني من تحقيق نصر على البلغار ، ممادفع كروم الى عقد تحالف ضم البلغار والصقالبة والآفـار لمهاجمـة العاصمـة البيزنطية . وفي الطرف الآخر كان ليو يتهيأ بترميم الاسوار والاستحكامات، الا أن الموت المفاجيء لكروم في ٨١٤م/١٩٨ـ١٩٩هـ أنهى هذه الازمة[133].

130—Bury, E.R.E, P. 346.
131—Ibid, P .348.
132—Ibid, PP. 350-351.
133—Ibid, PP. 354-358.

وفي أعقاب موت كروم انشغل البلغار في صراعاتهم الداخليــة • وفي نهاية عام ٨١٤م/١٩٨ــ١٩٩هـ انتقل حكم مملكــة البلغــار الى أومرتاج ، الذي سعى الى عقد معاهدة سلام مع البيزنطيين في الفتــرة ٨١٥ــ٨١٦م/ ٢٠٠ــ٢٠١هـ ، وتم فعلا عقد معاهدة أمدها (٣٠) سنة قابلة للتجديد بموافقة الطرفين • فساد الهدوء والاستقرار فترة طويلة على التخوم بين الطــرفين في أعقاب هذه المعاهدة[١٣٤] •

وأسفرت هذه العلاقات الدامية بين الطرفين ،عن جملة من النتائج تركت آثارها واضحة على علاقات البيزنطيين بالدولة العباسية ، وهذه النتائج هي:

١ ــ استنزفت هذه الحروب الكثير من القدرات البشرية للامبراطورية، اذ كان لابد من دفع ثمن هذه المعارك ، دماء غزيرة ، من كلا الطرفين • وهو ما أضعف القدرات البشرية للامبراطورية •

٢ ــ فقدت الامبراطورية الكثير من مواردها الاقتصادية ، حيث استلزم الامر الانفاق الواسع على تجهيز الجيوش ، أو اعمــار وترميم التحصينات والاستحكامات ، وبناء أخرى جديدة • علاوة على ما قام به البلغار من تدمير وتخريب واتلاف للاراضي الزراعية والموانيء التجارية ، وأخيرا ما كان يدفع للبلغار من جزية لتهدأتهم •

٣ ــ أما التأثير المباشر لهذه العلاقات مع البلغار على العمليات والنشاط العسكريين بين الامبراطورية والدولة العباسية ، فكان لها أكبر الاثر • ويظهر الشكل رقم ــ٩ــ ان النشاط البيزنطي العسكري على التخوم مــع الدولة العباسية تعرض الى شبه شلل في فترات تصعيــد العمليات العسكرية على التخوم مع البلغار • والعكس صحيح • كما يبدو أن الدولة العباسية استفادت من هذه الاوضاع المضطربة • فتزايد نشاطها العسكري تجاه البيزنطيين عند

134—Ibid, PP. 359-360.

تتأزم علاقة هؤلاء مع البلغار ، ويخف هــذا النشاط بهـدوء الاوضاع بين البيزنطيين والبلغار •

ح ــ نظام البنود :

استعملت بعض المصادر العربية كلمـــة بند للدلالة على التقسيمات العسكرية الادارية التي سادت في الامبراطورية البيزنطية مقابل كلمة Theme التي وردت في المصادر البيزنطية • وهي الاقدر من غيرها على التعبير عن هذه الحالة ، وهو ما سنعتمده في بحثنا هذا •

ان كلمة Theme اغريقية الاصل ، عنت في أول الامر فرقة عسكرية ، ثم أصبحت تعني بعد ذلك المنطقة التي تستقر فيها فرقة عسكرية ما من فرق الجيش البيزنطي • فأصبحت الكلمة تعني نظاما يقوم على أساس ان الاقليم يشكل وحدة عسكرية وادارية ومالية واحدة وتخضع لسيطرة واحــــدة أيضا(١٣٥) • وهي التعبير الطبيعي عن تقسيم القوات العسكرية وتحويلها الى مناطق عسكرية جديدة ، وهذا بحد ذاته يدل على أصل هذا النظام دلالة عامة • ومن أسس هذا النظام أيضا منح الجند المستقرين في منطقة ما ، مساحات من الارض الزراعية ليس بمقدورهم بيعها ، وهي مقابل الخدمة العسكرية الوراثية • ويعد هذا النظام تطورا لنظام Limitanei الذي يعني جيش الاطــراف ، ويستقر فيه الجنود في المناطق التخوم بشكل دائم ، لكن هــذا النظام انهار تحت ضربات القوات الاجنبية(١٣٦) •

متى بدأ نظام البنود بالظهور ؟

في الحقيقة لم يجر اتفاق نهائي بصـــدد هــذه المشكلة بين المؤرخين المحدثين ، اذ اختلفت الآراء بينهم ، فهنالك من ينسب ظهوره الى أيام الامبراطور

135—Diehl, P. 65.
136—Ostrogorsky, P. 97.

هرقل وأنه هو الذي ابتدعه(١٣٧) • في حين ان البعض جعل ظهوره في أعقاب فترة حكم هرقل(١٣٨) • بل ان البعض كان أكثر تحديدا فجعل فترة حكم كونستانز الثاني ٦٤١–٦٦٨م ، أو قسطنطين الرابع ٦٦٨–٦٨٥م هي الفترة التي ظهر فيها هذا النظام(١٣٩) • ويبقى الرأي الاكثر رجاحة هو الذي يرى ان هذا النظام لا يمكن نسبته الى هرقل ، وانما الى الفترة اللاحقة له ، ولهذا الرأي موجبات عدة :

فاذا كان هرقل هو الذي أوجد هذا النظام : وبفضله حقق النصر على الساسانيين ، أو حتى في أعقاب نصره هذا • فكيف نفسر الهزيمة الساحقة للامبراطورية أمام حركة التحرير العربية ؟ ان نجاحات هرقل ، لم تكن نتيجة لاي اصلاح أو نظام أوجده ، بقدر ما تعود أساسا الى قدراته العسكرية الفائقة ومناوراته البارعة(١٤٠) • واذا كان هرقل قد وجد في نفسه القدرة على الشروع بتطبيق هذا النظام ، فلماذا لم يقم بدوره في الدفاع عن ممتلكات الامبراطورية في سورية(١٤١) • هذا فضلا عن عدم وجود أية اشارات أو نصوص تاريخية واضحة تنسب الى هرقل قيامه بتطبيق هـــذا النظام(١٤٢) • وان ما ذكره ثيوفانس ، لا يعدو كونه المعنى الجغرافي لكلمة Themata (١٤٣) ، فضلا عن

137—Ibid, P. 97; Finlay, P. 12; Baynes-Moss, PP. 297-298; David Talbot Rice, The Byzantines, P. 47; The Encyclopedia Britanica, Vol. 8, P. 781; Langer, P. 189.

138—Vasiliev, P. 229; Paul Lemerle, Lemond de Byzance, P. 356; Baynes, The Emperor Heraclius, P. 381.

139—Charles Oman, A History of the art of war in the middle ages, Vol. 1, PP. 181-182.

140—Lemerle, PP. 359-360.

141—Baynes, The Emperor Heraclius, P. 381.

142—Lemerle, P. 356.

143—Ibid, PP. 358-359.

ذلك فان هرقل لم يكن لديه من الوقت ما يكفيه لتطبيق هـذا النظام[١٤٤] . وواضح ان الدوافع التي كمنت وراء قيام هـذا النظام تمثلت في الاخطار الجسيمة التي تعرضت لها الامبراطورية في هـذه الحقبة التاريخية ، والتي سبق ايجازها ، فكان لابد من الحفاظ على البقية الباقية من أقاليمها ، حيث لعب هذا النظام دورا كبيرا في صمودها أمام الزحف العربي الاسلامي[١٤٥].

قدمت المصادر العربية قوائم متعددة عن البنود البيزنطية مع معلومات جغرافية عنها . ولعل قائمة ابن خرداذبة التي نقلها عن الجرمي[١٤٦] تمثل أقدم هذه القوائم التي وصلتنا . فالجرمي هو مسلم بن أبي مسلم ، كان أحد أسرى المسلمين الذين فدي بهم في عام ٢٣١هـ/٨٤٥م ، وكان على اطلاع واسع بأوضاع الامبراطورية البيزنطية ، وله مصنفات تأريخية وجغرافية وادارية عن أوضاع الامبراطورية وعلاقاتها مع جيرانها من الامم ، والاوقات المناسبة لتوجيه الحملات الحربية عليها[١٤٧] . وان قائمته تمثل فترة قريبة من قبل أو بعد خروجه من الاسر ، وعليه يمكن تحديد تواريخ القوائم التي وصلتنا على الشكل الآتي: قائمة ابن خرداذبة عن الجرمي تؤرخ في الفترة ٢٢٤ـ٢٣٤هـ/ ٨٣٨ـ٨٤٨م ، وقائمة المسعودي في ٢٣٢ـ٢٤٩هـ/٨٤٥ـ٨٦٣م ، في حين ان قائمتي قدامة وابن الفقيه ربما أخذتا مباشرة عن الجرمي أو من النص الكامل لابن خرداذبة[١٤٨] . ان البنود التي وردت في قائمة ابن خرداذبة ــ الجرمي هي :

بند افلاجونية Paphlagonie ، الأخطي ماطي Optimatoi الأبسيق Opsikion ، ترقسيس Thracesion ، الناطلوس Anatolikoi ، خرسيون ،

144—Vasiliev, P. 229.
145—Lemerle, P. 356.

١٤٦ ــ ابن خرداذبة ، ١٠٥ .
١٤٧ ــ المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ١٦٢ .
148—Brooks, Arabic Listes of the Byzantine Theme, P. 71.

Charsianon ، البقلار Buccellarii الارمنياق Armenkoi ، خلدية Chaldia ، سلوقية Seleuceia ، القبادق Cappadocia[149] .

ولدى التدقيق في هذه القائمة، يظهر انه جرى اسقاط بند كبيريوت، وهو ما شاركه فيه المسعودي ، ويمكن افتراض سبب ذلك ، ان القائمة عسكرية لم تضم البند البحري . أو ربما ان قائد البند البحري هذا ، لم يكن مستقلا في سلطاته ، عدا الجزر ، فيكون بذلك مرتبطا بقائد بند التراقيسيون الذي جعلته القائمة يمتد حتى السواحل البحرية[150] .

ولا تختلف قائمة المسعودي عن هذه القائمة كثيرا ، سوى انه أخطأ بأن جعل بند « الافتي ماتي » بند الناطليق[151] . في حين أشار الى بند الاخطماط على أنه بند نقمودية .[152] مع أنــه هو نفسه بند الافتي ماتي Optimatoi الذي ذكره الجرمي . وان بند الناطليق هو بند آخر مختلف . أما قائمة قدامة فلا تختلف هي الاخرى عن سابقتيها ، عدا انها أضافت عدد القوات العسكرية في كل بند من هذه البنود[153] . وهو ما سنأتي عليه تباعا .

ولم تكن البنود بهذا العدد منذ البداية، بل ان أعدادها تزايدت بتقسيم البنود الكبيرة كل منها الى بندين أو أكثر ، اذ قسّم ليو الثالث بند الناطليق الواسع المساحة وأخرج منه بند تراقيسيون، وكان السبب وراء هذا التقسيم، شعوره بالخوف من أن الطموحات قد تداعب مخيلة قائده ــ كما فعل هو من قبل ــ ويطمع في ارتقاء العرش الامبراطوري ، مع انــه لم يقسّم بنــد الابسينيون على الرغم من أنه كان يساوي بند الناطليق في المساحة ، واكتفى

---

١٤٩ ــ ابن خرداذبة ، ١٠٥ــ١٠٨ .

150—Brooks, Arabic Listes, P. 71.

١٥١ ــ التنبيه والاشراف ، ١٥٠ ــ ١٥١ .

١٥٢ ــ المصدر السابق ، ١٥٢ .

١٥٣ ــ الخراج ، ١٩٠ ــ ١٩٢ .

بتعيين صهره ـ ارتباسدوس قائدا للبند . غير أن ابنه قسطنطين الخامس ، أدرك ما كان يجب على والده أن يفعله بتقسيم هذا البند ، فبعيـد اعتلائه العرش ، داعبت الطموحات مخيلة هذا الصهر فطالب بالعرش ، واعتلاه فعلا لعدة أشهر . مما دفع قسطنطين الى شطر هذا البند وأخرج منه بند البقلار ، بعد اخماده حركة ارتباسدوس هذه . أما البند البحري تراقيسيون ، والذي اشتمل على كل القوى البحرية للامبراطورية،كان مقسما منذ أيام انستاسيوس الثاني أو ليو الثالث ، يقوده اثنان من القادة يخضعان لقائد البند الاعلى ، أما الآن فقد أصبحا بندين مستقلين عن بعضهما ، اذ أصبـح الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى يعرف ببند كيبريوت ، وأصبحت جزر بحر ايجه بندا مستقلا كذلك ، وكان بند كيبريوت قد اجتزيء من بند تراقيسيون[١٥٤] .

بعد ذلك قام الامبراطور ثيوفيل بايجاد بنود جـديدة هي : بافلاجونيا وخالديا ، مقتطعا الاول من بند البقلار ، والثاني من بند الارمنياق ، وتمثلت غايته من هذا الاجراء ، في أن سياسة الامبراطورية سعت في هذه الفترة الى تعزيز وجودها في منطقة البحر الاسود[١٥٥] . ثم أفرد قيـادات عسكرية أقيمت تباعا ، مهمتها الدفاع عن الممرات الجبلية المهمة في مناطق التخوم مـع الدولة العباسية تدعى كليسورية Kleisouras تخترقها شـبكة مهمة من طرق المواصلات[١٥٦] .وكان إفراد مثل هذه القيادات ضروريا لمواجهة النشاط العسكري العباسي ، أما هذه القيادات فقد اقتطعت من بنـدي الناطليـق والارمنياق ، وكل منها تحت قيادة كليسورخ ، يمكنه القيام برد فعل سـريع تجاه تحركات القوات العباسية واتخاذ الاجراءات الدفاعية اللازمـة لذلك .

154—Ostrogorsky, PP. 157-158; C.M.H, 4/1, P. 64.

155—Ostrogorsky, P. 207, Bury, E.R.E, PP. 222-223; C.M.H, 4/1, P. 103.

156—Finlay, P. 13; Baynes-Moss, P. 299.

وهذه الكليسوريات هي : سلوقية وقبادوقيا وفرسينون[١٥٧] • وهي بهـذا تكون الثغور البيزنطية المواجهة للثغور الاسلامية •

ومما تقدم أصبحت البنود القائمة فعلا في الامبراطورية البيزنطية في هذه الفترة هي :

بافلاجونيا	Paphlagonia	الافتي ماتي	Optimatoi		
الارمنياق	Armeniakoi	الابسيق	Opsikion		
خالديـا	Chaldia	تراقيسيون	Thrakesion		
ايجـه	Aigaion	الناطليق	Anatolikoi		
كبيريوت	Kibyrrhaiotai	البقلار	Buccellarii		

أما الكليسوريات الثلاث فهي :

خرسينون Charsianon قبادوقيا Cappadocia سـلوقية Seleukoia

بقيت ادارة الاقاليم الامبراطورية مدنية لفترة طويلة ، وحتى اذ اضطر الجيش للبقاء في اقليم ما ، فان ادارته المدنيـة هي التي تتكفل بتوفير كل احتياجاته وتجهيزاته ، وربما يلجأ أحيانا الى المصادرة والاستملاك • أما الآن فقد اختلفت الامور بسبب الاوضاع الخطيرة التي واجهتها الامبراطورية ، مما أدى الى طغيان الصفة العسكرية عليهـا ، وبصورة أدق جـرى عسكرة الامبراطورية[١٥٨] • ولم يبـق لحكومات الاقـاليم سـوى الصورة الشـكلية[١٥٩] • وكان قائد البنـد الذي يدعى ستراتيجوس Strategos ـوتعني القائد General ـ أعلى سلطة مدنية وعسكرية في بنده • بيـد

157—Ostrogorsky, P. 207; C.M.H, 4/1, P. 103; Bury, E.R.E, P. 222.

١٥٨ ـ بروي ، ٣/١٣٩ •

159—Ostrogorsky, PP. 98-99.

أن هذا لا يعني الاستبعاد المطلق للادارة المدنية ، فرئيس الادارة المدنية يأتي بالمرتبة الثانية بعد الستراتيج[١٦٠] .

ويعد الستراتيج مسؤولا مباشـرة أمام الامبراطور ، وفي الوقت نفسه فانه قادر على القيام بالحركة السريعة واتخاذ المبـادرات في حـدود منطقته الخاصة . فكان هذا النظام أكثر فاعلية ومرونة[١٦١] . ومنح الامبـراطورية طاقة عسكرية جديدة مكنتها من المحافظة على وجودها طالما استمر العمل بهذا النظام . وعلى الرغم من عسكرة الادارات الاقليمية ، فان السلطة المركزية بقيت مدنية[١٦٢] .

٦ ـ الجيش البيزنطي :

تعد الامبراطورية البيزنطية مدينة في وجودها بصورة رئيسة الى الجيش فمهام الامبراطور الاساسية تتمثل في الدفاع عن الامبراطورية ، وابقاء جيشه بحالة جيدة تمكنه من القيام بواجباته الحربية ، وهو ما يقرر بقـاء النظـام الامبراطوري أو سقوطه[١٦٣] . اذ تحيق بالامبراطورية الاخطار من كل جانب ، وهذا وحده مبرر كاف لبذل أقصى اهتمام بالجيش ، لذا كانت بيزنطـة في العصور الوسطى المكان الوحيد الذي يدرس فيه باهتمام بالغ أساليب التنظيم العسكري والفنون الستراتيجية والتكتيكية الحربية ، فأبرزت بيزنطة العديدين ممن اهتموا بالشؤون العسكرية ، وأخرجوا في ذلك المصنفات[١٦٤] .

160—Ibid, P. 96.

161—Rice, P. 50.

١٦٢ ـ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ٩٩ .

163—Diehl, P. 40.

١٦٤ ـ فتحي عثمان ، ٢/١٥٥ .

نظام التجنيـد :

تكوّن الجيش البيزنطي من رجـال تم اختيـــارهم من بين مواطني الامبراطورية • وكقاعدة عامة فان الخدمة العسكرية مطلوبة من كل المواطنين ممن تتراوح أعمارهم بين (١٨ـ٤٠) سـنة • وكل الجماعات العرقيـــة في الامبراطورية أسهمت في تشكيل هذا الجيش ، اذ أنها تحظى بأهمية كبيرة في هذا الصدد(١٦٥) • كما اتخذت خطوات مهمة في مجـال التجنيد ، حيث تم ـ ولا سيما في المناطق التخومية ـ توزيع قطع الاراضي على الجنود ، ضمن خطة لاصلاح المجتمع الريفي الزراعي ، تهدف الى توثيق الصلة بين الارض وفلاحيها في هذه المناطق • وهذا الامر ليس ضروريا للاقتصاد وحسب ، بل للقدرة العسكرية لهذه التخوم أيضا ، وهو ما خلق طبقة اجتماعية لعبت دورا مهماً في حماية الامبراطورية(١٦٦) • كما حققت هـذه الخطة غاية أخرى ، اذ خففت الاعباء المالية عن الخزينة المركزية(١٦٧) • فضلا عن أن هذا النظام وفر سبل العيش للجنود المزارعين مع راتب زهيد ومنتظم • وعنـد دعوة هؤلاء للقتال ، فانهم يخرجون جميعا كل معه فرسه وسلاحه(١٦٨) • وفي هذا الاطار سعت السلطات المركزية دوما الى حماية الممتلكات الصغيرة من ابتلاعها من قبل المالكين الكبار ، لان هذا الابتلاع اذا ما تحقق سيضطر الدولة الى زيـادة انفاقها العسكري وربما اضطرها الى اللجوء الى نظـام المرتزقة مرة أخرى ـ وهو المكلف غالبا وغير الكفء(١٦٩) •

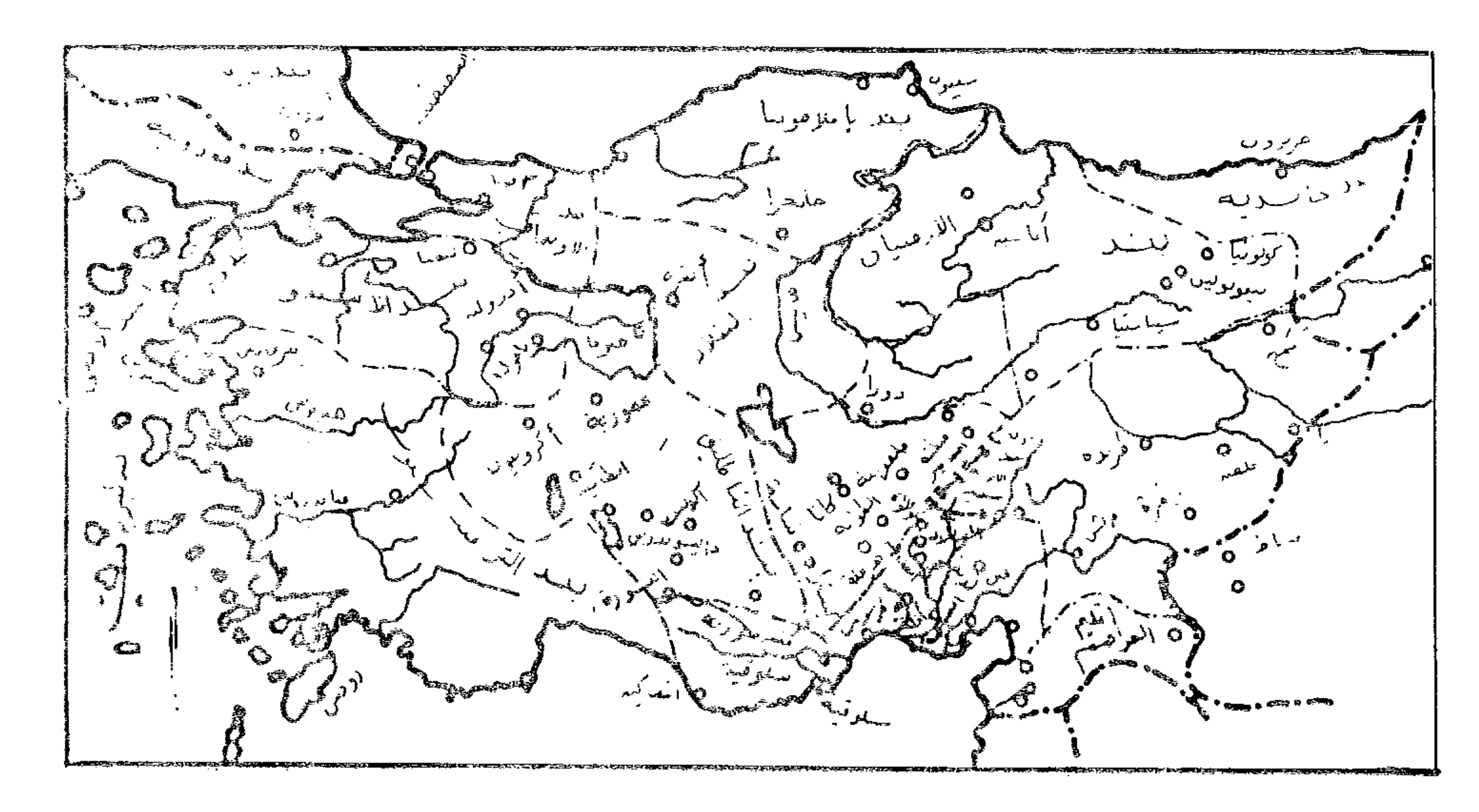
165—Diehl, PP. 40-41.

١٦٦ ـ ابراهيم احمد العدوي ، قوانين الاصـلاح الزراعي في الامبراطوريـة البيزنطية ، بحث منشور ، ١٥٥ •

167—Baynes-Moss, P. 73.

168—Ostrogorsky, P. 98.

169—Baynes-Moss, P. 56.



شكل رقم (١٠)

ان الاعتماد على نظام توزيع الاراضي ، الذي عززه نظام البنود ، خلق جيشا وطنيا ـــ محليا ــ حقيقيا . فتم التخلي بقدر كبير عن نظام المرتزقة[١٧٠].

تنظيمات الجيش :

انقسم الجيش البيزنطي على قسمين رئيسين هما : الجيش المركزي في العاصمة وأطرافها ، وجيش البنود في الاقاليم . فأما الجيش المركزي فقد تكون من فرقة عرفت باسمها القديم وهي tagmata وهذه تتكون من Scholarii و exculbii و Hikanatoi وكل منها تحت قيادة دمستق Domistious . وهناك فرقة أخرى عرفت بـ Arthımos واجبها الخاص حماية القصر الامبراطوري في الاحوال الاعتيادية ، وحماية مقر القيادة الامبراطوري في أثناء الحملات العسكرية ، وتكون هذه الفرقة تحت قيادة طرنجير Drungarius . وهناك أيضا فوج حماية دعي بـ numeri تحت قيادة دمستق، هذا فضلا عن القوات الخاصة بحماية الاسوار . ويأتي دمستق الـ Scholarii مباشرة بعد قائد بند الناطليق ، الذي يحتل أعلى مرتبة بين البنود[١٧١]. وذكر قدامة أن تعداد الجيش المركزي هذا بلغ (٢٤) ألف جندي ، منهم (١٦) ألفا من الفرسان، و (٨) آلاف من المشاة[١٧٢] .

أما جيوش الاقاليم، فان المراجع التاريخية الحديثة[١٧٣] اعتمدت المصادر العربية في قسم كبير من معلوماتها عنها . فذكر ابن خرداذبة ونقل عنه قدامة، ان البطريق ــ الستراتيجوس ــ يقود (١٠) آلاف جندي ، ومعه طرماخان turmai بامرة كل منهما (٥) آلاف جندي ، ومع كل واحد منهما خمسة

170—Ostrogorsky, P. 98.
171—C.M.H, 4/2, PP. 37-39.

١٧٢ ــ الخراج ، ١٨٩ ــ ١٩٠ .

173—C.M.H, 4/2, PP. 37-39.

طرنجارين drungarius بأمرة كل منهم ألف جندي • ويساعد كل طرنجير خمسة قمامسة comes وبأمرة كل قومس (٢٠٠) جندي ، كما ويساعد كل قومس خمسة قنطرخين penteconarchy بأمرة كل منهم (٤٠) جنديا ،ومع كل قنطرخ أربعة دارقرخين decrach مع كل منهم (١٠) جنود[١٧٤] •ويجب ملاحظة ان هذا التوزيع العددي غالبا ما كان مثاليا ، اذ أن كل بند من البنود، ربما زاد جنده عن (١٠) آلاف أو نقص حسب مساحة البند •

وأورد قدامة قائمة بالبنود البيزنطية ، ذاكرا فيها عدد جنود كل بند منها ، حيث ظهر الاختلاف واضحا وبشكل بارز بينها[١٧٥] • وفي فترةحكم ثيوفيل تم ايجاد ثلاثة جيوش خاصة بالاقاليم التخومية ــ الكليسوريات ــ مهمتها حماية الممرات الجبلية المهمة[١٧٦] • وكانت ترافق الجيوش البيزنطية فرق الاطباء وتضم فرسانا يقومون بنقل الجرحى الى الخطوط الخلفية من ميدان القتال • وهناك أيضا فرق المهندسين الذين درسوا بالتفصيل جميع العقبات الطبيعية التي يجب التخلص منها في كل حملة، وكانت تصنع الجسور من القوارب ، وهذه تحملها الدواب مع تقدم الجيش ، كما تم تعيين أجزاء الجسر وكتبت عليها أرقامها حتى يمكن الاسراع في نصبها[١٧٧]•

أما فيما يتعلق بخطة عمل هذه الجيوش ، فهي محددة تحديدا دقيقا ، اذ تقوم هذه الجيوش بمراقبة تحركات القوات العباسية ، واذا ما عبرت هذه القوات فان القائد المحلي يخبر قائد البند على وجه السرعة ، ويقوم في غضون ذلك بارسال خيالته لملاحقة المهاجمين ومراقبتهم والحد من حركتهم ، وفي الوقت نفسه تقوم فرق المشاة باحتلال أماكنها في الممرات الجبلية للاغارة على

١٧٤ ــ المسالك والممالك ، ١١١ ، الخراج ، ١٨٩ •
١٧٥ ــ الخراج ، ١٩٠ ــ ١٩٢ •

176—C.M.H, 4/1, P. 103.

١٧٧ ــ بينز ، ١٨٥ •

القوات المهاجمة عند عودتها ، ثم يقوم قائد البند بانذار البنود المجاورة لجمع الجيوش في منطقة معينة وتحشيدها، فاذا ما جرى كل ذلك بدقة وفي التوقيت المناسب يصبح بالامكان تطويق المهاجمين • أما اذا أفلتوا ، فهنـالك قوات تنتظر عودتهم مثقلين بالغنائم وتكون قدرتهم على الحركة والمناورة محدودة ، فتقوم بمهاجمتهم • وفي خطة الهجوم ، يتحرك الجيش الامبراطوري وتلتحق به في نقاط معينة أفواج من جيوش البنود • وفي هذه الحال فان نظام التعبئة يختلف باختلاف الظروف[١٧٨] •

ولما كان الجيش البيزنطي أصغر على الدوام من الجيش العباسي ، فضلاً عن تكاليفه الباهضة ، فان كل التوجيهات تشير الى ضرورة التزام الحذر في العمل وتحاشي الهدر في الارواح والمعدات[١٧٩] •

وبخصوص عدد الجيوش البيزنطية ، فان المصادر العربية ، تناولت ذلك بنوع من الاسهاب ، وقد يبدو ذلك غريبا بعض الشيء ، فهذه المصادر غامضة قليلة المعلومات في تناولها للجيوش العباسية من حيث العدد ، ولعل مرد ذلك هو اهتمام السلطات المركزية في الدولـة العباسـية ، من خلال أجهزتهـا الاستخبارية بمعرفة أوضاع العدو ، بما في ذلك عدد جيوشه وتشكيلاتها ، لرسم خطط مواجهته وفق هذه المعلومات ، أما غموض هـذه المصادر بشأن الجيوش العباسية ، فمرده الكتمان والسرية في هذه المعلومات والتي تتعلـق بأمن البلاد •

أما قائمة أعداد الجيوش البيزنطية التي أعدها قدامة فهي :

بند افلاجونيه (١٠) آلاف جندي ، الاخطي ماطي (٤) آلاف جنـدي ، الأبسيق (٦) آلاف جندي، تراقيسيون (٦) آلاف جندي، الناطليق (٣٥) ألف

---

١٧٨ ــ رانسيمان ، المدنية البيزنطية ، ٧٨ •
١٧٩ ــ المرجع السابق ، ٧٩ •

جندي ، سلوقية (٥) آلاف جندي ، قبادوقية (٤) آلاف جندي ، خرسيون أو خرشنة (٤) آلاف جندي ، البقلار (٨) آلاف جندي ، الارمنياق (٤) آلاف جندي ، خالديا (٤) آلاف جندي ، وجميع جيوش هذه البنود تبلغ (٧٠) ألف جندي[١٨٠] • واذا أضفنا الى ذلك ما ذكره قدامة من تعداد الجيش المركزي، يكون المجموع (٩٤) ألف جندي • في حين ذكر ابن خرداذبة ان ديوان الروم مقسوم على (١٢٠) ألف جندي[١٨١] • وأيده حديثا رانسيمان ، اذ أشار الى أن جيوش الامبراطورية بلغت حدا أقصى مقداره (١٢٠) ألف جندي، (٧٠) ألفا منهم في البنود الآسيوية والبقية الاخرى تمثل الجيش المركزي والبنود الاوربية[١٨٢] • من هنا جاءت أرقام قدامة التي بلغ مجموعها (٩٤) الفا ، فلم يكن من ضمنها جيوش البنود الاوربية ، وذكر مصـدر متقدم ان مجموع جيوش الروم المقررين على المدن والقرى يبلغ (٤٠) ألفـا من الفرسـان لا يتقاضون راتبا[١٨٣] • ويبدو انهم من نوع البعوث أو الفروض التي سبق ذكرها عند الحديث عن الجيش العباسي •

وأخيرا ، فان الجيش البيزنطي عانى كثيرا من تمرد أفراده على القـادة، وهو ما لاحظناه في الفقرات السابقة ، فطالما تمرد هذا الجيش على أوامـر القيادة ، وقامت بين صفوف فرقه وقادته صـراعات أعاقت عموم الجيش عن حركته وفي اللحظات الحاسمة أحيانا • وعاد هذا الى عاملين :

١ ــ ان سياسة الاباطرة تراوحت بين مناصر للايقونات ومناهض لهـا ، مما أدى الى اختلاف ولاءات الجند والقادة تبعا لذلك ، مما قاد الى خذلانهم لاباطرتهم في بعض الاحيان •

---

١٨٠ ــ الخراج ، ١٩٠ ــ ١٩٢ •
١٨١ ــ المسالك والممالك ، ١١١ •
١٨٢ ــ الحضارة البيزنطية ، ١٧١ •
١٨٣ ــ اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٣ •

٢ ــ ان الامبراطورية تكونت أساسا من عنصرين رئيسين هما الآسيويون والاوربيون ، وكان التنافس بين قادة كلا الجانبين يؤدي الى خذلان أحدهما للآخر ، عند القيام بعمل مشترك ، مما يتسبب في افشاله •

ميزان القوى بين الدولتين العباسية والبيزنطية

بعد هذا الاستعراض للاوضاع الخاصة لكل من الدولتين ، لابد من رسم ميزان للقوى بينهما ، لما لذلك من أثر فعال في فهم طبيعة العمليات العسكرية بينهما :

١ ــ من الناحية الجغرافية : كانت الدولة العباسية هي الاكبر مساحة من الامبراطورية البيزنطية ، ومن ثم فان قلب الدولة العباسية كان دوما بمنجا عن الخطر البيزنطي ، لما تمتعت به الدولة من عمق ستراتيجي كبير حافظ على استقرارها الداخلي وازدهارها الاقتصادي ، وأبعد تأثير حالة الحرب على هذه الاوضاع • في حين كان لصغر مساحة الامبراطورية البيزنطية ، تأثير سلبي واضح ، اذ تمكنت الجيوش العباسية من خرق قلب الامبراطورية ــ آسيا الصغرى ــ والوصول الى الشواطىء المقابلة للعاصمة ، ولطالما تجولت هذه الجيوش في آسيا الصغرى نافذة الى أنقرة وعمورية وغيرهما من المدن المهمة •

٢ ــ الجانب العسكري : تبين لنا أن الجيش العباسي كان دوما الاكثر عددا من الجيش البيزنطي ، وليس ذلك غريبا ، فالدولة العباسية هي الاكثر سكانا والاقوى اقتصادا ، مما مكنها من الانفاق دون تردد على هذه المؤسسة المهمة • وعلى النقيض من ذلك كان الجانب البيزنطي ، وكان لهذا التفوق العددي أثر كبير في حسم العديد من المعارك بين الطرفين • واذا كان الجيش البيزنطي متميزا بكفاءته النوعية ، بوصفه وريث الجيش الروماني وتقاليده ، فان الجيش العباسي لم يكن أقل منه كفاءة •

٣ ــ الجبهة الداخلية: واذا كانت الجبهة الداخلية للدولة العباسيةمعرضة دوما وباستمرار للاضطرابات السياسية المسلحة ــ كما مر بنا ــ الا أنها لم تؤثر تأثيرا خطيرا في متانة السلطة المركزية • في حين ان الاضطرابات السياسية المسلحة في الامبراطورية البيزنطية ــ على قلتها نسبيا ــ ترتب عليها نتائج خطيرة على استقرار العرش الامبراطوري ، فكثيرا ما انزل أباطرة من هــذا العرش وارتقاه آخرون ، بفعل هذه الاضطرابات • فضلا عن ذلك فانالاخطار الخارجية هددت العاصمة البيزنطية نفسها ، بينما لم يكن لها غير تأثير محدود على استقرار الدولة العباسية •

٤ ــ الأوضاع الاقتصادية : تمتعت الاوضاع الاقتصــــادية للدولة العباسية باستقرار وازدهار كبيرين ، في وقت عانى فيه الاقتصاد البيزنطي من الكثير من المشاكل • وكان لسعة مساحة الدولة العباسية أثر بيّن في ايراداتها الضخمة من الارض ، في حين كان العكس صحيحا مع الامبراطورية البيزنطية • كما كان لاتساع رقعة الدولة العباسية أثر كبير على ازدهار تجارتها • في حين عانت التجارة البيزنطية من ازمات عدة ، كما كانت أقاليم الامبــــراطورية البيزنطية ساحة قتال للجيوش العباسية والبلغار مع البيزنطيين الامر الذي ترك آثاره السلبية على اقتصاد الامبراطورية •

بعد هذا يحق لنا القول ، بأن ميزان القوى كان في أغلب الاحيانلصالح الدولة العباسية ، وهو ما أكد متانة موقفها على التخوم • ولم يتمكن الجيش البيزنطي ولو لمرة واحدة من النفاذ الى ما وراء منطقة التخوم • في حين جعل الجيش العباسي من معظم آسيا الصغرى ساحة قتال له •

* * *

الباب الثاني

العلاقات العباسية البيزنطية



الفصل الاول

العلاقات الحربيـــــة

١٣٢ــ١٩٣ هـ / ٧٥٠ــ٨٠٩م

١ ــ نظرة في الخلفية التاريخية :

تعد العلاقات الحربية بين الدولة العباسية والامبــراطورية البيزنطية ، المظهر الرئيس للعلاقات بين الدولتين ، وهذا الامر له دوافعه المتعددة ــ وهو ما سنأتي اليه لاحقا ــ بيد أن هذه العلاقات الحربية ، لم تكن المظهر الوحيد لهذه العلاقات . بل رافقتها مظاهر أخرى سياسية وحضارية ، ستكون موضوع الفصول اللاحقة . الا أن المظهر الحربي احتل المساحة الاوســع في هــذه العلاقات . لذا فانه سيحظى باهتمام أكبر ينسجم مع هذه المساحة .

ولم تكن العلاقات الحربية بين الدولتين ، وليــدة استــلام العباسيين للحكم ، بل لها جذورها الابعــد من ذلك . ولعل بداياتها الأساســية تمثلت بموقعة اجنادين ــ جمادى الاولى ١٣ هـ/تموز ٦٣٤م ــ والتي انتهت بانتصار حاسم للدولة العربية الاسلامية قابلها هزيمة ساحقة للبيزنطيين . وكان لهــذه الموقعة أثر مهم في رسم صورة مستقبل الاوضاع السياسية في المنطقة ، لاسيما ما يخص العلاقة بين دولة ما زالت في أول عهدها وبين امبراطورية مضت من

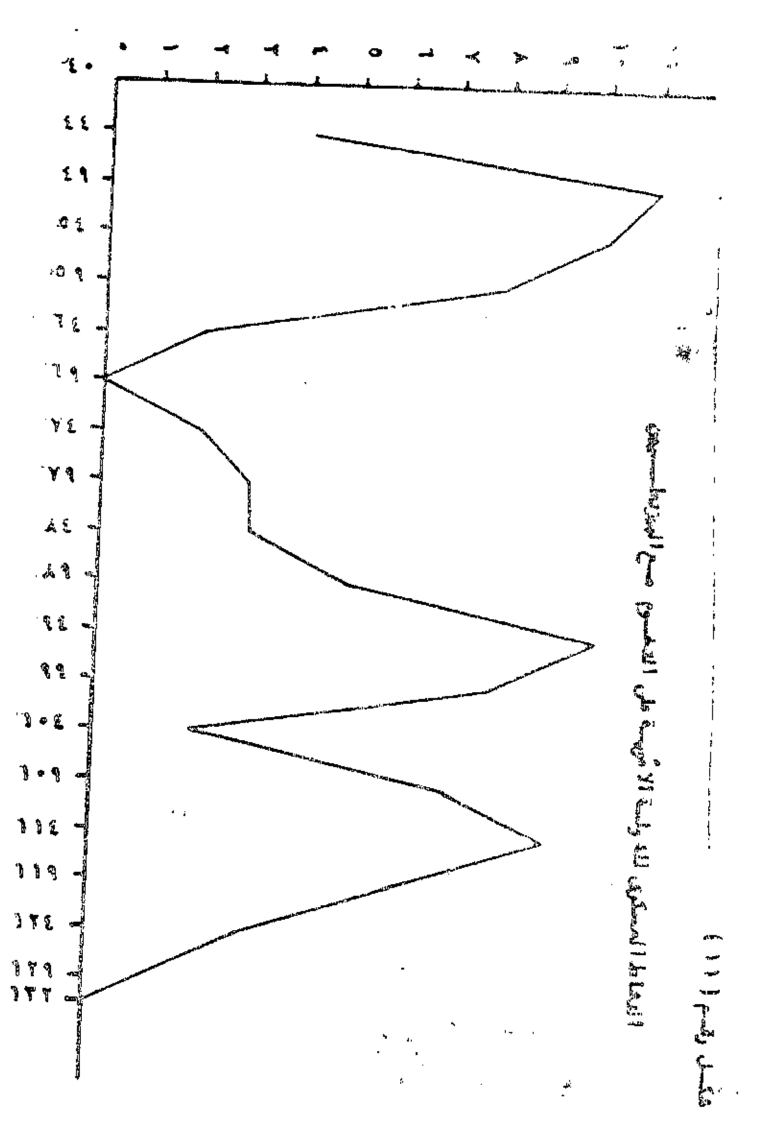
عمرها عدة قرون . مع أن البيزنطيين ـــ حسب ما ورد في الروايات ـــ كانوا قد حشدوا قوة كبيرة جدا ، وأن المعركة جرت باشراف هرقل نفسه من مقره في حمص[1] . أعقبتها بفترة قصيرة معركة اليرموك الحاسمة ، لتؤكد نتـائج معركة اجنادين ، وتعززها بشكل نهائي ، اذ مُني البيزنطيون بهزيمة كبيرة ، على الرغم من ضخامة الحشود التي أعدوها[2] . وترتب على هاتين المعركتين الحاسمتين ، ان فقد البيزنطيون الشام ـــ أفضل أقاليم الامبراطورية ـــ وحال سماع هرقل بأنباء هزيمة قواته في اليرموك ، ترك أنطاكية الى القسطنطينية ، وقال وهو على مشارف الشام : « عليك يا سورية السلام »[3] وبهذا يكون قد تقرر ، وبشكل نهائي ، مصير هذه المنطقة المهمة .

ولم تكن هناك أحداث حاسمة ، في الفترة اللاحقة لذلك ، وان ما وقع من أحداث بين الجانبين ، تراوح بين العمل على الاحتفاظ بهذه النتائج من جهة ، والعمل على استعادة الاوضاع القديمة السابقة من الجانب الآخر .

وبمجيء الامويين الى حكم الدولة العربية الاسلامية في أواخر عـام ٤٠هـ/٦٦١م بدأ سير الاحداث يأخذ مجرى آخر ، تمثل في تلك التطلعات لفتح القسطنطينية ، فالبيزنطيون ما كانوا لينسوا بتلك السهولة ما خسروه من أقاليم ، لا سيما بعد فقدهم مصر وشمال أفريقية ، لذا سـعوا الى انتهاز كل فرصة ممكنة للانتقام لهزائمهم السابقة ، حتى أن معاوية بن أبي سفيان اضطر الى مصالحتهم مقابل مبلغ من المال أداه لهم في عام ٤١هـ/٦٦١ـــ٦٦٢م[4] . أو في العام التالي في روايات أخرى[5] .

---

١ ـــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٣٥ ، الطبري ، تاريخ ، ٣/٣٩٢ـــ٣٩٤ .
٢ ـــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٦٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٣/٣٩٤ ـــ ٤٠٠ .
٣ ـــ البلاذري ، فتوح ، ١/١٦٢ .
٤ ـــ ابن خياط ، ١/٢٣٦ .
٥ ـــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٢/٢٠٥ .



ويقدم لنا الشكل رقم ـ١١ـ صورة عامة عن طبيعة مجرى العلاقة بين الجانبين الاموي والبيزنطي ـ معتمدين في ذلك على الطبري ـ • ونرى من هذا الشكل ان هناك ارتفاعات وانخفاضات حادة في نشاط الامويين العسكري على التخوم مع البيزنطيين • ويبدو ان للصراعات الداخلية في الدولة الاموية

أثرا واضحا جدا في مدى هذا النشاط • فعند احتدام هذه الصراعات ، تشهد مناطق التخوم حالة جزر أو حتى انعدام في النشاط العسكري ، في حين ان فترات الهدوء الداخلي للدولة ، شهدت نشاطا عسكريا متزايدا في مناطق التخوم هذه •

أما الفترات التي تصاعد فيها النشاط العسكري الاموي ، تمثلت في السنوات ٤٥ــ٤٩هـ/٦٦٥ــ٦٦٩م و ٩٥ــ٩٩هـ/٧١٣ــ٧١٧م والفترة الاخيرة ١١٠ــ١١٤هـ/٧٢٨ــ٧٣٢م • أما فترات خفوت هذا النشاط ، فكانت هي الاخرى ثلاث، وهي : ٦٤ــ٦٨هـ/٦٨٣ــ٦٨٨م و ١٠٠ــ١٠٤هـ/٧١٨ــ٧٢٣م والفترة الاخيرة ١٢٤ــ١٣٢هـ/٧٤١ــ٧٥٠م • وكما نوهنا ، فان الاوضاع الداخلية للدولة الاموية كانت هي المؤشر الحقيقي لتحديد مدى نشاط الدولة العسكري على الاراضي البيزنطية •

ويهمنا هنا أن نتطرق الى بعض التفاصيل الخاصة بالفترة الاخيرة من حياة الدولة الاموية ، والاتجاهات العامة للعلاقة مع البيزنطيين ــ أي في السنوات ١٠٠ ــ ١٣٢هـ/٧١٨ــ٧٥٠م ــ وهي تمثل الفترة المباشرة قبل قيام الدولة العباسية ، ففي شهر صفر من عام ٩٩هـ/أيلول ٧١٧م تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة[٦] • وكان لهذا التولي أهمية كبيرة لمجيئه في أعقاب فشل الحصار الثالث للقسطنطينية ، مما دفع الخليفة الجديد الى أن يرسل الى مسلمة بن عبدالملك يأمره بالانسحاب وترك الحصار[٧] • وتمثلت سياسة الخليفة الجديد بايقاف الحملات على الاراضي البيزنطية وسحب المسلمين من المواقع المتقدمة من الاراضي البيزنطية[٨] • اذ قام بترحيل سكان ثغر طرندة ــ انظر الشكل رقم ٦ ــ والذي كان يمثل نقطة متقدمة عن ملطية في الأراضي

---

٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٥٠/٦ •
٧ ــ المصدر السابق ، ٥٥٣/٦ •
٨ ــ محمد عبدالحي شعبان ، صدر الاسلام والدولة الأموية ، ٢٤٨ •

البيزنطية • وهم كارهون لذلك • وجـاء هـذا الاجراء لخشيته عليهم من الخطر[٩] • ولم يكن عمر بن عبدالعزيز معارضا للجهاد ، غير أنه لم يكن راغبا في هدر دمـاء المسلمين في أعمـال غير منظمة وغير مدروسـة[١٠] ، لا سيما وانه أعقب فشل الحصار الثالث ، تحول الجبهة الفعلية للقتال على التخوم مع الخزر[١١] • وفي خضم الصراع المحتدم مع هؤلاء ، تمكن البيـزنطيون من الحاق هزيمة كبيرة بالجيش الاموي في عام ١١٣هـ/٧٣١م[١٢] • وعلى الرغم من أن مصادرنا أشارت الى حملات دورية على شكل صوائف وشواتي[١٣] • الا أن هذه الحملات توقفت تماما منـذ عام ١٢٦هـ/٧٤٣ـ٧٤٤م ، بسبب التدهور الخطير الذي أصاب الاوضاع الداخلية في الدولـة الاموية[١٤] • وانتهى الامر باستيلاء العباسيين على مقاليد حكم الدولة العربية الاسلامية•

ان هذه الفترة الاخيرة من التاريخ الاموي ، شهدت ـ بشكل عام ـ تحولا في السياسة تجاه مناطق التخوم • بعودة خلفاء هذه الفترة الى اتبـاع سياسة عبدالملك بن مروان ، والمتمثلة بالانصراف أساسا الى تدعيم وتحصين مناطق التخوم ، وأصبحت الحملات العسكرية صغيرة ، تجري برعاية واشراف ولاة الثغور وعمالهم وليس من قبل العاصمة[١٥] •

أما فيما يخص الجانب البيزنطي ، فان الامور سارت على النقيض من ذلك تماما ، اذ مثّل اعتلاء ليو الثالث العرش في شوال من عام ٩٨هـ/مايس ٧١٧م ،

---

٩ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢١ •
١٠ ـ فتحي عثمان ، ٢/٩٧ •
١١ ـ شعبان ، صدر الاسلام ، ١٦١ •
١٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٨٨ •
١٣ ـ انظر مثلا : ابن خياط ، ٢/٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٧٧ـ٧٨ •
١٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/١٢٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ •
١٥ ـ فتحي عثمان ، ٢/٩٨ •

مرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية ، ففضلا عن كونه أوجد أسرة حاكمة جديدة ، فانه في فترة حكمه التي امتدت حتى عام ١٢٤هـ/٧٤١ م عمل على تدعيم أسس حكومة مركزية ثابتة وراسخة(١٦) . وبذل قصارى جهده لافشال الحصار الثالث على العاصمة وابعاد الخطر عنها ، ونجح الى أقصى حد في ذلك(١٧) . كما شهدت هذه الفترة تدعيم التحالف مع الخزر الذين سببوا للدولة العربية الاسلامية متاعب جمة على شكل هجمات عنيفة متتالية في أرمينية والقوقاز(١٨) . وكان هذا التحالف ثمرة لزواج قسطنطين ــ المشارك لابيه ليو في الحكم ــ من ابنة خاقان الخزر(١٩) .

ان هذه الفترة التي شهدت فترة حكم ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس ــ وما عرف عنهما من مهارة وحزم في الامساك بزمام الامور ــ ، مثّل بداية مرحلة جديدة في التاريخ البيزنطي ، تمكنت خلالها الامبراطورية من الانتقال الى مرحلة الهجوم على الاراضي العربية . كما أنه لا ينكر ما لنظام البنود، الذي كان قد تعزز في هذه الفترة ــ كما أسلفنا ــ من دور مهم في هذا التحول . وشهدت هذه الفترة هزائم متكررة للجيش الاموي أمام الجيش البيزنطي ، ففضلا عن الهزيمة التي وقعت في عام ١١٣هـ/٧٣١م ، كانت هناك هزيمة أخرى في عام ١٢٢هـ/٧٣٩ــ٧٤٠م عند اكرينيون على يد ليو الثالث(٢٠) . كما تمكن البيزنطيون في عام ١٣٠هـ/٧٤٧م من توجيه ضربة للاسطول المشترك ــ السوري المصري ــ عند قبرص(٢١) .

ان هذا النهوض الذي شهده الجانب البيزنطي ، وما قابله من ضعف في

16—Ostrogorsky, P. 156.
17—Ibid, PP. 156-157.
18—Ibid, P. 157.
19—Brehier, P. 53.
٢٠ ــ عمر كمال توفيق ، ١٠٧ ، كذلك : Ostrogorsky, P. 157.
21—Irit Irene Blay-Abramski, P. 35; Ostrogorsky, P. 167.

الجانب الاموي ، مكن الامبراطورية البيزنطية من اتخاذ موقف المهاجم على الاراضي العربية. وعلى العموم فان البيزنطيين تمكنوا من شن هجمات متعددة في هذه الفترة ، ولا سيما بعد انتصارهم في اكرينيون • ووجهت هذه الهجمات الى ملطية ومرعش والحدث وزبطرة[٢٢] • ومنذ عام ١٢٧هـ/٧٤٥م تمكن قسطنطين الخامس من نقل عملياته الى الاراضي الاسلامية ، التي أصبحت ساحة للقتال بعد أن كان ذلك يجري في الاراضي البيزنطية[٢٣] • وبالتحديد بعد اخماده حركة ارتباسدوس ، فأصبح بامكانه مهاجمة الثغور الاسلامية وقواعد القوات الاموية فيها[٢٤] • على أن بعض المصادر صورت الامور الى الحد الذي جعل مروان بن محمد يفكر في اللجوء الى البيزنطيين تخلصا من الخطر العباسي[٢٥] •على أن هذه مسألة يمكن أن يثار حولها عدد من الشكوك، فالمصادر الثلاثة التي ذكرت هذه الرواية ، يجمعها موقف سياسي معادٍ للامويين ، ومن الراجح ان الرواية مصدرها واحد تناقلتها عنه بقية المصادر ، كما أنه ليس مستبعدا التشهير بالامويين وهم في حالة الهزيمة ، ثم أن مروان وهو المطارد لم يكن بوسعه أن يفكر أو أن يختار ، وليس أمامه الا الانسحاب الى مكان آمن يجمع فيه أنصاره ، لذا فان هذه الرواية لا يمكن أن تكون أكثر من دعاية مضادة للامويين غرضها التشهير بهم • وعلى أية حال فان أبرز ما تميز به نشاط الامويين العسكري على التخوم مع البيزنطيين هو :

١ ــ ان الضغط الاموي تجاه البيزنطيين ، لم يكن بريًا فحسب ، بل ان النشاط البحري لم يكن أقل فاعلية منه •

---

٢٢ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ •
23—Langer, P. 191.

24—Anathony Santoro, Byzantium and Arabs, P. 250.

٢٥ ــ الدينوري ، الاخبار الطوال ، ٣٦٥ ، ابن اعثم ، ٨/١٨٠ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ٣/٢٩٤ •

٢ ــ من ملاحظتنا للشكل رقم ــ١١ــ نرى أن ذروات النشاط الحربي كانت تتناقص باستمرار ، واذا كان الامويون في الثلثين الاولين من تاريخهم مهاجمين ، فانهم في الثلث الاخير أصبحوا مدافعين ، بل أنهم في السنوات الاخيرة لم يقوموا بأي نشاط حربي • في وقت تحول فيه موقف البيزنطيين الى الهجوم ، وانهم نقلوا ساحة العمليات الى الاراضي الاسلامية في هذه السنوات •

٣ ــ ان نشاط الامويين العسكري شهد ثلاث حالات حصار للعاصمة البيزنطية ، كان الحصار الاول في أعوام ٤٨ــ٥٠هـ/٦٦٨ــ٦٧٠م والثاني في ٥٤ــ٦٠هـ/٦٧٤ــ٦٨٠م والثالث في ٩٦ــ٩٩هـ/٧١٥ــ٧١٧م[٢٦] •

٤ ــ ان الامويين اضطروا مرتين الى عقد الصلح مع البيزنطيين ، مقابل مبالغ من المال قدموها لهم ، الاولى أيام معاوية ــ سبقت الاشارة اليها ــ والثانية أيام عبدالملك بن مروان[٢٧] •

٥ ــ ولا بد من ملاحظة أن الامويين كانوا يقاتلون على أكثر من جبهة في وقت واحد ، ففضلا عن قتالهم على الجبهة البيزنطية ، فهم كانوا يقاتلون في الشرق وشمال أفريقية والاندلس أيضا •

٢ ــ العلاقات الحربية في فترة تأسيس الدولة العباسية :

من خلال ملاحظتنا للشكل رقم ــ٤ــ نرى أن العمليات الحربية بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية ، كانت محدودة بعض الشيء في هذه الفترة ، فالعباسيون عملوا بجهد من أجل تثبيت وجودهم في السلطة • واستوجب هذا انصراف شبه تام الى ترتيب الاوضاع الداخلية للدولة ،

---

٢٦ ــ للتفاصيل انظر : فتحي عثمان ، ٤١/٢ وما بعدها ، ٤٩ وما بعدها ، ٨٦ وما بعدها •
٢٧ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٨/٣ ، الطبري ، تاريخ ، ١٥٠/٦ •

بالقضاء على كل أشكال المقاومة والمعارضة ، اذ شهدت هذه الفترة مداً واسعا من حركات المعارضة في أرجاء مختلفة من الدولة ، الامر الذي اقتضى بـذل جهود استثنائية لتهدئة هذه الاوضاع • وشهدت هذه الفترة أيضا عددا من الاخطار الخارجية على التخوم الشرقية والشمالية الشـرقية ، وهي الاخرى تطلبت جهدا لدفعها • لذا لم تجد الدولة العباسية ولفترة ليست يسيرة ، الفرصة المناسبة لمباشرة عمليات حربية فعلية على التخوم مع البيزنطيين•

أما الجانب البيزنطي ، فعلى الرغم من الصراع الديني المحتدم الناجم عن الاجراءات اللا أيقونية ، وعلى الرغم من بداية تجـدد خطر البلغـار ، فان قسطنطين الخامس وجد أكثر من فرصة مناسبة لتوجيه ضربة أو أكثر في مناطق التخوم ، فهذه الفترة البيزنطية ، كانت استمرارا للعصر الذي بدأه ليو الثالث، فالامبراطورية كانت في عنفوان جديد من القوة ، مكنها ولفترة من الزمن من دفع المسلمين قليلا الى ما وراء خط الثغور التقليدي في بعض المواضع•

ولم يمض على قيام الدولة العباسية سوى عام واحد حتى بدأ الاحتكاك الحربي الاول بينها وبين الامبراطورية البيزنطية • ففي عام ١٣٣هـ/٧٥١م ، وبدافع استغلال الظروف التي كانت تمر بها الدولة ، تشجع البيزنطيون للقيام بمحاولة لتأكيد هيبة جيشهم على التخوم الشرقية(٢٨) • وكان هـدف الحملة تحطيم مدينة ملطية ، التي طالما كانت قاعدة انطلقت منها عـدة حملات على الاراضي البيزنطية(٢٩) • وفي أول الامر توجه قسطنطين الخامس بجيشه الى كمخ ــ انظر الشكل رقم ٦ ــ قاصدا محاصرتها ، فطلب أهلهـا النجدة من ملطية ، فتم امدادها بـ (٨٠٠) فارس ، بيد انهم لم يتمكنوا من عمل شيء ، ثم تحول البيزنطيون الى ملطية نفسها ، ولم يتمكن موسى بن كعب ــ عـامل الجزيرة ــ من انجادهم لاضطراب أوضاعه ، وعلى الرغم من ذلك رفض أهل

28—C.M.H 4/1, P. 74; Brehier, P. 53.
29—Santoro, P. 261.

ملطية الاستسلام الا بعد أن نصبت المجانيق على المدينة ، فاستسلم أهلهـا ورحلوا عنهـا ، ثم جـرى تدميرهـا[٣٠] . وأعقب ذلك هـــدم حصن قلوذية[٣١] . ثم توجه قسطنطين الى شمشاط الا أنه لم يتمكن منها ، فأغار على ما حولها[٣٢] .

وفي أعقاب ذلك توجه الجيش البيزنطي الى جبهة أرمينية.اذ كان بعض من أمرائها وعلى رأسهم ماميكونيد وجريجوري ودافيد ، قد تآمروا للخروج من سيادة الدولة العباسية بالتحالف مع البيزنطيين . وبالفعل عقدت معاهدة بين الطرفين ، كان من نتائجها قيام الامبراطور البيزنطي باحتلال قاليقلا ــ انظر الشكل رقم ٦ ــ وحصون أخرى محيطة بها ، كما تم نهب المدينة وما فيها من ذهب وفضة ، تلا ذلك نقل أعداد من الاسرى المسلمين والنصارى الى الاقاليم الشرقية من الامبراطورية[٣٣] . وكان العون الاكبر للامبراطور في احتلالـه للمدينة ، كوشان الارمني الذي نفذ عملية الاحتلال بالتعاون مع بعض الارمن من سكانها ، الذين أوجدوا ثغرة في السور دخل منها الاعداء[٣٤]. الا ان المفاجأة التي لم يتوقعها هؤلاء ، هي أن يتخلى عنهم حليف الامس، الامبراطور البيزنطي ، بانسحابه بعد نيل مآربه ، مما أثار ازدراء هؤلاء تجاه السياسـة البيزنطية[٣٥] .

وبعد أن أنهى الامبراطور عملياته الحربية في مناطق التخوم ، ترك حامية في حصن كمخ ، لكونها من القلاع المهمة الحصينة في المنطقة[٣٦] . ويبدو ان

---

٣٠ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٢ ، ابن الاثير ، ٥/٤٤٧ .
٣١ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٢ ، قدامة ، ٣١٨ .
٣٢ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢١٩ .

33—Santoro, PP. 263-264.

٣٤ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٣٦ .

35—Santoro, P. 265.

36—Ioc, cit.

تحركات الامبراطور الواسعة هذه، تركت صدى عند المؤرخين المتأخرين ،اذ رأى أحدهم ان الجيش البيزنطي وصل الى الموصل، وأجرى فيها مقتلةذريعة، فاجتمع في مسجدها (٣٠) ألف حافظ للقرآن[٣٧] • والامر هنا لا يعدو كونه رواية اسطورية غير صحيحة بكل تفاصيلها •

أما رد الفعل الذي اتخذته الدولة العباسية أمام هذه العمليات ، فالغريب ان المؤرخين لم يتفقوا عليه • اذ ذكر ابن خياط ان أبا العباس أرسل محمد بن النضر بن بريم الحمي الذي تقدم في الاراضي البيزنطية حتى بلغ الطوانة[٣٨] • في حين ذكر اليعقوبي انه عند مقدم قسطنطين الخامس خرج للقائه موسى بن كعب التميمي ، الا أنه لم يشتبك معه • فكتب الخليفة الى عبـــدالله بن علي يأمره بالنفاذ مع جيوشه الى الاراضي البيزنطية ، فزحف متقدما اليها ، ولم يزل يتقدم حتى أتاه خبر وفاة الخليفة أبي العباس[٣٩] • أما الطبري فذكـــر أن صالح بن علي وجه سعيد بن عبدالله لغزو الصائفة[٤٠] • ورأى أحد المحدثين ان ابن الاثير لم يجار الطبري في هذه الرواية ، مما يدلل على ضعفها[٤١] • الا أن ابن الاثير في الحقيقـــة نقل ذلك عن الطبري[٤٢] • ورأى Canard ان صالح بن علي حاول بنفسه النفاذ الى قبادوقية عبر درب الحدث ، غير أنه تراجع عند سماعه بمسير قسطنطين الخامس[٤٣] •

ويبدو أن المسألة لفها غموض كبير • فبخصوص روايـــة ابن خياط، فالمرجح انه لم يكن بمقدور الدولة العباسية ، في هذه الفترة ، ارســـال حملة

---

٣٧ ـ ابو الفضايل الحموي ، التاريخ المنصوري ، ٨٨ •

٣٨ ـ تاريخ ، ٦٢٦/٢ •

٣٩ ـ تاريخ ، ١٠٨/٣ـ١٠٩ •

٤٠ ـ تاريخ ، ٤٦٠/٧ ، ابن كثير ، ٥٦/١٠ •

٤١ ـ فتحي عثمان ، ١٤٧/٢ •

٤٢ ـ الكامل، ٤٤٩/٥ •

43—C.M.H, 4/1, P. 704.

ـ لابد أن تكون كبيرة ـ حتى تصل الى الطوانة ، لا سيما وأن البيزنطيين كانوا بمركز قوة في مناطق التخوم . وهو ما عززته عمليات قسطنطين ـ آنفة الذكر ـ . أما رواية اليعقوبي ، فربما التبس عليه الامر ، ففي هذه السنة كتب أبو العباس الى عبدالله بن علي وأخيه صالح بتوليتهما على أجناد الشام[44]. وان اشارته الى أن موسى بن كعب خرج للقاء قسطنطين والاصطدام به ، يبدو أنها غير صحيحة ، لان هذا الاخير ـ وكما أوردنا ـ كان مشغولا باخماد اضطرابات الجزيرة في هذه الفترة ، حتى أنه لم يتمكن من انجاد أهل ملطية . أما رواية الطبري ، فلم يشر فيها الى عملية عبور الى ما وراء الدروب . لذا فالمرجح ان رد الفعل تمثل في ارسال قوة للمرابطة في مناطق الثغور ومراقبة الاوضاع هناك واتخاذ موقف اليقظة والحذر ، وهو ما فعله صالح بن علي بارسال سعيد بن عبدالله ، وأكد هذا الامر انه ليس بالامكان ارسال حملة تنفذ الى الاراضي البيزنطية ، وفي وقت كانت الدولة بأمس الحاجة الى كل قوة مهما كانت صغيرة ، لتهدئة الاوضاع الداخلية واخماد حركات المعارضة . ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة ، ان الخلافة اكتفت بارسال (٤٠٠) من المقاتلين تعزيزا لحامية المصيصة ، وتم اقطاعهم الاراضي[45] . فهذا العدد قليل ، الا أنه يتماشى مع الحاجة الداخلية للدولة الى الجند ، ثم أن هؤلاء أقطعوا أراضي ولم يمنحوا زيادة في العطاء ، مما يشير الى أن الاوضاع المالية كانت لاتساعد على زيادة العطاء ، وهو بدوره يقوم دليلا على عدم امكانية تجهيز حملة كبيرة تنفذ في الاراضي البيزنطية ، لانه كان مكلفا كثيرا .

وفي جمادى الآخرة ١٣٤هـ/كانون الثاني ٧٥١ م ذكر ابن خياط ان عبدالله بن علي ، أرسل من الشام الحارث بن عبدالرحمن الحرشي ، فخرج اليه البطريق ـ الستراتيج ـ كوشان ، فأرسل مقاتل بن حكيم العتكي ابنه

---

٤٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٥٩ .

٤٥ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/١٩٦ ؛ قدامة ، ٣٠٨ .

مخلدا الذي اصطدم مع البيزنطيين « بأرمينية الرابعة »[٤٦] . غير أن مخلد انهزم وترك جيشه للعدو[٤٧] .

وفي عام ١٣٥هـ/٧٥٢ــ٧٥٣م،أشار ابن خياط أيضا الى أن الخليفةأبي العباس كتب الى عبدالله بن علي يأمره بضرب البعوث ، فأرسل الاخير سعيدبن عبدالرحمن الرحبي ، الا أن هذا لم ينفذ الى الاراضي البيزنطية، وانما اكتفى بأن عسكر بدابق وأفواه الدروب[٤٨]، مستطلعا الاوضاع في مناطق التخوم. في حين أشار الفسوي الى أنه في هذه السنةقاد الصائفة الحارث بنعبدالرحمن الحرشي[٤٩] . وعلى أية حال فانه من الممكن أن يكون كلاهما صحيحا . فمثل هذه الحملات تكون في العادة صغيرة واستطلاعية أساسا . وربما ان كلاً من حملتي ــ الرحبي والحرشي ــ خرجتا من أحــد جانبي الثغور ــ الشاميــة والجزرية ــ اذ كان لابد من هذه الاجراءات لتجنب المخاطر المحتملة في هذه الفترة ، ولا سيما في أعقاب نجاح عمليات قسطنطين السابقة في عام ١٣٣هـ/ ٧٥١م والمشار اليها .

على أننا نلحظ من جانب آخر ، ان السنوات القليلة التي أعقبت هــذه الفترة، لم تشهد نشاطا عسكريا بيزنطيا في مناطق التخوم، مع العلم انالهدوء كان لا يزال مستتبا على التخوم بين البيزنطيين والبلغار ، الا أن الاوضــاع الداخلية المتمثلة بالحملة الشعواء التي قادها قسطنطين الخامس على عبــادة الايقونات ، كانت السبب الاساس وراء هــذا الهدوء على التخوم . اذ أن قسطنطين كان يسعى لعقد مجمع كنسي ، انعقد بعدئذ فعلا في رمضان من عام ١٣٦هـ/شباط ٧٥٤م،فنشط الامبراطور في تطبيق الاجراءاتاللاايقونية[٥٠] .

---

٤٦ ــ أرمينية الرابعة : هي شمشاط وقاليقلا وخلاط وارجيش وباجنيس. البلاذري ، فتوح ، ١/٢٣١ .

٤٧ ــ تاريخ ، ٢/٦٢٧ .

٤٨ ــ المصدر السابق ، ٢/٦٢٨ .

٤٩ ــ المعرفة والتاريخ ، ١/١١٦ .

50—Ostrogorsky, PP. 171, 172, 173.

وأما عام ١٣٦هـ/٧٥٣ـ٧٥٤م ، فقد شـهد بداية تحول في السياسة العباسية ، تجاه مناطق التخوم ، بممارسة نشاط أكثر فاعلية،اذ أصبح بمقدور الدولة ارسال حملات كبيرة على الاراضي البيزنطية.فعند مقدم عبدالله بن علي الى الانبار ــ مقر الخلافة آنذاك ــ عقد له الخليفة أبو العباس لواء الصائفة، في أهل خراسان والشام والجزيرة والموصل ، فتقدم بقواته حتى بلـغ دلوك ــ انظر الشكل رقم ٦ ــ الا أنه لم ينفذ الى الاراضي البيزنطية لورود الانباء بوفاة الخليفة[٥١] . ومع أننا أشرنا الى أن الحملات بدأت تكون كبيرة،ومعدة لاغراض هجومية وليست استطلاعية أو دفاعية ، غير ان ذلك لا يمكن أن يصل الى حملة تعدادها (١٠٠) الف من المقاتلين ، كمـا ذكر البلاذري عن هـذه الحملة[٥٢].اذ ما زال هذا الرقم كبيرا على قدرات الدولة في مطلع قيامها ومازالت بحاجة الى الجند لترتيب أوضاعها الداخلية . وعلى أية حال فان الخليفة توفي قبل بدء الحملة بعملياتها الحربية . كما أن سنة ١٣٧هـ/٧٥٤ـ٧٥٥م التالية لم تشهد هي الاخرى عمليات عسكرية في مناطق التخوم ، لانشغال السلطة المركزية باخماد حركة سنباذ[٥٣] .

وفي عام ١٣٨هـ/٧٥٥ـ٧٥٦م،قاد قسطنطين الخامس حملة على الاراضي الاسلامية احتل فيها ملطية وهدم سورها وعفا عن سكانها[٥٤] . أما رد الفعل تجاه هذه الحملة ، فلم يكن متفقا عليه هو الآخر . اذ أشـار الطبري الى أن العباس بن محمد بن علي مع صالح بن علي بن عبدالله ومعهما عيسى بن علي، خرجوا الى مناطق الثغور لبناء ملطيـة[٥٥] . وهو ما أشـار اليه اليعقوبي

---

٥١ ــ الفسوي ، ١/١١٧ ، الطبـري ، تاريخ ، ٧/٤٧٢ـ٤٧٣ ، ابن الاثير ، ٥/٤٦٢ ، ابن العديم ، ١/٥٧ .

٥٢ ــ انساب الاشراف ، ٣/١٠١ .

٥٣ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٩٦ .

٥٤ ــ الفسوي ، ١/١٢٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٧/٤٩٧ .

٥٥ ــ تاريخ ، ٧/٤٩٧ ، العيون والحدائق ، ٣/٢٢٥ـ٢٢٦ .

أيضا[٥٦] • الا أن الطبري ذكر رواية أخرى مفادها : ان هذه الحملة ــ لبناء ملطيــة ــ جــرت في عام ١٣٩هـ/٧٥٦ــ٧٥٧م[٥٧] • وذكر ذلك البلاذري أيضا[٥٨] •أي أن صالح بن علي خرج لبناء ملطية في عام ١٣٩هـ/٧٥٦ــ٧٥٧م لكنه لم يقم بذلك لان الخليفة المنصور كتب الى عبدالوهاب بن ابراهيم الامام بتوليته على الجزيرةوثغورها ثم قام ببناء ملطية في عام١٤٠هـ/٧٥٧ــ٧٥٨م• وكان ابن خياط قد أشار الى ذلك من قبل[٥٩] •

أما بخصوص أحداث عام ١٣٨هـ/٧٥٥ــ٧٥٦م ، أشار ابن خياط الى رواية مخالفة تماما فحواها : ان صالح بن علي نزل دابق ، فأقبل قسطنطــين الخامس في (١٠٠) ألف فلقيه صالح بن علي وتمكن منه حيث ألحق خسائــر فادحة وأخذ عددا من الاسرى والسبي وعاد سالما[٦٠] • غير أن هـــذا هو ما حدث في السنة التالية على الارجح •

وفي عام ١٣٩هـ/٧٥٧ م ، ذكر ابن خياط أن جعفر بن حنظلة البهراني، قام بحملة عبر درب ملطية ، وخرج أيضا عبدالواحد الى ملطية[٦١] • وأكــد الطبري خروج جعفر بن حنظلة البهراني عبر درب ملطية ، الا أنه أشار الى أن صالح بن علي والعباس بن محمد أقاما بملطية حتى تم بنـــاؤها ، ثم خرجا للصائفة من درب الحدث ، وتمكنا من النفاذ في الاراضي البيزنطية • وخرج مع صالح اختاه أم عيسى ولبابة ، اذ كانتا قد نذرتا نفسيهما للجهاد عند زوال ملك بني أمية[٦٢] • واكد ابن العديم ان تلك هي اول صائفة جرت في ظــل

٥٦ ــ تاريخ ، ٢/١٣٤ •
٥٧ ــ تاريخ ، ٧/٤٩٧ •
٥٨ ــ فتوح ، ١/٢٢٣ •
٥٩ ــ تاريخ ، ٢/٦٤١ •
٦٠ ــ تاريخ ، ٢/٦٣٩ •
٦١ ــ المصدر السابق ، ٢/٦٤٠ •
٦٢ ــ تاريخ ، ٧/٥٠٠ ، كذلك :
Brehier, P. 59

الدولة العباسية[٦٣] . الا ان الحملة وكما يبدو ، لاقت نجاحا محدودا ،فالقوة التي كانت مع صالح بن علي والتي بلغت (٨٠) الفا ، توغلت في عمق قبادوقية، الا ان مقدم قسطنطين الخامس ، اضطر صالح بن علي الى التراجع ، لكنه اشتبك مع الارمن ، الذين كانوا قد رحلوا مع قسطنطين في حملته عام ١٣٣هـ/٧٥١م ، واسكنوا في قبادوقية لتعزيز قوتها[٦٤] . وعلى اية حال فانه كان عليه أن يتراجع أمام قوة قسطنطين[٦٥] . وبقي مرابطا في مناطق الثغور . وفي هذه السنة قام المنصور بمفاداة من بقي حياً من أسرى قاليقلا الذين أخذهم قسطنطين في عام ١٣٣هـ . كما قام بتحصين المدينة وتعزيز حاميتها[٦٦] .ثم ذكر الطبري انه لم تجر صائفة حتى عام ١٤٦هـ/٧٦٣–٧٦٤ ، اذ وجه المنصور كل اهتمامه لمراقبة تحركات محمد وابراهيم ولدي عبدالله بن الحسن ، مما حال دون ارسال الصوائف[٦٧] .

غير أن ذلك لم يشكل بأي حال اغفالا لاوضاع مناطق الثغور ، فحضيت هذه المناطق بالاهتمام اللازم على الرغم من هذه الاوضاع . ففي عام ١٤٠هـ/ ٧٥٨–٧٥٩م ، تم توجيه حملة لبناء ملطية – كما أسلفنا – وقام بهذه المهمة عبدالوهاب بن ابراهيم الامام ، ورافقه فيها الحسن بن قحطبة في جندخراسان، وفرضت البعوث على الشام والجزيرة ، حتى بلغت الحشود (٧٠) ألفا . وتم بناء ملطية في (٦) أشهر وبنى لها مسلحتان[٦٨] الاولى أمامها باتجاه الاراضي

---

٦٣ – زبدة الحلب ، ١/٥٩ .

64—Santoro, PP. 258-259.

65—C.M.H, 4/1, P. 74.

٦٦ – البلاذري ، فتوح ، ١/٢٣٦ ، الطبري ، تاريخ ، ٧/٥٠٠ .

٦٧ – تاريخ ، ٧/٥٠٠ .

٦٨ – المسلحة : مجموعة من الجند يكونون بموضع رصد أمام احد الثغور، يراقبون منه تحركات العدو ، فهي كالمرقب ، ومهمة هؤلاء تتلخص في الاستخبار عن تحركات العدو ، حتى لا يفاجأ اهل الثغر بهجومه . ومن

البيزنطية على بعد (٣٠) ميلا ٠ والاخرى على نهر القباقب ــ انظر الشكل رقم ٦ ــ ثم اسكنت المدينة بـ (٤) آلاف من أهل الجزيرة لانها من ثغورهم، على زيادة عشرة دنانير في العطاء ، ومعونة مئة دينـار مع « الجعل » الذي تتقاسمه القبائل بينها ، كما أقطع الجند المزارع ، ثم شحنت المدينة بالعـدد والاسلحة ٠ جرى بعـد ذلك بنـاء حصن قلوذية القريب من ملطية[٦٩] ٠ كما كلف صالح بن علي بناء المصيصة ، فأناب جبريل بن يحيى لهذه المهمة ، وأتم العمل في عام ١٤١هـ/٧٥٨ـ٧٥٩م[٧٠] ٠ اذ كانت الـزلازل قد ألحقت بهـا أضرارا جمة[٧١] ٠ وحاول قسطنطين اعاقة بناء وتحصين المدينتين ــ ملطيـة والمصيصة ــ بيد أنه فشل في تحقيق هدفه هـذا ، لان الجيش الذي كـان مرابطا في منطقة الثغور كان مستعدا للتصـدي له[٧٢] ٠ وذكر البلاذري ان قسطنطين أقبل بـ (١٠٠) ألف جندي ، لكنه أحجم لكثرة جند المسلمين[٧٣]٠ واذا كان هذا قد حصل بالفعل ، فان الارقام يجب أن تكون أصغر من ذلك، للاعتبارات التي سبقت الاشارة اليها أكثر من مرة ٠

وفي عام ١٤١هـ/٧٥٨ـ٧٥٩م ، تم بناء أذنة ، وعسكر فيهـا مسلمة بن يحيى البجلي بجند خراسان ومعه مالك بن أدهم البـاهلي في أهل الشام ، وبتوجيه من صالح بن علي[٧٤] ٠ وفي هذه السنة أيضا قام محمد بن ابراهيم بقيادة حملة مكونة من جند خراسان ، عسكر بها في ملطية تعزيزا لحاميتها ،

واجباتهم أيضا ، منع اي من افراد العدو من دخول الاراضي الاسـلامية من جهتهم ٠ فالمسلحة بمثابة نقطة انذار وسيطرة متقدمـة لمسافة من الجبهة محددة لها وموكلة بها ٠
لسان العرب ، ٢/٤٨٧ ٠

٦٩ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٣ ، قدامة ، ٣١٨ــ٣١٩ ٠

٧٠ ــ ابن خياط ، ١/٦٤١ ، الازدي ، ١٧٣ ٠

71—C.M.H. 4/1. P. 704.

72—Ioc, cit.

٧٣ ــ فتوح ، ١/٢٢٣ ٠

٧٤ ــ المصدر السابق ، ١/١٩٩ ٠

مما شجع سكان المدينة للعودة اليها[٧٥] • ويبدو ان استخبارات المسلمين نقلت معلومات عن احتمال قيام البيزنطيين بعمليات عسكرية في هذه المناطق • ومرة أخرى فان قسطنطين لم يتمكن من ايقاف عمليات التحصين لانشغاله باخضاع الصقالبة في تراقية ومقدونية[٧٦] • وقام بنقل ما يقرب من (٢٠٩) منهم الى آسيا الصغرى[٧٧] • تخلصا من شغبهم في الاقاليم الاوربية من الامبراطورية، ولتعزيز القدرات العسكرية في آسيا الصغرى •

في عام ١٤٢هـ/٧٦٠م، خرج العباس بن محمد الى الصائفة في الاراضي البيزنطية[٧٨] • وتمكن من الحاق الهزيمة بالبيزنطيين عند نهر ميلاس ، وأخذ معه (٤٢) أسيرا من القوة البيزنطية التي قادها الستراتيج پاول قائد بند الارمنياق ، في اقليم قيسارية ، بل أن پاول نفسه قتل في المعركة[٧٩] • وقاد العباس نفسه حملة أخرى في العام التالي[٨٠] • ويبدو ان الحملة لم يكن لها صدى في المصادر البيزنطية • وفي عام ١٤٥هـ/٧٦٢-٧٦٣م ، قاد الصائفة عيسى بن كثير النقاش بتوجيه من صالح بن علي ، فهاجم سلوقية والطوانة وقرمة ، حيث حقق نجاحا ملحوظا[٨١] • وكانت هناك حملة أخرى قادها حميد بن قحطبة في هذه السنة أيضا[٨٢] •

وعلى أية حال ، يبدو ان اشارة الطبري السابقة ، الى عدم وجود حملات في هذه السنوات، مقصود بها تلك الحملات المرسلة والموجهة من قبل السلطات

---

٧٥ ـ المصدر السابق ، ١/٢٢٤ •

76—C.M.H, 4/1, P. 704.

77—Santoro, P. 272.

٧٨ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٤ •

79—Santoro, P. 275; C.M.H, 4/1, PP. 74, 704.

٨٠ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٥ •

٨١ ـ ابن خياط ، تاريخ ، ٢/٦٤٩ •

٨٢ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٥ •

المركزية • بيد أن ولاة الثغور استمروا في ارسال الحملات من جانبهم ، والتي نفذت الى الاراضي البيزنطية • فالسلطة المركزية فضلا عن انشغالها بأمر محمد وابراهيم ولدي عبدالله بن الحسن ــ كما أسلفنا ــ فانها كانت مضطرة منــذ عام ١٤١هـ/٧٦٢ــ٧٦٣م ، الى توجيه الحملات على الديلم والخــزر • وعلى الارجح فان تحرشات الخزر هذه كانت بتوجيه من البيزنطيين[٨٣] •

وفي عام ١٤٦هـ/٧٦٣ــ٧٦٤ م ، قــاد الصائفــة جعفــر بن حنظلة البهراني[٨٤] • وأشار اليعقوبي الى حملة أخرى قادها محمــد بن ابراهيم الامام[٨٥] • ويبدو ان الحملة الاولى كانت هي الرئيسة ، في حين كانت الثانية محلية ، وربما أرسلت من قبل صالح بن علي •

وذكر ابن الاثير حملة أخرى قادها مالك بن عبدالله الخثعمي المعروف بمالك الصوائف ، وان الحملة أصابت غنائم كثــيرة[٨٦] • ونقل ابن الاثــير معلوماته هذه عن البلاذري[٨٧] • الا أن ما نقله عنه لم يكن دقيقا ، فالبلاذري ذكرها في عام ٤٦هـ وليس في عام ١٤٦هـ • وعندما جاء ابن خلدون ونقل عن ابن الاثير جعل الحملة في عام ١٤٧هـ/٧٦٣ــ٧٦٤، بدلا من عام ١٤٦هـ[٨٨]. وفي هذه السنة ١٤٦هـ/٧٦٣ ــ ٧٦٤م ، كانت هناك حملة بحرية الى قبرص قادها العباس بن سفيان الخثعمي ، اشــارت الى ذلك المصادر المتأخرة[٨٩] • ومن المحتم أنها نقلتها عن مصادر متقدمة لم تصل الينا •

وفي عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤ــ٧٦٥ م ، كانت هناك حملة قادها الســري بن عبــدالله بن الحارث ، وفي عام ١٤٨هـ/٧٦٥ــ٧٦٦ م قادهــا الفضل بن

83—C.M.H, 4/1, P. 704.

٨٤ ــ الفسوي ، المعرفة والتاريخ ، ١/١٣٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٧/٦٥٦ .
٨٥ ــ تاريخ ، ٣/١٣٥ .
٨٦ ــ الكامل ، ٥/٥٧٦ .
٨٧ ــ فتوح ، ١/٢٢٧ .
٨٨ ــ تاريخ ، ٣/٢٠٣ .
٨٩ ــ الذهبي ، ٦/٢٨ ، السيوطي ، ٢٦١ .

صالح[٩٠] . أما الطبري فذكر انه في عام ١٤٨ هـ عسكر صالح بن علي بدابق، ويبدو أنه شكك بذلك بقوله « فيما ذكر » وانه اكتفى باستطلاع الاوضاع في مناطق التخوم[٩١] . ويبدو ان صالح بن علي أرسل ابنه من هناك ، الى الاراضي البيزنطية . اذ ذكر اليعقوبي صائفة قادها الفضل في هـذه السـنة ـ وهو ما سبقت اليه الاشارة قبل قليل ـ . وبخصوص حمـلات الاعوام ١٤٥ـ١٤٩ هـ/٧٦٣ـ٧٦٧م ، فان أحد المحدثين يرى انها ربما كانت موجهة الى الخزر ، لاشتداد ضغطهم في هذه السنوات ، وانها لم تكن موجهـة الى الاراضي البيزنطية[٩٢] . بيد ان هذا الاستنتاج ليس دقيقا لسببين رئيسين : أولهما ان هذه الحملات جاءت في سياق حديث اليعقوبي عن الحملات الموجهة الى الاراضي البيزنطية ، وثانيهما ان المصادر العربية أفاضت في الحديث عن هجمات الخزر واجراءات السلطة المذكورة بهذا الخصوص ، اذ تم ارسـال العديد من التعزيزات مع عدد من القادة[٩٣] . الا أن أياً منهم لم يرد اسمه في حملات اليعقوبي هذه ، سوى حميد بن قحطبة . غير أن اليعقوبي جعله على رأس الحملة الموجهة الى الاراضي البيزنطية في عام ١٤٥هـ/٧٦٢ـ٧٦٣ م ، في حين أرسل لمواجهة الخزر في عام ١٤٧هـ/٧٦٤ـ٧٦٥م[٩٤] . ويبدو انـه كان لحميد نشاط عسكري واسع ، اذ كان يجري ارساله في فترات متقاربة الى أرجاء عديدة من الدولة ، مكلفا بمهام عسكرية ، فتم ارساله بعـد ذلك بفترة قصيرة من هذه الاحداث لفتح كابل في عام ١٥٢هـ/٧٦٩م ، كما سبقت الاشارة الى ذلك .

في عام ١٤٩هـ/٧٦٦ـ٧٦٧م ، قاد الحملة يزيد بن أسيد السلمي[٩٥] .

---

٩٠ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٥ .
٩١ ـ تاريخ ، ٨/٢٧ .
٩٢ ـ فتحي عثمان ، ٢/١٥٠ .
٩٣ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١١٧ ، ابن اعثم ، ٨/٢٣١ .
٩٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٧ .
٩٥ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٥ .

وكان المنصور قد أرسل حملة أخرى قادها الحسن بن قحطبة لاستعادة كمخ من البيزنطيين،الا أنه لم يتمكن من تحقيق ذلك[٩٦]•وضمت هذه الحملة محمد ابن الاشعث ، وقائدها الاعلى العباس بن محمد ، الا أن محمــد بن الاشعث توفي في الطريق • وتوجهت الحملة أولا الى ملطية للتزود بالمؤن ، ثم جــرى التوجه الى كمخ والبدء بحصارها ونصبت عليها المجانيق ، الا ان البيزنطيين دعموا الاسوار بخشب العرعر المتين•ثم استعملت الدبابات لدك هذهالاسوار، وبعد قتال شديد دخل المسلمون الحصن ، والظاهر أن البيزنطيين تمكنوا بعد ذلك من اخراجهم وبقي بأيديهم حتى تم فتحه في فترة لاحقة[٩٧]• ونفــذت احدى الكتائب الى ما وراء قيسارية ، الا أنها هوجمت في أثناء تراجعها باتجاه ملطية، وهي في حالة فوضى ، فألحقت بها بعض الخسائر • وكان لدنو الشتاء أثر في ابراز هذه النتائج[٩٨] •

وفي عام ١٥٠هـ/٧٦٧م ، ولى المنصور ، أسيد بن يزيد قيادة الصائفة، لكنه لم ينفذ الى الاراضي البيزنطية ، بل اكتفى بالاقامة في دابق[٩٩]• وفيعام ١٥١هـ/٧٦٨م ، قام صالح بن علي باعادة بناء وتحصين مرعش وتعزيز حاميتها بقوات اضافية وزاد في عطائهم[١٠٠] • وفي هــذه السنة أيضــا قاد الصائفة عبدالوهاب بن ابراهيم بن محمد[١٠١]• وتم فيها أيضا نقل السكان المحليين القدامى من مرعش وسميساط الى فلسطين ، لانهم كانوا يمــدون البيزنطيين

---

٩٦ ــ ابن خياط ، تاريخ ، ٢/٦٥٦ •

٩٧ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٠ •

98—C.M.H, 4/1, PP. 704-705.

٩٩ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٢ •

١٠٠ ــ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٥ ، كذلك : C.M.H, 4/1, P. 705.

١٠١ ــ الفسوي ، ١/١٣٨ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٩ •

بالجواسيس والعيون[١٠٢] . ولم يسجل أي من ابن خياط واليعقوبي أي نشاط عسكري في هذه السنة .

وفي عام ١٥٢هـ/٧٦٩م ، جرت محاولة لبناء سميساط على يد العباس بن محمد ، لكن وصول جيش بيزنطي حال دون ذلك[١٠٣] . وفي هذه السنة قاد الصائفة عبدالوهاب بن ابراهيم الامام ، الا أنه لم ينفذ في الاراضي البيزنطية[١٠٤] . أو ربما كان محمد بن ابراهيم الامام هو الذي تولاها[١٠٥] . ومهما يكن من أمر فربما كانت هناك قوتان رابطتا في منطقة الثغور ، أو أنها قوة واحدة تناوب على قيادتها عبدالوهاب وأخوة محمد ، مهمتها مراقبة تحركات الجانب البيزنطي في منطقة التخوم .

وفي عام ١٥٣هـ/٧٧٠م ، قاد الصائفة معيوف بن يحيى الجموري ، غير أن الحملة لم تقم بأي عمل[١٠٦] . بيد أن هناك رواية أخرى مفصلة ، جاء فيها ، ان معيوفا عند دخوله الاراضي البيزنطية باغت أحد حصونهم ليلا وهم نيام ، فأسر ما فيه من مقاتلة ، ثم تحول بعد ذلك الى اللاذقية المحترقة.[١٠٧] وفتحها ، وأخذ منها (٦) آلاف من السبي سوى الرجال البالغين[١٠٨].وتمكنت الحملة من اعادة مرعش الى حوزة المسلمين[١٠٩] . وقدم الازدي اسماً لقائد

102—C.M.H, 4/1, P. 705.

103—C.M.H, 4/1, P. 705.

١٠٤ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٢/ ٦٦٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٤١ .

١٠٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٤١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٥/٦٨ .

١٠٦ ــ ابن خياط ، ٢/٦٢٢ ، الفسوي ، ١/١٣٩ .

١٠٧ ــ اللاذقية المحترقة : تقع شمال مدينة قونية في الاراضي البيزنطية . لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ١٨٢ .

١٠٨ ــ الطبري ، تاريخ، ٨/٤٣ ، كذلك : C.M.H, 4/1, PP. 74, 705.

109—Santoro, P. 278.

الحملة هو معتوق بن يحيى الكندي[١١٠] • ولابد انه تحريفا لاسم معيوف قائد الحملة•

أما في عام ١٥٤هـ/٧٧١م ، قام زفر بن عاصم الهلالي بقيادة الصائفة ، وبث سراياه في نواحي متعددة من الاراضي البيزنطية ، وحاز بعض الغنائم وعاد من درب مرعش[١١١] • وربما بلغت الحملة أعالي الفرات[١١٢] • وانها وصلت الى Syke وتقدمت على طول ساحل اليسوريا[١١٣] وهو ما يؤكد فعلا ان الحملة تفرعت الى عدة سرايا • أما رد الفعل البيزنطي تجاه الحملة ، وازاء الخطر الذي هدد مدينة Syke بعد محاصرتها • فان قسطنطين الخامس اضطر الى ارسال قواته لمحاربة القوات العباسية هناك • وتكونت هذه القوة من ميشيل لاخوندراكون ستراتيج بند الناطليق ومانيس ستراتيج بند الارمنياق • واتخذ القائدان مواضعهما قرب المدينة المحاصرة عند ممر ضيق، وفي الوقت نفسه فان ستراتيج بند كبيريوت أرسى باسطوله عند المدينة نفسها ، وكان الهدف هو التنسيق بين هذه القوى الثلاث ، للقيام بالهجوم على القوة العباسية • غير أنه بطريقة ما فان خطة الهجوم فشلت ، فالقوة العباسية التي كانت في وضع الفاقد للامل ، تمكنت من شن هجوم مباغت على القوات البيزنطية وألحقت بها هزيمة شنيعة ، اذ جرى قتل وأسر أعداد كبيرة من أفراد العدو ، ثم تمكن المسلمون من غنم معسكراته ، وكذا الحال في طريق العودة ، فقد حازت الحملة على غنائم كثيرة[١١٤] • وعلى الرغم من هذه الهزائم المتعددة التي مُني بها البيزنطيون، فان هناك من عدّها اخفاقات صغيرة واجهتها الامبراطورية، وانها كانت ماتزال

---

١١٠ ــ تاريخ ، ٢١٦ •
١١١ ــ ابن خياط ، ٢/٦٦٣ •
١١٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٤٤ •

113—C.M.H, 4/1, PP. 74, 705.
114—Santoro, P. 280.

سيدة الموقف على التخوم[115] .

وفي عام ١٥٥هـ/٧٧١-٧٧٢م ، وجه المنصور ابنه المهدي لبناء مدينة الرافقة ، فبنيت على شكل مدينة بغداد[116] . وأصبحت مركزا مهماً للتوجيه والاشراف على العمليات في مناطق الثغور . وفي هـذه السنة طلب قسطنطين الخامس الى المنصور عقد الصلح على أن يؤدي من طرفه الجزية له . غير أن المنصور رفض هذا الطلب[117] . وهنا لابد من التوقف عند هذه المسألةلتبين جوانبها ، فضغط العباسيين العسكري على البيزنطيين ، لم يكن قد بلغ مبلغا يضطر معه الامبراطور على طلب الصلح مؤديا معه الجزية الى بغداد . الا أن تسليط الضوء على أوضاع البيزنطيين الداخلية ، وعلاقتهم مع البلغار،يكشف سر هذا الموقف.فالامبراطور كان يعد ويمهد لشن عمليات واسعة على البلغار، نفذها فعلا في العامين اللاحقين . لذا فمن المعقول جدا أن يقوم بالاطمئنـان على تخومه مع العباسيين بطلب الصلح معهم ، حتى اذا تطلب الأمر دفع الجزية، ليكون بالامكان التفرغ كلياً لعملياته مع البلغار . وفي هذه السنة أيضا قـام يزيد بن أسيد السلمي بقيادة الصائفة[118] . كما أصبح بالامكان اسـتعادة حصن كمخ ، لأن حاكمه البيزنطي كان مشغولا بمطاردة كوشـان الارمني وقواته ، الذي قرر العودة الى أرمينية ، مما مكن المسلمين من استعادته[119].

في عام ١٥٦هـ/٧٧٢م ، قاد الصائفة زفر بن عاصم الهلالي ، فأغار على قنية وقونية[120] . وكان خروج الصائفة من درب الصفصاف ، وبلغت القوة

115—C.M.H, 4/1, P. 74.

١١٦ ــ البلاذري ، فتوح ، ٢١٣/١ ، الطبري ، تاريخ ، ٤٦/٨ .

١١٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٤٦/٨ .

١١٨ ــ الفسوي ، ١٤٢/١ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ١٣٥/٣ ، الطبـري ، تاريخ ، ٤٦/٨ .

119—C.M.H, 4/1, P. 705.

١٢٠ ــ ابن خياط ، ٦٦٥/٢ ، الطبري ، تاريخ ، ٥٠/٨ .

مطمورة[١٢١] حرمة في برية «فيها عشرة نفر لم تبل أجسادهم ، وكان أبو اسحاق القراري في هذه الغزاة فعرف أنهم أصحاب الرقيم »[١٢٢] . ومهما يكن من شأن هذه المعلومات ، فالظاهر ان الحملة حققت نجاحات أولية ، اذ جرى أسر (٥٠٠) من البيزنطيين ، غير أن قوات التخوم البيزنطية كمنت للمسلمين في طريق العودة ، مما ألحق بالحملة بعض الخسائر[١٢٣] . وفي رواية أخرى ان الصائفة قادها معيوف بن يحيى الجموري ، وانـــه دخل من درب الحدث ، واصطدم بالعدو ، ثم انسحب بلا نتيجة[١٢٤] .

وفي عام ١٥٧هـ/٧٧٣ــ٧٧٤م ، قاد الصائفة يزيد بن أسيد السلمي ، وحقق بعض النجاح فيها[١٢٥] . ووجه سنانا مولى البطال الى بعض الحصون حيث أصاب بعض النجاح[١٢٦] . وكانت هناك حملة أخرى قادها زفر بن عاصم الهلالي[١٢٧] . لم تتوفر عنها أية معلومات . وفي البحر وجه المنصور حملة الى قبرص ، واسقط عنهم الجزية الاضافية التي سبق لهشام بن عبدالملك أن فرضها عليهم[١٢٨] .

أما السنة الاخيرة من فترة التأسيس ، أي عام ١٥٨هـ/٧٧٤ــ٧٧٥م فان الصائفة كانت فيها لمعيوف بن يحيى الجموري[١٢٩] . فدخل الاراضي البيزنطية

---

١٢١ ــ مطمورة : حفرة أو مكان تحت الارض ، ويكون عادة مخفيا ، يخبأ فيـــه المال والطعام والحبوب ، ويكون اسفلها في العادة واسعا .
(لسان العرب : ٤/٥٠٢) .

١٢٢ ــ الازدي ، ٢٢٥ .

123—Santoro, P. 281.

١٢٤ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٠٤ .

١٢٥ ــ ابن خياط ، تاريخ ، ٢/٦٦٦ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٥٣ ، الازدي ، ٢٢٦ .

١٢٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٥٣ .

١٢٧ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٥ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٥٣ .

128—Ali Mohamed Fahmy, Muslim Sea Power, PP. 124-125.

١٢٩ ــ ابن خياط ، ٢/٦٦٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٥٧ ، الازدي ، ٢٣٢ .

من درب الحدث وعاد من درب الراهب[١٣٠] . ويبـدو أن الغرض من تغيير طريق العودة ، هو التخلص من كمائن قوات التخوم البيزنطية . وانتهت هذه المرحلة بوصية المنصور لابنه المهدي ، حيث أوصاه بقوله :

«وليكن أهم أمورك اليك تحفظ أطرافك، وسد ثغورك، وكماش بعوثك ، وأرغب الى الله عزّ وجل في الجهـاد والمحاماة عن دينه . واهلاك عـدوه ، بما يفتح الله على المسلمين ويمكّن لهم في الدين . وابذل في ذلك مهجتك، ونجدتك ومالك، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك،واعرف مراكز خيلك ، ومواطن رحلك ..»[١٣١] .

وتمثل هذه الوصية الموقف الفكري الرسمي للخلافة العباسية بما يخص طبيعة العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية ، فهي تعبر عن موقف الراغب في الحفاظ على تخومه آمنة مطمئنة ، واذا ما تعرضت للخطر ، فان الامر يستوجب الجهاد والمحاماة عنها وعن الدين .

أما السمات المميزة التي طبعت هذه الفترة، وبما يخص النشاط العسكري للجانبين فيمكن أن نشير الى :

١ ـ اتسمت هذه الفترة ، بشكل عام ، بالهدوء في مناطق التخوم ،فعلى الرغم مما قام من عمليات عسكرية ، الا أنها لم تكن عنيفة بالشكل الذي كانت عليه في العصر الاموي ، ولا كما شهدته المرحلة اللاحقة . وعاد ذلك الى أن الدولة العباسية كانت تمر بمرحلة التأسيس ، مما استوجبه ذلك من انصراف شبه تام الى الامور الداخلية ، كما كان للجانب البيزنطي مشكلاته الخاصة ، منها ما تعلق بالاجراءات اللا ايقونية ، ومنها ما تعلق بالصراع الحاد مع البلغار .

---

١٣٠ ـ ابن خياط ، ٢/٦٦٧ .

١٣١ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٣٧-١٣٨ .

٢ ــ ان البيزنطيين هم الذين بـدأوا العمليـات العسكرية مع الدولة العباسية ، فعملوا على استغلال ظروف الانتقال التي مرت بها الدولة العربيـة الاسلامية ، من الحكم الاموي الى الحكم العباسي • حيث تمكنوا من دفع النقاط الفاصلة بين الدولتين ، الى داخل الاراضي الاسلامية قليلا ،باستيلائهم على كمخ ومرعش • لا سيما في عمليات قسطنطين الواسعة في عام ١٣٣هـ/ ٧٥١م ، التي أكدها في حملته الثانية في عام ١٣٨هـ/٧٥٥ــ٧٥٦م ، وجهـد العباسيون في سبيل استعادة هذه المواضع •

٣ ــ وتباين النشاط العسكري العباسي في مقـدار فاعليته ، اذ كان في أول الامر استطلاعيا ودفاعيا ، ثم تحول الى حملات متزايـدة في حجمهـا وفاعليتها ، نفذت في الأراضي البيزنطية لتدمير مراكز قوة الامبراطورية •

٤ ــ كما ظهرت في هذه الفترة مستويات مختلفة من النشاط العسكري الذي مارسه العباسيون في مناطق التخوم ، تمثل الأول بالنشاط الموجه من قبل السلطة المركزية كالحملات التي أمر بها أبو العباس والمنصور • في حـين تمثل المستوى الثـاني بتلك الحملات الصغيرة الموجهـة من القائمين على أمر الثغور ، كالحملات التي أرسلها صالح بن علي •

٥ ــ ان رعاية هذا النشاط العسكري كان يتم عادة باشـراف وتوجيه أفراد البيت العباسي معبرين عن مدى اهتمامهم بهذا الجانب الحيوي من نشاط الدولة • وكذا الحال في الجانب البيزنطي ، فالامبراطور قسطنطين الخامس كان يقوم بقيادة عملياته العسكرية الرئيسة في منـاطق التخوم ، معبرا عن امساكه زمام الامور بقبضة صارمة ، حتى لا يغيب عن اشرافه شيء ما • اذتمتع بحيوية وفاعلية عاليتين مكنتاه من الاشراف المباشر والدقيق على امبراطوريته داخليا وخارجيا •

٦ ــ كما تميز النشاط العسكري في هذه الفترة ، بأنه كان بريا أساسا ، ولم يشهد البحر سوى حملتين صغيرتين على قبرص • وكان لانتقال العاصمة

من دمشق الى بغداد أثرا واضحا في هذا التوجه • وكذا الحال في الجـانب البيزنطي ، فالبحر خلا من حملات بحرية بيزنطية • مع أن البيـزنطيين كـانوا متفوقين بحريا في هذه الفترة ومنذ أواخر الفترة الاموية•

٣ ــ العلاقات الحربية في المرحلة الاولى من فترة الازدهار :

من أجل دراسة العلاقات الحربية في فترة الازدهار ، لا بد من شطرها الى مرحلتين رئيستين : تبدأ الاولى بخلافة المهدي وتنتهي بوفاة الرشيد ، في حين تبدأ الثانية بخلافة الامين وتنتهي بوفاة المأمون •

وبقدر تعلق الامر بالمرحلة الاولى ، فانه من خـلال ملاحظتنـا للشكل رقم ــ٤ــ يتضح ان هناك تصعيدا في العمليـات العسكرية من جانب الدولة العباسية • وعاد ذلك الى الهدوء النسبي الذي تمتعت به الاوضاع الداخلية للدولة ، عدا بعض الحركات الايرانية والخارجية وحركات أخرى في مصر • ولعل سبب هذا الهدوء، تلك السياسة التوفيقية التي سار عليها الخليفة المهدي ، والتي جاءت في أعقاب سياسة والده المنصور المتشددة والصارمة ، ووفقـا لمنهاج رسمه المنصور نفسه ، وأثمرت نتائجها ذلك الهدوء النسبي الذي عم البلاد ، لا سيما ان العلويين لم يقوموا بأية حركة معارضـة طوال فترة حكم المهدي • كما تضمنت وصية المنصور لابنه جملة من الامور ، أهمها وصيته له باتباع سياسة العدل والمساواة بين عامة الناس ، وزيادة الانفاق بشكل واسع ، والاهتمام بتحقيق رخاء اقتصادي بتخفيف الضرائب(١٣٢) • وبالفعل نفذ المهدي عدة خطوات على هذا الطريق ، اذ أمر باعادة الاموال التي صادرها والده الى أهلها(١٣٣) • كما أمر باطلاق سراح السجناء السياسيين(١٣٤) • ثم جاء انفاقـه

---

١٣٢ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٣٧/٣ •
١٣٣ ــ المصدر السابق ، ١٨٣/٣ •
١٣٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ١١٧/٨ •

الواسع في مكة عام ١٦٠هـ/٧٧٦ـ٧٧٧م ، وانفاقه أيضا على المجذومين وأهل السجون في أرجاء الدولة[١٣٥] • وتحويل الخراج من المساحة الى المقاسمة ـ كما مر بنا ـ على أية حال ، فانه ليس غرضنا الاستطراد في تفاصيل سياسة المهدي ، بل مجرد الاشارة السريعة الى طبيعة أوضاع البلاد الداخلية في فترة حكمه •

وجاءت فترة حكم الرشيد لتشهد الحد الاعلى في النشاط العسكري للدولة في مناطق التخوم ، وكان للازدهار الاقتصادي الذي شهدته البلاد دور أساس في ذلك • على الرغم مما ساد من اضطرابات داخلية في أرجاء الدولة• بيد أن هذا الازدهار الاقتصادي مكن من تجهيز الجيوش الكافية لمواجهة الاخطار الداخلية والخارجية •

أما في الجانب البيزنطي ، فان هذه الفترة شهدت حكم ليو الرابع وقسطنطين السادس ومعه أمه ايريني وصية على العرش ثم انفرادها بالحكم ، ثم حكم الامبراطور نقفور • وشهدت فترة حكم ليو الرابع ، هي الاخرى ، اتباع السياسة التوفيقية بين الحزبين الايقوني واللاايقوني ، أو بصورة أدق ان ليو الرابع خفف كثيرا من حدة الاضطهاد الذي وجهه والده الى أنصار الحزب الايقوني[١٣٦] • ونجم عن هذه السياسة استقرار نسبي في الاوضاع الداخلية للامبراطورية • وكذا الحال في العلاقات مع البلغار ، اذ أن ضربات قسطنطين الخامس القوية ، جعلت البلغار يركنون الى السكون فترة تزيد قليلا على عشر سنوات • ان هذه الظروف مكنت ليو الرابع من شن بعض الهجمات على مناطق الثغور الاسلامية ، الا أن الموت غير المتوقع للامبراطور، حمل الى العرش امبراطورا قاصرا لم يبلغ من العمر سوى سنوات عشر •فتولت أمه ايريني الوصاية عليه ، حيث أصبحت مشاركا رسميا في الحكم • وقام

---

١٣٥ ـ المصدر السابق ، ٨/١٤٢ •

136—Brehier, P. 60.

أشقاء ليو الرابع بعدة محاولات للاطاحة بها • وفي الوقت نفسه خططت ايريني للاطاحة بالسياسة اللايقونية[١٣٧] • الا أن هذه السياسة واجهت معارضة شديدة من أنصار الحزب اللا ايقوني ، ولان سياستها ضعيفة ومترددة ، فقد أثارت من حولها العديد من المتاعب داخليا وخارجيا • مما جعل موقفها ضعيفا أمام قوة الخلافة العباسية في هذه الفترة • وكان ذلك من أوكد الاسباب للاطاحة بها • وفعلا قام نقفور — وزير ماليتها — بذلك واستولى على العرش الامبراطوري • واعتلى نقفور العرش ، وهو يحمل في رأسه مشاريع واسعة لخلق نهضة في بلاده • فسعى الى تدعيم قوة الامبراطورية عسكريا واقتصاديا ، كما سعى الى تحطيم قوة البلغار ، وسعى في نفس الوقت الى التخلص من ضغط الدولة العباسية ، ودفعه هذا الى تصعيد حدة الموقف على التخوم ومن قبل الطرفين — انظر الشكل رقم ٤ — غير أن نقفور وان كان بارعا في امور المالية ، الا أنه كان أقل حظا في الميدان العسكري • فكان رأسه ثمنا لمشروعاته هذه •

في عام ١٥٩هـ/٧٧٥—٧٧٦م ، بدأت الدولة العباسية باتخاذ مواقف أكثر قدرة على الهجوم ، اذ قرر المهدي أن يقوم شخصيا بالاشراف على العمليات الحربية في مناطق التخوم ، وخرج ليعسكر في البردان[١٣٨] • ووجه صائفة عليها العباس بن محمد وجعل على مقدمته الحسن الوصيف في الموالي ، وضم اليهما عددا من القادة • ومن البردان انطلقت الحملة الى عمق الاراضي البيزنطية ، ففتحت احدى المدن ومعها مطمورة[١٣٩] • والمدينة هي أنقرة[١٤٠] • أما طريقة اخراج أهل المطمورة منها ، فتمثل بادخال الدخان الى

137—Ostrogorsky, P. 177.

١٣٨ — البردان : نهر بنواحي طرطوس ، ينبع في الاراضي البيزنطية ويصب في البحر المتوسط لستة اميال عن طرطوس • (ياقوت : ١/٣٧٦) •

١٣٩ — الطبري ، تاريخ ، ٨/١١٦ •

١٤٠ — اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٤٦ •

المطمورة بحرق النار في مدخلها[١٤١] • وفي الطريق الى انقرة تمت السيطرة على ــ الحصين Kasin ــ في قبادوقية[١٤٢] • وكانت هــذه الحملة تضم أكبر جيش تم تجهيزه منذ عشرين سنة سبقت[١٤٣] •

وردا على هذه الحملة هجم البيزنطيون على سميساط وأخذوا معهم عددا كبيرا من الاسرى[١٤٤] • واشتركت في هذا الهجوم ثلاثة من الجيوش البيزنطية اثنان منها تحت قيادة Andzevatzik و Tadjat الارمنيين ، أمــا القوة الثالثة فكانت مكونة من قوات الامبراطورية • ودخلت هــذه الجيوش الى قيليقيا ربما عن طريق الابواب القيليقيــة ، واندفعت الى الاراضي السورية ــ الاطراف الشمالية حتما ــ ونهبت عددا من القلاع والحصون ، وأصــاب منطقة الثغور تدمير هائل ، وبلغ عدد الاسرى ــ حسب الرواية ــ (١٥٠) ألفا، وحظيت الحملة بتكريم الامبراطور ليو الرابع[١٤٥] • وفي هــذه الرواية ثمة أمور عدة تستوقفنا فعدد الاسرى الوارد فيها لابد أنه مضاعف عما في الحقيقة مرات عديدة • ومما لا شك فيه أيضا ، ان ما ورد عن تدمير مناطق الثغور هو الآخر لم يخل من مبالغة كبيرة• وعلى أية حال فان الخليفة المهدي أرسل مولاه صغيرا ، فاستنقذ الاسرى[١٤٦]• ويبدو ان الخليفة أرسل هذا الوفد للتفاوض في أمر مفاداة هؤلاء الاسرى ، ويبدو أيضا ، حسب الرواية ، ان هذا الوفد حقق نجاحا في مهمته • ولا نعتقد أن هناك ما يبرر اعتبار هــذه الرواية غير صحيحة • فهناك من اعتقد ان هذا الوفد لم تكن مهمته مفاداة الاسرى ، بل انه حمل رسالة تهديد الى الامبراطور تضمنت التهديد بمهاجمــة الاراضي

141—Santoro, P. 302.
142—C.M.H, 4/1, P. 705.
143—loc, cit.

١٤٤ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٤٦ •

145—Santoro, PP. 303-304.

١٤٦ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٤٦ •

البيزنطية[١٤٧] • كما أن Santoro عد أمر هـذه المراسـلات غـير مؤكد[١٤٨] • وكما أسلفنا ، فانه ليس من مبرر للتشكيك بهذا الامر ، وانفراد اليعقوبي ــ الذي طالما كانت له رواياته التي انفرد بها ــ لا يؤكـد هـذا التشكيك •

أدرك ليو الرابع ، ان رد الفعل العباسي تجاه هذه الحملة البيزنطية ، لابد أن يكون كبيرا ، لذا سعى الى اتخاذ جملة من الاجراءات التي تعزز جبهتـه الداخلية وجعلها متماسكة ولزيادة القدرة العسكرية لقواته أيضا • اذ بادر الى اتباع سياسة سخية وكريمة تجاه سكان المدن والريف على حـد سواء ، وعمل أيضا على التخفيف كثيرا من سياسة الاضطهاد تجـاه اتبـاع الحزب الايقوني[١٤٩] • فضلا عن قيامه بتوسيع نطاق التجنيد في قوات البنود ، كما وسع وحدات الـ tagmata في العاصمة[١٥٠] •

وفي عام ١٦٠هـ/٧٧٦ــ٧٧٧م ، أجمعت المصادر على أن الصائفة كانت لثمامة بن الوليد العبسي[١٥١] • دون تقديم أية تفاصيل • وربما عني هذا ان صائفة ثمامة كانت هي الوحيدة في هذه السنة ، وعدم وجود حملات ثانوية أخرى • وهذا الايجاز في ذكرها يؤكد أنها لم تكن كبيرة ، ولعل هذا الامر ينفي ان المهدي هدد ، من خلال وفده ، بمهاجمة الامبراطورية ، فلو كان الامر كذلك ، لتمثل رد فعل المهدي بحملة كبيرة تنسجم مع ما نسب اليه من تهديد• وفي هذه السنة قاد الغمر بن العباس الخثعمي حملة بحرية[١٥٢] • غير أنه لم تقدم أية تفصيلات عنها •

147—Santoro, PP. 305-306.
148—Ibid, P. 306.
149—Santoro, P. 307.
150—Ibid, P. 308.

١٥١ ــ ابن خياط ، ٢/٦٧٠ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٤٦ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/١٢٩ •

١٥٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٢٩ •

وفي عام ١٦١هـ/٧٧٧ـ٧٧٨م ، تضمنت أخبار الاحداث بعضا من التفاصيل ، التي تمكن بجمعها الى بعضها من الوصول الى صورة متكاملة للاحداث. وفي البدء أشار الطبري الى عدم وجود صائفة في هذه السنة[١٥٣]. لكن اليعقوبي أشار الى أن عيسى بن علي هاجم الاراضي البيزنطية ، وانه حوصر هناك[١٥٤]. ويفهم من رواية للبلاذري ان عيسى بن علي هاجم الاراضي البيزنطية وعاد الى مرعش ، عندما جاء ميشيل لاخوندراكون ـ ميخائيل ـ بطلائع القوة البيزنطية[١٥٥] . ثم أشار الطبري أن ثمامة كان مستعدا للقيام بالصائفة ، اذ كان معسكرا بدابق[١٥٦]. اذن فعيسى بن علي كان مقيما بمرعش بعد انتهاء عملياته العسكرية ، وان ثمامة كان مقيما بدابق ، ولانه كان مستعدا للصائفة ، فكان لابد له من ارسال عيونه لاستطلاع أوضاع العدو قبل القيام بأي عمل عسكري ، وهو ما حصل فعلا ، الا أن ثمامة أهمل ما جاءته به استطلاعاته من أن البيزنطيين حشدوا قواتهم استعدادا للهجوم ، فخرج للصائفة دون أن يعبأ بهذه الحشود[١٥٧]. أما الجانب البيزنطي فقد أعد قوة من (٨٠) ألف جندي عند البلاذري[١٥٨] . و (١٠٠) ألف عند غيره[١٥٩] . على أنه يجب أن تثار الشكوك حول مدى دقة هذه الارقام وامكانية تجهيزها من قبل الامبراطورية ولحملة واحدة فقط . ومما لا شك فيه ان الارقام كانت أقل من ذلك . وعلى أية حال فان هذه الحشود ضمت قوات من البنود التالية: تراقيسيون والناطليق والبقلار والارمنياق والابسيق ، اجتمعت سوية تحت قيادة ميشيل لاخوندراكون ـ ميخائيل ـ ومعه ارتباسدوس وتاتزاتيس.

١٥٣ ـ المصدر السابق ، ٨/١٣٦ .
١٥٤ ـ تاريخ ، ٣/١٤٦ .
١٥٥ ـ فتوح ، ١/٢٢٥ .
١٥٦ ـ تاريخ ، ٨/١٣٦ .
١٥٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٣٦ .
١٥٨ ـ فتوح ، ١/٢٢٥ .

159—Santoro, P. 310.

وكارستيراتيس وجريجوري[160] . وتقدمت عبر درب الحدث وأتت « عقبة حرتنا » وأنزلت بها خسائر كبيرة ثم تحولت القوة الى قرية عنزران ، وحرقت القرية بعد قتل وسبي أهلها ، ثم انتقلت بعد ذلك الى مرعش ، وكان عيسى بن علي مرابطا فيها ــ كما ذكرنا ــ فأرسل قوة بقيادة سالم البرنسي اصطدمت بالبيزنطيين دون نتيجة فتوجهت قوة سالم الى جيحان[161] . ثم قام ثمامة بن الوليد بارسال قوة أخرى بقيادة ملالة بن حكمة لمواجهة البيزنطيين ، الذين يبدو أنهم بدأوا بالانسحاب ، غير أن ملالة اصطدم بهم عند الدرب ، فلحقت بقوته العديد من الخسائر[162] . بيد أن انسحاب القوة البيزنطية تحوم حوله الشكوك ، اذ كان بامكان هذه القوة احتلال مرعش نفسها « غير أن تقديم الرشوة الى ميشيل لاخوندراكون حال دون ذلك »[163]، **لكن هذا الامر** بحد ذاته مشكوك به ، اذ كان بامكان لاخوندراكون الحصول ، بالقوة التي معه ، على أكثر بكثير من أية رشوة . ولا ننسى هنا ، ان ثيوفانس ــ المناصر للايقونات ــ هو الذي أورد هذه الرواية بحق لاخوندراكون ــ المتحمس جدا للسياسة اللا ايقونية ــ وربما كان الامر لا يعدو عقد صلح بين هذه القوة البيزنطية وبعض الثغور لقاء مبلغ من المال، هو ما أسماه ثيوفانس «رشوة» . وفي هذه السنة أيضا ، كانت هناك حملة بحرية قادها الغمر بن العباس[164] .

وفي عام ١٦٢هـ/٧٧٨ــ٧٧٩م ، وردا على ما قام به البيزنطيون في السنة السابقة، تولى ثمامة بن الوليد العبسي الصائفة ، الا أنه عزل وتولاها الحسن بن

160—loc, cit.

١٦١ ــ جيحان : نهر قرب المصيصة ، ينبع من الاراضي البيزنطية ويمر قرب كفربيا ، ويصب في البحر المتوسط . (ياقوت : ١٩٦/٢) وهو نهر بيراس القديم (لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ١٥٢) .

١٦٢ ــ ابن خياط ، ٦٨٥/٢ .

163—Santoro, P. 311.

١٦٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ١٤٠/٨ .

قحطبة[١٦٥]. وربما عاد عزله الى تقصيره واهماله في السنة السابقة ، أو لسبب آخر سيأتي ذكره لاحقا ، ويبدو ان البيزنطيين هاجموا الحدث قبل بدء الحسن بن قحطبة بأي عمل عسكري ، فهدموا سور المدينة[١٦٦]. وردا على ذلك باشر بأعمال الصائفة ، وبلغت القوة التي معه ثلاثون ألفا فضلا عن المطوعة[١٦٧] . في حين أشار الازدي ان القوة بلغت ثمانين ألفا[١٦٨]. وذكر الرقم اجمالا ـ أي الجند النظامي والمطوعة ـ على أنه لا يعقل أن يكون الجند النظامي ثلاثين ألفا والمطوعة خمسين ألفا ، ومن المرجح أن رقم الازدي من أخطاء الناسخ . وان الرقم الاول أكثر دقة . وتكونت قوات الحسن من جند خراسان والموصل والشام وامداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز . وخرجت هذه القوات عبر طرسوس[١٦٩] . وعادت من درب الحدث[١٧٠] . ونزل الحسن على منطقة « بطنة » ومنها بث سراياه ، فحرق وسبى ، ثم وجه ابنه محمد الى عمورية ، ثم لحقه الى هناك ، حيث جرت مناوشات مع العدو[١٧١]. ويبدو ان عمورية قاومت قوات العباسيين بنجاح ، بفضل ما حصل لها من تعزيزات وتحصينات منذ أيام ليو الثالث[١٧٢]. وبلغ الحسن بن قحطبة «حمة أدرولية » اذ قصد هذا المكان للاستشفاء ـ وربما كان هذا هو السبب الذي عزل من أجله ثمامة عن الصائفة وتوليتها للحسن ـ وجراء ما فعله في الاراضي البيزنطية ، فقد أطلقوا عليه « التنين » ثم انسحب مع قواته دون أن يقدم خسائر تذكر[١٧٣] . في حين أشار البلاذري الى انهم لقبوه « الشيتن ». وانه

---

١٦٥ ـ الفسوي ، ١/١٥٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٢ .

١٦٦ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٢ .

١٦٧ ـ نفس المصدر والصفحة .

١٦٨ ـ تاريخ ، ٢٤٢ ، ابن الاثير ، ٦/٥٨ .

١٦٩ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٠٠ ، قدامة ، ٣١٠ .

170—C.M.H, 4/1, P. 705.

١٧١ ـ ابن خياط ، ٢/٦٨٦ .

172—E.I (2) Vol. 1, P. 449.

١٧٣ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٢–١٤٣ .

أخبر المهدي عند عودته بضرورة تعمير وتحصين طرسوس ، لما في ذلك من أهمية كبيرة في صد غارات العدو[174] . وذكر الطبري ان الحسن لم يفتتح حصنا في هذه الحملة[175] . في حين ذكر الفسوي انه فتح حصنا[176] . الا أنه لم يسمه .

أما موقف البيزنطيين تجاه هذه الحملة ، فان ليو الرابع وضع خطةلتدمير القوة التي حاصرت أدرولية . ففي الوقت الذي هاجمت احدى قواته المحاصرين للمدينة ، كانت هناك قوة أخرى تقطع عليهم طرق الامداد ، مما اضطر الحسن بن قحطبة الى التراجع[177] .

وفي هذه السنة أيضا كانت هناك حملة اخرى خرجت من جانب قاليقلا، قادها يزيد بن أسيد السلمي ، وتمكن من فتح ثلاثة حصون ، وأخذ معه سبايا وأسرى كثيرين[178] . كما كانت هناك حملة بحرية قادها « النعمان » بن العباس الخثعمي[179] . ومن المرجح ان النعمان في هذا الموضع هي تحريف عن الغمر ، الذي برز في هذه الفترة بحملاته البحرية ، ومن المرجح أيضا ، ان هذه الحملة هي التي أشار اليها الطبري نفسها في أحداث السنة السابقة ، وأغفلها الازدي في تلك السنة .

وفي عام ١٦٢هـ/٧٧٩ـ٧٨٠م ، قرر المهدي القيام بعمل عسكري واسع في الاراضي البيزنطية ، ففرض البعوث على جميع أقاليم الدولة ، ثم خرج

---

١٧٤ ــ فتوح ، ١/٢٠٠ . كما أشار الازدي الى انه لقبوه ايضا « المبير » ، تاريخ ، ٢٤٢ .

١٧٥ ــ

١٧٦ ــ المعرفة والتاريخ ، ١/١٥٠ .

177—James Anathony Arvites, Irene, P. 15; C.M.H, 4/1, P. 705.

١٧٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٣ .

١٧٩ ــ الازدي ، ٢٤٢ .

وعسكر بالبردان ، وأقام فيها شهرين يعبأ الجيوش[180] . ثم عهد لابنه هارون قيادة الحملة ، والذي لقب بالرشيد فيما بعد ، على أن يساعده في أعمال القيادة كل من الربيع الحاجب والحسن بن قحطبة[181] . الا أن الاخير استعفى فعفاه المهدي[182] . وبناء على ذلك ، فانه لا وجه للصحة فيما قاله Canard بأن الحسن بن قحطبة لقي هزيمة كبيرة أمام ميشيل لاخوندراكون[183] . وقام المهدي بمرافقة ابنه الرشيد حتى عبر الدرب وبلغ جيحان ودخل مدينة المهدية ــ وهي الحدث نفسها عند قدامة ، ص ٣٢٠ ــ ثم ودع ابنه هناك وعاد[184] . ثم دخل الرشيد بند الارمنياق[185] . واستولى على صمالو ــ بين المصيصة وطرسوس ــ التي نصب عليها المجانيق وحاصرها مدة (٣٨) يوما[186] أو (٤٠) يوما[187] . وفتحت بعد تخريبها وتعرض أهلها للجوع والعطش ، ويبدو أنهم قاوموا مقاومة شديدة حتى ألحقوا بقوات الرشيد اصابات ليست قليلة . وكان فتحها بشرط ألا يقتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم ، فمنحوا ذلك ، ثم عاد الرشيد بقواته الا من أصيب منهم[188] . في حين أشار البلاذري الى أن الشرط هو منح «الامان لعشرة أهل أبيات فيهم القومس » وألا يفرق بينهم ، فانزلوا ببغداد على باب الشماسية ، الذي حمل اسم سمالو ، وأضاف البلاذري انهم نزلوا على حكم المهدي الذي استحياهم ــ أي أبقاهم ولم يأمر بقتلهم ــ ثم جمعوا بباب الشماسية وبيع من بقي منهم

---

١٨٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٤ .
١٨١ ــ المصدر السابق ، ٨/١٤٥ .
١٨٢ ــ نفس المصدر والصفحة .
183—C.M.H, 4/1, P. 705.
١٨٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٨ .
185—C.M.H, 4/1, P. 705.
١٨٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٨ .
١٨٧ ــ ابن خلدون ، تاريخ ، ٣/٢١١ .
١٨٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٤٨ .

في الحصن[189] . ويرى في رواية البلاذري أنها لم تتضمن شرط عدم ترحيل أهل الحصن ، بين شروط الصلح، ويبدو أن هذا هو الصحيح ، فلو كان الامر غير ذلك لما جرى ترحيلهم من حصنهم . وخرجت من القوة الرئيسة التي قادها الرشيد قوة ثانوية اصطدمت مع ميشيل لاخوندراكون ، الذي أنــزل بهذه القوة خسائر كبيرة وقتل فيها أخا ثمامة[190] . ويبــــدو أن Santoro خلط بين حملة الرشيد هذه وحملة السنة السابقة، لانه أشار الى أن الحسن اخبر المهدي ، في هذه الحملة ، بضرورة تعمير الحدث وطرسوس[191]. وهو ما فعله الحسن في حملة السنة السابقة ١٦٢هـ/٧٧٨ـ٧٧٩م ـ كما مر بنا ـ.

وفي عام ١٦٤هـ/٧٨٠ـ٧٨١م، قاد الصائفة عبد الكبير بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب ، فتقدم من درب الحدث ، الا أنه انهزم امام الجيش البيزنطي الذي قــــاده « البطــريق ميخائيل » الستراتيج ميشيل لاخوندراكون ، والذي بغ تعداده (٩٠) ألفا ومعه تاتزاتيس ـ ستراتيج بنــد البقلار ـ فمنع عبد الكبير قوته من القتال ، ممـــا أثار عليــه غضب الخليفة المهدي،وهمّ بقتل عبدالكبير،الا أنه حبسه في المطبق[192] . وأخطأ اليعقوبي بجعله أحداث حملة الرشيد في السنة التالية، ضمن أحداث هذه السنة[193].

وجاء عام ١٦٥هـ/٧٨١ـ٧٨٢م فكان متميزا في طبيعة العمليات العسكرية للدولة العباسية ، اذ أصبح ميزان القوى لصالحها تمامـــا . وعلى الرغم من التفاصيل التي ذكرها الطبري ، الا أنها تبقى غير وافية للتعرف على طبيعــة العمليات العسكرية في حملة هذه السنة . فقد وجه المهدي ابنه الرشيد ثانية، في أواخر جمادى الآخرة ١٦٥هـ/ كانون الثاني ٧٨٢م على رأس قوة بلــغ

---

١٨٩ ـ فتوح ، ٢٠٢/١ .

190—Santoro, P. 319.

191—C.M.H, 4/1, P. 705.

١٩٢ ـ ابن خياط ، ٦٨٨/٢ ، الطبري ، ١٥٠/٨ ، الازدي ، ٢٤٥ .

١٩٣ ـ تاريخ ، ١٤٦/٣ .

تعدادها (٩٥ر٧٩٣) جندي ، وبلغت نفقات الحملة (١٩٤ر٤٥٠) دينارا و (٢١ر٤١٤ر٨٠٠) درهم[١٩٤] . واجمالا ما يقرب من (٢٥ر٨٦٢ر٧٠٠)درهم . وأشار الطبري في مكان آخر الى أن الحملة بلغت (١٠٠) ألف سوى المطوعة وأهل الاسواق[١٩٥] . مما يثير الشكوك حول دقة هذه الارقام .

وتقدم الرشيد في عمق الاراضي البيزنطية ، وأول ما افتتح حصن ماجدة[١٩٦] الذي يبعد (٢٠) ميلا عن قلعة لؤلؤة الحصينة[١٩٧] . وعند تقدم الرشيد اعترضته قوة بيزنطية قادها « نقيطا قومس القوامسة »[١٩٨]وهو نيكيتاس ستراتيج بند الابسيق[١٩٩] واصطدمت معه مقدمة القوة العباسية بقيادة يزيد بن مزيد ، فقضى على القوة البيزنطية واستولى على معسكرها ، بل أن نيكيتاس نفسه قتل في مبارزة مع يزيد بن مزيد ، ثم توجه الى الدمستق صاحب المسالح في نقوميديا[٢٠٠] . كما توجه الربيع بن يونس لمحاصرة ناقوليا ، في حين قام خالد بن برمك بمهاجمة بعض المواضع في آسيا الصغرى[٢٠١] . أما القوة الرئيسة بقيادة الرشيد فقد تقدمت حتى بلغت الشواطىء الآسيوية المقابلة للعاصمة القسطنطينية[٢٠٢] . واصطدمت قوة خالد بن برمك والمكونة من (٣٠) ألفا مع ميشيل لاخوندراكون ، ستراتيج بند التراقيسيون ، فاصيبت قواته بـ (١٥) ألف اصابة في دارينون على الحدود بين بندي الابسيق

---

١٩٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٥٢ .
١٩٥ ــ المصدر السابق ، ٨/١٥٣ .
١٩٦ ــ المصدر السابق ، ٨/١٥٢ .
197—Santoro, P. 331.
١٩٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٥٢ .
199—Santoro, P. 332.
٢٠٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٥٢ .
201—Santoro, P. 332.
٢٠٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٥٢ .

والتراقيسيون[203] . أما قوة الربيع بن يونس التي كانت تحاصر ناقوليه فقد منيت بخسائر كبيرة[204] .

وأمام هذه النتائج التي حققتها الحملة ، اضطرت الامبراطورة ايريني الى طلب عقد الصلح مع الرشيد ، وانتهت المفاوضات بين الطرفين الى عقد صلح كان أهم بنوده :

١ ـ اقامة الادلاء والاسواق في طريق عودة الجيش العباسي .
٢ ـ يقدم البيزنطيون جزية سنوية مبلغها (٩٠) الف دينار ، تؤدى في نيسان وحزيران من كل عام .
٣ ـ تسليم الاسرى ، وكان أسرى البيزنطيين (٥٦٤٣) أسيرا .
٤ ـ هدنة للسلام أمدها ثلاث سنين[205] .

وأفاض الطبري في عرضه تفاصيل الغنائم التي حازتها الحملة في أثناء عملياتها ، وهنا لابد من تسليط الضوء على بعض النتائج التي وردت بخصوص الحملة ، منها ان قتلى البيزنطيين بلغوا (٥٤) ألفا[206] . ومثل هذا العدد كبير جدا ، ولا بد أن الحقيقة أقل من ذلك بكثير ، فليس سهلا ـ حتى بالاسلحة التقليدية الحديثة ـ انجاز مثل هذا الرقم ، مع ملاحظة البون الشاسع في تقنية الاسلحة بين تلك الفترة والوقت الحاضر . الا أن بعض المراجع الحديثة أوردت هذه الارقام دون تمحيصها[207] .

ومن ناحية أخرى شكك البعض بجوانب أخرى أوردتها المصادر العربية والبيزنطية ، لا سيما ما يتعلق بالانتصارات التي حققتها الحملة ، وكذا حول

203—Santoro, P. 333.
204—Santoro, P. 334.

٢٠٥ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٥٢ـ١٥٣ .
٢٠٦ ـ المصدر السابق ، ٨/١٥٣ .
٢٠٧ ـ جمال الدين الشيال ، تاريخ الدولة العباسية ، ٥٢ ، عبدالجبار منسي العبيدي ، ١٩٣ .

طبيعة المفاوضات وأي من الطرفين طلب الصلح[٢٠٨]• فمثلا رأى Santoro ان روايــة ميشيل السوري حول خسائر لاخوندراكون ادق من روايــة ثيوفانس ، فالاول أوردها (١٠) آلاف اصابة ، وجعلها الثاني (١٥) ألف ــ كما سبق ذكره ــ وتعليله لذلك ان ثيوفانس سعى للتشهير والطعن بلاخوندراكون ــ لاختلاف موقفها من الايقونات ــ كما سبقت الاشارة اليه ــ فأقام من ذلك دليلا على عدم صحة معلوماته عن الحملة[٢٠٩] • ثم تساءل بعد ذلك عن سبب قبول الرشيد اللجوء الى مفاوضات الصلح[٢١٠]• ونترك هــذه المسألة لنعود اليها بعد قليل ، لنثير مسألة أخرى ، هي أن طــازاد الارمني ــ تاتزاتيس ــ الذي كان ستراتيجيا لبند البقلار ، وأحد أتباع الامبراطورة ايريني المخلصين، لجأ بسبب خلافه الشخصي مع ستوراكيوس ، الى هارون الرشيد في أثناء هذه الحملة[٢١١] • وهو الذي خدم الامبراطورية (٢٢) عاما في البنود الآســيوية والاوربية ، ولمقدرته العسكرية اسندت اليه قيادة قوة من (٦٠) ألف مقاتل• وقد رأى في «المأزق» الذي مرت به حملة الرشيد الفرصة المواتية للعودة الى وطنه أرمينية ، فلقي ترحيبا عند الرشيد والمهدي وأصبح حاكما للاقليم[٢١٢]• وقدم طازاد هذا النصح للرشيد بضرورة فتح بــاب التفاوض مع الجــانب البيزنطي[٢١٣] • وقال Santoro انه استخدم « نفوذه » لتحقيق مفاوضات لعقد معاهدة سلام بين الطرفين[٢١٤] • وهي مسألة سنعود اليهــا • أما الامر الثالث الذي أورده Santoro ، هو أن وفد المفاوضات البيزنطي الذي ضم ستوراكيوس ــ آنف الذكر ــ والماجستير بيتيز والدمستق أنتوني ، ارتكب

208—Santoro, PP. 333-335.
209—Ibid, P. 334.
210—Ibid, P. 335.
211—Santoro, PP. 336-337; C.M.H, 4/1, PP. 83, 706.
212—Santoro, PP. 336-337.
213—Ibid, P. 337.
214—loc, cit.

خطأً فادحا ، لعدم توثقهم من سلامتهم عند قدومهم للتفاوض مع الرشيد ،فهم لم يطلبوا رهائن من المسلمين ، فوقعوا في «مكيدة» اذ جرى احتجازهم،حتى يصبح بالامكان فرض شروط الصلح[٢١٥] •

أما بصدد الامر الاول ، وهو التشكيك بقيمة الانتصارات التي حققتها الحملة ، فانه ليس منطقيا التشكيك بالمصادر العربية والبيزنطية على السواء، لتأكيد فرض معين مسبق • فالحملة حققت من الانتصارات ما يكفي لاجبار ايريني على طلب الصلح • وبخصوص طازاد الارمني — تاتزاتيس — فانه اذا كان قد هرب فعلا الى قوات الرشيد — الامر الذي لم تشر اليه مصادرنا — فما هو النفوذ الذي استخدمه من أجل اجراء مفاوضات ؟ ولمصلحة من استخدم هذا النفوذ ؟ فالمفروض انه استخدم هذا النفوذ لمصلحة قوات الرشيد ، التي لجأ اليها ، وهو أمر ليس ممكنا ، لانه فقد كل نفوذ له عند البيزنطيين لهربه منهم • وهو أيضا لا يمكنه استخدام نفوذه لمصلحة البيزنطيين ، لانه الهارب منهم ، ولا ينبغي له أن يعمل لمصلحتهم • وبناء على هذا فان طازاد لا يمكن أن يكون له أي نفوذ أو دور أساس في خطة عمل الرشيد في حملته هذه• وأقصى ما يمكن أن يقدمه ، هو أن يشير — بقبول او عدم قبول — اجراء المفاوضات مع أيريني •

أما ما يتعلق بالجانب الذي طلب الصلح ، الرشيد أم ايريني ؟ فالمصادر العربية أشارت صراحة وبوضوح الى أن الجانب البيزنطي هو الذي طلب الصلح ، وانه ليس سهلا التشكيك بهذه الحقيقة ، فهناك جملة أمور تسوغها وتؤكدها • فالانتصارات الكبيرة التي حققتها الحملة تؤكد امكان الحاق ضرر أكبر بالاراضي البيزنطية ، وهو أمر ليس بامكان ايريني أن تغض النظر عنه • فضلا عن أن الامبراطورة ، كانت قد أرسلت جزءا كبيرا من قوتها الى صقلية

215—Ioc, cit; C.M.H, 4/1, PP. 83, 706.

لاخماد حركة هلبيديوس حاكم الجزيرة(٢١٦) • وثمة أمر آخر سبق ذكره ، مفاده ان الامبراطورة كانت تعمل بتأن للاطاحة بالسياسة اللا ايقونية ، ونقل أجهزة الدولة الى الحزب الايقوني ، مما يستلزم سياسة خارجية هادئة ، يمكن في ظلها الانصراف الى هذه الشؤون الداخلية • ومن الشواهد الاخرى التي **تدلل على أن ايريني هي التي طلبت الصلح ، انه ليس معقولا ولا منطقيا أن يطلب** الرشيد الصلح ، وان **ايريني هي التي** ترسل وفدا لذلك • فالامبراطورة هي التي طلبت الصلح لانها هي التي أرسلت من جانبها وفدا للتفاوض • أما ما ذكر عن هزيمة الربيع بن يونس عند حصاره ناقوليا ، وما يتعلق بالتكتيك الذي مارسه الجيش البيزنطي بابعاد التجهيزات والمؤن عن طريق حركة قوات الرشيد ، وان قوات الـ tagmata قامت بعمليات التفاف حول هذه القوات(٢١٧) • فليس هذا كله أكثر من ضغوط اضطرت الرشيد الى قبول الحل السياسي ــ المفاوضات ــ لانهاء حملته ، الامر الذي عرضته ايريني • ولعل مجموع هذه الضغوط ، هي ما اختصره الطبري بقوله عن الرشيد وحملته : « انه دخل مدخلا صعبا »(٢١٨) وهي تسوغ في الوقت نفسه اشتراط الرشيد اقامة البيزنطيين للاسواق في طريق عودته • وانه لامر واضح ان بنود الصلح مثلت كسبا للدولة العباسية ، وهذا الامر بحد ذاته يقوم دليلا على أن **ايريني هي التي طلبت الصلح** ، ثم جاءت هذه البنود لتعبر عن موقف الضعف السياسي والعسكري الذي كانت عليه الامبراطورة •

أما بخصوص احتجاز الرشيد للوفد البيزنطي المفاوض ، فليس أكثر من اكذوبة تسوغ نتائج وبنود الصلح المهينة التي وافقت عليها ايريني ــ وهي المناصرة للايقونات ــ فهي بهذه الاكذوبة ظهرت مضطرة لا حجة لها فيماجرى، والا فكيف جرت المفاوضات اذا كان الوفد محتجزا ، وفي هذه الحالة اقتضى

216—Brehier, P. 61; Finlay, P. 83.
217—Santoro, PP. 335-336.
٢١٨ ــ تاريخ ، ٨/١٥٢ •

الامر ارسال وفد آخر لاجراء المفاوضات ، ولا بد أن يكون هذا الوفد أشد حذرا بحيث طلب رهائن من الرشيد ليضمن سلامته ، وكل هذه الامور لم تشر اليها المصادر العربية ولا المصادر البيزنطية ، مما يؤكد عدم حصولها • ان رواية احتجاز الوفد البيزنطي أوردها ثيوفانس(219) • ومن الطبيعي جدا أن يتحامل لصالح ايريني ــ وكلاهما من أنصار الحزب الايقوني ــ بعد أن تحامل على لاخوندراكون ــ اللا ايقوني ــ • وهذه الامور تؤكد ان الرواية مختلقة لتسويغ ما لحق بسياسة ايريني الخارجية من مهانة جراء هذا الصلح • ان احتجاز الرسل ــ لغرض الحصول على مكاسب معينة ــ أمر لا ينسجم مع ما عرف عن العرب والمسلمين من سماحة وكرم ضيافة ، وهم الذين عرف منحهم الامان للرسل دون أية شروط مسبقة • وهذا الامر بحد ذاته كفيل بالرد على هذه الرواية ويؤكد عدم صحتها •

وفي عام ١٦٦هـ/٧٢٨م عاد الرشيد من حملته وقدم معه وفدا بيزنطيا حاملا الجزية الى الخليفة المهدي(٢٢٠) ولم تكن في هذه السنة ولا في التي أعقبتها نشاطات عسكرية في مناطق التخوم بين الدولتين ، بسبب الهدنة المعقودة بينهما(٢٢١) • بيد أن اليعقوبي أورد انه في عام ١٦٦هـ/٧٨٢ـ٧٨٣م كانت هناك حملة لثمامة بن الوليد، وحملة أخرى في عام ١٦٧هـ/٧٨٣ـ٧٨٤م قام بها الفضل بن صالح(٢٢٢) • وأغلب الظن ان هذه الحملات كانت استطلاعية ليس الا ، لمراقبة تنفيذ الهدنة ومعرفة مدى التزام الجانب البيزنطي بها، وأشار ابن خياط الى أنه في عام ١٦٧هـ/٧٨٤م جرى فداء للاسرى، أشرف عليه من الجانب العباسي عبدالحميد بن الضحاك(٢٢٣) •

219—Santoro, P. 337.

٢٢٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ١٥٤/٨ •
٢٢١ ــ المصدر السابق ، ١٦٣/٨ ، ١٦٥ •
٢٢٢ ــ تاريخ ، ١٤٦/٣ •
٢٢٣ ــ تاريخ ، ٦٩١/٢ •

وفي عام ١٦٨هـ/٧٨٥ م ، نقض البيزنطيون الهدنة المعقودة مع الدولة العباسية ، وحدد الطبري شهر رمضان من هذه السنة تاريخا لخرق الهدنة ، ثم قال ان ذلك جرى بعد (٣٢) شهرا من عقدها . فقام والي الجزيرة وقنسرين ، علي بن سليمان ، بارسال سرية قادها يزيد بن بدر البطال ، الذي حقق بعض النجاح وعاد سالما[٢٢٤] .

وبخصوص التاريخ الذي حدده الطبري موعدا لنقض الهدنة ، نجد أن الرواية خالية من الانسجام الداخلي ، اذ حددت شهر رمضان وبعد مضي (٣٢) شهرا من عقد الهدنة ، وهي طبعا من أشهر السنة الهجرية . وعند التدقيق اتضح أن شهر رمضان ليس هو الشهر الثاني والثلاثين من أشهر الهدنة . فالرشيد بدأ تحركاته في جمادى الاولى من عام ١٦٥ هـ ، واذا افترضنا ان الهدنة عقدت بعد مرور شهر من بدء التحرك أو أكثر من ذلك بقليل ، أي في حدود أوائل رجب من السنة نفسها ، وهذا يعني ان الشهر الثاني والثلاثين هو صفر من عام ١٦٨هـ ويقابله بالتاريخ الميلادي شهري آب وايلول من عام ٧٨٤ م ، وعمليا فان هذا التاريخ هو الارجح ، لأن نقض الصلح في مطلع الخريف يعني كسبا للبيزنطيين ، لان احتمالات تجهيز حملة كبيرة للرد على هذا الموقف البيزنطي تكون محدودة ، وفعلا ، كان رد العباسيين متمثلا بارسال « سرية » فقط ، في حين لو اعتمدنا شهر رمضان من عام ١٦٨هـ تاريخا لنقض الصلح — وفق رواية الطبري — فان ذلك يقابل في التاريخ الميلادي شهري مايس ونيسان من عام ٧٨٥ م . وهذا يعني اعطاء فرصة جيدة للعباسيين لتجهيز طائفة كبيرة للرد على هذا الموقف .

أما عن الكيفية التي جرى بها خرق الاتفاق من قبل البيزنطيين ، فان المصادر لم تخبرنا بذلك ، الا أنه لابد أن يكون بأحد أمرين ، اما بالامتناع عن دفع الجزية السنوية المتفق عليها ، أو القيام بعمل عسكري في مناطق التخوم .

---

٢٢٤ — تاريخ ، ٨/١٦٧ .

وربما أن موعد دفع الجزية ـ هو نيسان وحزيران ـ قد مرّ دون الاشارة الى نقض الاتفاق في هذين الموعدين . لذا فان خرق الاتفاق لابد أن يكون قد تم بعمل عسكري وربما كان ذلك موجها نحو الحدث ، اذ أن المهدي أمر ببنائها في هذه السنة ـ ١٦٨هـ ـ فقام علي بن سليمان بتوجيه المسيب بن زهيرلهذا الغرض[٢٢٥] . وفي هذه السنة أيضا كانت هنالك حملة قادها محمد بن ابراهيم[٢٢٦]. وهذه الحملة اما أن تكون استطلاعية في مناطق التخوم في الصيف الذي سبق خرق الاتفاق ، أو أن تكون شاتية ردا على هذا الخرق.

وفي عام ١٦٩هـ/٧٨٥ـ٧٨٦م ، أغار البيزنطيون على الحدث ، فهرب عاملها ، وهرب الجند أيضا وعامة سكانها ، ثم دخلتها القوات البيزنطية ودمرتها[٢٢٧] . ويبدو ان أهل الثغر فوجئوا بهذه الحملة ، ومما ساعد العدو على تدميرها ، ان المدينة « كان بناؤها بلبن قد حمل بعضه على بعض ، وأضرت به الثلوج ، وهرب عاملها ومن فيها ، ودخلها العدو فحرق مسجدها وأضر بها واحتمل أمتعة أهلها[٢٢٨] . وأغارت الحملة على زبطرة أيضا.[٢٢٩] . وردا على ذلك ، تولى معيوف بن يحيى الصائفة وبث سراياه في الاراضي البيزنطية[٢٣٠] . ففتحت مدينة « أشنة » وأخذ منها أسرى وسبايا وغنائم أخرى[٢٣١] .

وفي عام ١٧٠هـ/٧٨٦ـ٧٨٧م ، تولى الخلافة هارون الرشيد ، وكان لهذا التولي صدى كبيرا على طبيعة العمليات العسكرية في مناطق التخوم .

---

٢٢٥ ـ ابن خياط ، ٢/٦٩٢ .
٢٢٦ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٤٦ .
٢٢٧ ـ الفسوي ، ١/١٦٠ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٠٣ ،
Santoro, P. 341.
٢٢٨ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٧ .
229—C.M.H, 4/1, P. 706.
٢٣٠ ـ ابن خياط ، ٢/٧٠٤ .
٢٣١ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٠٤ .

فلمع اسم الرشيد في هذا المجال بشكل واسع ، ويبدو ان الرشيد كان يحمل في ذهنه منهاجا محددا للعمل في مناطق التخوم قام على :

١ ــ تكوين منطقة ادارية مستقلة تتمثل في الثغور والظهير المباشر لها .

٢ ــ الدأب في بناء التحصينات والاستحكامات وتعزيز الحاميات فيها .

٣ ــ ارسال حملات متتالية الى الاراضي البيزنطية لتدمير قوة العدو .

وليس مبالغة أن نقول ان هذا المنهاج هو الذي جعل من الرشيد « سيد الامبراطورية الرومانية »[٢٣٢] فمنذ عام ١٧٠هـ/٧٨٦ــ٧٨٧ م بدأ بتنفيذ هذا المنهاج ، ففي هذه السنة أوجد اقليم العواصم . ثم نفذ الفقرة الثانية تباعا ، ففي هذه السنة عمّر طرسوس[٢٣٣] . مع أن البلاذري ذكر ان ذلك تم في العام التالي ، وأسهب في ذكر تفاصيل ذلك ــ وهو ما سنأتي اليه لاحقا ــ ثم أمر الرشيد ببناء الحدث وأقطع مقاتليها المساكن والاراضي[٢٣٤] . وفي عام ١٨٠هـ/٧٩٦ــ٧٩٧ م بنيت عين زربة وعززت حاميتها بجند خراسان وغيرهم ، وأقطعوا فيها المساكن ، وفي عام ١٨٣هـ/٧٩٩ــ٨٠٠م بنيت الهارونية وعززت حاميتها بالمقاتلة والمطوعة[٢٣٥] . ثم بنيت الكنيسة السوداء وحصنت وعززت حاميتها هي الاخرى مع زيادة في العطاء[٢٣٦] . وكذا الحال في كفربيا ، اذ بنيت وحصنت بخندق[٢٣٧] . وكذا الحال حصنت زبطرة وعززت حاميتها[٢٣٨] . ولم ينس الرشيد اقامة مصانع السفن الحربية، وتعمير

---

٢٣٢ ــ فازيليف ، بيزنطة والاسلام ، ٣٦٨ .
٢٣٣ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٣٤ ، الازدي ، ٢٦٢ .
٢٣٤ ــ فتوح ، ١/١٢٧ .
٢٣٥ ــ المصدر السابق ، ١/٢٠٢ .
٢٣٦ ــ المصدر السابق ، ١/٢٠٣ .
٢٣٧ ــ المصدر السابق ، ١/١٩٧ .
٢٣٨ ــ المصدر السابق ، ١/٢٢٨ .

وتحصين المناطق الساحلية وتقسيم الاموال فيها[٢٣٩] • ويبدو ان عمليات تحصين مناطق الثغور استمرت حتى عام ١٨٣هـ/٧٩٩ـ٨٠٠م •

وفي هذه السنة أيضا ، ١٧٠هـ/٧٨٦ـ٧٨٧م ، أشار الطبري ـ وهوغير واثق من ذلك ـ الى أن الرشيد قاد الصائفة بعد عودته من الحج ، حيث قال أحد الشعراء :

إمـام بذات الله أصبح شـغله   وأكثر ما يعنى به الغزو والحج[٢٤٠]

وفي السنة نفسها أيضا قاد سليمان بن عبدالله البكائي حملة اخرى[٢٤١] • اما الجانب البيزنطي ، فانه بعد الهجوم الاخير على الحدث وزبطرة ، لم يكن لديه نشاط عسكري ، لانشغال الامبراطورية بالمشكلة الدينية ، التي تأزمت من جديد[٢٤٢] • ورافق ذلك تأزم الاوضاع على التخوم مع البلغار ، في هذه الفترة ، وتبادل الطرفان الغارات والهجمات •

وفي عام ١٧١/٧٨٧ـ٧٨٨م ، هاجم سليمان بن عبدالله الاصم الاراضي البيزنطية ، فحقق نجاحا وعاد مع قوته دون خسائر[٢٤٣] • كما قـاد يزيد بن عنبسة الحرشي حملة اخرى بتوجيه من اسحاق بن سليمان[٢٤٤] • الذي كان والياً على المدينة المنورة حتى عام ١٧٠هـ/٧٨٦ـ٧٨٧م[٢٤٥] • ثم تولى ادارة مناطق الثغور ، اذ لم يشر الطبري الى مكانه في عام ١٧١هـ/٧٨٧ـ٧٨٨م ، لكنه في عام ١٧٢هـ/٧٨٨ـ٧٨٩م جعله قائـداً للصائفة على الاراضي

---

٢٣٩ ـ المصدر السابق ، ١/١٩٣ •
٢٤٠ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٣٤ •
٢٤١ ـ نفس المصدر والصفحة •
242—Santoro, P. 341.
٢٤٣ ـ ابن خياط ، ٢/٧١١ •
٢٤٤ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ •
٢٤٥ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٣٤ •

البيزنطية[٢٤٦] . فربما تولى ادارة مناطق الثغور منذ عام ١٧١هـ ، الا ان الطبري اغفل ذكر ذلك . وقام فيها بتوجيه حملة يزيد بن عنبسة ـ كماذكرنا ـ وفي هذه السنة أيضا ، بنى الرشيد طرسوس وحصنها وعزز حاميتها،اذ كلف هرثمة بن أعين بالصائفة وبناء طرسوس . الا أن هرثمة أوكل امر بناء المدينة الى فرج الخادم ، بأمر الرشيد ، ولهذا الغرض أُرسل ثلاثة آلاف من جند خراسان وألفا من أهل المصيصة وألفا من أهل انطاكية ، بزيادة عشرة دنانير في عطاء كل منهم، وفي ربيع الثاني من عام ١٧٢هـ/أيلول ٧٨٨م أنجز بناءالمدينة، وأُسكنت فيها هذه القوة[٢٤٧] . أما بخصوص صائفة هرثمة ، فان المصادر أغفلت الاشارة اليها ، وهل تمت أم لا ؟ وربما بقي مرابطا في الثغور . فيحين ان امور الصرف المالي كانت من اختصاص فرج الخادم .

أما في عام ١٧٢هـ/٧٨٨ـ٧٨٩م فقاد الصائفة اسحاق بن سليمان بنعلي. وكانت هناك حملة أخرى قادها زفر بن عاصم الهلالي،الذي بعث ابنه عبدالعزيز فتقدم في الاراضي البيزنطية حتى بلغ جيحان ، الا أن سوء الاحوال الجوية ـ ويبدو ان الحملة كانت شاتية ـ اضطرته للعودة دون القيام بعمل عسكري[٢٤٨] . كما كانت هناك حملة أخرى قادها محمد بن ابراهيم الامام[٢٤٩] . وهنا لابد من التأكيد ان هذا التباين بين مصادرنا ، في ذكرها لهذه الحملات ، لا يعني تناقضها مع بعضها ، بقدر ما ترسم صورة متكاملة للاحداث ، اذ يظهر من هذه المصادر ان هناك ، عادة ، حملة رئيسة توجهها السلطة المركزية ، وحملات أخرى ثانوية ، صائفة أو شاتية، يوجهها ولاةالثغور وعمالها .

---

٢٤٦ ـ المصدر السابق ، ٢٣٦/٨ .
٢٤٧ ـ البلاذري ، فتوح ، ١/٢٠٠ـ٢٠١ .
٢٤٨ ـ ابن خياط ، ٧١٢/٢ .
٢٤٩ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٧٣/٣ .

وفي عام ١٧٣هـ/٧٨٩ـ٧٩٠م، قاد الصائفة عبدالملك بن صالح بن علي[٢٥٠]. وقاد ابراهيم بن عثمان حملة أخرى[٢٥١] . في حين ان الطبري لم يشر الى حملة في هذه السنة .

أما في عام ١٧٤ هـ / ٧٩٠ـ٧٩١ م ، قاد الحملة حماد بن نمير في منطقة سرسب ، وافتتح مدينة البردان[٢٥٢]. كما أن سليمان بن أبي جعفر قاد حملة أخرى[٢٥٣] . في حين كانت هناك صائفة قادها عبدالملك بن صالح[٢٥٤] . وفي هذه السنة أيضا تمكنت حملة بحرية عباسية من تدمير الاسطول الامبراطوري ، الذي أرسلته ايريني عند خليج أنطاكية ، فتم أسر الادميرال ثيوفيل ستراتيج بند كبيريوت وحمل الى الخليفة[٢٥٥] .

وفي عام ١٧٥هـ/٧٩١ـ٧٩٢ م ، قاد عبدالملك بن صالح حملة ، الا أنه لم يتم قيادتها ، فعند وصوله الدرب وكّل أخاه الفضل عليها[٢٥٦] . الا أن الطبري نقل عن الواقدي ان عبدالملك بن صالح دخل بنفسه الاراضي البيزنطية ، لكن المسلمين واجهوا في هذه الحملة « برد قطع أيديهم وأرجلهم »[٢٥٧]. في أثناء تقدمهم من بند خالديا[٢٥٨] . كما كانت هناك حملة بحرية على جزيرة كريت قادها عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح[٢٥٩] . أما الازدي فذكر ان عبدالملك قاد الصائفة في أهل الثغور جميعا ، وكان دخوله الاراضي البيزنطية

---

٢٥٠ ـ ابن خياط ، ٧١٣/٢ ، الازدي ، ٢٧٠ .
٢٥١ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٧٣/٣ .
٢٥٢ ـ ابن خياط ، ٧١٤/٢ .
٢٥٣ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٧٣/٣ .
٢٥٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٢٣٩/٨ .
255—Ali Mohammed Fahmy, P. 125. C.M.H, 4/1, P. 706.
٢٥٦ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٧٣/٣ .
٢٥٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٢٤١/٨ .
258—C.M.H, 4/1, P. 707.
٢٥٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٢٤١/٨ .

من الصفصاف[260] . وعاد من درب الحدث ، وأصاب في حملته هـذه (١٧) ألفا من الاسرى[261] . أما رواية ابن خياط فكانت مرتبكة الى حد كبير، حيث قال : « غزا عبدالملك بن صالح الروم وهي غزاة اقريطية في أهل الثغور جميعا ، فأدرب من الصفصاف فأصاب تسعة عشرة ألف رأس وقفل من درب الحدث[262] . على أننا نرى ان هذه الروايات أجزاء متناثرة لرواية واحدة ، يمكن أن تكون بالشكل الآتي : ان عبدالملك بن صالح تقدم في صائفته حتى بلغ الدرب فعدل عن قيادة الحملة بنفسه ، فأوكل هذه المهمة الى أخيه الفضل ــ وربما كان ذلك بسبب البرد الشديد ــ فقاد الفضل الحملة متقدما عبر درب الصفصاف ، وأصاب أسرى وغنائم كثيرة ــ اختلفت فيها المصادر ــ . وفي أثناء تقدم الحملة في بند خالديا ، تعرضت للبرد الشديد ، فأنزل بهـا بعض الخسائر ، ثم عادت من درب الحدث . ويبدو أن الحملة بقيت رسـميا باسم عبدالملك بن صالح . كما ان ابنه عبدالرحمن قـاد حملة بحرية على كريت . ويبدو من اجماع المؤرخين على اسم عبدالملك بن صالح ، انه لم تكن في هذه السنة حملات أخرى ثانوية .

وفي عام ١٧٦هـ/٧٩٢ــ٧٩٣م ، قاد الحملة عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح ، وافتتح فيها حصنا[263] . هو دبسة[264] أو تيباسـة Thebasa في قبادوقية[265] . في حين كانت هناك حملـة أخـرى قادها هاشـم بن الصلت[266] .

---

٢٦٠ ــ الصفصاف : تقع في حوض المجرى الاعلى لنهر جيحان . فتحي عثمان، ٢/٢٥٣ .

٢٦١ ــ تاريخ ، ٢٧٤ .

٢٦٢ ــ ابن خياط ، ٢/٧١٥ .

٢٦٣ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٥٤ .

٢٦٤ ــ السيوطي ، ٢٨٧ .

265—C.M.H, 4/1, PP. 706-707.

٢٦٦ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ .

في عام ١٧٧هـ/٧٩٣ـ٧٩٤م ، كان هنـاك ست حملات في الاراضي البيزنطية ، اذ ولى الرشيد عبدالله بن صالح بن علي الصائفة ، وسليمان بن راشد الثقفي الشاتية ، فأنجز عبدالله مهمته وعاد مع قوته سالمين، في حين واجه سليمان ظروفا جوية قاسية ، ففقدت قوته بعض الخسائر ، ثم عاد الى ملطية ، ثم قاد يسار بن شعلاب حملة أخرى من أهل المصيصة ، فتقدم عبر درب الحدث الى الطوانة ، الا أنه على ما يبدو لم يتعرض لها ، ثم عاد ونزل « مرج الشحم» حيث أصاب بعض الغنائم وعاد مع قوته دون خسائر[٢٦٧] ، من ناحية أخرى فان محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي عمرة الانصـاري ، كان عاملا لعبدالملك بن صالح على شمشاط ، فقاد حملة في منتصف شهر ربيع الثاني من هذه السنة ١٧٧هـ/تموز ٧٩٣م ، استعاد بها حصن كمخ[٢٦٨] ، في حين ذكر Canard ان ذلك تم في السنة السابقة[٢٦٩] ، وفي هذه السنة أيضا وجه عبدالملك بن صالح عامله داؤد بن النعمان في حملة على الاراضي البيزنطية[٢٧٠] ، كما كانت هناك حملة اخرى قادها عبدالرزاق بن عبدالحميد التغلبي[٢٧١] ، ويبدو ان الاضطرابات في بند الارمنياق في هـذه الفترة وانشغال القوات البيزنطية على التخوم مع البلغار، أعطى القوات العباسية الفرص المواتية لزيادة الضغط على البيزنطيين ،

وفي العام التالي ١٧٨هـ/٧٩٤ـ٧٩٥م ، تكرر هـذا النشاط المتزايد ، استغلالا لاوضاع الامبراطورية المضطربة ، فوجه عبدالملك بن صالح عامله البختري بن شريك بن العلاء العبسي ، الذي أحرز غنائم كثيرة بلغت (١٥٣) ألف دينار ، وعاد بلا خسائر[٢٧٢] ، وكانت هناك حملة أخرى قادها يزيد بن

---

٢٦٧ ـ ابن خياط ، ٧١٧/٢ .

٢٦٨ ـ البلاذري ، فتوح ، ٢٢٠/١ .

269—C.M.H, 4/1, P. 706.

٢٧٠ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٧٣/٣ .

٢٧١ ـ الطبري ، تاريخ ، ٢٥٥/٨ .

٢٧٢ ـ ابن خياط ، ٧١٨/٢ .

غزوان[٢٧٣] • كما قاد معاوية بن زفر بن عاصم الهلالي الصائفة ، وقاد الشاتية سليمان بن راشد ، ومعه البيد ــ هلبيديوس ــ بطريق ــ ستراتيج ــ صقلية[٢٧٤] •

أما في عام ١٧٩هـ/٧٩٥ــ٧٩٦م، كانت هناك حملة واحدة فقط ، قادها الفضل بن محمد[٢٧٥] •

وفي عام ١٨٠هـ/٧٩٦ــ٧٩٧م ، نزل الرشيد الرقة[٢٧٦] • ويبدو انذلك كان استعدادا للقيام بعمل عسكري واسع في الاراضي البيزنطية • كما أن معاوية ابن زفر قاد الصائفة[٢٧٧] ، فضلا عن حملة أخرى قادها اسماعيل بن القاسم[٢٧٨]• وعند تفسيره للتباين في أسماء القادة بين ما أورده كل من الطبري واليعقوبي ، فان أحد المحدثين وصل الى نتيجة غريبة مفادها: ان القادة المكلفين بقيادة الحملات الى الاراضي البيزنطية ، كانوا يوكلون الى أبنائهم القيام بمهامهم في القيادة[٢٧٩] • وفي هذه الحالة ، ما هو رأيه اذن بقائمة ابن خياط؟ والتي فيها اختلاف كبير عن القائمتين السابقتين ــ وهو لم يرجع اليها طبعا ــ!! ان الحقيقة بعيدة كل البعد عن هذا الاستنتاج ، وواضح مما مرّ بنا من أسماء قادة العمليات في القائمتين ، انه ليس بين أفرادها علاقة أبوة وبنوة ، وان الاختلاف يعود أساسا الى أن كلاً منهما أشار الى حملات مختلفة ، كما تتفقان في بعض الاحيان ، وكذا الحال مع قائمة ابن خياط • ذلك ان هذه الحملات

---

٢٧٣ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ •
٢٧٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٦٠ •
٢٧٥ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ •
٢٧٦ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٦٦ •
٢٧٧ نفس المصدر والصفحة •
٢٧٨ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ •
٢٧٩ ــ فتحي عثمان ، ٢/١٥٩ •

كانت كثيرة بشكل لافت النظر ، تتضمن الصوائف والشواتي وحملات أخرى ثانوية .

وفي عام ١٨١هـ/٧٩٧ـ٧٩٨م ، كانت هناك حملتان رئيستان ، قاد أولاهما الرشيد بنفسه ، منطلقا من الرقة ، وافتتح فيها حصن الصفصاف عنوة[٢٨٠] . وعندما حاول قسطنطين السادس الرد على هذه الحملة ، فانه فشل في ذلك ، لان مخطط اقصائه عن العرش كان في فصله الاخير من قبل أمه[٢٨١] . أما الحملة الثانية فقادها عبدالملك بن صالح ، وبلغ أنقرة ، كما افتتح مطمورة في طريقه[٢٨٢] . وربما بلغت حملته عمورية[٢٨٣] .

وفي العام ١٨٢هـ/٧٩٨ـ٧٩٩م ، قاد الحملة ابراهيم بن القاسم ، بتوجيه عيسى بن جعفر[٢٨٤] . وقاد عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح حملة أخرى بلغت أفسوس « دفسوس مدينة أصحاب الكهف »[٢٨٥] وألحقت بالبيزنطيين خسائر كبيرة في قبادوقية وكالاتيا ، ثم توجهت غربا والحقت الهزيمة بقوات بند الابسيق ، ثم ظهرت أمام أسوار أفسوس « دفسوس » على شواطىء بحر ايجه[٢٨٦] . كما توجهت قوات الحملة الاخرى غربا أيضا وبلغت مزرعة امبراطورية للخيول في Malagina فاستولت على خيول أحد كبار الموظفين هو ستوراكيوس [٢٨٧] ثم انسحبت كلتا القوتين بأمان ومعهما غنائم كثيرة[٢٨٨] . وأمام هذا الضغط المتزايد ، وبعد أن تخلصت ايريني من ابنها

---

٢٨٠ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ ، الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٦٨ .

281—Santoro, P. 707.

٢٨٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٦٨ .

283—E. I (2) Vol. 1, P. 449.

٢٨٤ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ .

٢٨٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٢٦٩ .

286—Arvites, PP. 122-123.

287—C.M.H, 4/1, P. 707; Arvites, P. 123.

288—Arvites, P. 123.

قسطنطين السادس وانفردت بالحكم ، قدمت عرضا للسلام ، حمله وفد ضم دوروتيوس ، رئيس رهبان دير خرسيو بوليس،وآخر يدعى قسطنطين ،وجرت المفاوضات مع عبدالملك بن صالح(٢٨٩) • غير ان مقترحاتها لقيت الرفض من قبل الخليفة الرشيد ، لكن هجوما للخزر اضطر الخليفة الى قبول هذه المقترحات التي تضمنت دفع الجزية والتخلي عن الهجمات المتبادلة(٢٩٠) • واذا كانت مصادرنا لم تشر صراحة الى هذا الاتفاق ، ولم تقدم أية معلومات عن مضامينه ، الا أن ذلك لا ينفي وجود هذا الاتفاق ، اذ وردت اشارات ، يفهم منها ضمنيا ، حصوله • منها كلام المصادر عن نقض نقفور للصلح والاتفاق ــ وهو ما سنأتي اليه تباعا ــ فلا يمكن أن يفهم من هذه الاشارة ، الا أنها تعني هذا الاتفاق الاخير ، ولا يمكن أن تعني الاتفاق الاول بين الرشيد وايريني ، الذي مضى عليه (١٥) عاما وقد نقضه البيزنطيون من قبل ، اذن هناك اتفاق ، الا أن مضامينه لم تصل الينا • لذا فالطبري لم يشر الى أية عمليات عسكرية في السنوات ١٨٣ــ١٨٦هـ/٧٩٩ــ٨٠٢م • الا أن اليعقوبي ذكر أسماء قادة قاموا بقيادة حملات عسكرية في هذه الفترة وهم : في عام ١٨٣هـ الفضل بن العباس وفي عام ١٨٤هـ محمد بن ابراهيم وفي عام ١٨٥هـ ابراهيم بن عثمان وفي عام ١٨٦هـ ابراهيم بن عثمان أيضا(٢٩١) • وذكر ابن خياط حملة أخرى في عام ١٨٤هـ قادها هارون بن أحمد الشيباني ووجهه بها عبدالله بن صالح بن علي ، وأصاب في حملته بعض الغنائم دون خسائر(٢٩٢) • كما ذكر ميشيل السوري ، انه في أثناء انفراد ايريني بالحكم ، كانت هناك غارتان للعباسيين • ألحق ايتيوس الهزيمة بالاولى ، في حين لحقت الهزيمة

289—Santoro, P. 361.

290—C.M.H, 4/1, P. 707.

٢٩١ ــ تاريخ ، ٣/١٧٣ •

٢٩٢ ــ تاريخ ، ٢/٧٣١ •

بالبيزنطيين في الثانية[٢٩٣] • وأغلب الظن ان هذه الحملات كانت استطلاعية ليس الا ، هدفها مراقبة الاوضاع على التخوم ، ومما يؤكد ذلك استمرار الاتصالات السياسية بين الجانبين ، اذ وجه الخليفة الرشيد صالح بن بيهس الكلابي الى الامبراطورة ايريني للتفاوض حول تبادل الاسرى[٢٩٤]• كما أكد Bury ان هذه الفترة ، كانت فترة سلام بين الطرفين[٢٩٥] •

ويتبين من هذا ان الصلح بين الطرفين تضمن البنود التالية :

١ ـ هدنة للسلام ربما كان أمدها أكثر من (٤) سنوات •

٢ ـ تبادل الاسرى بين الطرفين •

٣ ـ أن يقدم البيزنطيون الجزية الى بغداد ، وهو ما يفهم من مطالبة نقفور للرشيد ، باعادة الاموال التي قدمتها ايريني لبغداد ، كما سيأتي ذكره •

وبدأ من عام ١٨٧هـ/٨٠٢ـ٨٠٣م،أخذت العلاقات السياسيةوالعسكرية بين الدولتين ، تتأزم بشكل خطير جدا • واستمر ذلك حتى عام ١٩٠هـ / ٨٠٥ـ٨٠٦م • وشهدت هذه الفترة اعتلاء نقفور العرش الامبراطوري • وأوردت مصادرنا التاريخية أخبار هذه الفترة بنوع من الارباك يستعصي معه تحديد الوقائع التاريخية بالدقة اللازمة • ومما زاد الامر تعقيدا ، ذلك الاختصار الشديد في المعلومات ، ثم عدم تحديد تواريخ الاحداث بشكل يمكن من وضع تسلسل صحيح للاحداث يساعد على فهمها •

ففي عام ١٨٧هـ/٨٠٢ـ٨٠٣م ، قاد الصائفة القاسم بن الرشيد، فدخل من درب الصفصاف وحاصر حصن قرة فاضطر نقفور الى اطلاق سراح (٣٢٠) من أسرى المسلمين مقابل انسحاب القاسم من الاراضي البيزنطية ، وتم ذلك

293—Bury, E.R.E, P. 249, note, 1.

٢٩٤ ـ ابن خياط ، ٢/٧٣١ •

295—E.R.E, P. 249.

فعلا[٢٩٦] . ويبدو أن القاسم وجه احدى سراياه التي حاصرت حصن سنان « حتى جهدوا » وكانت بقيادة العباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث . كما أن القاسم وُلي في هذه السنة أمر العواصم[٢٩٧] . أما رواية اليعقوبي ،فكانت مرتبكة بعض الشيء ، اذ ذكر أنه في هذه السنة قاد القاسم الصائفة ومعه عبدالملك بن صالح وابراهيم بن عثمان بن نهيك،وانه في هذه السنة ـ١٨٧هـ ـ قتل الرشيد ابراهيم بن عثمان[٢٩٨] . ثم جعل التفاصيل السابقة في أحداث عام ١٨٨هـ . على أن روايته بهذا الخصوص يظهر الخلل فيها واضحا، اذ جعل ابراهيم بن عثمان ـ الذي قتل في السنة السابقة ـ مرافقا للقاسم في حملته هذه[٢٩٩] . ومن المرجح ان اليعقوبي أخطأ بجعله أحداث هذه السنة في عام ١٨٨هـ/٨٠٣ـ٨٠٤م ، لا سيما وأن الطبري أكد مقتل ابراهيم بن عثمان في عام ١٨٧هـ/٨٠٢ـ٨٠٣م [٣٠٠] . وعند تثبيت هذه الحقيقة ـ أي قيام القاسم بحملته في عام ١٨٧هـ ـ ، فاننا لابد أن نستنتج من هذا أحد أمرين :

١ ـ ان الدولة العباسية عدّت اتفاقها مع الامبراطورة ايريني ملغيا بمجيء نقفور الى الحكم ، فأعطى العباسيون أنفسهم الحق في الاغارة على الاراضي البيزنطية .

٢ ـ ان نقفور نقض في هذه السنة ـ ١٨٧هـ ـ الاتفاق الاخير بين ايريني والرشيد ، قبل قيام القاسم بصائفته هذه ، وارسل بذلك رسالته المعروفة الى الرشيد ، وتمثل رد الفعل بصائفة القاسم المذكورة ، وليس هذا الامر بغريب ـ أي أن يرسل الرشيد ابنه القاسم لقيادة الصائفة ، دون أن يقوم هو بذلك ـ لا سيما وان

---

٢٩٦ ـ ابن خياط ، ٧٣٩/٢ .
٢٩٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٣٠٧/٨ .
٢٩٨ ـ تاريخ ، ١٨٣/٣ .
٢٩٩ ـ المصدر السابق ، ١٦٦/٣ .
٣٠٠ ـ تاريخ ، ، ٣١٠/٨ .

جواب الرشيد على رسالة نقفور ليس فيها ما يشير الى أنه سيفعل ذلك ، بل تضمنت التهديد فقط ــ وهو ما سنأتي عليه ــ أضف الى ذلك أن رد العباسيين على موقف البيزنطيين عند خرقهم الاتفاق الاول ، تمثل بتوجيه « سرية » فقط نفذت في الاراضي البيزنطية، في حين ان حملة القاسم هذه لم تكن صغيرة ، بل كانت بمستوى رد الفعل اللازم ، حتى تمكنت من حصار اثنين من الحصون البيزنطية .

أما لماذا رضي القاسم بانهاء حملته هذه مقابل (٣٢٠) من الاسرى المسلمين فقط ، دون أن يرافق ذلك تجديد اتفاق الصلح ، فذلك ما يسوغه أمران : الاول ، ما تعرضت له الحملة من ظروف صعبة تمثلت بندرة المؤن حتى تفشت المجاعة وغلت الاسعار[٣٠١] . وهو ما أكده الطبري بقوله : « حتى جهدوا » . الثاني ، ان الدولة العباسية لم تكن هي المحتاجة الى الصلح ، بل أن البيزنطيين هم الذين بحاجة اليه . وقد طلبوه عدة مرات . فالقاسم بن الرشيد لم يقم بحملته لاجبار نقفور على عقد الصلح ، بقدر ما كانت عقابا له على خرقه الاتفاق بين الدولتين .

وفي هذه السنة قام الرشيد أيضا بفتح هرقلة ، في اطار رد الفعل على الموقف البيزنطي ، فكما سبقت الاشارة أرسل نقفور رسالة الى الرشيد طالبه فيها باعادة الاموال التي ادتها اليه ايريني ، او اعلان الحرب . اما جواب الرشيد فتضمن تهديدا بقوله : « والجواب ما تراه دون أن تسمعه »[٣٠٢]. واستطرد الطبري في حديثه ذاكرا ان الرشيد فتح هرقلة في هذه السنة[٣٠٣]. وبصدد هذه المسألة لابد من ملاحظة الآتي :

---

٣٠١ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٦٦/٣ .
٣٠٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٣٠٨/٨ .
٣٠٣ ــ المصدر السابق ، ٣٠٧/٨ ــ ٣٠٨ .

١ ــ ان المصادر المتقدمة لم تذكر أي فتح لهرقلة في هذه السنة ، بل جعلته في عام ١٩٠هـ/٨٠٥ــ٨٠٦م(٣٠٤) • وهناك أيضا عبارة ابن الاثير التي قال فيها « وقيل : كان نقفور وهذه الابيات سببا لسير الرشيد وفتح هرقلة، على ما نذكره ، سنة تسعين ومائة ، ان شاء الله »(٣٠٥) • فقد شكك في سبب الحملة وتاريخها،وليس بالاسباب والدوافع فقط، كما ذكر Canard (٣٠٦) • ومن المصادر الاخرى المهمة التي أكدت ان الفتح تم في عام ١٩٠هـ الازدي والمسعودي وصاحب العيون والحدائق وابن الساعي(٣٠٧)• اذ قدم هذا الاخير صورة واضحة للاحداث على الرغم من كونه متأخرا ، وربما نقل روايته عن أحد المصادر المتقدمة التي لم تصل الينا •

٢ ــ ان ما ذكره بعض المتأخرين من أن فتح هرقلة جرى مرتين في عامي ١٨٧هـ و ١٩٠هـ مثل ابن الجوزي والسيوطي(٣٠٨) • فمرده الفهم الظاهري لنصوص الطبري ، وهو ما توحي به فعلا • بل اننا اذا اعتمدنا ظواهر نصوص الطبري ، نرى أن هرقلة فتحت ثلاث مرات وليس مرتين فقط • فمرتان في عام ١٨٧هـ ومرة ثالثة في عام ١٩٠هـ • فهو عند سرده أحداث عام ١٨٧هـ ذكر أن هرقلة فتحت ردا على نقض نقفور للصلح ورسالته في ذلك، وبعد فتحها عقد اتفاق بين الطرفين ، انسحب بعده الرشيد الى الرقة ، ثم نقض نقفور هذا الاتفاق أيضا « فكر" (الرشيد) راجعا في أشد محنة وأغلظ كلفة ، حتى اناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد ، فقال أبو العتاهية :

---

٣٠٤ ــ ابن قتيبة ، المعارف ، ٣٨١ ، الدينوري ، الاخبار الطوال ، ٣٩٠ ، اليعقوبي ، التاريخ ، ٣/١٧٣ •

٣٠٥ ــ الكامل ، ٦/١٨٦ •

306—La prise d'Heracl'ee, P. 376.

٣٠٧ ــ تاريخ ، ٣٠٨ــ٣٠٩ ، مروج ، ١/٣٦٤ــ٣٦٦ ، العيون والحدائق ، ٣/٣١٢ ، مختصر اخبار الخلفاء ، ٢٧ــ٢٨ •

٣٠٨ ــ المنتظم ، ق٩/ورقة ٧٤ أ ، ٩٨ أ ، تاريخ الخلفاء ، ٨٨ وما بعدها.

ألا نادت هرقلة بالخـــراب   من الملك الموفق بالصواب»[٣٠٩]

فالطبري وان لم يشر صراحة الى فتح هرقلة في هذه المرة الثانية ، الا أن ايراده لابيات أبي العتاهية بهذا الشكل ــ وهي التي تشير الى خراب هرقلة بعـــد فتحها ــ يفهم منها تلميحا فتح هرقلة ، والا فما هو مغزى ايرادها في هـــذا المكان ؟ كما أن بعض المراجع الحديثـــة فهمت هي الاخرى ان الفتح جـــرى مرتين[٣١٠] ٠

ان هرقلة فتحت مرة واحدة فقط وذلك في عام ١٩٠هـ/٨٠٥ــ٨٠٦م ، ولا يمكن أن تكون فتحت في عام ١٨٧هـ/٨٠٢ــ٨٠٣م ٠ الا أنـــه لابد من التساؤل عن دواعي ذكر الطبري لفتح هرقلة في هذه السنة ٠ وهنا لابد أن يكون الجواب أحد أمرين ، أولهما ان الطبري ظن ، ان رد الرشيد على رسالة نقفور لابد ان يكون عملا كبيرا ، ولا شيء أكبر من أن يقوم الخليفة بنفســـه بقيادة حملة تقتحم الاراضي البيزنطية ٠ او ان الطبري كان يدرك جيدا ان فتح هرقلة تم في عام ١٩٠هـ ، الا أن موضوع رســـالة نقفور جعله يستطرد في الحديث ، فتحدث عن فتح المدينة ٠ الا أن الرأي الاول أكثر رجاحة، لانايقاع الاحداث المتسارع يوحي بذلك ٠

واذا انتهينا الى أن هرقلة فتحت في عام ١٩٠هـ/٨٠٥ــ٨٠٦م فقط ، فلا بد أن ذلك سيثير جملة تساؤلات منها : في أية سنة ارسل نقفور رسالته السابقة الذكر ؟ وهل كانت هي سبب فتح هرقلة ؟ واذا كانت هي السبب في ذلك ، فهل ان مضمونها هو نفسه الذي تناقلته المصادر التاريخية ؟ ان الجزء المهم من نص رسالة نقفور جاء فيه :

« ٠٠٠ فاذا قرأت كتابي فأردد ما حصـــل قبلك

---

٣٠٩ ــ تاريخ ، ٨/٣١٠ ٠

310—Bury, E.R.E, P. 250.

من أموالها [ايريني]، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، والا فالسيف بيننا وبينك..»[٣١١] .

ان المسألة الاساسية في الرسالة هي المطالبة باعادة الاموال التي أدتها ايريني للرشيد ، أو شن الحرب على الدولة العباسية . ان السنة التي أرسلت فيها هذه الرسالة ، لابد أن تكون عام ١٨٧هـ/٨٠٢–٨٠٣ م . فالطبري ، أولا ، أشار الى أن نقفور نقض الصلح في هذه السنة برسالته التي أوردنا جانبا منها . وثانيا ، من غير المنطقي أن يتذكر نقفور بعد ثلاث سنوات من وجوده في الحكم ، فيطالب بأموال ايريني – اذا افترضنا ان الرسالة كانت في عام ١٩٠هـ – اذ لابد أن يكون قد أرسل رسالته هذه بعد توليه الحكم بفترة قصيرة . وثالثا ، ان المصادر لم تشر الى أن نقفور بقي محافظا على الاتفاق الاخير بين الرشيد وايريني ، والذي بموجبه – لو بقي محافظا عليه – لدفع الجزية للرشيد، وهو ما لم يفعله . وانه بات مؤكدا ان نقفور نقض الاتفاق في مطلع حكمه . وعند هذا الحد أصبح واضحا انه ليست هناك علاقة بين رسالة نقفور هذه وبين فتح هرقلة في عام ١٩٠هـ/٨٠٥–٨٠٦ م ، لأنه ليس معقولا أيضا أن يقوم الرشيد بالرد العملي على هذه الرسالة بعد ثلاث سنوات من وصولها . وسبق أن أوردنا تشكيك ابن الاثير في العلاقة بين هذين الامرين. اذن لابد من البحث عن أسباب ودوافع أخرى كمنت وراء فتح هرقلة.

ففي عام ١٨٨هـ/٨٠٣–٨٠٤م ، كان مجرى الاحداث طبيعيا ، كما هي الحال في كل سنة تقريبا . اذ كانت هناك صائفة قادها ابن جبريل بتوجيه القاسم ابن الرشيد ، فدخل من درب الحدث ، واصطدم مع البيزنطيين في « مرج عذرا » وانتصر عليهم[٣١٢] . وفي رواية أخرى انه دخل من درب الصفصاف ، فخرج نقفور مع فرق من قواته متصديا له . بيد أن اضطراب

---

٣١١ – الطبري ، تاريخ ، ٣٠٨/٨ .
٣١٢ – ابن خياط ، ٧٣٥/٢ .

أوضاعه الداخلية اضطرته للانصراف والعودة الى عاصمته ، وفي طريق انسحابه اصطدم بقوة عباسية أخرى ، فاصيب بثلاث جروح « وقتل من الروم — فيما ذكر — أربعون ألفا وسبعمائة»[٣١٣] . ثم أن القاسم كان مرابطا في دابق[٣١٤] .
أما في عام ١٨٩هـ/٨٠٤—٨٠٥م ، هاجم البيزنطيون عين زربة والكنيسة السوداء وأذنة[٣١٥] . ثم كانت هناك حملة قادها الفضل بن العباس[٣١٦] . وفي هذه السنة أيضا جرى تبادل الاسرى بين الطرفين[٣١٧] . وان القاسم ما زال مرابطا في دابق[٣١٨] . وفي هذه الاثناء اضطر الرشيد للمسير الى خراسان لترتيب الاوضاع هناك ، بعدما ظهر من سوء ادارة علي بن عيسى بن ماهان فيها[٣١٩] . وباستبعاد الرواية التي أشارت الى غارات البيزنطيين في هذه السنة — كما سيأتي ذكره — فان الاوضاع على التخوم كانت عموما طبيعية .

أما في عام ١٩٠هـ/٨٠٥—٨٠٦م ، أخذت الاحداث شكلا آخر ، وبالابقاء على تسلسل الاحداث كما أورده الطبري ، فانها جرت بالشكل الآتي :

١ — قرر الرشيد في هذه السنة قيادة الصائفة على الاراضي البيزنطية .
٢ — أغار البيزنطيون على عين زربة والكنيسة السوداء ، وأسروا عددا من المسلمين ، أنقذهم أهل المصيصة . فضلا عن مهاجمتهم — أي البيزنطيون — لاذنة كما أسلفنا .
٣ — فتح الرشيد حصن هرقلة .

ان تسلسل الاحداث بهذا الشكل كفيل بتفسير الاحداث تفسيرا منطقيا .

---

٣١٣ — الطبري ، تاريخ ، ٣١٣/٨ .
٣١٤ — نفس المصدر والصفحة .
٣١٥ — ابن خياط ، ٧٣٦/٢ .
٣١٦ — اليعقوبي ، تاريخ ، ١٦٦/٣ .
٣١٧ — الطبري ، تاريخ ، ٣١٨/٨ .
٣١٨ — نفس المصدر والصفحة .
٣١٩ — المصدر السابق ، ٣١٤/٨ .

اذ أن قيام البيزنطيين بعمل عسكري واسع في مناطق الثغور، أثار نقمة الرشيد وسخطه الشديدين ، فقرر أن ينزل بالبيزنطيين ضربة قوية تؤذيهم وتقض مضاجعهم • وهذا الامر واضح جدا من استشارته للمتمرسين وذوي الخبرة بطبيعة الاوضاع البيزنطية من أهل الثغور[٣٢٠] • وقدم المسعودي رواية مفصلة عن فتح الحصن ، الذي عانى من حصار طويل ، ثم أشار الى أن المدينة فتحت صلحا ، أما قول أبي نواس الذي جاء فيه :

هوت هرقلة لما رأت عجباً جواثماً ترتمي بالنفط والنار
كأن نيراناً من جنب قلعتهم كمشعلات على أرسان قصار

غير أن المسعودي عدّ ما ورد في هذين البيتين ليس صحيحا ، وانذيوع قصيدة أبي نواس كان لجمالها الشعري وما ناله من مكافأة عليها[٣٢١] •

ان فتح الرشيد هرقلة ، كان الرد الطبيعي والمحتم على سلسلة الاعمال العدائية التي بدأها نقفور ، منذ أن بدأ بنقض الاتفاق الاخير بين الرشيد وايريني ، وحتى غاراته الاخيرة على مناطق الثغور • أما الاتفاق الذي جرى بين الرشيد ونقفور عقب فتح الحصن فتضمن :

١ ـ أن تترك قوات الرشيد حصون : ذي الكلاع وصملة وسنان ، دون تدميرها •
٢ ـ ألا يقوم نقفور بتعمير هرقلة •
٣ ـ أن يقدم نقفور مبلغا قدره (٣٠٠) ألف دينار لبغداد مع جزية سنوية[٣٢٢] •

---

٣٢٠ ـ المسعودي ، مروج ، ١/٣٦٦ـ٣٦٧ •
٣٢١ ـ المسعودي ، مروج ، ١/٣٧٠ـ٣٧١ •
٣٢٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٠٨ ، ٣٢١ـ٣٢٢ ، وعن يفوفانس انظر :
Canard, La prise d'Heracl'ee, P. 374.

وفي أعقاب عودة الرشيد من هرقلة ، نقض نقفور هذا الاتفاق[٣٢٣] .
أما عن كيفية ذلك ، وكيف جرى اخبار الرشيد بالامر ، فهو مما لفّه الغموض والارباك في الروايات التي وصلت الينا . أما بخصوص كيفية الخرق ، فربما تمثل بامتناع نقفور عن اداء الجزية ، ولا يبدو ان الامر يتعلق باعادة تعمير هرقلة . فلو كان الامر كذلك لتوجه الرشيد في حملته التالية اليها لتدمير ما عمر منها أو ما شرع ببنائه ، وليس الى الطوانة كما سنرى . ثم أن المدة الزمنية بين عقد الاتفاق وخرقه غير كافية لاعادة اعمار المدينة . أما بخصوص الطريقة التي جرى بها إخبار الرشيد بنقض نقفور للاتفاق ، فانها ، بالطريقةالتي أوردتها الروايات ، تبدو كما قال Canard عارية عن الصحة[٣٢٤]. اذ أن هذه الروايات تشير بشكل أو بآخر ، الى أنه أحتيل للرشيد بشاعر ألقى عليه قصيدة تضمنت نقض نقفور للاتفاق . ومما جاء فيها :

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه ... غنم أتاك به الاله كبير
فلقد تباشرت الرعية ان أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير

وبشأن الروايات الخاصة بهذه المسألة يمكن ايراد الملاحظات الآتية :

١ ــ ان بعض هذه الروايات لا تحدد شخصا قام بتكليف هذا الشاعر لالقاء شعره على الرشيد في حين ذكر الجهشياري أن يحيى بن خالد البرمكي هو الذي أشار على الرشيد بعقد هذا الاتفاق ، لذا فانه احتاله بادخال هذا الشاعر عليه ليخبره بالنقض من قبل نقفور[٣٢٥] . غير ان هذا فيما يبدو خطأ

---

٣٢٣ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٠٨ ، الازدي ، ٣١٠ ، الجهشياري ، ٢٠٧ ، المسعودي ، مروج ، ١/٣٦٦ ، الاصبهاني ، ١٧/٤٦ .
324—La prise d'Heracl'ee, P. 376.
٣٢٥ ــ الوزراء والكتاب ، ٢٠٧ .

واضح ، لان الرشيد كان قد وجه ضربة قاضية للبرامكة ، قبل هـذه الحادثة بعدة سنوات[٣٢٦] .

٢ ــ ان السبب الذي حال دون إخبار الرشيد بهذا النقض ، تراوح بين البرد الشديد[٣٢٧] . ومرض الخليفة[٣٢٨] أو الخوف من النقمة[٣٢٩] . وهذا كفيل باثارة الشكوك حول مدى صحة هذه الروايات.

٣ ــ ومما يزيد الشكوك حول الطريقة التي جرى بها إخبار الرشيد ، ان الطبري أورد مقطعين شعريين للشاعر التيمي ــ الذي أخبر الرشيد بهـذا النقض حسب الروايات ــ الا أن الامر الذي يعزز هذه الشكوك ، ان هذين المقطعين لا ينتميان الى قصيدة واحدة ، فالمقطعين لهما قافية وأوزان مختلفة ، وقد سبق أن اوردنا أبيات من أحد المقطعين ، اما المقطع الآخر ، فمما جاء فيه :

خـان العهود ومن ينكث بهـا فعلى
حوبائه ، لا على أعـدائه نكثـا[٣٣٠]

كما أن الطبري أقحم قصيدة أخرى لابي العتاهية في رواية نقض الاتفاق . وبخصوص الشاعر التيمي ، فلا يعقل أنه أعد اكثر من قصيدة لهذا الغرض ، فقصيدة واحدة كافية لادائه ، كما ان اقحام قصيدة أبي العتاهية ، أظهر الامر وكأنه مباراة شعرية تناولت هذا الموضوع جرت أمام الخليفة الرشيد . ويبدو ان الامر كذلك فعلا ، ولكن بعد أن علم الخليفة بنقض نقفور للاتفـاق . ان قصيدة التيمي تضمنت بيتا يمكن أن يكون مفتاحا لحل هذه المسألة ، والذي جاء فيه :

---

٣٢٦ ــ انظر الطبري ، تاريخ ، ٢٨٧/٨ وما بعدها .
٣٢٧ ــ المصدر السابق ، ٣٠٨/٨ ، الاصبهاني ، ٤٦/١٧ .
٣٢٨ ــ المسعودي ، مروج ، ٣٦٥/١ .
٣٢٩ ــ الجهشياري ، ٢٠٧ .
٣٣٠ ــ تاريخ ، ٢١٠/٨ .

فلقد تباشـرت الرعيـة ان أتى   بالنقض عنه وافـد وبشير[٣٣١]

وهو بيت سبق أن اوردناه ، وفيه اشارة واضحـة الى رسول قادم من نقفور ليخبر الرشيد بتخلي نقفور عن الاتفاق . واذا كان الشاعر قد أعطى معنى جماليا في هذا البيت ، بأن جعل هذا الرسول بشير خير ، الا أن هذا البشير في الوقت نفسه جاء يحمل أخبارا سيئة بنقض الاتفاق يستوجب القيام بأعمال الجهاد ،، فكان واضحا في قصده . على أن أمر قدوم هذا الرسول ليس غريبا ، أليس نقفور هو نفسه الذي أرسل رسوله الى الرشيد مطالبا باعادة الاموال ناقضا الاتفاق بين الدولتين ؟ وعلى هذا فانه من المحتمل جدا ان رسول نقفور دخل بنفسه على الخليفة وأخبره رسميا بنقض الاتفـاق ، سـواء أكان ذلك مشافهة أو برسالة خطية قدمها للخليفة ، كما حدث في المرة السابقة .

أما بعد هذا التطور في الاحداث ، فما هو رد الفعل الذي قرره الرشيد تجاه الامبراطورية البيزنطية؟ هنا أيضا فان الامر لفه بعض الغموض والارتباك . فالاحداث عند الطبري مجزأة بين سرده لاحداث عام ١٨٧هـ/٨٠٢ـ٨٠٣م ، وسرده لاحداث عام ١٩٠هـ/٨٠٥ـ٨٠٦م . ففيما يتعلق بالسنة الاولى ، وكما سبق ذكره ، عاد الرشيد الى الاراضي البيزنطية ، ثم أورد الطبري أبيـات أبي العتاهية والتي أشارت الى خراب هرقلة . بيد أننا نستبعد أن يعود الرشيـد الى هرقلة ، وهي خراب ليس فيها ما يناله عسكريا وسياسيا ، ولاجل الضغط على نقفور ، لابد انه اختار موقعا آخر له قيمته وأهميته من هذه النواحي ، يضطر معه نقفور للخضوع مرة أخرى . اما هذا الهدف فقد ذكره الطبري في أحداث عام ١٩٠هـ مداخلا مع أحداث فتح هرقلة وكأنه جزء من هذه العملية ، اذ أنه يفترض ان الرشيد ، في أعقاب فتح هرقلة وعقد الاتفاق ، عاد دون القيام بعمل عسكري ، قبل النقض . غير ان الخلط أصاب رواية الطبري ، فقال بعـد ايراده خبر سقوط هرقلة :

---

٣٣١ ـ المصدر السابق ، ٣٠٨/٨ .

« ••• ثم سار الرشيد الى الطوانة ، فعسكر بها • ثم رحل عنها ، وخلف عليها عقبة بن جعفر ، وأمره ببناء منزل هنالك،وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه اربعة دنانير ، وعن رأس ابنه استبراق دينارين ••»[٣٣٢] •

ثم أورد الطبري أخبار الاتفاق الذي أعقب سقوط هرقلة ، مباشرة بعد هذا النص • اذن ، فان رد الفعل الذي اتخذه الرشـيد تجاه نقض الاتفاق ، أقحم في رواية فتح هرقلة • ويمكن لرواية الازدي أن تؤكد هـذه المسألة ، ولكن قبل توظيف روايته هنا ، لابد من ابداء الملاحظات الآتية :

١ ــ ان الازدي ذكر تعبئتين لقوات الرشيد في سـرده لحوادث فتح هرقلة ، فذكر أربعة من القادة شكلوا الميمنة والميسرة والساقة • غير أنه أورد أسماء قادة آخرين ، غير هؤلاء الاربعة ، هم الذين حاصـروا المدن والقلاع البيزنطية المشار اليها • فهو اذن ذكر تعبئتين لحملة واحدة ، وهو أمر يؤكد اقراره الضمني بوجود حملتين وليس واحدة فقط ، كما ذكر في روايته[٣٣٣] •

٢ ــ أشار الازدي الى فتح الطوانة واقامة الرشيد فيها ، قبل فتح هرقلة ، ثم عاد اليها مرة أخرى بعد فتح هرقلة[٣٣٤] • مخـالفا بذلك كل من الطبري والمسعودي اللذين لم يذكرا فتح الطوانة قبل فتح هرقلة •

٣ ــ وعند حديثه عن نقض نقفور للاتفاق ، اكتفى بالاشـــارة الى أن الرشيد أرسل مسروراً الخادم للاطمئنان على متانـة وسـلامة استحكامات الثغور[٣٣٥] • وكأنه خشي من اغارة نقفور على هذه المناطق •

---

٣٣٢ ــ تاريخ ، ٣٢١/٨ •
٣٣٣ ــ تاريخ ، ٣٠٨/٨ •
٣٣٤ ــ المصدر السابق ، ٣٠٨/٨-٣٠٩ •
٣٣٥ ــ تاريخ ، ٣١٠ •

اذن، فالازدي هو الآخر خلط بين عمليات فتح هرقلة وعمليات رد الفعل على نقض الاتفاق . الا أن روايته تؤكـد هي الاخرى وجود حملتين وليس واحدة ، وكانت الطوانة ، على الارجح، هي الهدف . لا سيما وان بنود الاتفاق الذي أعقب فتح هرقلة ، لم يتضمن انسحاب القوات العباسية عن الطوانـة ـ كما اشترط بخصوص الحصون الاخرى ـ مما يدل على أن الرشـيد لم يتعرض لها قبل فتح هرقلة ولا في أثنائه .

أما ما أشار اليه Canard من أن فتح الرشيد هرقلة ، كان بسبب امتناع نقفور عن دفع الجزية، بعدما لاحظ اضطراب أوضاع الدولة العباسية، لا سيما في خراسان، واطمئنانه على متانة استحكاماته وسلامتها(٣٣٦). ان هذا الرأي يعوزه الدليل التاريخي الواضح ، فالمفروض أن نقفور قد امتنع عن دفع الجزية منذ مطلع حكمه ، بعدما كانت ايريني تؤديها للخلافة . ثم ان حملـة القاسم في عام ١٨٧هـ/٨٠٢ـ٨٠٣ م لم تضطره الى دفع جزية جديدة، بل أنه استنقذ بلاده بـ (٣٢٠) من الاسرى المسلمين . كما أنه لم يجر أي اتفاق بعـد ذلك يقوم نقفور بموجبه بدفع الجزية قبل فتح هرقلة . وهنا لابد من التأكيد ان الدافع الاساس وراء هذه الحملة ، هو الانتقام من عبث نقفور بمنـاطق الثغور . واذا كان فتح هرقلة قد انتهى بدفع نقفور للجزية . الا أن ذلك لم يكن أكثر من معنى سياسي ، كأفضل تعبير ارتضاه الرشـيد للثأر من أعمال نقفور المشار اليها ، وتأكد ذلك باصرار الرشيد على أن يؤدي الامبـراطور الجزية عن رأسه شخصيا ، بعد خرقه اتفاق هرقلة .

كما أشار Canard الى رواية بيزنطية ذات علاقـة بموضوع فتح هرقلة ، لا تخلو من قدر غير يسير من الغرابة وعـدم الدقة . اذ أورد ميشيل السوري انه في عام ١٨٨هـ/٨٠٣ـ٨٠٤م ، تقدم جيش بيزنطي الى قيليقية ؛

336—La prise d'Heracl'ee, P. 369.

وأسر بعض السكان ودمر مناطق المصيصة وعين زربة ووصل الى طرسوس وأسر عددا من السكان أيضا • وان الرشيد كان في أثناء ذلك في خراسان ، فأثارت هذه الاعمال سخطه الشديد، ثم قدم الرقة في جمادى الاولى ١٨٩هـ/ نيسان ٨٠٤م وسيطر على هرقلة • فتقدم نقفور لصده ، ولما رأى الرشيد عظم جموعه طلب الصلح وأطلق سراح الاسرى البيزنطيين ، فقبل نقفور هذا العرض ، وأهداه الرشيد من كل أنواع الخيام التي عنده • وتجاهل ميشيل السوري نقض نقفور للاتفاق[٣٣٧] •

كما أشار Canard الى رواية بيزنطية أخرى فحواها أن جيشا عباسيا كبيرا وصل في عام ١٨٩هـ/٨٠٤ــ٨٠٥ م أمام عمورية ، فتوجه نقفور لصده وعند وصوله الى أدرولية ، وجه رسالة الى الرشيد مع قائد القوة العباسية جاء فيها :

«•••أيةمتعة تجد في ارتكاب الظلمواراقة دماءالرجال، ولما لا تقتنع بما تملكه ؟ ولما تريد أن تغتصب الحدود التي ورثتها عن أجدادي ، أي نبي وأي إلـه مقدس علمك أن تفعل هذا ؟ ألم يأمرك الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم) أن تعدّ المسيحي أخا لك ، وأن تعمل على نشر هذه الاخوة ؟ ان الله خالق كل شيء لا تفوته صغيرة ولا كبيرة ، لا يرضى أن يراق الدم ظلما • لا ، هل قدمت اليّ حتى تسيء الى أناس لم يسببوا لك أي ضرر أو خسارة ، لماذا اذن ؟ هل لانك بحاجة الى الاموال والذهب ، أو لاي شيء آخر ؟ ولكنك تملك ما يكفيك من الاموال والممتلكات الغنية ، التي من

337—Ibid, PP. 372-373; Bury, E.R.E, P. 250, note, 1.

الصعب أن يحصل عليها ملك . والاهم بالنسبة لنـا
امتلاكك للاراضي المقدسة ، أراضٍ غنية جدا . وان
كان ينقصك شيء نحن نملكـه ، فاننا مستعدون لان
نزودك به في الحال بدافع حسن الصداقة . لنكف عن
قتال أحدنا الآخر كما لوكنا خالدين . ولنكف عن تقليد
حرب الشياطين ضد الانسان بدافع الحقد والكراهية .
اعلم اننا سوف نموت يوما ما واننا سنترك هذا العالم
لنحتكم أمام الله ، الذي سيجازي كل حسـب أعماله
وتبعا لما اقترفت يداه ..»(٣٣٨) .

كما أن الرسالة كانت مصحوبة بهدايا كثيرة سرّ بها القائـد العباسي كثيرا . فقابلها بارسال هدايا عديدة للامبراطور . وعاد بعد أن عقد السلام ، كما أنه أعجب بحكمة نقفور وذكاؤه(٣٣٩) . الا أن Canard أشار الى أن هناك احتمالا كبيرا بأن هذه الرسالة غير صحيحة ، اذ من المستحيل ان افكارا من هذا النوع قد وردت في الرسائل الامبراطورية ، فقد تضمنت معرفة عامة بأفكار الرسول (صلى الله عليه وسلم) تجاه النصارى . كما وردت فيها فكرة امتلاك المسلمين للاراضي المقدسة ، وهي من أفكار فترة لاحقة . كما ان هذه الرواية اذا كانت قد قصدت ابراهيم بن جبريل ، فان الوقائع التاريخية تجعل هذا الامر غير ممكن ، فما أورده الطبري ــ وسقناه ــ عن هذه الحملة لا يعطي أي فرصة لمثل هذه المراسلات والمجاملات ، ثم أنه ليس من صلاحيات أي من القادة عقد اتفاق للسلام دون تفويض مسبق من الخليفة بهذا الخصوص ، ان هذه الامور تجعل موضوع الرسالة وما يتعلق بها أمرا مشكوكا في صحته .

338—La prise d'Heracl'ee, P. 348.

339—loc, cit.

بعد هذا يمكن أن نضع الترتيب الآتي للاحداث ، والتي جرت بين عامي ١٨٧-١٩٠هـ/٨٠٢-٨٠٦م :

عام ١٨٧هـ : نقض نقفور الصلح الاخير بين الرشيد وايريني •
ارسل الرشيد ابنه القاسم على الصائفة ردا على هذا النقض •

عام ١٨٨هـ : وجه القاسم ، ابراهيم بن جبريل ، قائدا للصائفة •
مرابطة القاسم في دابق •

عام ١٨٩هـ : تبادل الاسرى بين الطرفين •
استمرار مرابطة القاسم في دابق •

عام ١٩٠هـ : عزم الرشيد على قيادة الصائفة بنفسه •
هجوم القوات البيزنطية على مناطق الثغور الاسلامية•
فتح الرشيد هرقلة ، أعقبه عقد اتفاق بين الطرفين •
نقض نقفور لهذا الاتفاق •
توجه الرشيد الى الاراضي البيزنطية والسيطرة على الطوانة ردا على ذلك •

وبهذا الشكل تبدو سلسلة الاحداث منطقية ومعقولة ، على الرغم من أن مصادرنا التاريخية ربما أهملت بعض حلقات هذه السلسلة ، فضلا عن الاستطرادات الشعرية ، أعطت في بعض الاحيان صورة مبالغ فيها أو مخالفة للواقع •

في عام ١٩١هـ/٨٠٦-٨٠٧م، يبدو ان الصراع بقي محتدما بين الطرفين، لا سيما وان الاتفاق بين الرشيد ونقفور لم يتضمن أية اشارة الى وجود هدنة في الاتفاق • ففي هده السنة « غزا يزيد بن مخلد بن يزيد بن عمر بن هبيرة فسلم وغنم• »[٣٤٠] ، كما أن الرشيد خرج قاصدا الاراضي البيزنطية ، وعند

---

٣٤٠ ـ ابن خياط ، ٧٣٨/٢ •

درب الحدث أوكل قيادة الحملة الى هرثمة بن أعين ، وأقام هو في الثغور حتى عودة الحملة من الاراضي البيزنطية[٣٤١] • في حين قدم الطبري رواية مفصلة عن أحداث هذه السنة ، فيزيد بن مخلد تقدم في عشرة آلاف مقاتل، الا أنه حصر عند المضيق ــ يبدو أنه الابواب القيليقية ــ فقتل على مسافة من طرسوس مع خمسين من رجاله وعاد الآخرون[٣٤٢] • ثم قام الرشيد بتولية هرثمة بن أعين الصائفة في (٣٠) ألف مقاتل ، وعمل الرشيد في الوقت نفسه على تعزيز حاميات الثغور ، فجعل عبدالله بن مالك في الحدث ، وسعيد بن سلم بن قتيبة في مرعش ، التي أغار عليها البيزنطيون وألحقوا بالمسلمين فيها بعض الخسائر ، في الوقت نفسه الذي كان فيه سعيد مقيما فيها ، كما أرسل الرشيد الى طرسوس محمد بن يزيد بن مزيد في حين بقي الرشيد مقيما عند درب الحدث[٣٤٣] •ربما استعدادا للتدخل عند الضرورة • ان عمليات الرشيد هذه جاءت ثأرا لمقتل يزيد بن مخلد ، وفي هذه الحملة اصطدم هرثمة مع نقفور في معركة استمرت حتى مغيب الشمس ، وانتهت بانتصار القوة العباسية • ثم عاد هرثمة دون أن يتقدم كثيرا في الاراضي البيزنطية ، بسبب نقص المؤن ــ ويبدو ان ذلك عاد الى التكتيك الذي اتبعته القوات البيزنطية بازالة المؤن عن طريق تقدم القوات العباسية ــ لذا أرسل الرشيد امدادات من المؤن في طريق عودة هرثمة ، وكان باستقباله ومن معه عند عودته[٣٤٤] •

وفي هذه السنة أيضا أمر الرشيد بهدم دور العبادة الخاصة بالسكان المحليين القدامى في مناطق الثغور[٣٤٥] • ويبدو أنهم تعرضوا لعملية طرد ثانية

---

٣٤١ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٧٣ــ١٧٤ •
٣٤٢ ــ تاريخ ، ٨/٣٢٣ •
٣٤٣ ــ المصدر السابق ، ٨/٣٢٣ــ٣٢٤ •
٣٤٤ ــ العيون والحدائق ، ٣/٣١٢ــ٣١٣ •
٣٤٥ ــ الطبري ، ٨/٣٢٤ •

من هذه المناطق • وذكر Canard ان سبب ذلك عاد الى خشية الرشيد الجدية من تواطىء هؤلاء مع البيزنطيين وتجسسهم لصالحهم(٣٤٦) •

بعد ذلك أشار الطبري ، الى أنه لم تقم بعد هذه السنة ــ ١٩١ هـ ــ صائفة أخرى حتى عام ٢١٥هـ/٨٣٠م(٣٤٧) • الا أن الطبري نفسه أشار في حوادث عام ١٩٢هـ/٨٠٧ــ٨٠٨م الى صائفة قادها ثابت بن نصر بن مالك بعد توليه ادارة الثغور ، فافتتح مطمورة(٣٤٨) • كما أشار Canard الى حملة بحرية في هذه السنة على جزيرة رودس ، وتم فيها الحصول على غنائم كثيرة وعدد كبير من الاسرى ، الا أن الحملـــة لم تتمكن من السيطرة على قلعة المدينة(٣٤٩) • كما يبدو ان الحملة تعــرضت الى عاصفــة مدمرة في طريق العودة ، راح ضحيتها معظم سفن الحملة(٣٥٠) • كما جرى تبادل الاسرى بين الطرفين في هذه السنة(٣٥١) •

في العام التالي ١٩٣هـ/٨٠٨ــ٨٠٩م ، لم تشر المصادر جميعا الى أي نشاط عسكري في مناطق التخوم ، كما شهدت هــذه الســنة وفاة الخليفة الرشيد ، وتولى الخلافة بعده ابنه الامين(٣٥٢) • وهنا لابد من وقفة قصيرة أمام الدور الكبير للخليفة الرشيد في الميدان العسكري ، اذ أشارت المصــادر الى أن الرشيد حج ثماني حجج وغزا ثماني غزوات(٣٥٣) • فهو أكثر خلفــاء

346—La prise d'Heracl'ee, P. 361.

٣٤٧ ــ تاريخ ، ٨/٣٢٤ •
٣٤٨ ــ المصدر السابق ، ٨/٣٤٠ •

349—La prise d'Heracl'ee.
350—C.M.H, 4/1, P. 708.

٣٥١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٣٤٠ •
٣٥٢ ــ المصدر السابق ، ٨/٣٤٢ ، ٣٦٥ •
٣٥٣ ــ المسعودي ، التنبيه والاشراف، ٢٩٩ ، أبن البطريق ، التاريخ المجموع، ٢/٥١ •

الدولة العربية الاسلامية ــ بكل مراحلها ــ قاطبة اسهاما في هذا المجال ،كما أنه خرج أكثر من مرة لقيادة العمليات بنفسه في منـاطق التخوم ، معبرا عن عمق اهتمامه بضرورة تأمين مناطق الثغور من أي خطر ، مرتئيا ان اذلال العدو الى أقصى حد ممكن،هو الكفيل بتأمين مناطق التخوم من أي اعتداء بيزنطي• لا سيما أن هؤلاء، لم يجدوا فرصة للهجوم الا استغلوها • لذا كان اخضاعهم الحل الامثل لحفظ أمن وسلامة البلاد من خطرهم •

أما ما ذهب اليه بعض المستشرقين، من أن الرشيد كان يغزو من أجل الحصول على الاسرى ليباعوا عبيدا في أسواق النخاسـة[٣٥٤] • انما يمثل تجنيا كبيرا بحق الخليفة الذي اقترن اسـمه بأزهى وأبهى حقب الحضـارة الانسانية برمتها • كما أن عصر الرشيد نفسه شـهد أكثر من عمليـة تبادل للأسرى • كما أن الرشيد لم يكن بحاجة الى الجزية من أباطرة بيزنطة ، وهو الذي قال أينما أمطرت السحابة فايرادها له ، بقدر ما كانت هـذه الجزية ، عنده ، تعبر عن حالة تفوق سياسي وعسكري للدولة العباسية ، واقرار الجانب البيزنطي بهذه الحقيقة ، وذلك لدحر كل خطر يهـدد تخوم الدولة من هـذا الجانب •

354—Finlay, PP. 82-83, 84.

الفصل الثاني

العلاقات الحربية

١٩٣ـ٢٤٧ هـ / ٨٠٩ـ٨٦١ م

١ ـ العلاقات الحربية في المرحلة الثانية من فترة الازدهار :

بتولي الامين الخلافة ، بدأت المرحلة الثانية من فترة الازدهار ١٩٣ ـ ٢١٨هـ/٨٠٩ـ٨٣٣م ، وكنا قد قسّمنا هذه الفترة الى مرحلتين ، تناولنا المرحلة الاولى في الفصل السابق ، وسنتناول في هذا الفصل المرحلة الثانية وطبيعة العلاقات الحربية فيها بين الدولتين •

من خلال ملاحظتنا للشكل رقم ـ٤ـ نرى أن العلاقات الحربية في هذه المرحلة شهدت في الجانب العباسي خمودا كبيرا في أول الامر ولسنوات عدة، الا أن السنوات الاخيرة من هذه المرحلة ، شهدت تصاعدا كبيرا ونوعيا في نشاط العباسيين العسكري • وعانت هذه المرحلة من أوضاع داخلية مضطربة اضطرابا حادا ، مثّل الجانب الاساس منها ، الصراع الدموي بين الامين والمأمون ، رافق ذلك وأعقبه جملة من حركات المعارضة ، في أنحاء متفرقة من الدولة ، مما سبب توقفا في نشاط الدولة العسكري في مناطق التخوم لسنوات عدة •

أما الجانب البيزنطي ، فشهد في مطلع هـذه الفترة ، مقتل الامبراطور نقفور في خضم الصراع المحتدم مع البلغـار ، الذي استمر عدة سنوات ، ثم انتهى بعقد معاهدة للسلام بين الطرفين أمدها (٣٠) عاما . كما شهدت هـذه الفترة صراعا واسع النطاق على العرش الامبراطوري ، لم يكد ينتهي الا ليبدأ صراع حاد بين السلطة المركزية وتوماس الصقلبي في آسيا الصغرى . وفي ظل هذه الظروف كان على البيزنطيين أن يميلوا هم أيضا الى الهدوء على تخومهم الجنوبية .

في عام ١٩٤هـ/٨٠٩م ، قاد الحسن بن مصعب حملة وجهـه بها والي الثغور ثابت بن نصر[١] . الذي قاد بنفسه عدة حملات على الاراضي البيزنطية، كان لبعضها صدى في المصادر البيزنطية . ففي عـام ٨١١م/١٩٥–١٩٦هـ ، ارسل ليو الارمني – عندما كان حاكما لبند الارمنياق – ضريبة الى العاصمة مقدارها حوالي (٥٩٢) كغم من الفضة ، لكنه لم يوفر لهـا الحماية الكافية ، فتمكنت احدى هذه الغارات من الاستحواذ عليها[٢] . وفي هذه الفترة سيطر البيزنطيون على حصن كمخ ، وأشار البلاذري ، ان ذلك عائد الى اضطراب الاوضاع الداخلية للدولة . أو أن عبيدالله بن الاقطع سلمه لهم لفك أسر ابنه، بعد هرب سكان الحصن[٣] . أعقب ذلك صمت المصادر جميعا ، اذ لم تشر الى أي نشاط عسكري في مناطق التخوم من قبل الجانبين . واستـمر ذلك عدة سنوات ، عدا الاشارة الى غارة بحرية بيزنطية على دميـاط في عـام ٨١٧م/٢٠١–٢٠٢هـ ، اذ استغل البيزنطيون فرصـة اضطراب الاوضـاع الداخلية للدولة العباسية لارسال هذه الحملة[٤] .

---

١ – اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/١٨٤ .

2 — Finlay, P. 90.

٣ – فتوح ، ١/٢٢٠ .

4 — C.M.H, 4/1, P. 709.

حركة توماس الصقلبي وعلاقتها بالدولة العباسية :

لم يكن هناك اتفاق بشأن أصل توماس هذا ، فاذا كان شائعا عنه أنه صقلبي — أي من الصقالية (السلاف) الذين جرى ترحيلهم الى أماكن مختلفة من آسيا الصغرى في سنوات سابقة — فان فازيليف بعد مناقشته لاصله توصل الى أنه أرمني وليس صقلبيا(٥) • في حين بقي غامض الاصل عند آخرين(٦) • ومهما يكن من أمر ، فان المصادر البيزنطية أشارت الى علاقته بالخليفة المأمون ، وتحالفه معه في مواجهة الامبراطورية البيزنطية •

واذا كانت المصادر العربية لم تتضمن أية اشارة أو لمحة عن توماس وحركته وعلاقته هذه ، فان المصادر البيزنطية ، أفاضت في هذا الموضوع • فذكرت أن توماس كان في خدمة أحد البطارقة ، غير انه حاول الاعتداء على زوجته ، وعند اكتشاف الامر اضطر توماس للجوء الى اراضي الخلافة ، وأقام فيها فترة من الزمن(٧) • وفي رسالة من الامبراطور البيزنطي الى لويس التقي ، أشار فيها الى ان توماس اتصل سرا بزوجة أحد البطارقة ، ثم هرب الى الدولة العباسية ، وأنه في أثناء ذلك جنح عن النصرانية(٨) • وربما كان هربه تجنبا للعقوبة التي استحقها بسبب سوء ادارته(٩) • ومهما كان السبب ، فالظاهر أن توماس هرب في عام ٧٩٧م/ ١٨٠—١٨١هـ قبل أن تنفرد ايريني بالحكم(١٠) • أما افتراض Bury أن توماس هرب مرتين الى الدولة العباسية ، فلا أساس له من الصحة(١١) • وبعد سنوات عاد توماس الى الاقسام الشرقية من

---

٥ — العرب والروم ، ٣٢ •

6 — Brehier, P. 21.

7 — Bury, E.R.E, P. 84.

٨ — فازيليف ، العرب والروم ، ٣٢ •

9 — Brehier, P. 71.

١٠ — فازيليف ، العرب والروم ، ٣٥ •

١١ — نفس المرجع والصفحة .

الامبراطورية وأسس جيشا ضم عربا وأرمنا وايرانيين وايبريين وصقالبة ،
وأعلن نفسه مؤيدا ونصيرا للايقونات ــ وهذا بحد ذاته يثير الكثير من
الغرابة ، فلطالما كانت آسيا الصغرى ، ولا سيما الاقسام الشرقية منها ، معقلا
للاتجاه اللا ايقوني ــ ثم ادعى أنه قسطنطين السادس ابن ايريني، الذي سبق
وأن سملت عيناه . ولهذه الاسباب كسب توماس البنود الآسيوية الى جانبه،
وقام بأعمال التحريض على السلطة المركزية في البنود التي لم تؤيده(١٢) .

وأشار فازيليف الى أن وجود فرق اسلامية في جيش توماس لم يكن
مجرد مصادفة ، وليس رغبة في السلب والنهب، بل جرى ذلك بموجب خطة
من قبل المأمون ، غايتها عدائية تجاه الامبراطورية(١٣) . وذكر Bury
ان الحرب الداخلية في الامبراطورية ، أعطت الخليفة فرصة لشن غاراته على
أراضيها ، بعد أن التف المدافعين عنها حول توماس ، حتى لم يبق هناك من
يدافع عنها ــ مع اننا لاحظنا أن التخوم كانت هادئة تماما طوال هذه الفترة،
وانه لم ترد أية اشارة الى عمليات في هذه المناطق ــ وربما تذمر توماس من
القناعات التي كانت عند جنده، فاضطر لبعض الوقت الى أن يتخلى عن محاربة
سكان الارياف البيزنطيين ، من أجل صد العدو المشترك ــ وكأن جنده
جاهلون بتحالفه مع المأمون ــ واستطرد Bury ان توماس اذا كان قد
استجاب لرغبة أتباعه بالتصدي للثغور الاسلامية ، فانه عرف كيف يستفيد من
هذا الامر ، فحوله لمصلحته تماما . اذ قام باستعراض للقوة ، بعبور قواته
جبال طوروس أمام أعين المسلمين ، وكأنه يريد غزو مناطق التخوم . وكان
نادرا أن يمر جيش بيزنطي كبير في هذه المناطق منذ حرر المسلمون بلاد الشام.
غير أن حركة توماس هذه لم تهدف الحاق الاذى بالثغور الاسلامية، بل مجرد

12—Brehier, PP. 71-72; Ostrogorsky, PP. 204-205.

١٣ ــ العرب والروم ، ٢٨ .

الخافة سكانها ، ومن ثم عقد معاهدة تحالف مع الخلافة العباسية • جرى بموجبها الاعتراف بتوماس امبراطورا ، على أن يسلّم بعض المراكز المهمة في مناطق التخوم الى الدولة العباسية ، وأن يكون مواليا للخليفة • وأعقب ذلك تتويج توماس من قبل أيوب بطريرك انطاكية[١٤] • ولعلنا نجد في هذه الرواية بعض نقاط الضعف ، مما يولد عددا من الشكوك حول دقتها :

١ ـ أشارت الرواية الى حملات عباسية على الاراضي البيزنطية في أثناء حركة توماس ، مع أن مصادرنا لم تتضمن شيئا من ذلك •

٢ ـ أشارت الرواية الى وجود فرق عربية في جيش توماس ، فكيف فكر في الاغارة على الثغور الاسلامية ، دون أن يخشى تمردهم عليه • وان كان عمله شكليا ليرضي أتباعه ؟ ألم يكن هذا الامر كفيلا باثارة الانشقاق بين أتباعه ؟ وهو أمر لم تتضمنه الرواية ، فهو لم يحصل اذن •

٣ ـ واذا كان أتباعه لم يقبلوا منه عدم قتاله المسلمين في مناطق التخوم ، فكيف قبلوا منه « تحالفه » مع « أعدائهم » بل أنه توج امبراطورا بمباركة الخليفة المأمون ـ حسب ما ذكرته الرواية!!؟ ألم يكن هذا الامر أيضا كفيلا باثارة جنده عليه ، أم أن جنده جاهلون بما جرى !!؟

٤ ـ ومن المنطقي جدا ألا يسمح المأمون لتوماس بمغادرة أراضي الخلافة قبل ابرام معاهدة للتحالف بينهما • فالامر اذن ، لم يكن يستلزم استعراضا للقوة حتى يتم هذا الامر •

ان جملة الشكوك والتساؤلات التي تحوم حول هذه الرواية ، تجعل من دقتها وصحتها أمرا ضعيفا • وفي رواية لابن العبري جاء فيها :

« وفي تلك الاثناء أرسل المأمون فاستدعى توما الذي ادعى انه ابن الملك قسطنطين ووجهه في جيش الى القسطنطينية فانتهى اليها وظل يحاصرها ستة

14—E.R.E, PP. 87-88.

أشهر فتضايق ميخائيل الملك وعاهد الاسـرى العرب
بارجاعهم الى وطنهم ان قاتلوا توما • عند ذلك اتفق
الروم والعرب معا ونازلوا أصحاب توما وهزموه الى
احدى القلاع وتتبعوه حتى قضوا عليه وقطعوا يديه
ورجليه وعلقوه في رمح • أما ميخائيل فقـد نكث
المعاهدة ولم يطلق الاسرى العرب »(١٥) •

وجلي" أن هذه الرواية لا تستند الى أسس تاريخية سليمة ، وانها كثيرة الاخطاء ، فحسب ما ورد فيها : أن توماس لم يكن له جيش ، وان المـأمون زوده به كاملا • وان قتل توماس جرى على يد القوات البيزنطية والاسـرى المسلمين ، مع أنه لقي حتفه وهزيمته على يد قوة بلغارية قادها اومرتـاج ــ كما سبق ذكره ــ قدمت لمساعدة البيزنطيين •

ان جملة هذه الملاحظات تثير الشكوك حول مدى العلاقة بين الخلافـة العباسية وحركة توماس هذه • اذ أن الروايات البيزنطية تضمنت قـدرا غير يسير من المبالغة والتهويل ، هدفت الى الحط من قيمة توماس بأي شكل من الاشكال والتشهير به • فلو كان بامكان الدولة العباسية امداد توماس بجيش أو فرق من الجيش العباسي ــ في ظل الظروف التي كانت تمـر بها ــ لكان حرياً بهذا الجيش أن يقوم بنفسه بالاغارة على الاراضي البيزنطية ، وعـدم تسليمه الى أيد لا يعرف مدى اخلاصها وأمانتها •

ان لجوء توماس الى الدولة العباسية ، ليس أمرا غريبـا ، فلطالما كانت أراضي الدولتين ، ملاذا للمعارضين السياسيين لكليهما • أما عن مدى التعاون والتحالف بين الخلافة وتوماس ، فالأمر في اعتقادنا لم يتجاوز حدود الاستفادة ــ التي لا تكلف الخلافة شيئا ــ لا سيما أن الدولة العباسية كانت بحاجة الى

---

١٥ ــ تاريخ ، ٢٨ •

المزيد من القوات ، لمواجهة الاضطرابات الناشبة في هذه الفترة بالذات[16] . فلم يكن بمقدور الخلافة أن تجهز توماس بجيش يسانده . وربما لم يتجاوز الأمر حدود الاعتراف به امبراطورا .

فتح جزيرة كريت :

فتحت جزيرة كريت في فترة الهدوء التي سادت مناطق التخوم ، كما أشارت الى ذلك المصادر العربية ، من قبل جماعة عربية ، في عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥ـ٨٢٦م . وكانت هذه الجماعة قد غادرت الاندلس على ظهر سفن خاصة بها، أرست بهم في الاسكندرية ، بعد اشتراكهم في الاضطرابات التي قامت في قرطبة،ودعي رئيس الجماعة بأبي حفص. ويبدو أنهم شغبوا في الاسكندرية أيضا . فوجه اليهم المأمون حملة قادها عبدالله بن طاهر بن الحسين ، الذي خيرهم بين الحرب أو الطاعة ، فاختاروا الثانية . غير أنهم طلبوا السماح لهم بالرحيل الى بعض المناطق البيزنطية ، وجرت الموافقة على ذلك ، فرحلوا الى كريت « اقريطش »[17] في حين ذكرت روايات أخرى انهم اضطروا للرحيل ـ دون خيار ـ بعد محاصرتهم[18] .

أما عن علاقة المسلمين بالجزيرة ، تاريخيا ، فان جنادة افتتح قسما منها في أثناء حكم الخليفة الوليد ، ثم انسحب منها . كما هاجمها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد وفتح بعضا منها ـ كما سبقت الاشارة الى حملة أخرى قادها عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح على الجزيرة في هذه الفترة ـ وفي خلافة المأمون فتحت الجزيرة من قبل أبي حفص عمرو بن عبدوس الاندلسي ، المعروف « بالاقريطش » اذ فتح حصنا واحدا ومنه انطلق لفتح

---

١٦ ـ انظر : الطبري ، تاريخ ، ٨/ ٥٨٠ـ٥٨٢ ، ٥٩٣ـ٥٩٧ .
١٧ ـ المصدر السابق ، ٨/٦١٣ ، ابن الاثير ، ٦/٣٩٨ـ٣٩٩ .
١٨ ـ الكندي ، ١٨٤ .

بقية أجزاء الجزيرة وطرد البيزنطيين منها[١٩] • أما بخصوص فكرة فتح الجزيرة ، فليس هناك ثمة علاقة بين حركة توماس وبين فتحها ، لان هذه الحركة أخمدت قبل ذلك بسنوات عدة • الا أن الفاتحين سبق لهم القيام بحملات متعددة على سواحل الجزيرة قبل فتحها ، غرضها استطلاع المنطقة بصورة جيدة[٢٠] •

وحدد Brooks بعد مناقشته للمصادر العربية والبيزنطية ، تاريخ فتح الجزيرة ، بأنه تم في عام ٢١٢هـ/٨٢٨م[٢١] • ولم تواجه الحملة مقاومة تذكر عند نزولها على ساحل الجزيرة ، ومرد ذلك عدة عوامل أهمها : ان سكان الجزيرة كانوا غير ميالين للبيزنطيين بسبب سوء ادارتهم ، ورفضهم للسياسة اللا ايقونية ، التي سارت عليها بيزنطة في هذه الفترة[٢٢] • وربما كان الضعف قد لحق بالاساطيل البيزنطية بسبب اشتراكها في حركة توماس — اذ انقسمت بين مؤيد ومعارض — فاصيبت بدمار كبير[٢٣] • كما يبدو انه لم يكن في الجزيرة قوة حربية كبيرة[٢٤] •

وقدم أحد المؤرخين البيزنطيين رواية مفادها : ان أبا حفص أحرق السفن التي أقلته وجماعته ، عند نزوله سواحل الجزيرة ، للحيلولة دون تراجع القوة التي معه ، وعند احتجاج رجاله على هذا العمل ، لانه فصلهم عن زوجاتهم ، أجابهم ان بامكانهم أن يجدوا لهم زوجات في الجزيرة[٢٥] • على أنه من

---

١٩ — البلاذري ، فتوح ، ١/٢٧٩ •
٢٠ — فازيليف ، العرب والروم ، ٥٥ •

21—The Arab Occupation of Crete, PP. 341-342.
22—Bury, E.R.E, P. 288.

٢٣ — الخربوطلي ، الاسلام في حوض البحر المتوسط ، ٧١ ، احمد عبدالكريم سليمان ، المسلمون والبيزنطيون ، ١/١٠٢ •
٢٤ — فازيليف ، العرب والروم ، ٥٦ •

25—Brooks, The Arab Occupation of Crete, P. 432.

الصعوبة بمكان تصديق مثل هذه الرواية ، فليس سهلا التوفيق بينها وبين حقيقة ان الفاتحين اضطروا للرحيل عن الاسكندرية — وهو ما يتجاهله المؤرخ البيزنطي — ويفترض في هذه الحال انهم يحملون معهم زوجاتهم على هذه المراكب[26]. وربما اقتصر الامر على احراق بعض المراكب التالفة وغير الصالحة للملاحة[27] . ويحتمل ان هذه القصة صدى لقصة احراق طارق بن زياد سفنه عند فتح الاندلس ، وكلاهما موضوع .

بعد أن استقر الفاتحون في الجزيرة ، اعلنوا تبعيتهم للخلافة العباسية ، واستمر ذلك حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة[28] . وكان غرضهم من ذلك ، الحصول على الدعم والمساعدة من اقليم الخلافة العباسية القريبة ، لمواجهة الخطر البيزنطي .

ولم يكن بمقدور الامبراطور البيزنطي تجاهل الخطر الذي هدد سواحل امبراطوريته والناجم عن فتح الجزيرة . لذا سارع ميشيل الثالث الى تعيين فوتيوس — ستراتيج بند الناطليق — ستراتيجيا لكريت ، فوقع عليه واجب استعادتها . وقاد حملة بعد عدة اشهر لاستعادة الجزيرة ، لكنه ادرك ان القوة التي معه غير كافية لهذه المهمة ، فتم تعزيز الحملة بالامدادات ، ومع ذلك فان مسلمي كريت دمروا القوة البيزنطية المهاجمة وأسروا قائد الامدادات نفسه، ولم يتمكن فوتيوس من النجاة الا بصعوبة بالغة، حيث هرب الى جزيرة Dios الى الشمال من الخندق — التي بناها الفاتحون عاصمة لهم — . ثم قرر الامبراطور توجيه حملة أخرى ، قادها هذه المرة كرايتر ، ومكونة من (٧٠) سفينة ، وفشلت الحملة أول الامر في النزول الى الساحل ، غير انهم تمكنوا

26—Ibid, PP. 432-433; Fahmy, P. 131.

٢٧ — فازيليف ، العرب والروم ، ٥٧ ، هامش —١— .

٢٨ — احمد عبدالكريم سليمان ، ١٠٣/١ .

آخر النهار من تحقيق ذلك ، لكنهم لم يستغلوا النصر الذي حققوه ، فلم يتابعوا المنهزمين ، بل آثروا الركون الى الراحة • وفي غمرة فرحهم ، وعدم اتخاذهم الاحتياطات اللازمة بوضع الحراسة على المعسكر • فباغتهم المسلمون في معسكرهم ، وأنزلوا بهم خسائر فادحة، حتى اضطر كرايتر ، قائد الحملة للهرب على ظهر سفينة تجارية الى جزيرة Cos ، غير انه لم ينج ، اذ قبض عليه هناك وقتل • وأمام هذا الخطر المتعاظم ، عمل الامبراطور على توفير الحماية للجزر الاخرى ، والتي كان يتهددها الخطر ، فأرسل حملة ثالثة قادها أوريفاس ، أجلت مسلمي كريت عن عدد من الجزر الصغيرة والتي سبق لهم السيطرة عليها • بيد أنها لم تسجل أية محاولة جديدة لاستعادة كريت نفسها[٢٩] •

استمرت هجمات مسلمي كريت على السواحل والجزر البيزنطية ، اذ هاجموا جزيرة السكلاديز ، وهاجموا مدينة مونغازيا جنوب شرق البلوبونيز، كما أغاروا على جزيرة ايجينيا في خليج سارونيك[٣٠]•وهاجموا أيضا سواحل آسيا الصغرى ، ودمروا جزءا من سواحل تراقية ، وأسروا أعدادا من سكان هذه المناطق، بل أنهم وصلوا الى جبل لاتوس الشهير بأديرته ، الا أنهم هزموا على يد ستراتيج بند تراقية • وفي عام ٢١٤هـ/٨٢٩م ، دمروا اسطولا بيزنطيا بالقرب من جزيرة تاسوس[٣١] •

لقد كان لفتح جزيرة كريت أهمية ستراتيجية كبيرة ، اذ أصبحت الدرع الواقي من هجمات الاساطيل البيزنطية ، كما أن أهمية الجزيرة للبيزنطيين ليست بأقل من ذلك ، فهي بمثابة الجسر الذي يربط شبه جزيرة البلوبونيز

---

٢٩ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ٦٠ــ٦١ ، كذلك :
Bury, E.R.E, PP. 289-290.

٣٠ ــ احمد عبدالكريم سليمان ، ١/١٠٨ •
٣١ ــ المرجع السابق ، ١/١٠٨ــ١٠٩ •

بسواحل آسيا الصغرى ، فتتحكم بالممرات المائية الذاهبة الى سواحل آسيا الصغرى ومقدونية . فضلا عن مجـاورتها لعدد من الجزر هي : رودس وسكربنتو وميلوس وساموس وخيوس ولمنوس وتاسـوس وميثيلين . لذا أصبح بمقدور مسلمي كريت تهديد الامبراطورية تهديدا مباشرا . فضلا عن ذلك،ان الجزيرة غنية بالاخشاب التي يستفاد منها في بناء السفن الحربية[٣٢]. وكانت الاتصالات مستمرة بين مسلمي كريت ومصـر ، اذ كانت الاخـيرة تجهزهم بالسلاح والمعدات الحربية . ويمدوها هم بأخشاب صناعة السفن ، ثم تقوم بتزويدهم بقسم منها . وبفعل هذا التعاون تمكنت البحرية العربيةمن استعادة مجدها السابق في شرق البحر المتوسط ، منذ مطلع النصف الثـاني من القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي[٣٣] . لذا فان الحملات البيزنطية على شواطىء مصر،كانت بسبب امدادها مسلمي كريت بالاسلحة والعدد[٣٤].

حركة بابك الخرمي وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية :

تعد حركة بابك الخرمي من الحركات الخطيرة التي واجهتهـا الدولة العباسية ، عسكريا وسياسيا واجتماعيا ، وهي بوصفها من الحركاتالشعوبية الانفصالية ، التف حولها الكثير من المؤيدين من سـكان الاقـاليم الشمالية للدولة . وآخرون من الناقمين على الدولة ــ من غير الخرميين ــ مثل حاتم بن هرثمة بن أعين ، الذي عمل للثأر والانتقام من مقتل والده[٣٥].

أما المنطقة التي لاقت فيهـا الحركـة نجاحا ، فهي أذربيجان والقسـم الشمالي الغربي من أرمينية[٣٦] . انظر الشكل رقم-١٥- وهي منطقة جبلية

٣٢ ــ احمد مختار العبادي وعبدالعزيز سالم ، البحرية الاسلامية في مصـر والشام ، ٤٠ .
٣٣ ــ نفس المرجع والصفحة .
٣٤ ــ ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ٢٢٣ .
٣٥ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٠٢ .
٣٦ ــ حسين قاسم العزيز ، البابكية ، ٣٩ .

وعرة كثيرة الادغال بعيدة نسبيا عن مركز الخلافة[٣٧] . فكان لهذه الخصائص أكبر الأثر في اطالة عمر الحركة ، اذ شكلت عائقا كبيرا أمام السلطة المركزية فيما بذلته من جهود للقضاء عليها . أما العناصر المؤيدة للحركة ، فقد تضمنت جماعات ايرانية من جرجان والديلم وطبرستان ومناطق ايران الشمالية الغربية، وجماعات أخرى من الارمن والاكراد بل من العرب. وعليه فلا يمكن أن تكون هذه الحركة أذربيجانية بحتة[٣٨] . أو أنها « انتفاضة الشعب الاذربيجاني ضد الخلافة العباسية »[٣٩] . ان الهدف الرئيس لهذه الحركة ، هدم سلطة الدولة ودينها الاسلامي ، في مناطق قيامها المشار اليها[٤٠]. كما أنها قامت على اسس فكرية هدامة ، فبابك كان من « الهراطقة »[٤١] . وأقرت حركته عبـادة أبي مسلم الخراساني ، وآمن أتباعها بتناسخ الارواح والاباحـة الجنسية[٤٢] . واستمدت هذه المبادىء من الديانات الايرانية القديمة في أغلب جوانبهـا . لذا فانه ليس سهلا وصف الحركة بأنها ذات برامج ثورية اجتماعية[٤٣] ..

وقيل الكثير بصدد تفسير هذه الحركة ، فجعل منهـا كلود كاهن ثورة فلاحية ، اذ استغل بابك الظروف الاجتماعية ، لا سيما سخط الفلاحين « على حفنة من كبار الملاكين العرب المسلمين الذين اسـتأثروا بنصيب وافر من أراضيهم»[٤٤] في حين جعل آخر منها احدى الحركات الحديثة ذات الابعاد الطبقية بقوله :

---

٣٧ ــ المرجع السابق ، ١٨٦ .
٣٨ ــ فاروق عمر ، البابكية وفكر القرن العشرين ، ٧٧ .
٣٩ ــ حسين قاسم العزيز ، ٣ .
٤٠ ــ عبدالعزيز الدوري ، العصر العباسي الاول ، ٢٣٢ .
٤١ ــ برنارد لويس ، ١٤٤ .
٤٢ ــ بروي ، ٣/١٣١ .
٤٣ ــ فاروق عمر ، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ، ٢٢٣ .
٤٤ ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ٨٠ .

« ••• ولم تكن الانتفاضة (أي حركة بابك)وليدة الصدفة وانما لها جذورها التاريخيـة ، فهي كسائر انتفاضات الخرميين، وليدة تراكمات أحقاد المستغلين من فلاحين وبقية شغيلة المدن وصغار المتكسبين ،الذين كانوا يعانون أيضا ، كالفلاحين من شـدة قساوة الاستغلال الاقطاعي المتعسف والجور الحكومي »[٤٥] •

ولا شك ان هذا التفسير ، أثقل كاهل الحركة ، بأوصاف ونعوت بعيدة عن الحقيقة ، بل هي أصلح ما تكون لوصف احدى الحركات الطبقيـة في عصرنا الحالي • اذ أن أمثال هذه الحركات ، تستلزم أساسا ، توفـر الوعي الطبقي ، ولا جدال ان هذا الامر لم يكن متيسرا لاتباع بابك• كما انهلايمكن وصف الحركة بهذا الوصف وقد انظم اليها الاقطـاعيون والارستقراطيون وساندها الامبراطور البيزنطي[٤٦] •

ويرى شعبان : « ان أية محاولة لتفسير هـذه الثورة على أسس دينية لا قيمة لها ولا معنى »[٤٧] • على أنه ليس بوسعنا الا أن نقول : ان هـذه الحركة ــ لا الانتفاضة أو الثورة ــ ليست أكثر من حركة انفصالية تقوم على هرطقات دينية ، حاولت استعادة أمجاد الديانات الايرانية القديمة • لذا فهي حركة شعوبية انفصالية حاقدة على الدولة والمجتمع الاسلاميين[٤٨] • وكأي من الحركات السياسية ، سعت الى استغلال كل ما يمكن في سبيل الوصول الى أهدافها ، كالظروف الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية • على أن هذا لا يخفي بأي حال ، الجوهر الحقيقي للحركة الذي أشرنا اليه •

---

٤٥ ــ حسين قاسم العزيز ، ٣٩ •
٤٦ ــ فاروق عمر ، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين ، ٢١٨ •
٤٧ ــ الدولة العباسية ، ٧٥ •
٤٨ ــ انظر مثلا : الطبري ، تاريخ ، ٥٣/٩ ، ١٠٩ •

وأول عمل مسلح سجلته مصادرنا للخرمية في اذربيجان ، حدث في عام ١٩٢هـ/٨٠٧ــ٨٠٨م ، فوجه اليهم الرشيد حملة كبيرة مكونة من (١٠) آلاف فارس[٤٩] • وأشار المقدسي الى أن الذين قتلوا في هذه الحملة من الخرمية بلغ (٣٠) ألفا[٥٠] • ولا شك في ان هذا الرقم فيه قدر كبير من المبالغة • ومع هذا يبدو أنها ألحقت بهم هزيمة كبيرة • حتى انهم لم يتحركوا مرة ثانية قبل مرور عشرين سنة على هذه الحملة • وشبت حركتهم الثانية في عام ٢٠١ هـ/ ٨١٦ــ٨١٧م ، وفيها ظهر نشاط بابك واضحا في الحركة[٥١]• وغالبا ماوردت اشارات مقتضبة عن تعيين قادة تولوا محاربة بابك[٥٢] • مما يعني ان الحركة كانت مستمرة في نشاطها ، وان الظروف والعوامل المختلفة لم تتح بعد للدولة فرصة القضاء عليها أو وضع حد لها • بل أن بابك الحق أكثر من هزيمةبجيوش الدولة[٥٣] • وعندما توفي المأمون ، كانت الحركة ، في عنفوان قوتها • لذا كانت النقطة الاولى في منهج عمل الخليفة المعتصم ، هو القضاء على هــــذه الحركة • فوجه الجيوش المتتالية الى منطقة انتشارها • وأهم هذه الحملات، تلك التي قادها اسحاق بن ابراهيم بن مصعب في عام ٢١٨هـ/٨٣٣م ، الذي ألحق بالحركة هزيمة فادحة بلغ قتلاهم فيهــا (٦٠) ألفاً !!؟ وهرب البقيــة الى الامبراطورية البيزنطية[٥٤] •

وفي عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م ، عقد المعتصم للافشين لواء محــاربة بابك ، ولسنوات ثلاث كانت القوات العباسية تعمل بدأب وصبر لتضييق الخناق على

٤٩ ــ الطبري ، تاريخ ، ٣٢٩/٨ •
٥٠ ــ المقدسي ، البدء والتاريخ ، ١٠٣/٦ •
٥١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٥٦/٨ •
٥٢ ــ المصدر السابق ، ٥٩٥/٨ ، ٦٠١ ، ٦١٩ ، ٦٣٢ •
٥٣ ــ المصدر السابق ، ٦٢٢/٨ •
٥٤ ــ المصدر السابق ، ٦٦٧/٨ــ٦٦٨ •

الحركة وانهائها • واستلزم ذلك جهدا هائلا ، حتى تم القضاء عليها في عام ٢٢٣هـ/٨٣٦ـ٨٣٧م[٥٥] •

أما بخصوص علاقة بابك الخرمي بالامبراطورية البيزنطية ، فكان لها ثلاثة أوجه :

١ ـ لجوء أعداد كبيرة من الخرميين الى الاراضي البيزنطية •
٢ ـ المفاوضات بين بابك والبيزنطيين للتحالف بوجه الدولة العباسية•
٣ ـ تفكير بابك نفسه في الهرب الى الاراضي البيزنطبة •

اذ سبقت الاشارة الى رواية للطبري ذكر فيها هرب اعداد من الخرميين الى الاراضي البيزنطية ، ويبدو ان هؤلاء كان عددهم (١٤) ألفاً ، أصبحوا بعد ذلك حوالي (٣٠) الفا[٥٦] • ووصل هؤلاء الى سينوب ـ على الساحل الجنوبي للبحر الاسود ـ عبر طربزون ، لانه لم يكن بمقدورهم المرور من منطقة الثغور الاسلامية[٥٧] • وقدم هؤلاء خدماتهم للجيش البيزنطي • وتولى قيادتهم ضابط ايراني هو نصر الكردي ، والذي دعي بـ « تيوفوب » لانه على معرفة بلغتهم وطبيعتهم[٥٨] •

وبمعونة تيوفوب هذا ، جرت المفاوضات بين الامبراطور ثيوفيل وبابك الخرمي[٥٩] • وساعد على ذلك ان مصالح الطرفين كانت مشتركة في القضاء على الجيوش العباسية ، وتحطيم قوة وسيادة الدولة[٦٠] • وردا على هذا التحالف هاجم المأمون الاراضي البيزنطية في محرم من عام ٢١٥هـ/آذار

---

٥٥ ـ المصدر السابق ، ٩/١١ـ١٧ ، ٢٣ـ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ـ٥١ •
56—Bury, E.R.E, P. 252, note, 2.
57—Ibid, P. 253.
58—Ibid, PP. 252-253.
59—Ibid, P. 252.

٦٠ ـ حسين قاسم العزيز ، ٢٠٤ •

٨٣٠م[٦١] • وتعزز هذا التحالف بعد ان حشد المعتصم معظم قواته للقضاء على بابك وحركته ، حتى ان الاخير ارسل الى ثيوفيل مستنجدا ليقوم بعمل عسكري علّه يخفف من ضغط القوات العباسية عنه ، ومما جاء في رسالته:

> « ••• ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه — يعني جعفر بن دينار — وطباخه — يعني ايتاخ — ولم يبق على بابه أحد ، فان أردت الخروج اليه فاعلم انه ليس في وجهك أحد يمنعك »[٦٢] •

الا أن كل هذه الاستخبارات لم تثن المعتصم عن قراره ، حتى أنه ترك أمر الثغور — على الرغم من خطورة الموقف هناك — ريثما ينتهي من تصفية الحركة والقضاء عليها • وعندما أدرك بابك استحالة استمرار حركته ، حاول الهرب والتوجه الى الامبراطور ثيوفل[٦٣] • ان دعم البيزنطيين لحركة بابك، جاء منطلقا من موقفهم المعادي للدولة العباسية •وردا على موقفها المؤيد لحركة توماس •

وفي الفترة بين عامي ٢١٠—٢١٥هـ/٨٢٥—٨٣٠م ، اتخذت الاحداث طابع الغموض ، لعدم وجود اشارات واضحة وصريحة بها • ففي عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥—٨٢٦م ، قدم الى المأمون وفد بيزنطي حاملا عرضا للسلام ، الا أن المأمون رفضه ، بل أنه كتب الى عماله على الثغور ، يحثهم على شن الغارات على الاراضي البيزنطية • فقام هؤلاء بعدة هجمات أقلقت الامبراطورية ،

---

٦١ — بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ٢٠١ ، عبدالعزيز الدوري ،العصر العباسي الاول ، ٢٢٢ •
٦٢ — الطبري ، تاريخ ، ٥٦/٩ •
٦٣ — الطبري ، تاريخ ، ٤٧/٩ •

وحققوا فيها نجاحات كبيرة[٦٤]. ويبدو ان من بينها قيام عبدالله بن طاهر بن الحسين باستعادة حصن كمخ ، لكنه لم يبق بيد المسلمين فترة طويلة ، على ما يظهر ، لان السكان المحليين القدامى في شمشاط وقاليقلا سلموه للبيزنطيين بالتعاون مع بقراط بن آشوط، بطريق خلاط[٦٥]. ولعل أسبابا من هذا النوع، هي التي دفعت بعض الخلفاء الى ترحيلهم عن مناطق الثغور كما أسلفنا .

أما مصادرنا الاخرى فلم تشر الى هذه الغارات ، الا أن انفراد البلاذري بذكرها ، لا يقلل من قيمتها التاريخية . كما أنه لا يذكر من تفاصيلها ، سوى اصابة يقظان بن عبد الاعلى بن أحمد بن يزيد بن أسيد السلمي[٦٦] . الذي ربما كان من القادة أو عمال الثغور في هذه الفترة .

وفي عام ٢١٤هـ/٨٢٩-٨٣٠م ، حشد ثيوفيل قواته وتوجه الى زبطرة فاحتلها وقتل رجالها وسبى سكانها ، ثم أضرم النيران فيها وعاد[٦٧] . وبهذا تكون الاسباب قد توافرت ليبدأ المأمون عملياته العسكرية الواسعة في الاراضي البيزنطية . فقام في محرم من عام ٢١٥هـ/آذار ٨٣٠م بترك بغداد منطلقا من الشماسية الى تكريت ومنها الى الموصل ثم نصيبين فحران فالرها فمنبج ثم دابق فأنطاكية فالمصيصة ومنها قصد طرسوس ليوغل منها في الاراضي البيزنطية[٦٨] . وفي منتصف جمادى الاولى من هذه السنة / حوالي منتصف تموز ٨٣٠ م دخل المأمون أراضي العدو من درب طرسوس ، في حين دخل ابنه العباس من درب الحدث[٦٩] . في حين أشار ابن أعثم الى العكس من ذلك - أي أن المأمون دخل من درب الحدث ودخل العباس من

---

٦٤ - البلاذري ، فتوح ، ١/٢٢٠ .
٦٥ - نفس المصدر والصفحة .
٦٦ - نفس المصدر والصفحة .
٦٧ - المصدر السابق ، ١/٢٢٨ ، ابن العبري ، تاريخ ، ٣٠ ، كذلك :
Bury, E.R.E, P. 254.
٦٨ - ابن طيفور ، كتاب بغداد ، ٦/٢٦٢-٢٦٣ ، الطبري ، تاريخ، ٨/٦٢٣.
٦٩ - ابن طيفور ، ٦/٢٦٣ ، الفسوي ، ١/١٩٩ ، الطبري ، تاريخ ٨/٦٢٣ .

طرسوس[٧٠] • ويبدو ان قول ابن طيفور هو الاصح ، لا سيما وان كل من الفسوي والطبري أيداه في ذلك ، وان كان الاخير قد نقل عنه معلوماته في هذا المجال •

أما عن نتائج هذه الحملة، أشار ابن قتيبة الى أن المأمون فتح حصون قره[٧١] وخرسنة وصمالو[٧٢] • في حين ذكر اليعقوبي انه فتح أنقرة — وهي هنا لابد محرفة عن قرة — وان فتحها كان نصفه صلحا ونصفه عنوة ؛ وانه فتح حصن شمال — صمالو —[٧٣] وذكر ابن طيفور : « ••• لما فتح المأمون حصن قرة وغنم ما فيه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلا سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا •»[٧٤] وأخطأ الفسوي بجعل أحداث هذه السنة في السنة التالية ٢١٦هـ[٧٥] • وقدم الطبري تفاصيل اخرى جديدة بخصوص فتح قرة ، وقدم روايتين ، جاء في الاولى : ان المأمون حاصر حصن قرة ، ثم فتحه عنوة وامر بهدمه • وكان قبل ذلك قد فتح حصن ماجدة « فمنّ على اهلها »[٧٦] • اما الرواية الاخرى فأشارت الى أن أهل قرة طلبوا الامان من المأمون عندما حاصرهم فمنحهم اياه • ثم وجه المأمون اشناس الى حصن سندس[٧٧] ففتحه

---

٧٠ — الفتوح ، ٨/٣٣٣ •

٧١ — قرة : وهو على الارجح المعروف بحصن قورن عند الروم ، وربما هو قوري الحالية على بعد ٣٠ كم من فيران شهر •
فازيليف ، العرب والروم ، ٩٤ ، هامش ٤ •

٧٢ — المعارف ، ٣٩١ •

٧٣ — تاريخ ، ٣/٢٠٥ •

٧٤ — كتاب بغداد ، ٦/٢٦٤ •

٧٥ — المعرفة والتاريخ ، ١/١٩٩ •

٧٦ — تاريخ ، ٨/٦٢٣ •

٧٧ — سندس : وعرف عند الروم باسم سوندا او سوندس (شهر الجديدة) ويقع الحصن في قبادوقية ، وله اهميته الكبيرة ، لانه ملتقى الطرق المتوجهة الى قيسارية •
فازيليف ، العرب والروم ، ٩٥ ، هامش ٢ •

وجاء برئيسه . كما وجه عجيف وجعفر الى صاحب حصن سنان « فسمع وأطاع »[78] .

وقدم ابن أعثم رواية أكثر تفصيلا في بعض جوانبها ، فذكر ان المأمون نقل أهل ماجدة الى طرسوس ، بعد منحهم الامان . وأضاف ان المأمون «نزل على قرية يقال لها قرة فحاربه أهلها حربا شديدا » ـ ويبدو انه أخطأ بعدّه قرة مجرد قرية، اذ لو كانت كذلك لما صمدت أمامه وتصدت له ـ ثم سأله اهلها الامان مقابل أسرى من المسلمين كانوا عندهم . بعد ذلك رحل المأمون الى حصن « أرلة » فجاء الخبر بنقض أهل قرة للاتفاق ، فعاد اليهم ونصب عليهم المجانيق ، وهدم جانبا من السور ، فطلبوا الامان فأمنهم ثانية .وأضاف ان المأمون دعا زعيم الحصن « باطليش » فأعطاه ألف دينار لترميم ما تهدم من السور . ثم توجه الى مطمورة تدعى « ملوية » فلما همّ بحربهم ، خرجوا اليه طالبين الامان . « فأعطاهم ذلك وكساهم وأحسن اليهم وردهم الى حصنهم » ثم وجه المأمون عجيف بن عنبسة الى « غراليوس » صاحب حصن سنان[79] « وأعلمه (غراليوس) انه سامع مطيع » فأمر المأمون عجيفا بالانصراف عن الحصن[80] . ان رواية ابن أعثم تتفق في خطوطها الرئيسة العامة مع المصادر الاخرى . واشار ابن العبري الى أن المأمون فتح أربعة حصون في قبادوقيا[81] .

أما بصدد اختلاف الروايات حول كيفية فتح حصن قرة . فيبدو ان رواية اليعقوبي أكثر رجحانا ، اذ ذكر فيها ان الحصن فتح نصفه عنوة ونصفه الآخر صلحا . وربما فسر هذا روايتي الطبري المتناقضتين ، اذ أشارت

---

٧٨ ـ تاريخ ، ٨/٦٢٣ـ٦٢٤ .
٧٩ ـ سنان : حصن يقع على الارجح بين هرقلة والطوانة .
فازيليف ، العرب والروم ، ٩٥ ، هامش ٣ .
٨٠ ـ الفتوح ، ٨/٣٣٤ـ٣٣٥ .
٨١ ـ تاريخ ، ٣١ .

احداهما الى ان الفتح تم مرة صلحا ومرة عنوة • في حين جعل ابن أعثم الفتح قد تم مرتين • أما المساعدات المالية التي قدمت لاهل الحصن ، فربما كانت تعويضا عما لحق من أضرار بذلك الجزء الذي فتح صلحا من الحصن •

أما القسم الآخر من الحملة ، فدخلت الاراضي البيزنطية في رمضان من عام ٢١٥هـ/تشرين الاول ٨٣٠م[٨٢] • أي بعد دخول القسم الاول بثلاثة أشهر ، وبني ذلك على خطة احترازية وقائية ، أخذت بالحسبان احتمال اغارة العدو على الثغور والقيام بعملية التفاف على قوات المأمون • وبعد اطمئنان العباس الى أن ذلك لن يحدث ، دخل الاراضي البيزنطية ، ومعه أحد الهاربين البيزنطيين ويدعى منويل ، وهو على ما يظهر قد نال ثقة العباس ، حتى استخلفه على ما فتح من اماكن ، غير انه عاد الى وطنه ثانية[٨٣] • ولجأ الى جيرون قرب الحدث • اما هربه الى الدولة العباسية فكان في فترة سابقة ايام ميشيل الثاني[٨٤] • وكان هربه في هذه السنة ـ ٢١٥هـ/٨٣٠م ـ[٨٥] • أما قول اليعقوبي انه هرب من قرة ، فهو خطأ واضح ، لان منويل كان مع العباس وليس مع المأمون • وربما كان قصده ، انه قرن بين هربه وفتح قرة • ولم يقدم الطبري سوى اشارة عابرة عن منويل ، الذي سماه « متويل » بقوله انه كان برفقة العباس عندما التقيا بالمعتصم عند رأس العين[٨٦] • في حين ذكر ابن العبري أن منويل كان ستراتيجا ، ثار على البيزنطيين وقصد المأمون ، ثم حرضه على مهاجمة الاراضي البيزنطية ، فسار المأمون الى قبادوقية ، لكنه لم يشر الى هربه ، وبنى على ذلك نتائج[٨٧] • ودعوة ابن العبري ان منويل كان

---

٨٢ ـ كتاب بغداد ، ٦/٢٦٤ •
٨٣ ـ ابن طيفور ، /٢٦٤ •
84—C.M.H, 4/1, P. 710.
٨٥ ـ تاريخ ، ٣/٢٠٥ ، فازيليف ، العرب والروم ، ٩٦ •
٨٦ ـ تاريخ ، ٨/٦٢٤ •
٨٧ ـ تاريخ ، ٣١ •

وراء العمليات العسكرية للمأمون ، فانها لا تقوم على أســـــاس ، فللمأمون أسبابه ــ سبق ذكرها ــ للقيام بهذه العمليات • وقــد يكون لمنويل دور في كشف بعض نقاط الضعف في الجبهة البيزنطية ، وهو على اطلاع بها لكونــه ستراتيجا لأحد البنود ، وحتى هــذا الامر فان الشكوك تحوم حولــه ، لان منويل ــ كما يبدو ــ كان مصمما على الهرب عندما تحين الفرصة المناسبة • وعلى أية حال فان هذه الحملة حققت نتائج مهمة ، اذ تم فتح عدد من الحصون • وفي أعقاب ذلك عاد المأمون الى طرسوس ، ومنها الى دمشــق[88] • لحلول فصل الشتاء[89] •

أما بخصوص أحداث السنة التالية « ٢١٦هـ/٨٣١م » فقد تضمنت عددا من التفاصيل • فبشأن دوافع حملة هذه السنة ، ظهرت الاختلافات واضحــة حول أسبابها • اذ قدم الطبري لها سببين ، تمثل الاول بقيام ثيوفيل بالاغارة على طرسوس والمصيصة ، وقتله ما يقرب من (١٦٠٠) من سكانها ، مما دفع المأمون لقيادة حملة انتقامية في جمادى الاولى/حزيران ٨٣١م » وأقــام في الاراضي البيزنطية حتى منتصف شعبان/منتصف ايلول ٨٣١م[90] • ثم أشار الطبري الى أنه « قيل » ان سبب هذه الحملة ، ان ثيوفيل كتب رســالة الى المأمون بدأها بنفسه ، الامر الذي أثار غضبه ورفضه قراءة الرسالة ، فخرج مغيرا على الاراضي البيزنطية[91] • في حين لم يشر ابن طيفور ــ الذي أخــذ عنه الطبري ــ الا الى السبب الاول[92] • ويبدو ان الطبري أراد استكمال معلوماته برواية جديدة • أما اليعقوبي ، فانه قدم رواية مختلفة تماما ، فحواها : انه في أثناء تقدم المأمون في الاراضي البيزنطية في هذه السنة ، زحف اليــه

---

٨٨ ــ ابن طيفور ، ٦/٢٦٤ •
٨٩ ــ ابن أعثم ، ٨/٣٣٥ •
٩٠ ــ تاريخ ، ٨/٦٢٥ •
٩١ ــ التاريخ ، ٨/٦٢٥ •
٩٢ ــ كتاب بغداد ، ٦/٢٦٤ــ٢٦٥ •

ثيوفيل ، فأرسل المأمون ابنه العباس متصديا له ، وألحق به الهزيمة . مما اضطر ثيوفيل الى ارسال تلك الرسالة الى المأمون الذي ردها ، فكتب اليه ثيوفيل رسالة اخرى جديدة ، ولم يشر اليعقوبي الى أية عمليات على اثر الرسالة المذكورة[٩٣] . أما رواية صاحب العيون والحدائق فكانت مشابهة لرواية الطبري ، الا أنه أضاف اليها ان ثيوفيل قدم للمأمون (٥٠٠) من الاسرى المسلمين ، قبل أن يباشر الاخير عملياته العسكرية وعندما كان في أذنة . واستطرد فذكر : انه في هذه السنة التقى العباس بثيوفيل وألحق به الهزيمة. أما الرسالة التي بدأها ثيوفيل بنفسه ، فانه أوردها في احداث العام التالي ٢١٧هـ/٨٣٢م[٩٤] . ولم يشر الازدي الا الى الـ (٥٠٠) أسير[٩٥] . في حين ان رواية ابن أعثم ذكرت ان رسل ثيوفيل قدموا الى المأمون وهو في دمشق ، حاملين رسالته المذكورة . وأشار الى حوار طريف بين الخليفة وهؤلاء الرسل، فاخر فيه الخليفة بنفسه على الامبراطور . وفي هذه الاثناء وصل كتاب الافشين بتمرد عبدوس الفهري في مصر « فرحل المأمون عن بلاد الروم بعساكره يريد بلاد مصر » ولكنه عند العريش أناب عنه المعتصم وعاد هو الى دمشق ، وأقام الشتاء فيها ، ثم دخل الاراضي البيزنطية لحصار لؤلؤة[٩٦].

ويبدو من هذه الروايات ، انه ليست هناك علاقة بين حملة المأمون في هذه السنة وبين رسالة ثيوفيل هذه . فالطبري شكك فيها ، ثم ذكرها في أحداث العام التالي ، أي سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م[٩٧] . وسايره في ذلك صاحب العيون والحدائق . وحتى هذا يمكن فهمه عند التدقيق في رواية ابن أعثم . كما أن اليعقوبي لم يشر الى أي رد فعل تجاه الرسالة .

---

٩٣ ــ تاريخ ، ٣/٢٠٥ .
٩٤ ــ العيون والحدائق ، ٣/٣٧٤ــ٣٧٥ .
٩٥ ــ تاريخ ، ٤٠٥ .
٩٦ ــ الفتوح ، ٨/٣٣٥ــ٣٣٨ .
٩٧ ــ تاريخ ، ٨/٦٢٩ .

اذن فحملة المأمون لا يمكن أن تكون الا ردا على غـارة ثيوفيل الذي حرص على الانتقام من هزيمته في العام السابق • فاغتنم فرصة ابتعاد المأمون عن منطقة العمليات ، ووجد الفرصة سانحة ، فعبر جبال طوروس وقام بمذبحة راح ضحيتها نحو الفين من سكان الثغور • وربما أرسل فرقا اخرى من جيشه للاغارة على الاقسام الشمالية الشرقية من قبادوقيا ، فألحقت بالمسلمين خسائر فادحة عند حصن خرشنة في البند الذي يحمـل نفس الاسم ، وأُسِـر من المسلمين (٢٥) ألفا[٩٨] • ومع ما في هذا الرقم من مبالغة بينة ، لكن يبـدو ان عدد الاسرى كان كبيرا • واحتفل ثيوفيل في عاصمته بهذا « النصـر » وفرّق الذهب ووزعه على حاشيته عدة أيام[٩٩] • ويعكس هـذا الامر حالة نفسية متردية ، سادت الاوساط الرسمية والعامة على حد سواء • كما تعكس الى أي حد كانت الامبراطورية تعاني من انكسار نفسي ، فراحت تبحث عن نصر مهما كان • في حين ان ما احرزه الامبراطور لا يعـدّ نصرا حقيقيا من وجهين : لأنه من طرف ، لم يصطـدم بالقوة الرئيسـة للعباسـيين ، بل بقوى محلية • وان النتائج التي حققها ، من طرف آخر ، بدت في صورة مبالغ فيها وأكبر من حجمها الحقيقي • فاذا كان الامبراطور قد قتل ألفين من سكان الثغور ، فليس سهلا اقتياد (٢٥) ألفا من الاسرى ، لا سيما وان ثيوفيل عرض في فترة لاحقة (٧٠٠٠) من الاسرى ، جزءا من ثمن للسلام بين الطرفين •

وعلى أية حال ، فانه تعين على الامبراطور أن يؤدي ثمن ما ارتكبه من تسرع في حملته هذه • اذ عزم المأمون على قيـادة حملة على الامبراطورية • فافتتح المأمون(١٢)حصنا وعدة مطامير،وألحق العباس الهزيمة بثيوفيل[١٠٠] • وربما كـانت أكثر من ذلك[١٠١] • اذ تقـدم المـأمون الى حصن انطيعو

---

٩٨ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ٩٦ •
٩٩ ــ المرجع السابق ، ٩٧ــ١٠٠ •
١٠٠ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٠٥ •
١٠١ ــ ابن طيفور ، ٦/٢٦٥ •

« الانطيقون ــ أوطيعو » في قبادوقية ، فخرج اليه أهله طالبين الصلح . وكذا فعل أهل هرقلة حين تقدم اليهم . ثم وجه أخاه المعتصم في قوة تمكن بها من فتح « ثلاثين » حصنا ومطمورة . كما وجه يحيى بن أكثم من الطوانة ــ التي يبدو ان المأمون سار اليها بعد هرقلة ــ فأغار على عدة مناطق ، وألحق بهــا الدمار وأخذ معه سبياً كثيرا وعاد الى الطوانة . وفي أعقاب ذلك خرج المأمون الى كيسوم ــ من أعمال سميساط ــ وأقام فيها أياما قليلة ، ثم توجــه الى دمشق[١٠٢] . وقدم صاحب العيون والحدائق تفاصيل أخرى . فذكر ان من بين الحصون التي فتحها المأمون حصن الاحرب« الاخرب ــ الاجرب »ففتحه صلحا ، توجه بعدها الى حصن الحصين ــ في القسم الجنوبي من قبادوقية في سهل فيناسا ــ . في حين فتح المعتصم مجموعة من الحصون مكونة من (١٢) حصنا ، صلحا ، ثم دمرها واســـتولى على ما يمكن حمله منها ولم يتعرض لسكانها بأذى ، بحسب الامان الذي أعطاهم اياه . كما أنه أشــار الى لقــاء العباس بثيوفيل وتغلبه عليه ، وأضــاف انه اســـتولى على معسكره وغنم ما فيــــه[١٠٣]. ولا تختلف رواية ابن أعثم ، على العموم ، مــع هــــذه الروايات[١٠٤] .

أما كيف عبر المــأمون الى هرقلــة ، في الوقت الذي كانت الابواب القيليقية لا تزال بيد البيزنطيين . فالحقيقة ان الطريق بعد البدندون بعــــدة أميال ، تفترق عند مدينة صغيرة تدعى « كاينا » فيؤدي فرع منه الى الطوانة مارا بلؤلؤة ، وتسير الاخرى نحو الغرب باتجاه هرقلة ، وهي البعيدة نسبياعن لؤلؤة ، ومعها طريق أخرى تربط بين هرقلة والطوانة . وبهذا يكون بامكان المأمون الوصول الى هرقلة والطوانة متجنبا المرور بلؤلؤة[١٠٥] .

---

١٠٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٥٥ .
١٠٣ ــ العيون والحدائق ، ٣/٣٧٤-٣٧٥ .
١٠٤ ــ الفتوح ، ٨/٣٣٦ .
١٠٥ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ١٠٦ .

ان الاختلاف في بعض تفاصيل الحملة ونتائجها ، يعود في اعتقادنا ، الى أنها كانت حملة واسعة تفرعت الى حملات عدة ، أسفرت كل منها عن جملة من النتائج ، الامر الذي أدى الى تداخلها مع بعضها • الا أن هذا الاختلاف والتباين ، لم يؤثر في جوهر النتائج العامة التي خرجت بها الحملة •

وبخصوص أحداث عام ٢١٧هـ/٨٣٢م ، تباينت المصادر فيما بينها في ترتيب الاحداث • فاذا كان الطبري قد قدم دخول المأمون الاراضي البيزنطية على السفارة التي أرسلها ثيوفيل في هذه السنة[١٠٦] • في حين قدم اليعقوبي صورة معاكسة ، بل انه جعل مقدم هذه السفارة في العام السابق ، أي ٢١٦هـ/٨٣١م[١٠٧] • في حين يفهم من ابن أعثم ــ على الرغم من أنه لا يؤرخ أحداثه ــ ان مقدم السفارة كان في هذه السنة ــ ٢١٧هـ ــ وقبل حصار لؤلؤة[١٠٨] • وما أكده صاحب العيون والحدائق[١٠٩] • على ان الراجح ان الصورة كانت كالآتي : انه اما بعدعودة المأمون الى دمشق من حملته في عام ٢١٦هـ/٨٣١م ، وما لاحظه ثيوفل من دمار لحق بأقاليمه الشرقية ، فقرر طلب الموادعة والصلح ، حتى يكون بمنجاة من أي خطر جديد قد تتعرض له الامبراطورية • او انه في الشتاء الذي سبق حملة ٢١٧هـ/٨٣٢م ، نفذ قراره بطلب الصلح ، خوفا من نتائج الحملة المرتقبة ، والتي ربما قدّرها في ضوء معلومات استخبارية وصلته • وفي كلا الحالين فان السفارة قدمت في عام ٨٣٢م/٢١٦ــ٢١٧هـ • على انه يجب أن لا يغرب عن بالنا ، انه كان هنالك اربع رسائل في الاقل أرسلها ثيوفيل الى المأمون • ونحن هنا نشير الى الرسالة الاولى • أما ما ذكره الطبري من رسالة عام ٢١٧هـ/٨٣٣ م ، فلا يمكن أن

---

١٠٦ ــ تاريخ ، ٨/٦٢٨ــ٦٢٩ •
١٠٧ ــ تاريخ ، ٣/٢٠٥ــ٢٠٧ •
١٠٨ ــ الفتوح ، ٨/٣٣٦ ــ ٣٣٧ •
١٠٩ ــ العيون والحدائق ، ٣/٣٧٥ •

تكون هي الاولى ، وان كان التقديم لها قد أشار الى ذلك • الا انه يتضح من مضمون الرسالة انها ليست الاولى •

وتضمنت الرسالة الاولى عرضا للسلام ، لم تذكر المصادر فحواه ، غير ان الامبراطور بدأ الرسالة بنفسه ، بالصيغة الآتية : « من ثيوفل بن ميخائيل الى عبدالله بن هارون »[110] • أما الرسالة الثانية ، فكانت بعد أو في اثناء حصار لؤلؤة وفتحها ، اذ غيّر الامبراطور صيغة الرسالة — وربما مقدمتها فقط — بما ينسجم مع اصول اللياقة العامة • وربما أيضا ، ان مضامين عرض السلام هي نفسها في الرسالتين ، وسنأتي على ذلك تباعا • ورفض المأمون عروض البيزنطيين هذه ، معبرا عن رغبته في تدمير قوة العدو وتحطيم نقاطه الستراتيجية ، لذا كانت لؤلؤة — ذات الموقع الستراتيجي الخطير — الهدف الرئيس لهذه الحملة • وربما كان ذلك تعبيدا للطريق الى عمورية • أما مصادرنا الاساسية عن حملة لؤلؤة فهي : اليعقوبي ، والطبري وابن أعثم وصاحب العيون والحدائق •

ذكر اليعقوبي ، ان المأمون توجه بقواته قاصدا لؤلؤة • وبعد حصارها فترة من الزمن لم يتمكن من فتحها ، فبنى لقواته حصنين ، حتى يحكم الحصار عليها • وأنزل فيهما المعتصم وعاد هو سلغوس — قرب طرسوس — ، غير أبقى على أحدهما أحمد بن بسطام ، وأناب المعتصم عنه محمد بن الفرج بن أبي الليث بن الفضل على الحصن الآخر • وجهز الحصنين بالمؤن الكافية لمدة سنة — حسب ما تذكره الرواية — ثم ترك المأمون عجيف بن عنبسة قائدا عاما للقوات المحاصرة • وبطريقة او بأخرى ، لم تذكرها المصادر ، تمكن أهل لؤلؤة من أسر عجيف ، الذي بقي عندهم شهرا ، مما بث فيهم روح القوة ، فأرسلوا الى امبراطورهم بالخبر ، طالبين الامدادات والتعزيزات ، فأقبل ثيوفيل على

---

١١٠ — ابن اعثم ، ٨/٣٣٥ •

رأس قوة ، غير انه هزم من غير قتال ــ ويبدو ان لجغرافية المكان دورا مهماً في ذلك، فالقوة العباسية بمحاصرتها للحصن ، كانت هي المسيطرة على الابواب القيليقية ، ومن ثم لم يكن بوسع الامبراطور تقـديم أي عون لاهل لؤلؤة ، الذين أصبحوا في حالة يأس تام ــ مما دفعهم الى اتباع « الحيلة » اذ عرض قائدهم على عجيف ، أن يخلي سبيله ، مقابل طلب الامان لهم من المأمون.على أن يقدم لهم عجيف رهينة ضمانا لموقفه ، فوافق على هذا العرض ، ووعدهم باحضار ابنه رهينة. لكن عجيفا قلب « الحيلة » لصالحه ، بأن كتب الى المأمون ليرسل له اثنين من فتيان النصارى بزي اسلامي ، ويبدو انه أخبره بغايته من ذلك . وبعد دخول الرهائن الحصن وخروجه منه ، أخبرهم عجيف ان الذين بأيديهم من النصارى وليسوا مسلمين ، وخيرهم بما يصنعون بهما . فخاطب قائد الحصن عجيفا بقوله : « ان الوفاء حسن" وهو من دينكم أحسن » ممـا دفع عجيفا الى أخذ الامان لهم ، ففتح الحصن وأسكن بالمسلمين(111) .ويبدو ان الرواية ، مجملة ، مقبولة ومعقولة ، الا أن الجزء الخاص منها بتلك الخدعة يبدو عليه الضعف والهزال من النواحي الآتية :

١ ــ يبدو من الرواية ان صاحب الحصن هو الذي أراد الحيلة ، وربما نستنتج ان الحيلة قامت على أساس طلب رهينة يتم احتجازهـا مع عجيف . وربما أيضا لتهديد المحاصرين بقتل الرهائن، ان لم يجلوا عن الحصن .ويبدو ان الامر غير منطقي ، فحاميـة الحصن البيزنطيـة قـد طـال عليها الحصار حتى تضـرر بها ، كما أنها مهددة بنفاد المؤن ، وهي بحاجـة فعلية الى الامـان والصلح ، وليس الى الدخول بمأزق جديد . كما ان هذه الحامية كانت تدرك ان المسلمين لن يفرطوا بالحصن بهذه السهولة. وحتى اذا تعين عليهم الرحيل عن الحصن ، فمن يضمن سلامة الرهائن بعد ذلك ؟ الامر الذي شككك بصحة رواية هذه الحيلة .

---

١١١ ــ تاريخ ، ٣/٢٠٧ .

٢ ــ في الجانب الآخر ، فان ما قام به عجيف ، يبــدو هو الآخر ، غير منطقي • فالقوة العباسية ، كانت بحاجة الى فتح الحصن صلحــا لا عنوة ، لا سيما بعد طول مقامهم عليه • وهو ما ييسر أمر التفاوض بين الطرفين •

٣ ــ ومعروف ان من صلاحيات القادة العسكريين المسلمين ، منح الامان لعدوهم ، دون أن يبنى على ذلك اتفاق للسلام ، فالامــر هنا ليس بحاجة الى موافقة المأمون على منح الامان• ان قصة هذه الحيلة المتبادلة ، لم تكن اكثر من رواية طريفة أراد منها الراوي ، اظهار ذكاء عجيف وبراعته • على أية حال، فان الرواية تنتهي عند حد السيطرة على الحصن واسكانه بالمسلمين ، لاشرافه على أية فعالية عسكرية في المنطقة •

ثم جاءت رواية الطبري ، مختصرة كثيرا ، فالمأمون حاصر لؤلؤة (١٠٠) يوم ، وان عجيفا أسر (٨) أيام فقط ، ثم أطلقته حامية الحصن قبل مقدم ثيوفيل ــ دون أن يقدم تفسيرا لهذا الاجراء ــ ثم أقبل ثيوفيل ليحيط بقوات عجيف مما اضطر المأمون الى ارسال قوة من الجند ، لكن ثيوفيل رحل قبل وصولها، أهل لؤلؤة طالبين الصلح[١١٢] •

ان هذا الاقتضاب في رواية الطبري ، جعلهــا غير متماسكة ، فعلى أي أساس أطلق سراح عجيف قبل وصول ثيوفيل ــ اذ كانت الحامية البيزنطيــة تنتظر تحول الموقف لصالحها ــ وان اطلاق سراحه لابد كان بعد فشل ثيوفيل في انجاد حامية الحصن ، وانه كان مقابل منحهم الامان•

في حين اكتنف الغموض رواية ابن أعثم ، فالمأمون عنــده حاصر لؤلؤة مرتين ، في المرة الاولى لم ينل من الحصن شيئا، فرحل وترك من يقوم بالحصار عنه ، ويبدو انه كان يريد التصدي لقوة ثيوفل في منــاطق التخوم • غير أن رحيل هذا الاخير ، أعاد المأمون ثانية الى الحصن ، ففتحه « فأخذ من الاموال

---

١١٢ ــ تاريخ ، ٦٢٨/٨ •

والثياب والدواب والرقيق ما أراد .» وكأن الحصن مستودعا لمثل هذه الامور، مع انه كان قلعة صغيرة في منطقة منعزلة ، أما كيف جرى فتح الحصن ـ فانه لم يشر الى ذلك . غير انه أشار الى أن ثيوفل أرسل الى المأمون ، في أثناء حصاره لؤلؤة ، عرضا باطلاق جميع الاسرى المسلمين ، على أن يرحل عن الحصن ، فرفض المأمون[113] .

أما صاحب العيون والحدائق ، فقدم رواية اليعقوبي ذاتها ، خالية من الحيلة ، ومن المحتمل انه لم يكن مقتنعا بها[114] . فبدت رواية اليعقوبي ، بالطريقة التي عرضها صاحب العيون والحدائق أكثر رجاحة وقبولا ، اذ قدمت عرضا منطقيا للاحداث .

وبخصوص الرسائل المتبادلة بين ثيوفيل والمأمون ، أشار Bury الى أن الرسالة الاولى كانت مختلقة من قبل مؤرخينا[115]. دون أن يقدم ما يبرر رأيه هذا . أما الرسالة الثانية ، والتي جاءت بعد تغيير ديباجة الرسالة الاولى ، تضمنت عرضا ـ ربما كان عرض الرسالة الاول نفسه ـ وهو :

١ ـ يقدم البيزنطيون (١٠٠) ألف دينار للدولة العباسية .
٢ ـ اطلاق سراح (٧) آلاف من أسرى المسلمين بحوزة الامبراطورية .
٣ ـ اعادة الحصون التي فتحت الى البيزنطيين .
٤ ـ هدنة للسلام أمدها (٥) سنوات[116] .

وأورد اليعقوبي هذه الرسالة في حوادث عام ٢١٦هـ/ ٨٣٠ـ٨٣١م ، ورجحنا تاريخها في عام ٨٣٢م/٢١٦ـ٢١٧هـ . وقام بهذه السفارة يوحنا

---

١١٣ ـ الفتوح ، ٨/٣٣٧ـ٣٣٨ .
١١٤ ـ العيون والحدائق ، ٣/٣٧٥ـ٣٧٦ .
115—E.R.E, P. 254.
١١٦ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٠٥ ، كذلك :
C.M.H, 4/1, P. 710.

النحوي[117] • اما ابن العبري فقدم رواية غريبة مفادها، ان الامبراطور أرسل الى الخليفة يعلمه انه سيدفع له «ضريبة» فأجاب المأمون انه لا يهتم بهذه « الضريبة » بل يقبل السلام بشرط « أن تنادوا بي ملكا عليكم » • أما الامبراطور فلم يكن لديه ما يجيب به[118] •

وهناك رسالة أخرى وردت اما في أثناء حصار لؤلؤة أو بعد فتحها • ويبدو ان كلا الاحتمالين راجح ومعقول ، فبالنسبة للاول : ربما أراد ثيوفيل من المأمون أن يتخلى عن لؤلؤة ـ وهو أمر يدرك الامبراطور أهميته ولا شك ـ أما الاحتمال الثاني : هو أن الامبراطور أحس بخطورة الموقف بعد أن تحولت لؤلؤة الى المسلمين ، فطلب الصلح تجنبا لمزيد من المخاطر قد تتعرض لها الامبراطورية •

وكانت الرسالتان ، انظر الملحق رقم ـ٢ـ في غاية البلاغة والروعة • ولا بد أن تكون رسالة ثيوفل هذه هي الثالثة في سلسلة رسائله الى المأمون، ومما يؤكد ذلك ان الرسالة امتزجت فيها لهجة السلام بلهجة التهديد • ومن المؤكد ان هذا جاء نتيجة لرفض المأمون عرض الصلح الذي قدمه ثيوفيل من قبل ، لذا جاء رد المأمون عليها أكثر حدة متضمنا دعوة للاسلام أو الجزية أو الحرب[119] • وترتب على هذا تأزم الموقف تأزما أكثر من السابق•

وبناء عليه ، أرسل المأمون ابنه العباس ، في أول جمادى الاولى ٢١٨هـ/ مايس ٨٣٣م[120] • وان لم يحدد الطبري أياً من الجماديين ، لكن المرجح أنها الاولى ، لان جمادى الثانية يبدأ في ٢٤ حزيران ، وهو وقت متأخر نسبيا للقيام بأعمال الصائفة[121] • وأوكلت للعباس مهمة اتخاذ الاجراءات والاستعدادات

117—C.M.H, 4/1, P. 710.

١١٨ ـ تاريخ ، ٣١ •
١١٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٢٩ـ٦٣٠ •
١٢٠ ـ المصدر السابق ، ٨/٦٣١ •
١٢١ ـ فازيليف ، العرب والروم ، ١١٠ ، هامش ٢ •

لعمل عسكري واسع في الاراضي البيزنطية ، ومنها بنـاء استحكامات الطوانة جيدا ، اذ أزمع المأمون على اتخاذها معسكرا ومنطلقا له في حملاته المقبلة • كما فرض المأمون البعوث على بعض أقاليم الدولةلامداده بالجند • ففرض على أجناد دمشق وحمص والاردن وفلسطين (٤) آلاف رجل ، للفارس منهم(١٠٠) درهم وللراجل (٤٠) درهما • وكذا فرض البعوث على مصر ، وعلى قنسرين والجزيرة ، وفرض على بغداد ألفي رجل• وان بعضا من هذه البعوث ، وصلت الى الطوانة وأقامت فيها فعلا[١٢٢] • وكان هـدف الحملة عمورية ، بل ان المشروع كان أوسع من ذلك ، تمثل بالرغبة في اسكان « العرب » في المـدن التي سيتم فتحها ، ومن ثم التقدم نحو القسطنطينية[١٢٣] • فهل عزم المأمون على « تعريب » المناطق التي سيتم فتحها ؟ والاجابة عن هذا التساؤل ليست يسيرة ، لان ذلك لم يحدث • وبعد اتمام كافـة الاستعدادات ، دخل المأمون الاراضي البيزنطية عن طريق طرسوس ، في حدود منتصف جمـادى الآخرة ٢١٨هـ/قبل منتصف تموز ٨٣٣[١٢٤] •

وأفاض المسعودي في تقديم تفاصيل هذه الحملة • فعند دخول المأمون الاراضي البيزنطية ، كان يخير السكان في حصونهم بين الاسلام أو الجزية او الحرب، فأدت الجزية أعداد كبيرة منهم • وعند وصول المأمون الى البدندون، جاءه وفد بيزنطي ، قدم عرضا للصلح ، تضمن خيارات ثلاثـة ، وللخليفة أن يختار أحدها ، ثمنا للصلح بين الطرفين ، وهذه الخيارات هي :

١ ــ يقوم الامبراطور بتسديد نفقات هذه الحملة•

٢ ــ اطلاق سراح جميع الاسـرى المسلمين دون مقابل •

---

١٢٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٣١ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ق١/ ورقة ١ ب •

١٢٣ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٠٩ •

١٢٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٤٦ •

٣ ــ تعمير مناطق الثغور التي أضر بها البيزنطيون(١٢٥) .

وكان جواب المأمون انه .

« دخل خيمة ، فصلى ركعتين ، واستخار اللهعز

ثيوفيل) أما قولك ترد علي نفقتي ، فاني سمعت الله

ثيوفيل) أما قولك ترد علي نفقتي ، فاني لسمعت الله

تعالى يقول في كتابه ، حاكيا عن بلقيس : (واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلماء جاء سليمان قال : أتمدونني بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) وأما قولك : أنك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم ، فما في يدك الا أحد رجلين : إما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة ، فقد صار الىما أراد ، وإما رجل يطلب الدنيا فلا فك الله أسره . وأما قولك : انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربته الروم فلو اني قلعت أقصىحجر في بلد الروم ما اعتظت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها ، فقالت : وا محمداه وا محمداه ، عد الى صاحبك فليس بينيوبينه الا السيف»(١٢٦) .

ويفهم من اليعقوبي ، ان المأمون التقى الوفد البيزنطي قبل وصوله البدندون(١٢٧) التي بدأ منها حملته العسكرية، ففتح (١٥) حصنا ، ثم عاد

---

١٢٥ ــ مروج ، ٣/٤٥٥ــ٤٥٦ .

١٢٦ ــ المصدر السابق ، ٣/٤٥٦ .

١٢٧ ــ تاريخ ، ٣/٢٠٩ .

اليها ـ البدندون ـ ثانية[١٢٨] . وفي رواية مهمة انفرد بهـا ابن أعثم ، أن ثيوفيل خرج في أعقاب سقوط لؤلؤة ، بقوة بلغ تعدادها (٨٠) ألف مقاتل ، أغار بها على مناطق الثغور ، وأنزل بالمسلمين خسائر كبيرة دون أن يفـرق بين النساء والرجال ، حتى أنشد الشاعر :

أبلـغ لديك سـفيه الروم توفيـلا
قولا سـيلقى له ان عـاش تنكيـلا
أهلـكت نسـوان أهل العـز قاطبـة
والنسل أهلـكت تحريفاً وتفصيلا[١٢٩]

فلما بلغ المأمون الامر ، اشتد غضبه حتى سار الى البدندون[١٣٠] . وانفراد ابن أعثم بهذه الرواية، لا يحول دون صحتها . فالوفد البيزنطي ـ كما أسلفنا ـ خيّر المأمون بين أمور ثلاثة ، كان من بينها ـ تعمير مناطق الثغور التي أضرّ بها البيزنطيون ـ ولا بد ان هذا اشارة الى ما قامت به حملة ثيوفيل هـذه ، لا سيما اذا عرفنا ان البيزنطيين قاموا بآخر عمل لهم قبل سنتين من هذه الحملة، ولا يعقل أن تكون تلك هي المقصودة ، بل المقصود عمل قريب وقبيل خروج المأمون في حملته هذه . كما ان رد المأمون على الوفد البيزنطي ، حمل في ثناياه ألمـاً شديدا بخصوص أوضاع لابد حصلت في منـاطق الثغور . وهو ما فسرته وبينته رواية ابن أعثم . كما ان هذا الامر ـ قيام ثيوفيل بغارته هذه ـ لا يبدو غريبا أمام تأزم الاوضاع ، بعد رفض المأمون كل عروض الصـلح البيزنطية ، والتي أردفها الامبراطور برسالة التهديد واعلان الحرب ، فكانت حملته هذه تنفيذا لتهديداته .

---

١٢٨ ـ المسعودي ، مروج ، ٣/٤٥٦ .
١٢٩ ـ هناك تحريف في عجز البيت الثاني ، والصحيـح يمكن أن يكون بالشكل الآتي : والنسل اهلكت تحريقا وتقتيلا .
١٣٠ ـ الفتوح ، ٨/٣٣٨ .

وعلى أية حال ، فانه لم يكتب للمأمون ان يشهد سقوط عمورية ، أو أن يعبر بجنده الى القسطنطينية ، تلك المدينة العنيدة ، اذ واتته المنية في يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب ٢١٩هـ/٧آب ٨٣٣م عند البدندون، فدفن في طرسوس(١٣١) .

أما أبرز ما اتسمت به فترة الازدهار ، بمرحلتيها الاولى والثانية ، فيما يخص العمليات العسكرية في منطقة التخوم :

١ ــ ان الخلفاء العباسيين ، قادوا بأنفسهم العمليات العسكرية في مناطق التخوم . فكان دليلا على مدى اهتمامهم الكبير بهذا الجانب . وشهد الجانب البيزنطي الحالة نفسها ، اذ قاد الاباطرة بأنفسهم عملياتهم العسكرية.

٢ ــ شهدت هذه الفترة أعلى تصعيد للعمليات العسكرية من قبل الدولتين . وكان لوجود الرشيد ونقفور في السلطة ، في الوقت نفسه ، دوره الرئيس في ذلك .

٣ ــ كما أن هذه الفترة شهدت هدوءا على التخوم، دام سنوات عديدة، لانشغال كلا الطرفين بأموره الداخلية ، التي استوجبت الانصراف التام اليها .

٤ ــ الا أن فترة الهدوء هذه ، شهدت محاولة كلا الطرفين ، الاستفادة بقدر أو بآخر ، من الاوضاع المضطربة لكل منهما ، لتحقيق أهدافه لدى الطرف الآخر .

٣ ــ العلاقات الحربية بين خلافة المعتصم ومقتل المتوكل :

عندما تولى أبو اسحاق المعتصم الخلافة ، في عام ٢١٨هـ/٨٣٣م، فان المرحلة الاخيرة من العصر العباسي الاول تكون قد بدأت ، وهي في الوقت نفسه تمثل ــ في بعض خصائصها ــ تمثل مقدمات الانحلال والتدهور . اذ

---

١٣١ – الطبري ، تاريخ ، ٨/ ٦٥٠ ، المسعودي ، مروج ، ٣/ ٤٥٨ ، كذلك :
C.M.H, 4/1, P. 710.

بدأ القادة الاتراك يمارسون نفوذا أكبر ، حتى كانت نهاية هـذا العصر على أيديهم ، بقتلهم الخليفة المتوكل • ثم أصبحوا سادة الموقف بلا منـازع لفترة من الزمن •

وعلى الرغم من أن هذه الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول ، قـد تميزت بهدوء الاوضاع الداخلية نسبيا ، لا سيما تلك الحركـات التي وقفت وراءها دوافع سياسية• وتحقق ذلك بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها الخلفاء السابقين الذين قمعوا أية معارضـة للخلافـة • فان النشاط العسكري على التخوم ، بدأ بالانحسار هو الآخر • ولعل الاسباب الاساسية لذلك ، تتمثل باحتدام الازمة الدينيةـ السياسية بين المعتزلة ومناوئيهم ، والتي كانت السلطة الرسمية طرفا فيها • أعقب ذلك انهماك المتوكل بتنفيذ منهجه الخاص للقضاء على نفوذ القادة الاتراك•مما أسفر عن انحسار خطير في دور السلطة المركزية، في توجيه الاحداث في مناطق التخوم • وعوض عن ذلك ولاة وعمال الثغور والعواصم • فلعبوا دورا اكثر فاعلية ، بقيادة حملات لم تكن في نتائجها أقل من تلك التي كانت وجهتها السلطة المركزية • ولعل ذلك أحد أوجه التحول الى اللامركزية في ادارة الدولة •

وهنا يجب استبعاد أية تفسيرات تبسط الامور الى أدنى حـد ، بحيث تصبح بعيدة عن المنطق العلمي في تحليل الوقائع التاريخية • لانها ستكون لا محالة معبرة عن كسل فكري وخمول في التحليل•فمن بين المحدثين من رأى أن سبب عزوف الواثق عن العمليات العسكرية في مناطق التخوم عاد الى ان أمه كانت « جارية رومية » مما جعله يعرض نهائيا عن معاداة البيزنطيين[١٣٢] • وان من المحدثين من رأى ان العمليات العسكرية في هذه الفترة ــ مشيرا الى دور عمال الثغور ــ كان هدفها جمع الغنائم فقط[١٣٣] •

---

١٣٢ ــ عبدالمنعم ماجد ، ٤٣٣ •

١٣٣ ــ حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٢/٣٧٣ •

ان أمثال هذه الآراء ، تفتقد الى النظرة التاريخية الشاملة للاحداث .
وهنا لابد لنا أن ندرك ان الخلفاء العباسيين لم يكن هدفهم ، منذ البدء، فتح المدن والاستيلاء عليها للاستيطان فيها ـ ما عدا القلاع والحصون الستراتيجية ـ ولم يتغير هذا الامر مطلقا ـ على الرغم من عزم المأمون على ذلك ، الا أنه لم ينفذه ـ فضلا عن أن الاقاليم الشرقية للامبراطورية ، كانت منهكة اقتصاديا الى حد بعيد ، لكونها ميدانا للعمليات العسكرية للطرفين ، ولم يعد فيها ما يغري لاخذه غنائم للدولة . ويؤكد هذا ان الغاية الاساسية التي استمرت حتى نهاية العصر العباسي الاول ، هي تحطيم آلة العدو العسكرية ، مما يشل قدرته ويحول دون قيامه بأي اعتداء على مناطق الثغور . لا سيما ان هذه الفترة شهدت تصاعد النشاط العسكري البيزنطي ، وساعد على ذلك هدوء الجبهة الداخلية للبيزنطيين الى حد كبير ـ فلم تشهد سوى عمليات العودة نهائيا الى عبادة الايقونات ، وهو ما لم يلق مقاومة كبيرة ـ كما ان الجبهة مع البلغار كانت هي الاخرى ، هادئة تماما . فلم يكن هناك ما يقلق الامبراطورية ما عدا ارسال بعض الامدادات والتعزيزات الى صقلية . وباختصار شهدت الامبراطورية استقرارا داخليا وخارجيا ، مكنها من تصعيد عملياتها الحربية على مناطق التخوم مع الدولة العباسية . انظر الشكل رقم ـ ٤ ـ .

وفي عام ٢١٨هـ/٨٣٣م، أصدر المعتصم أمرا عاما بانسحاب القوة، التي أعدها المأمون لمهاجمة الاراضي البيزنطية ، كما أمر بهدم التحصينات والاستحكامات ، التي بنيت في الطوانة وحمل الاسلحة الخفيفة والثقيلة منها واحراق وتدمير ما لا يمكن حمله[١٣٤] . ان الدافع الاساس وراء هذا الاجراء، ذلك التزايد والانتشار الكبيران لحركة بابك ، الذي ـ كما يبدو ـ كان يعد لعمل عسكري واسع، فأرسل المعتصم حملة كبيرة، قادها اسحاق بن ابراهيم بن مصعب، للحد من نشاطه . أما لماذا قام المعتصم بتدمير تحصينات واستحكامات

١٣٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٦٦٧/٨ .

الطوانة ؟ فالجواب : لانها كانت متقدمة بعض الشيء في الاراضي البيزنطية ، وكان لابد من الانسحاب منها ، وهذا بحد ذاته يحتم ذلك الاجراء ، حتى لا يستفيد البيزنطيون منها . وهذا من غير شك اجراء عسكري سليم .

وفي السنة التالية ، تحتم على المعتصم محاربة الزط ، الذين شغبوا في بطائح السواد ، فألحقوا بالمنطقة أضرارا كبيرة . ووجه اليهم قائده عجيف بن عنبسة ، الذي أمضى عدة أشهر في قتالهم ، حتى قضى على حركتهم(١٣٥) . ثم نقلوا في العام التالي الى عين زربة(١٣٦) . وبين عامي ٢٢٠-٢٢٢هـ/ ٨٣٥-٨٣٧م ، انهمك المعتصم في بذل أقصى الجهود لاخماد حركة بابك ، وتحقق ذلك وأخذ بابك نفسه أسيرا(١٣٧) .

وعلى الرغم من ذلك جرت في هذه الفترة بعض العمليات في مناطق التخوم ، قام بها ولاة الثغور . ففي عام ٢٢٠هـ/٨٣٥ م قاد الحسن بن مصعب حملةفي الاراضي البيزنطية،الا أنه لقي هزيمة ساحقة وأسر معظم جيشه(١٣٨) . وقاد عمر الملطي حملة أخرى اصطدمت بالامبراطورثيوفيل ، الذي حقق نجاحا أول الامر ، الا أن عمر الملطي استعاد السيطرة على زمام الموقف ، وألحق بالامبراطور هزيمة كبيرة ، بل أن قوته استولت حتى على أمتعة وفراش الامبراطور(١٣٩) . وهناك شك بصحة هاتين الحملتين ، لعدم تأكيدهما في مصادر أخرى ، ولانهما متناقضتان في النتائج(١٤٠) . على أنه ليس هناك ما يسوغ الشك فيهما . ان انفراد أحد المصادر برواية ما لا يقلل من قيمتها

---

١٣٥ ـ المصدر السابق ، ٩/٨-٩ .
١٣٦ ـ المصدر السابق ، ٩/١٠ .
١٣٧ ـ المصدر السابق ، ٩/١١-٥٢ .
١٣٨ ـ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٢ ، كذلك :
C.M.H, 4/1, P. 710.
١٣٩ ـ عماد اسماعيل خليل ، السياسة الداخلية والخارجية للدولة العباسية ، ٣١٢ .
١٤٠ ـ تاريخ ، ٩/٥٥ .

التاريخية ، ما لم يقم دليلا على عكس ذلك . وان سرد تفاصيل الحملتين لا يعني انها معلومات متناقضة عن حملة واحدة .

وفي عام ٢٢٢هـ/٨٣٦ـ٨٣٧م، قاد ثيوفيل غارة على مناطق التخوم، الا أن الطبري ذكرها في أحداث العام اللاحق ـ ٢٢٣هـ ـ وانفرد الازدي بذكرها ، اذ كانت موجهة الى زبطرة ، وقدم وفد من أهلها الى المعتصم مستنجدا ، غير انه أجاب : « ما يتهيأ لي فيكم شيء أو افرغ من أمر بابك »[١٤١] . ويمكننا أن نفترض ، ان البيزنطيين لم يكتفوا بهجوم واحد على مناطق التخوم ، فربما كانت هناك أكثر من حملة في الفترة الممتدة بين استنجاد بابك بالامبراطور ثيوفيل ، وبين توجه المعتصم لفتح عمورية . وهذا الافتراض مبني على : ١ ـ ان الازدي أشار الى هجوم آخر على ملطية في عام ٢٢٣هـ/٨٣٧ـ٨٣٨م[١٤٢] . بيد انه أشار في الحملة السابقة الى أن الهجوم كان على زبطرة فقط . في حين ان الطبري والمسعودي ، أشارا الى ان الهجوم على زبطرة كان في عام ٢٢٣هـ/٨٣٧ـ٨٣٨م[١٤٣] . ٢ـ أشار ابن العبري الى أن ثيوفيل هاجم زبطرة تكرارا وكذلك ملطية.[١٤٤] ٣ـ ان ردود فعل المعتصم تجاه ما قام به ثيوفيل تراوحت بين الانتظار ريثما ينهي أمر بابك ـ وهو ما نقلناه عن الازدي ـ الا أن الازدي نفسه وعند اشارته الى غارة ثيوفيل في عام ٢٢٣هـ/٨٣٧ـ٨٣٨ م ، ذكر ما نصه : « فنفر المعتصم ، وركب فرساً في داره ـ فيما ذكروا ـ وصاح « النفير .. »»[١٤٥] وأكد ذلك المسعودي[١٤٦] .

---

١٤١ ـ تاريخ ، ٤٢٥ .
١٤٢ ـ المصدر السابق ، ٤٢٦ .
١٤٣ ـ تاريخ ، ٩/٥٥ ، مروج ، ٣/٤٧٢ .
١٤٤ ـ تاريخ ، ٣٤ .
١٤٥ ـ تاريخ ، ٤٢٦ .
١٤٦ ـ مروج ، ٣/٤٧٢ .

ان هذا يفسر اختلاف المصادر في ذكر أحداث عامي ٢٢٢هـ و ٢٢٣ هـ اذ أن غارات البيزنطيين استمرت فيهما . وكانت الفرصة سانحة لهم لانشغال المعتصم باخماد حركة بابك . وان القوة التي قادها ثيوفيل في هذه الحملات بلغت (١٠٠) ألف من الجند !!؟ بينهم (٧٠) ألفا من الجند النظاميين والآخرون من الاتباع ، واضاف اليهم الطبري ، الخرمية الذين هربوا الى الاراضي البيزنطية[١٤٧] . وأضاف المسعودي ان الصقالبة والبلغار وأمم أخرى اشتركت في هذا الجيش[١٤٨] . وعلى رغم ما في الامر من مبالغة ، لكنه لا يشك ان هذه القوة كانت كبيرة أعدت لانزال ضربة قوية بالثغور الاسلامية .

أما بخصوص الاعمال التي ارتكبها البيزنطيون في مناطق الثغور ، فان أهل زبطرة تقاسمهم القتل والاسر[١٤٩] . وسبوا أكثر من ألف امرأة من ملطية ثم مثلوا بأهلها بسمل أعينهم وقطع آذانهم وأنوفهم[١٥٠] . دون تفريق بين صغير أو كبير فيما ارتكبوه من فضائع[١٥١] .

وتمثل رد الفعل ، باحتشاد سكان الثغور حول قبائل ربيعة ، لمهاجمة البيزنطيين قرب سميساط، الا أنهم خسروا أربعة آلاف قتيل[١٥٢] . ويبدو ان المعتصم أرسل في اعقاب ذلك قائده عجيف بن عنبسة وعمر الملطي ومحمد كوته، وقادة آخرين الى زبطرة ، لتهدئة الاوضاع هناك . الا ان ثيوفيل كان قد ترك منطقة الثغور ، فبقيت القوة العباسية فيها فترة من الزمن ، حتى عاد سكان الثغور الى ثغورهم واطمأنوا[١٥٣] .

---

١٤٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٦/٩ ، الازدي ، ٤٢٤ .
١٤٨ ــ مروج ، ٤٧٢/٣ .
١٤٩ ــ اليعقوبي ، تاريخ ، ٢١٥/٣ .
١٥٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٥/٩ ، الازدي ، ٤٢٤ .
١٥١ ــ مروج ، ٤٧٢/٣ .
١٥٢ ــ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٤ .
١٥٣ ــ الطبري ، تاريخ ، ٥٧/٩ .

فتح عمورية[١٥٤] :

أصبح واضحا الآن ، ان السبب الاساس لحملة المعتصم على عمورية ، هو الثأر من الفضائع التي ارتكبها ثيوفيل في مناطق الثغور ، اذ كانت كفيلة باثارة النفوس للثأر من البيزنطيين . وكان هدف الحملة عمورية ، بعد أن اشير على المعتصم بذلك ، لانها أمنع حصونهم وأقواها « وهي اشرف عندهم من القسطنطينية »[١٥٥] . أي أهم منها . ولا شك في ذلك ، فهي موطن العائلة العمورية الحاكمة . لذا كان هدف الحملة ذا وجهين : الاول عسكري يتمثل بتحطيم بعض رموز قوة الامبراطورية . والثاني سياسي يتمثل في معاني الاذلال التي تلحق بالامبراطورية جراء تدمير موطن العائلة الحاكمة . ولم يكن للحملة أية أهداف أو أغراض مادية توسعية .

والطبري هو مصدرنا الرئيس عن الحملة ونقل عنه اللاحقون مثل ابن الاثير ومسكويه[١٥٦] ومؤرخون آخرون . وقبل الدخول في تفاصيل الحملة، لابد من مناقشة سريعة لبعض الروايات المتعلقة بالموضوع. اذ أشارت المصادر المتأخرة الى حادثة تلك المرأة الهاشمية ، التي أسرها البيزنطيون ، وهي قصة شائعة ومعروفة كثيرا . فقد ضربها بعضهم وهي في الاسر فصاحت : « وا معتصماه » فلما وصل الخبر الى المعتصم ، قال وهو في مجلسه « لبيك لبيك» ونادى بالرحيل[١٥٧] .وأضافت بعض المصادر أن ثيوفيل أمر بتقييد هذه

---

١٥٤ ــ عمورية : حصن مشهور في اقليم فريجيا ، يقع على الطريق العسكري البيزنطي القديم المتجه من القسطنطينية الى قيليقية . ويقع الى الجنوب الشرقي من ادرولية والى الجنوب الغربي من انقرة وجنوب نهر سانجاريوس او سقاريا الاعلى .
E.I (2) Vol. 1, P. 449.

١٥٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٧ .
١٥٦ ــ الكامل ،٦/ ٤٨٠ــ٤٨٨ ، تجارب الامم ، ٣٢ــ٥٣٢ــ٥٣٣ .
١٥٧ ــ ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ٢/٣٣ ، ابن الساعي ، ٥٨ ، العيون والحدائق ، ٣/٣٩٠ ، ابن العمراني ، ١٠٥ــ١٠٦ ، ابن الاثير ، ٦/٤٨٠ ، ابن الطقطقى ، ٢٢٩ .

المرأة وقال لها : « ما يجيئك الا على أبلق» فجعل المعتصم يطلب من جنده ركوب الخيل البلق ، حتى بلغت (٧٠) ألف أبلق[١٥٨] • وواضح من هذه الرواية جانبها الاسطوري • فهي : أولا لم ترد في المصادر المتقدمة ، مما أضعف من قيمتها التاريخية • وثانيا ان بعض جوانب الرواية غير منطقي ولا عملي • وعليه فان هذه الرواية لا يمكن أن تكون الا موضوعة من قبل المتأخرين • أما ما جاء في قصيدة أبي تمام بقوله :

لبيت صوتا زبطريا هرقت له
كأس الكرى ورضاب الخرد العرب[١٥٩]

فمن الراجح ان أبا تمام قصد بالصوت الزبطري ، استنجاد أهل زبطرة بالمعتصم ، وهو أمر سبقت الاشارة اليه • ولو أنه قصد بالاشارة تلك المرأة الهاشمية ، لاشار اليها صراحة ، لا سيما وان ذلك يشكل مادة شعرية خصبة •

وهناك رواية أخرى فحواها ، ان الامبراطور البيزنطي ارسل الى المعتصم يتهدده ويتوعده ، فأجابه المعتصم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد
قرأت كتابك وسمعت خطابك والجواب
ما ترى لا ما تسمع وسيعلم الكفار لمن
عقبى الدار »[١٦٠] •

والراجح ان هذه الرواية ليست الا صدى وترديدا للمراسلة التي جرت بين نقفور والرشيد ، اذ نسجت هذه الرسالة على منوال تلك ، لذا فان احتمال صحتها ضعيف جدا ، في الاقل بصيغتها التي بين أيدينا • وقد تكون هناك

١٥٨ ــ ابن الساعي ، ٥٨ •
١٥٩ ــ ديوان ابي تمام بشرح التبريزي ، ١/٦١ •
١٦٠ ــ البنداري ، تاريخ بغداد ، ورقة ٨٩ أ •

مراسلات متبادلة ، وهو أمر متوقع بلا شك ، غير ان هذه الصيغة المطروحة مشكوك فيها .

وتباينت الروايات في تحديد تاريخ بدء الحملة ، فمنها من جعلتها في عام ٢٢٣هـ/٨٣٧ـ٨٣٨م ، أو في عام ٢٢٤هـ/٨٣٨ـ٨٣٩م ، أو في عام ٢٢٢هـ/٨٣٦ـ٨٣٧م ، وبعد مقتل بابك مباشرة[١٦١] . الا أن المصادر أجمعت انه تم في عام ٢٢٣هـ/٨٣٧ـ٨٣٨[١٦٢] . اذ بدأ المعتصم حملته في جمادى الاولى ٢٢٣هـ/ نيسان ٨٣٨م[١٦٣] .

أما بخصوص القوة التي حشدت لهذه الحملة ، فتباينت المصادر مرة أخرى . فقال المسعودي انها تراوحت بين مكثر ومقلل ، فجعلها المكثر (٥٠٠) ألف مقاتل ، في حين جعلها المقلل (٢٠٠) الف مقاتل[١٦٤] . وهناك من جعلها (٣٠٠) ألف جندي[١٦٥] . أما ابن العبري فذكر ان (٢٠) ألفا كانوا مع المعتصم و (٣٠) ألفا مع الافشين[١٦٦] . وربما كان ذلك باستثناء القوة التي كانت مع أشناس على المقدمة . وواضح تماما ان هذه الارقام لا تخلو من قدر كبير من المبالغة . اذ من المستحيل عمليا حشد مثل هذا العدد في ظروف ذلك العصر ، ويستحيل أيضا تجهيز ما يحتاجه هذا العدد من المؤن . فضلا عن صعوبة سيره في طريق واحدة مجتمعا ، كما حدث في طريق عودة الحملة . غير ان بين أيدينا قول شاهد عيان ، اذ جاء في قصيدة أبي تمام قوله :

---

١٦١ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٧ .
١٦٢ ـ ابن خياط ، ٢/٧٨٧ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢١٥ ، الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٧ ، الازدي ، ٤٢٦ ، المسعودي ، مروج ، ٣/٤٧٢ .
١٦٣ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٦ .
١٦٤ ـ مروج ، ٣/٤٧٢ـ٤٧٣ .
١٦٥ ـ ابن دحية ، النبراس ، ٦٣ .
١٦٦ ـ تاريخ ، ٣٤ .

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت
أعمارهم قبل نضج التين والعنب(١٦٧)

فهذا الرقم (٩٠ ألفاً) أقرب للقبول ، وقريب من الرقم الذي قدمه ابن العبري بعد اضافة قوة أشناس اليه .

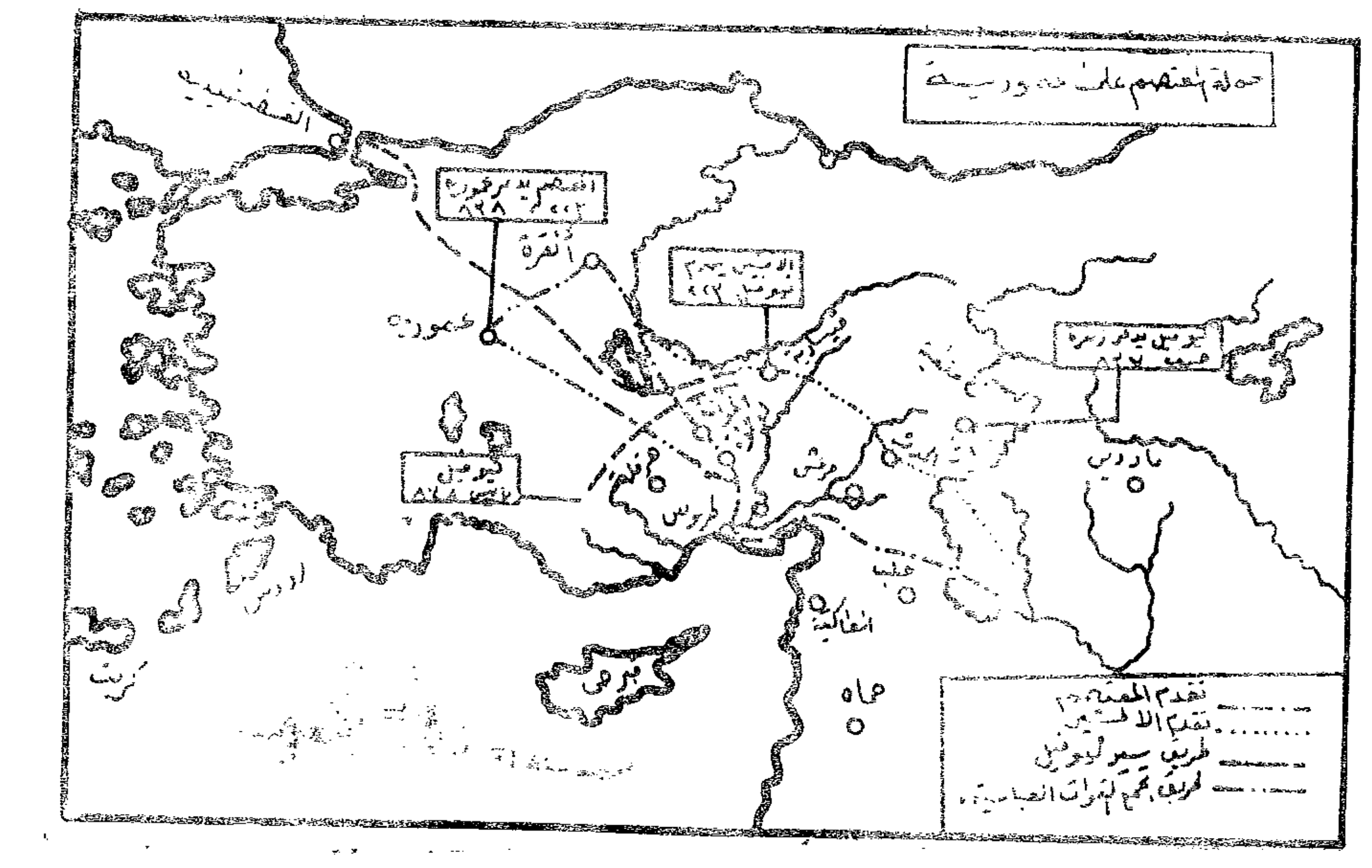
أما التعبئة التي سار عليها المعتصم ، فهي الخماس أو الخميس . فكان على مقدمته اشناس يتلوه محمد بن ابراهيم ، وعلى الميمنة ايتاخ، وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبدالله الخياط ، وعلى القلب عجيف بن عنبسة ، وعلى الساقة بغا الكبير يعقبه دينار بن عبدالله(١٦٨) . أما خط سير الحملة ، انظر الشكل رقم -١٦- فانها قسمت الى قوتين رئيستين ، على الاولى المعتصم وعلى الثانية الافشين. ودخل المعتصم من درب السلامة عبر الابواب القيليقية، ودخل الافشين من درب الحدث . والتقت القوتان عند انقرة(١٦٩) . وكان هناك فرق يوم بين دخول كل من القوتين ، اذ حدد يوم معين للالتقاء عند أنقرة(١٧٠). وعبّر هذا عن مدى الدقة في التخطيط ، ووضع تفاصيل العمليات للوصول الى النتائج المرسومة .

واصطحب المعتصم معه أيوباً بطريرك أنطاكيا ، حتى يكلم البيزنطيين بلغتهم عند النزول في أي موقع أو حصن ، ويطلب اليهم الاستسلام أو دفع الجزية بدل القتل والموت . غير أن البيزنطيين كانوا يشتموه ويضربوه بالحجارة(١٧١) . وأمر المعتصم أشناس بالتقدم من درب طرسوس ، على أن

---

١٦٧ ـ ديوان ابي تمام ، ١/٦٩ .
١٦٨ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٧، الازدي ، ٤٢٦ ، المسعودي، مروج،٣/٤٧٢.
١٦٩ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٧ ، الازدي ، ٤٢٧ ، المسعودي ، مروج،٣/٤٧٢، ابن العبري ، تاريخ ، ٣٤ .
١٧٠ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٧-٥٨ .
١٧١ ـ ابن البطريق ، ٢/٦٠ .

شكل رقم (١٢)


القسطنطينية
أنقرة
عمورية
طرسوس
قبرص
مرعش
حلب
انطاكية
حماه
ماردين
تقدم المعتصم
تقدم الأفشين
طريق سير تيوفيل
طريق تجمع القوات العباسية

ينتظره عند الصفصاف ، ووافاه هناك بعد يومين . ثم تقدم أشناس حتى صار « بمرج الاسقف » فأرسل اليه المعتصم ، أن الامبراطور البيزنطي قريب منه — أي من أشناس — وأمره بالتوقف حتى تصل الساقة التي تحمل المؤن والاسلحة الثقيلة[١٧٢] . وبعد ثلاثة أيام من ذلك ورد كتاب آخر من الخليفة، أمره فيه بتوجيه سرية من الجند لاسر أحد البيزنطيين للاستخبار منه عن وضع الامبراطور[١٧٣] . فخرج عمر الفرغاني في سرية تمكن بها من أسر عدد من البيزنطيين كانوا جندا للامبراطور أخذوا الى أشناس عند نهر اللامس[١٧٤]. اذ أدلوا بمعلومات مهمة عن خطط الامبراطور تجاه قوتي المعتصم والافشين، منها: ان ثيوفيل قرر السير نحو قوة الافشين والاصطدام بها في حين ترك بعض قوته عند اللامس للاصدام بالمعتصم[١٧٥] . وفي ضوء هذه المعلومات أرسل الخليفة رسله الى الافشين بتعليمات تتضمن توقفه عن التقدم حتى يوافيه بنفسه ، واعداً الرسل بالجوائز السخية ان هم اوصلوا هذه التعليمات ، غير أن ذلك لم يتحقق ، لان قوة الافشين أوغلت كثيرا في الاراضي البيزنطية[١٧٦] .

وعندما وصلت الامور الى هذا الحد ، كتب المعتصم الى أشناس يأمره بالتقدم ، متقدما هو من ورائه بحيث تكون بينهما مسافة ثابتة ، حتى وصلت القوتان الى مسافة ثلاثة أيام من أنقرة ، فكانت القوة بأسرها تعاني من نقص كبير في الماء والمؤن والعلف[١٧٧] . ويبدو ان أشناس استولى على تيسيا

---

١٧٢ — الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٨ .
١٧٣ — نفس المصدر والصفحة .
١٧٤ — اللامس : نهر على مسافة بين طرسوس وسلوقية ، شكل حداً مائيا بين الدولتين ، كما عرف بنهر لموس ، وكان يجري عليه تبادل الاسرى . لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ١٦٥ .
١٧٥ — الطبري ، تاريخ ، ٩/٥٨—٥٩ .
١٧٦ — المصدر السابق ، ٩/٥٩—٦٠ .
١٧٧ — المصدر السابق ، ٩/٦٠ .

المتهدمة ، وهي بين الصفصاف وأنقرة ، وهدمت قلعتها ، ومثلت هذه العملية المرحلة الاولى في التقدم الى عمورية[١٧٨] .

وفي هذه الاثناء وقعت معركة محتدمة بين الافشين وثيوفيل ، اذ حقق ثيوفيل أول الامر بعض الفوز ، لكنه مني بهزيمة ساحقة في آخر الامر وفقد معظم جيشه . أما خسارته الاكبر فهي تفرق القوة التي أبقاها عند نهراللامس ، فأصيب بخيبـة أمل كبيرة ، ثم أصـدر أوامره باعادة تجميعها[١٧٩] . وفي هذه المعركة خسر الامبراطور (٤)آلاف من جنده قتلى قرب «لورلة»[١٨٠]وهي في اقليم دازمون Iris — Takat — الحالية ، ولم ينج الامبراطور الا باعجوبة[١٨١] . في حين فقد الافشين فيها (٣) آلاف من جنده . وعندما اشتد المطر المتساقط في أثنـاء المعركة ، انسحب الامبراطور مع الفين من جنده ، فظن البقية انه قتل ، فانسحبوا من المعركة وتوجهوا الى العاصمة ، وشغبوا هنـاك لتنصيب امبراطور جديد ، الا أن ثيوفيل أسرع لترتيب الاوضاع في عاصمته . ففتك بالمتآمرين[١٨٢] . وربما كان الخرميون هم الذين قاموا بهذا الشغب من أجل تنصيب تيوفوب — نصر الكردي — امبراطورا بدلا من ثيوفيل . لكن تيوفوب أثبت براءته فبقي محتفظا بمكانته[١٨٣] .

وأمام هذه التطورات الحاسمة في سير الاحـداث ، ارسل ثيوفيل الى المعتصم عرضا للسلام جاء فيه : ان الذين أنزلوا بزبطرة وأهلها الخراب ، فعلوا ذلك دون علمه ودون الرجوع اليه ، ثم تضمن العرض :

---

١٧٨ — فازيليف ، العرب والروم ، ١٣٦ ، كذلك : C.M.H, 4/1, P. 711.

١٧٩ — الطبري ، تاريخ ، ٩/٦١—٦٢ .

١٨٠ — ابن خياط ، ٢/٧٨٧ .

181—C.M.H, 4/1, P. 711; Bury, E.R.E, P. 264.

١٨٢ — ابن العبري ، تاريخ ، ٣٥ ، كذلك : Bury, .ER.E, P 266, note, 6.

١٨٣ — فازيليف ، العرب والروم ، ١٤٢ .

١ ـ قيام الامبراطور ببناء زبطرة من أمواله الخاصة ورجاله .
٢ ـ اطلاق سراح جميع الاسرى المسلمين في الامبراطورية .
٣ ـ تسليم المسؤولين عن تدمير زبطرة الى الدولة العباسية .
ولم يلق هذا العرض قبولا من المعتصم(١٨٤) .

واجتمعت كل القوة العباسية التي دخلت الاراضي البيزنطية عند أنقرة، التي هجرها أهلها عند سماعهم بهزيمة الامبراطور أمام الافشين، مع ان المدينة حُصنت منذ أيام نقفور(١٨٥) . وأشار أبو تمام الى دمار أنقرة بقوله :

جرى لها الفأل برحاً يوم أنقرة
إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالامس قد خربت
كان الخراب لها أعدى من الجرب(١٨٦)

ثم قام المعتصم بتعبئة قواته وفق تعبئة جديدة ، فقسم جيشه على ثلاثة أقسام رئيسة : الميسرة وعليها أشناس ، والميمنة وعليها الافشين ، وبقي هو في القلب . وحدد مسافات ثابتة بينها لا تتغير في أثناء التقدم الى عمورية . بعدها أمر بتقسيم كل منها على ميمنة وميسرة وقلب . ثم سار نحو هدفه الرئيس ، على أن يتم تدمير كل ما يصادفهم بين أنقرة وعمورية ، حتى توافت القوة كلها هناك . ثم وزع المعتصم قوته بين المدينة ، مقسما الابراج عليها ـ أي قوته ـ(١٨٧) . وكان ثيوفيل قد غادر عاصمته بعد ترتيب الاوضاع فيها، وقبيل وصول المعتصم الى عمورية ، ووقف عند أدرولية على مسافة ثلاثة أيام من حصن عمورية . ولما أدرك قادته حجم القوة التي مع المعتصم ، وانه من

---

١٨٤ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢١٥ .

185—Bury, E.R.E, P. 266.

١٨٦ ـ ديوان ابي تمام ، ١/٥٠ـ٥١ .
١٨٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٦٣ .

الصعوبة بمكان الصمود أمامها ، حاولوا اقناعه بضرورة اخلاء المدينة حقنا لدماء أهلها ، لكن الامبراطور ــ المعتد بنفسه ــ أبى ذلك وعدّه جبناً لا يليق به وآثر أن يعزز حامية المدينة ، فعهد الى ايتيوس ــ ستراتيج بند الناطليق ــ مهمة حماية المدينة وأرفقه بعدد من القادة[188] • وفي الوقت نفسه حاول الامبراطور اللجوء الى الحل السياسي ، فأرسل عند بدء عمليات الحصار ، رسولا الى المعتصم للمفاوضة ، الا أن المعتصم احتجز الرسول على مسافة من عمورية ، حتى فتحت المدينة ، فأذن له بالانصراف دون أية مفاوضات[189] • ويبدو ان هذا هو غير الوفد السابق الذكر ، لان توقيت وصولهما مختلف ، وان العرض الذي قدمه كل منهما مختلف • واذا كنا قد اوردنا عرض الرسول السابق ، فان هذا جاء بعرض مختلف أشار اليه أبو تمام بقوله :

لما رأى الحرب رأي العين توفلس
والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالاموال جريتها
فعزه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الارض الوقور به
من غزو محتسب لا غزو مكتسب[190]

ومرة أخرى فان عروض ثيوفيل لم تلق غير الرفض والاعراض •

وثمة رواية غريبة أوردها ابن العبري مفادها ، ان المعتصم وقبل وصوله عمورية لحصارها ، ندم على قدومه وأنه قرر العودة ، الا أن حاجبه أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة[191] • ومن المؤكد انه ليس هناك ما يسوغ مثل هذه

١٨٨ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ١٣٢ ، كذلك : C.M.H, 4/1, P. 711.
١٨٩ ــ الطبري ، تاريخ ، ٦٩/٩ •
١٩٠ ــ ديوان ابي تمام ، ٦٤/١ــ٦٥ •
١٩١ ــ تاريخ ،

الرواية عمليا ومنطقيا • فكل تفصيلات الخطـــة كانت تسير بنجاح ، ثم ان عمليات الحصار لم تكن قد بدأت بعد، وان الحملة لم تواجه صعوبات حقيقية، وبالتالي لا يوجد أي وجه لضرورة التفكير بالتراجع ، فالرواية اذن مختلقة، حاولت اظهار المعتصم بمظهر الذي أصابه الندم وتأنيب الضمير •

ولأجل تخفيف حدة الضغط العسكري عن عمورية في أثناء حصارها ، وجه اسطول بيزنطي ضربة كبيرة لميناء أنطاكية، ثم نهب وأسر عدد من سكانه، فأمر المعتصم ببناء حصن وسط المدينة[١٩٢] •

وقيل ان المعتصم عندما يئس من نتيجة الحصـــار ، فكـــر بالانسحاب والتراجع[١٩٣] • مع أن فترة الحصار كانت قصيرة جدا ، قياسا الى عمليـــات حصار استمرت فترات طويلة شهدتها مناطق التخوم في فترات سابقة ، فلم يكن هناك ، مرة أخرى ، ما يسوغ مثل هذه الرواية •

ومع بدء عمليات الحصار ، قدم الطبري لنا رواية جاء فيها : ان أحـــد الاسرى المسلمين ، كان قد تنصر هناك ، ودخل عمورية مع المحاصرين ، وعند مقدم المعتصم خرج اليه ، وأعلمه ان جزءا من ســـور المدينـــة جرفته سيول الامطار ، الا أن والي المدينة أهمل اعادة بناء هذا الجزء واكتفى — خوفا من ثيوفيل — باعادة بنائه كيفما اتفق وبصورة ضعيفة ، فأمر المعتصم بجعل مقره أمام هذا الجزء من السور ، ونصب المجانيق عليه ، فانفرج السور في ذلك الموضع[١٩٤] • على اننا لا نجد في هذه الرواية سوى دعاية مضادة للعباسيين، عملت على التقليل من قيمة الانتصار الذي حققه المعتصم ، وأقامته على أساس دور شخصي ، وفي هذه الرواية أكثر من ثغرة :

١ — فهي لم ترد في أي من المصـــادر الاخرى — والتي لم تنقل عن

١٩٢ — فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٧ •
١٩٣ — المرجع السابق ، ١٤٥ •
١٩٤ — تاريخ ، ٩/٦٣-٦٤ •

الطبري ــ • ثم أن هناك رواية لابن العبري ، أشار فيها الى أن المسلمين ، هم الذين اكتشفوا نقطة الضعف في السور وصوبوا نحوهـا المجـانيق حتى هدموها[195] • ولم يشر الى دور ذلك المتنصر الذي اتصل بالمعتصم •

٢ ــ ان اكتشاف نقطة الضعف في السـور ، لم تكن بالعملية الصعبـة والمستعصية ، فالرواية نفسها أشارت الى ان اعادة بناء هذا الجزء من السور، كانت شكلية وسريعة ، فلابد أن تكون متميزة عن بقية أجزاء السور القديمة• ثم أشارت الرواية الى أن القوى الثلاث التي شـكلها المعتصم دارت حول السور[196]• ولابد أن تكون احدى هذه القوى قد لاحظت الخلل في السور، فاتخذت الاجراءات اللازمة تجاهه ، فدكتـه المجانيق الى ان هدم برجين من ابراج السور ، حتى قال ابو تمام :

رمى بك الله برجيهـا فهدّمهـا ولو رمى بك غير الله لم يصب[197]

وامام هذا التطور الخطير في الاحداث قرر ايتيوس ــ ياطس ــ ان يجد الفرصة المناسبة لمغادرة المدينة ، فكتب بهذا الشأن كتابا الى الاميـراطور ، ارسله مع اثنين من اتباعه ، احدهما يجيد اللغة العربية بفصاحة، وحاولا التسلل ليلا عبر المحاصرين • الا ان الدوريات التي كانت تراقب الاسوار اكتشفت امرهما ، فأحضرا الى المعتصم ، اذ وجد بحوزتهما الكتاب المـذكور • ومن ناحية اخرى امر المعتصم بتشديد الحراسة ليلا حتى يمنع اي اتصال بين اهل الحصن وبين البيزنطيين في الخارج[198] • ثم جمعت كل المجانيق امام الثلمة التي انفرجت في السور ، لزيادة اتساعها كي يصبح بالامكان الدخول منها • وكان القتال امام هذه الثلمة مناوبة بين قـادة الجيش العباسي ، في كل يوم

---

١٩٥ ــ تاريخ ، ٣٥ .
١٩٦ ــ تاريخ ، ٦٣/٩ .
١٩٧ ــ ديوان ابي تمام ، ٥٩/١ .
١٩٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٦٤/٩ــ٦٥ .

يقاتل احدهم مع جنده[199] . والى هذا الحد من الحصار قدم كلا الجانبين خسائر كبيرة في الارواح[200] .

وفي الجانب البيزنطي قسمت مهمة الدفاع عن أسوار المدينة على قادتهم، لكل قائد عدد من الابراج يدافع عنها . فأصبحت مهمة الدفاع عن الثلمة على عاتق بوديتزيس ــ بودين او وندو ــ الذي تابع اعمال الدفاع ليلا ونهارا . الا ان ايتيوس رفض امداده بأية قوات او تعزيزات اضافية ، فألحقت بقواته اصابات كثيرة . ورغم تحذيراته المستمرة ، لم يجر امداده . فاضطر للخروج الى المعتصم طالبا الامان له ولجماعته ، على ان يسلم الحصن بما فيه[201] . واشار ابن العبري الى محاولة سبقت ذلك ، هي ان وفدا من سكان الحصن خرج الى المعتصم طالبا السماح لهم باخلاء المدينة ومغادرتها ، الا ان المعتصم رفض هذا العرض ، بل انه ازداد تصلبا لما اصاب قوته من خسائر ــ على ما يفهم من قول ابن العبري ــ[202] . ولا يبدو الامر مستبعدا ، فخروج وفد من اهل المدينة كان امرا متوقعا ، لا سيما بعد انفتاح الثلمة في السور ، وان سقوط المدينة كان وشيكا ، بل يمكن القول ان المدينة كانت ساقطة عسكريا ، وان دفاعاتها كانت غير مجدية . ومع كل هذه الظروف استبعد فازيليف امر هذا الوفد ، على اساس ان ميشيل السوري اشار الى ان بودين كان بين اعضاء الوفد ، فلا يمكن ان يكون بينهم ثم يعود ويسلم المدينة[203] . ان وجوده مع الوفد لا يلغي امكانية تسليمه للحصن ، وان هذا لا يعني عدم اشتراكه في الوفد . لان هذين العملين لم يجريا في الوقت نفسه ، حتى يستحيل اشتراك بودين فيهما ، او في احدهما . ثم ان تسليمه الحصن ، عبر

---

١٩٩ ــ المصدر السابق ، ٩/٦٥ــ٦٦ .
٢٠٠ ــ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٥ .
٢٠١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٦٧ .
٢٠٢ ــ تاريخ ، ٣٥ــ٣٦ .
٢٠٣ ــ العرب والروم ، ١٥٠ .

عن وجهة نظره في استحالة استمرار الدفاع عن المدينة اكثر من هذا .

وعند خروج بودين الى المعتصم ، أمر أصحابه ألا يحاربوا حتى يعود اليهم ، الا ان الامور ، من ناحية أخرى ، سارت بشكل آخر . فقوات المعتصم تقدمت نحو الثلمة ، وجماعة بودين لا يقاتلون ، بل أشاروا بأيديهم الى هذه القوات بعدم التقدم ، لكن التقدم كان مستمرا . ويبدو ان بودين اختار توقيتا غير مناسب لخروجه ، اذ بدأت القوات العباسية بتحقيق نجاح رئيس في السيطرة على الثلمة ، وربما هذا هو ما دفع بودين للخروج في هذا الوقت بالذات . ولم يفرط المحاصرون بنجاح حققوه بجهود كبيرة ، استنادا الى مفاوضات قد لا تنجح ، ربما أراد منها العدو مجرد كسب الوقت . وعلى أية حال ، فان بودين ، وهو بين يدي المعتصم ، كان في موقف لا يحسد عليه . اذ ركب المعتصم فرسه للاشراف على عملية تقدم قواته نحو الثلمة ودخول الحصن . فأشار بودين الى المعتصم بأنه غدر به ــ مع أن المعتصم لم يكن قد وعده بشيء ، فهما لم يتفقا بعد على شيء ــ ومع هذا وعده المعتصم بتلبية ما يريد(٢٠٤) .

ومرة أخرى قدم ابن العبري رواية مختلفة تماما ، تضمنت ان بودين عند خروجه الى المعتصم طلب الامان لاصحابه مقابل تسليم المدينة ، فأعطاه المعتصم عشرة آلاف دينار ، ثم عاد الى حصنه لبث الاحباط والفشل في نفوس المدافعين . وطالبهم بالكف عن القتال لعل المسلمين يشفقون عليهم ، عند دخولهم المدينة(٢٠٥) . والراجح ان هذه الرواية موضوعة للتشهير ببودين على أنه باع المدينة بهذه العشرة آلاف دينار . كما أنها أرادت تصوير فتح المدينة ليس ممكنا لولا خيانة بودين . بيد انه من الضروري استبعاد كل التبسيطات في التفسير ، تلك التي تعدّ فتح المدينة قام على جهود وأسباب شخصية

---

٢٠٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٦٧-٦٨ .

٢٠٥ ــ تاريخ ، ٣٦ .

فردية ، متناسية كل ذلك الاعداد والتهيوء الذي بذل لتحقيق هذا الهدف •

ان المعتصم وقواته كانوا مصممين على فتح المدينة ، وما صاحب ذلك من استعداد مادي عسكري له دور أساس في تحقيق النصر ، قابله في الجانب الآخر ، وضع نفسي عبّر عن حالة الخوف التي سادت بين المدافعين ، جسدتها محاولة قائد عمليات الدفاع الخروج من الحصن ، ثم ذلك الوفد الذي طلب الى المعتصم السماح باخلاء المدينة ، وأخيرا محاولة بودين تسليم المدينة • ورافق كل ذلك انعدام التنسيق في أعمال الدفاع ، التي ظهرت كأنها امور شخصية ، استبعدت كل أشكال التعاون بين المدافعين • ثم كان لاحكام الحصار وقطع أي اتصال بين الحصن وخارجه ، دور أساس في انهاك الوضع النفسي لاهل الحصن • حتى أن سقوط المدينة كان حقيقة أيقن بها أهل الحصن قبل غيرهم • وكل هذه العوامل جعلت من سقوط عمورية أمرا محتما ، وأبعد ما يكون عن أي دور شخصي لهذا أو ذاك •

وعلى أية حال ، فان جيوش المعتصم دخلت عمورية عنوة لا صلحا ، وأما عن مدة الحصار ، أشار الطبري الى أن المدة بين بدء الحصار ، وبين رحيل المعتصم عن المدينة ، استمرت خمسة وخمسين يوما • اذ بدأ يوم الجمعة لستة أيام من منتصف رمضان[٢٠٦] • في حين سقطت عمورية لثلاث عشر ليلة بقيت من رمضان[٢٠٧] • أي أن الحصار دام (١٢) يوما ، بدأ في اول يوم من آب ٨٣٨ م ، وانتهى في الثالث عشر منه من نفس السنة • ورحل المعتصم عن المدينة في الخامس والعشرين من أيلول عام ٨٣٨م[٢٠٨] •

وعند دخول القوات العباسية المدينة ، اشتدت المعركة بين الطرفين ، وبدأ البيزنطيون بالانحسار الى داخل احدى الكنائس الكبيرة للتحصن فيها • وبعد

---

٢٠٦ ـ تاريخ ، ٩/٣٠ •

٢٠٧ ـ ابن خياط ، ٢/٧٨٧ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢١٥ •

208—C.M.H, 4/1, P. 711.

قتال طويل وعنيف أحرقت الكنيسة بمن فيها[209] . وذكر صاحب العيون والحدائق ، ان الذين احترقوا داخل الكنيسة بلغوا (٥٠) ألفا[210] . وبلاشك فان هذا الامر في غاية الاستحالة عمليا . على أنه لابد من ملاحظة لها أهميتها الخاصة اذ لا بد من النظر الى حرق الكنيسة من الناحية العسكرية البحتة ، فالمدينة لم تفتح صلحا . وانه لابد من استمرار قتال المدافعين طالما انهم لم يلقوا السلاح أينما كانوا . وهو أمر تحتمه طبيعة العمليات العسكرية .

بعد ذلك جرى احضار ايتيوس ، قائد عمليات الدفاع عن المدينة ، الى المعتصم ومعه عدد من كبار القادة والموظفين الذين كانوا برفقته[211] . ثم قام المعتصم على المدينة أربعة أيام حتى أنزل الدمار بها[212] . على أنه يجب ملاحظة المبالغة الكبيرة في أرقام الخسائر التي لحقت بالبيزنطيين ، والتي ذكرتها المصادر ، اذ اشار بعضها ، انها بلغت من القتلى (٣٠) ألفا ومن السبي (٣٠) ألفا أيضا[213] . ثم ذكر ابن العبري ان القتلى كان يجري جمعهم أكواما ، ثم صدرت الاوامر بالكف عن القتل والاكتفاء بالسبي ، وان السبي بلغن ألفا غير من قتلن ، وان المعتصم لما رأى كثرة الاسرى ، أمر بقتل أربعة آلاف منهم[214] . وذكر فازيليف انه بعد بيع الغنائم والاسرى ، تم قتل أربعين ألف من أهل عمورية[215] .

ان المبالغة بالارقام على هذا النحو ، أمر لا ريب فيه . سواء كان ذلك

---

٢٠٩ ــ الطبري ، تاريخ ، ٦٨/٩ .
٢١٠ ــ العيون والحدائق ، ٣٩٤/٣ .
٢١١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٦٨/٩ــ٦٩ .
٢١٢ ــ المسعودي ، مروج ، ٤٧٣/٣ .
٢١٣ ــ الازدي ، تاريخ ، ٤٢٧ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، ١١٩/٦ ، المسعودي ، مروج ، ٤٧٣/٣ .
٢١٤ ــ تاريخ ، ٣٦ .
٢١٥ ــ العرب والروم ، ١٥٢ .

في المصادر العربية أو البيزنطية ، ولكل دوافعه ، فالمصادر العربيـة أرادت تصوير أمر الانتقام للفضائح التي أنزلت بأهل زبطرة ، بأكبر ما يمكن ذكره من خسائر لحقت بالعدو • ثم إن هذا الاتفاق بين المصادر العربية ، لا يعـدو كونه عملية نقل بعض هذه المصادر عن بعض • ناهيك عن أن المصادر المتقدمة لم تقدم أية أرقام بصدد هذه الخسائر • اما المصـادر البيزنطية ، فانها كانت تنظر الى سقوط عمورية بوصفه أمرا مسلّما به ، لذا فانها عملت على ابـراز « قسوة وبطش » الخليفة المعتصم في الانتقام عن طريق المبالغة في تصويـر نتائج الحملة • وأمر طبيعي جدا أن تكون هناك خسائر كبيرة في الجـانب البيزنطي ، بيد أن ذلك لا يسوغ اطلاق العنان للخيال والمبالغة في تقدير هذه الخسائر •

ويبدو ان المعتصم ، كان مصمما على التوجه الى القسطنطينية ومحاصرتها برا وبحرا ، الا أن الانباء الخاصة بالمؤامرة التي دبرهـا العباس بن المأمون وآخرون معه ، اضطرته الى العودة سريعا الى طرسوس[٢١٦] •

وفي طريق العودة ، أرسل ثيوفيل الى المعتصم وفـدا رأسـه البطريق ــ ستراتيج ــ باسيل ، عرض عليه مقدارا من الذهب ، فدية لاسرى عمورية ، لكن المعتصم رفض العرض لانه لا يغطي اجمالي تكاليف الحملة[٢١٧] • في حين قدم ابن العبري رواية أخرى مفادها ان الامبراطور أرسل ستراتيج خرشنة ــ باسيل ــ ومعه تحفا وهدايا وعرض عليه اطلاق سراح ايتيوس مقابل اطلاق سراح ما عنده من أسرى المسلمين ، وزوده برسالة أخرى ضمنها التهديد والوعيد ، وأمر رسوله بتسليمها الى المعتصم اذا رفض العرض الاول[٢١٨] • وأورد ابن الفراء نصاً للرسالة جاء فيه :

---

٢١٦ ــ المسعودي ، مروج ، ٣/٤٧٣ ، كذلك :
C.M.H, 4/1, P .711; Vasiliev, P. 267.

٢١٧ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٥ •

٢١٨ ــ تاريخ ، ٣٦ــ٣٧ •

« من باسيل بن فلان ــ حتى انتسب الى ثلاثة آباء أو أربعة ملوك ــ الى أخيه المعتصم .

ان الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضا ، ويعلو بعضها على بعض ، وربما اتيت من وزراء السوء ، وقد كان منا بزبطرة ما كان وتبينت وجه الخطأ فيه . وقد كلت لي الصاع أصواعا فيما فعلت بعمورية . وأنا أسألك بالطينة المباركة التي أنت منها أن تنعم عليّ باطلاق بطارقتي ، فانهم مائة وخمسون بطريقا . وأنا افتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين . وقد تهادنت الملوك قبلنا . . »(٢١٩) .

على أننا نجد في هذه الرسالة اسلوبا للمخاطبة لم نعهده من قبل . اذ خاطب الامبراطور الخليفة المعتصم بـ « أخيه » والراجح ان هـذا النص موضوع ، أو محرف على الاقل ، وعزز ذلك ان الرسالة معنونة من « باسيل » مع انه كان الرسول وليس الامبراطور . في حين ان المضمون لم يختلف كثيرا عما ذكره ابن العبري . أما المعتصم فقد ضمّن رده تسليم تيوفوب ــ نصر الكردي ــ ومنويل فضلا عن الاسرى المسلمين ، الا أن باسيل عدّ هـذا الطلب مستحيلا ، فرد عليه المعتصم بالتهديد والوعيد بالحرب ، عندئذ سلمه باسيل الرسالة الثانية ، التي زادت من غضب المعتصم ، فرد الهدايا وكتب الى عمال الثغور ، باتخاذ الاستعدادات لمهاجمة الاراضي البيزنطية(٢٢٠) . في الوقت الذي أشار فيه ابن الفراء الى أن باسيل بقي في العاصمة العباسية ستة أشهر حتى حظي بمقابلة المعتصم ، الذي قبل الهدايا البيزنطية ، الا أنه لم يقدم أيـة

---

٢١٩ ــ رسل الملوك ، ٣٤ــ٣٥ .

٢٢٠ ــ تاريخ ، ٣٦ــ٣٧ .

تفاصيل أخرى بشأن نتائج هذه السفارة[221] • والبادي ، ان باسيل لم ينجح في المهمة التي جاء من أجلها •

وفي طريق العودة أيضا ، وردت الاخبار الخاصة بمؤامرة العباس بن المأمون مع بعض القادة العسكريين لاغتيال المعتصم ، واعلان العباس نفسه خليفة بدلا منه ، وأورد الطبري تفاصيل المؤامرة[222] • الا أن ما يهمنا هنا ، تلك الاشارة التي وردت في بعض المصادر العربية والبيزنطية عن اتصال العباس بالامبراطور ثيوفيل بخصوص المؤامرة[223] • دون تقديم أية تفاصيل حول ذلك • كما ان هذه المصادر لم تشر الى رد ثيوفيل على العباس • على أنه يمكن القول ان مسألة اتصاله هذه أشيعت من قبل أتباع المعتصم ، حتى يمكن انزال عقوبة الموت بالمتآمرين •

وفي أعقاب سقوط عمورية ، وجه ثيوفيل رسله الى البندقية وانكلهايم عاصمة الفرنجة، والى عبدالرحمن الثاني في الاندلس، طالبا العون والنجدة• وعلى الرغم من الترحيب بهذه الوفود ، لكنهـا لم تلق تجـاوبا من الناحيـة العملية[224] •

أما العمليات العسكرية في المرحلة اللاحقة لسقوط عمورية ، فانها لم تكن من نوع تلك العمليات الكبيرة الموجهة من قبل السلطة المركزية • بـل تركزت حول نشاطات وجهود عمال الثغور مثل أبي سعيد حاكم شمال سورية والجزيرة ، ونائبه على المصيصة الامير بشير[225] • ولعل الحملة الاولى لابي

---

٢٢١ ــ رسل الملوك ، ٣٥ •
٢٢٢ ــ تاريخ ، ٩/٧١–٧٨ •
٢٢٣ ــ المسعودي ، مروج ، ٣/٤٧٣ ، كذلك :
Bury, E.R.E, P. 273, note. 4.
٢٢٤ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٧ •
225—C.M.H, 4/1, P. 711.

سعيد كانت في الاشهر الاخيرة من عام ٨٣٨م/٢٢٤هـ ، وفيها اعترض طريق تيوفوب ــ نصر الكردي ــ فقتل في هذه المعركة[٢٢٦] • وكانت هذه الحملة بتوجيه مباشر من الخليفة المعتصم • فدخل الامير بشير الاراضي البيزنطيــة ، وحاز فيها الكثير من الغنائم ، ثم هاجمه تيوفوب ، الذي تمكن من استرجاع الغنائم ، وعند هذا الحد وصل أبو سعيد فاشتدت المعركة بين الطرفين ، اذ لحقت بالبيزنطيين خسائر كبيرة[٢٢٧] • كما ان رأس تيوفوب حمل الى الخليفة المعتصم ، ففرح به كثيرا ، لانه كان المتسبب بدمار زبطرة[٢٢٨] •

وفي عام ٢٢٦هـ/٨٤٠ـ٨٤١م ، قاد أبو سعيد حملة أخرى[٢٢٩] • وفي هذه الفترة هاجم البيزنطيون ميناء انطاكية ، مرة أخرى ، وربما كان ذلك في عام ٨٤٠م/ ٢٢٥ـ٢٢٦هـ[٢٣٠] • وفي عام ٨٤١م/٢٢٦ـ٢٢٧ هـ ، ســيطر البيزنطيون على الحدث وعلى قسم من اقليم ملطيــــة[٢٣١] • وربما على مرعش أيضا[٢٣٢]• وذلك ردا على حملة ثالثة قادهاأبو سعيد في عام ٢٢٦هـ/ ٨٤٠ـ٨٤١م، اذ تعقبه البيزنطيون في طريق عودته في اقليم قيليقية ،وتمكنوا من احتلال هذه المناطق الثلاث[٢٣٣] • وذكر Bury ان هذه الانتصارات البيزنطية ، جعلت المعتصم يميل الى الكياسة عندما عرض عليه ثيوفيل تبادلا للاسرى ، فرد عليه بمزيج من الكرم والازدراء ، حيث أجاب :

226—Bury, E.R.E ,P. 273, note. 4.

٢٢٧ ــ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٧ ، فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٥ـ١٥٦ .

228—Bury, E.R.E, P. 273, note, 4.

٢٢٩ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٦ .

٢٣٠ ــ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٧ ، كذلك :

Bury, E.R.E, P. 274.

231—C.M.H, 4/1, P. 711.

232—Bury, E.R.E ,P. 273.

٢٣٣ ــ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٨ ، فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٦ .

«نحن لا نستطيع أن نساوي في القيمة بين المسلمين والنصارى ، لان الله فضلهم عليهم ، لكنك اذا أعدت الي الاسرى المسلمين دون أن تطلب شيئا بالمقابل، فاننا كنا نعطيك ضعفين من البيزنطيين، وهكذا تتفوق عليك في كل شيء..»[234] .

ويفهم من Bury انه جرى تبادل للاسرى بين الطرفين ، الا أن ايتيوس ومن معه لم يكونوا بين الاسرى المبادلين ، ثم عقدت هدنة بين الطرفين[235] . وأكد ابن العبري عقد الهدنة ، لكنه لم يشر الى تبادل للاسرى[236] . وهو ما أكده فازيليف أيضا[237] . وهذا هو المرجح ، بل أن الامر برمته مشكوك فيه . فجواب المعتصم فيه الكثير من الغرابة ، وهو لا ينسجم مع الواقع ، اذ شهد تاريخ العلاقة بين الدولتين العديد من حالات تبادل الاسرى، في حين أظهر جواب المعتصم الامر وكأنه يحدث للمرة الاولى. ومن المؤكد ان ثمة مراسلات جرت بين الطرفين ، الا أن صيغتها غير واضحة بقدر كاف . بل ان الهدنة المشار اليها مشكوك في أمرها أيضا. لان المعتصم، كان يعد من أجل مهاجمة العاصمة البيزنطية نفسها بحرا . كما شهدت هذه الفترة اغارة مسلمي كريت على سواحل آسيا الصغرى[238].

وعلى أية حال ، فانه يصعب رسم صورة واضحة للاحداث في هذه الفترة — بين سقوط عمورية ووفاة المعتصم — اذ لم تشر الى أي منها مصادرنا العربية ، ولا يعني ذلك رفض هذه الاحداث اجمالا ، غير ان الصورة ربما كانت اوضح لو تطرقت اليها مصادرنا .

234—Bury, E.R.E, P. 274.
235—loc, cit.

٢٣٦ — تاريخ ، ٣٨ .
٢٣٧ — فازيليف ، العرب والروم ، ١٥٦ .
238—Brooks, Arab Occupation of Crete, P. 434.

وفي عام ٢٢٧هـ/٨٤٢م ، وبعيد وفـــاة المعتصم بفترة وجيزة ، أبحر اسطول مكون من (٤٠٠) سفينة أعدت لمهاجمـــة القسطنطينية قبيل وفاة المعتصم . وتولى أبو دينار قيادة هذه الحملة ، الا ان القسطنطينية لم تنج من هذا الخطر الداهم الا بفعل القوى الطبيعية . اذ ان عاصفـــة هوجاء دمرت الاسطول تماما عند جزر خلدونية قرب الزاوية الجنوبية الشرقية من ليكيا . ولم ينج من الاسطول سوى سبع سفن عادت الى سوريا ، فنجت العاصمـــة البيزنطية بصورة غير متوقعة[٢٣٩] . مما شجع البيزنطيون للقيام بحملة بحرية على مسلمي كريت في عام ٢٢٨هـ/٨٤٣م قادها تيوكتينوس ، الا انهم تمكنوا من تمزيق الحملة شر ممزق[٢٤٠] .

أما على صعيد الحملات البرية ، اندفع عمر الملطي في عـــام ٨٤٤م/٢٢٩ــ٢٣٠هـ ،حتى بلغ Malagina ، والحق باللغثيط تيوكيتيوس هزيمـــة كبيرة في قبادوقية . كما ان أبا سعيد قاد عدة حملات في هذه الفترة[٢٤١] . وفي عام ٢٣١هـ/٨٤٥م ، جرى تبادل للاسرى بين الطرفين ، قدم الطبري عنه تفاصيل وافية[٢٤٢] . أعقبه أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي ، بقيادة الشاتية ، بيد أن كثرة الامطار والثلوج الحقت بالحملة خسائر كبـــيرة ، اذ فقدت القوة (٢٠٠) من رجالها ، وغرق في البدندون (١٠٠) آخرين ، في حين أسر البيزنطيون (٢٠٠) أيضا من أفراد الحملة . اذ أعدوا قوة من (٧) آلاف جندي ، تصدت لاحمد بن سعيد ، الا ان أحمد جبن عن مواجهتهم على الرغم من الحاح أفراد الحملة ، فعزله الواثق[٢٤٣] .

---

٢٣٩ ــ فازيليف ، العرب والروم ، ١٧٠ــ١٧١ ، كذلك :
Bury, E.R.E, P. 273; Fahmy, P. 107.

240—Bury, E.R.E, P. 274, note. 4; C.M.H, 4/1, P. 712.

241— C. M.H, 4/1, P. 712.

٢٤٢ ــ تاريخ ، ٩/١٤١ــ١٤٤ .

٢٤٣ ــ المصدر السابق ، ٩/١٤٤ــ١٤٥ .

وفي حدود عام ٢٣٧ هـ/٨٥٠م ، وأمام اضطهاد البيزنطيين للبيالقة ، انتقل هؤلاء الى الاراضي الاسلامية ، واستقروا في المناطق الجبلية جنوب سيواس في مدن Argaouth و Amara و Tephrice واتخذوا من هذه عاصمة لهم • ولعب زعيمهم كارباس ، مع الخمسة آلاف من اتباعه، دورا مهماً في النشاط الحربي الذي قاده عمر الملطي[٢٤٤] • على أن هؤلاء لم يقيموا هنا فترة طويلة ، اذ رحلوا لاساءة أهل الثغور اليهم ، وعدم اهتمام الجهات الرسمية المعنية بأمرهم، فتفرقوا في البلاد وحلّ الارمن محلهم[٢٤٥] •

ومنذ مطلع حكم المتوكل،بدأت عمليات أخرى برز فيها أكثر ولاة وعمال الثغور — وكنا أشرنا الى انشغال المتوكل في تنفيذ منهجه الخاص بالتخلص من نفوذ القادة الاتراك — لذا كان بعيدا عن ميدان العمليات العسكرية في مناطق التخوم • ففي عام ٢٣٧هـ/٨٥١م ، قاد الصائفة علي بن يحيى الارمني، وكذا الحال في السنوات اللاحقة ، اذ قاد الصوائف في عامي ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م و ٢٣٩هـ/٨٥٣م[٢٤٦] •

وفي عام ٢٣٧هـ/٨٥١—٨٥٢م ، ذكر ابن العبري ان بقراط بن آشوط، زار يوسف بن محمد والي أرمينية ، عارضا السلام عليه ، لكنه أُعتقل ، مما دفع الارمن والبيزنطيين الى مهاجمة بعض مناطق ارمينية ، وقتل يوسف بن محمد في أثناء تصديه لهم[٢٤٧] • غير أن الطبري قدم صورة أخرى للاحداث، اذ أن بقراط جاء مطالبا بالامارة لنفسه على آرمينية ، فاعتقله يوسف بن محمد وأرسله الى الخليفة ، فهاجم أتباعه طرون ، اذ كان يوسف مقيماً فيها ، وعند خروجه لقتالهم ، قتل ومن معه ، غير أن الطبري لم يشر الى اشتراك البيزنطيين

244—C.M.H. 4/1, P. 712.

٢٤٥ — قدامة ، ١٨٧ •
٢٤٦ — الطبري ، تاريخ ، ٩/١٩٥—١٩٦ •
٢٤٧ — تاريخ ، ٤٠—٤١ •

في هذا الامر[٢٤٨] . على أن هذه المشاركة ليست مستبعدة ، فانه طالما كان هناك تحالف وتعاون بين الطرفين.

أما في عام ٢٣٨هـ/٨٥٣م ، فقد قرر البيزنطيون توجيه ضربة قوية لدمياط . لانها كانت مصدر امداد مسلمي كريت بالسفن الحربية والاسلحة، لذا كانت الضربة مؤذية أيضا لمسلمي كريت هؤلاء . فقامت حملة بحرية مكونة من (٣٠٠) مركب عليها ثلاثة من القادة هم « عرفة وابن قطونا وأمردناقة »[٢٤٩] مع كل منهم (١٠٠) مركب ،فهاجم ابن قطونا دمياط «وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء الى صدر الرجل » وعند عبورأهل المدينة منها ، غرق فيها كثير من النساء والاطفال ، وحمل الآخرون بالسفن الى الفسطاط ، ولم تلق الحملة مقاومة كبيرة ، لان « صاحب المعونة » نقل الجند من دمياط الى الفسطاط عند اقتراب العيد ، ربما لاستعراضهم بهذه المناسبة، وكان كل من السفن المئة البيزنطية تحمل بين (٥٠ــ١٠٠) رجل، فدمروا المدينة ونهبوا أسلحتها ، التي كانت معدة لارسالها الى كريت . ونهبت بضائع أخرى كانت معدة لارسالها الى العراق . كما جرى قتل أعداد كبيرة من السكان دون تمييز بينهم . وأحرقت المساجد والكنائس . وسبيت (٦٠٠) من النساء بينهن (١٣٥) من المسلمات والبقية قبطيات[٢٥٠] .

وفي ظل غياب الجند وعدم وجود قوة عسكرية تدافع عن المدينة ، فان ابن الاكشف ــ أحد السجناء ــ قاد أعمال المقاومة مع بعض سكان المدينة ، فقتلوا عددا من المهاجمين[٢٥١] . وعندما انسحب البيزنطيون من دمياط

---

٢٤٨ ــ تاريخ ، ٩/١٨٧ــ١٨٨ .

٢٤٩ ــ بخصوص هذه الاسماء ، فان ما أورده فازيليف لا يعدو عن كونه تقديرات وتخمينات في محاولة التعرف على شخصياتهم لا تستند على معلومات دقيقة ، لا سيما وان المصادر البيزنطية لم تتكلم عن الحملة .
العرب والروم ، ١٨٩ ، هامش ١ .

٢٥٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٩٣ــ١٩٤ ، الكندي ، ٢٠١ــ٢٠٢ .

٢٥١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٩٤ــ١٩٥ .

توجهوا الى تنيس ـ بين الفرما ودمياط ـ غير أن التيار حال بينهما ،فعدلوا الى اشتوم ـ على ستة فراسخ من تنيس ـ(٢٥٢) وهي نقطة حصينة مسورة لها أبواب حديدية من بناء الخليفة المعتصم ، وفيها أحرقوا ودمروا وحملوا من الطرادات والمجانيق الشيء الكثير ، ثم حملوا الابواب الحديدية معهم • وعادوا الى بلادهم دون أية مقاومة(٢٥٣) • فسر المتوكل ببناء حصن دمياط(٢٥٤) • وبدأ من جديد الاهتمام ببناء الاسطول في مصر(٢٥٥) • أما القائدان الآخران اللذان كانا في الحملة ، فان مصادرنا لم تقدم أية معلومات عنهما ، وربما كانا يغزوان شواطىء كريت(٢٥٦) •

وفي عام ٢٤١هـ/٨٥٥م ، هاجم البيزنطيون عين زربة ، وأسروا من كان فيها من الزط مع نسائهم وأطفالهم وماشيتهم(٢٥٧) • وفي هذه السنة أيضا جرى تبادل للاسرى بين الطرفين ، بناءً على طلب من تيودورة الوصية على العرش البيزنطي(٢٥٨) • ثم قام البيزنطيون بعدة غارات لحلفاء البيالقة ـ في الاراضي الاسلامية ـ وأطراف ملطية أيضا(٢٥٩) •

وفي عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م ، قاد الصائفة علي بن يحيى الارمني ، فخرج البيزنطيون في اثره بقيادة بيتروفانس ، ستراتيج بند التراقيسيون، فهاجموا شمشاط حتى بلغوا آمد ، وبعد خروجهم من الثغور الجزرية ، هاجموا عددا من القرى ، وأسروا (١٠) آلاف من السكان ، اذ دخل البيزنطيون من مناطق استيطان البيالقة ، فتصدى لهم كارباس « قربياس » وعمر بن عبدالله الاقطع

٢٥٢ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٩٤ ، فازيليف ، العرب والروم ، ١٩١ .
٢٥٣ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٩٤ـ١٩٥ ، فازيليف ، العرب والروم ، ١٩١ .
٢٥٤ ـ الكندي ، ٢٠٢ .
٢٥٥ ـ المقريزي ، ١/٢١٤ .
٢٥٦ ـ فازيليف ، العرب والروم ، ١٩١ .
٢٥٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٠١ .
٢٥٨ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٢٩ ، الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٠٢ـ٢٠٣ .
259—C.M.H, 4/1, PP. 109-110, 711.

ومعهما جماعة من المتطوعة • غير أن البيزنطيين كانوا قد ولوا عائدين ، فلم يلحقوا بهم(٢٦٠) • ودلت هذه العمليات على أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة الموقف الهجومي • وبوصولهم آمد ، كانوا بذلك قد وصلوا مسافة أبعد ، لم تبلغها أي من الحملات البيزنطية من قبل • وفي أعقاب ذلك صدرت الاوامر الى عمر بن عبدالله الاقطع بتولي الشاتية(٢٦١) • ردا على هذه الغارات البيزنطية ، لكن المصادر لم تقدم أية تفصيلات أخرى •

وبحلول ربيع الاول ٢٤٤هـ/حزيران ٨٥٨م ، حاول المتوكل استعادة السيطرة على زمام الامور في مناطق التخوم ، فوجه من دمشق قائده بغا قائدا للصائفة ، فتمكن من فتح حصن صملة ــ ربما كان الاصل في تسمية صمالو ــ(٢٦٢) • وفي عام ٢٤٥هـ/٨٥٩ــ٨٦٠م ، أرسل البيزنطيون وفدا ، قدم عرضا لتبادل الاسرى بين الطرفين ، غير أن عملية التبادل لم تتم الا في العام التالي ٢٤٦هـ/٢٦٠م(٢٦٣) • وعاد سبب ذلك ، الى أن البيزنطيين توقعوا انحياز الحامية الاسلامية في لؤلؤة الى جانبهم • اذ أن أهل الحصن منعوا رئيسهم من الصعود اليهم ، ثم أرسل ميشيل الثالث أحد قادته ، قدم لاهل الحصن عرضا ماليا ، بمنح كل منهم (١٠٠٠) دينار على أن يسلموا الحصن • وعند دخوله الحصن وتسليمهم ما وعدهم به اضافة الى أرزاق الاشهر الفائتة ، انقلب عليه أهل الحصن وسلموه الى بلكاجور في ذي الحجة ٢٤٥هـ/شباط ٨٦٠م ، فحمله علي بن يحيى الارمني الى المتوكل • فعرض البيزنطيون ألفا من المسلمين فداء له ، لكن العرض رفض على ما يبدو ، اذ قتل القائد البيزنطي

---

٢٦٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ٢٠٧/٩ ، كذلك : C.M.H, 4/1, P. 711.

٢٦١ ــ نفس المصدر والصفحة .

٢٦٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٢١٠/٩ .

٢٦٣ ــ المصدر السابق ، ٢١٣/٩ .

فيما بعد[٢٦٤] . ويبدو أن سبب تمرد الحامية الاسلامية ، عاد الى انقطاع رواتبهم — أرزاقهم — وهو ما يفهم من الرواية السابقة . وفي هذا العام أيضا — ٢٤٥هـ — هاجم البيزنطيون سميساط وأخذوا (٥٠٠) من الاسرى معهم[٢٦٥] . في حين قدمت الرواية البيزنطية تفصيلات أكثر ، فالهجوم قاده ميشيل الثالث — الذي بلغ العشرين من عمره—فحاصر المدينة ، غير أن حاميتها شنت غارة مفاجئة أوقعت الذعر والهزيمة في صفوف البيزنطيين ، حتى الامبراطور نفسه لم ينج الا بصعوبة بالغة . وسقط معسكره بيد المسلمين تماما ، وأبدى كاربياس شجاعة فائقة في هذه المعركة ، وفيها أسر عدد من القادة البيزنطيين[٢٦٦]. غير أن هناك من عدّ هذه الهزيمة ملفقة وغير صحيحة، وان ميشيل الثالث هو المنتقم الحقيقي من عار عمورية ، وان ملاحما شعرية سجلت انتصاراته ، وانه كان قد حصن دفاعاته ، التي قدمت الحماية للجيش عند تراجعه[٢٦٧] .

وفي عام ٢٤٦هـ/٨٦٠—٨٦١م ، صعدت الدولة العباسية الموقف ، حتى تمسك بزمام الامور في مناطق التخوم ، ومنع أية محاولة للتجاوز من جانب البيزنطيين ، فقامت عدة حملات قادها: عمر بن عبدالله الاقطع—على الصائفة— ومعه كاربياس . وبلكاجور . وعلي بن يحيى الارمني . أما في البحر فقد تمكن الفضل بن قارن من فتح حصن أنطاكيا[٢٦٨] . وتقدم عمر بن عبدالله الاقطع في عمق الاراضي البيزنطية ، حتى بلغ سينوب على الشاطىء الجنوبي للبحر الاسود . وفي هذه الاثناء حاول الامبراطور البيزنطي قيادة حملة على

---

٢٦٤ — المصدر السابق ، ٢١٨/٩ ، كذلك :
C.M.H, 4/1, P. 713.

٢٦٥ — المصدر السابق ، ٢١٨/٩ .

266—Bury, E.R.E, P. 279.

267—C.M.H. 4/1, P. 110.

٢٦٨ — الطبري ، تاريخ ، ٢١٩/٩ .

الاراضي الاسلامية ، الا أن ظهور الروس أمام عاصمته ، حال دون تنفيذ هذه الحملة ، لأن الامبراطور انصرف لانقاذ العاصمة ، ولم يتم ذلك الا بصعوبة بالغة(٢٦٩) .

وشهدت هذه السنوات الاخيرة ، تكرر الحملات البحرية على السواحل المصرية . ففي عام ٢٣٩هـ/٨٥٤م ، هاجم البيزنطيون دمياط مرة أخرى، لتحطيم السفن الحربية التي تم بناؤها ، وتدمير أعمال الترميم التي أمر بها المتوكل،وبقوا هناك أشهرا عديدة يدمرون وينهبون كل ما يجدوه أمامهم(٢٧٠). وفي عام ٢٤٥هـ/٨٥٩م ، هاجموا ميناء الفرما(٢٧١) .

وهنا لابد من الاشارة الى أبي سعيد ، الذي برز بشكل كبير في مناطق الثغور ، غير أن المتوكل أمر بتعذيبه لاستخراج ما عنده من أموال،في أعقاب حملاته المشهورة في الاراضي البيزنطية ، اذ سلم الى أحد الجهابذة النصارى لاستخراج هذه الاموال. مما دفع الشعراء الى انتقاد هذا الاسلوب في التعامل مع أبي سعيد ، فاضطر المتوكل الى اطلاقه وتوليته من جديد(٢٧٢) .

وبمقتل المتوكل في شوال ٢٤٧هـ/كانون الاول ٨٦١م(٢٧٣) . أسدل الستار عن العصر العباسي الاول ، وبدء عصر فقد فيه الخلفاء كل نفوذهم وسطوتهم ، التي تحولت الى كبار القادة والموظفين . وانعكس هذا الامر على العلاقات مع البيزنطيين بشكل واضح.

269—C.M.H. 4/1, P. 713.
270—loc, cit.

٢٧١ ــ الكندي ، ٢٠٣ ، كذلك :

Ibid, PP. 110, 713.

٢٧٢ ــ الصولي ، اخبار البحتري ، ٩٧/٩٨ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة، ١٦/٢ــ١٧ .

٢٧٣ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٣٠ .

ان أبرز ما تميزت به الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول، في العلاقة مع البيزنطيين :

١ ــ الانحدار السريع من أقصى حالات القوة التي مثلها المعتصم في مطلع هذه الفترة ، والتحول الى الموقف الدفاعي . اذ وجد البيزنطيون فرصا عديدة لشن الغارات على ما وراء خط الثغور . وساعد كل ذلك الاستقرار الكبير في الاوضاع الداخلية البيزنطية . في حين عانت السلطة المركزية العباسية ، من صراعات حادة داخل أجهزتها .

٢ ــ وشهدت هذه الفترة بروز القادة المحليين في مناطق الثغور ، مثل أبي سعيد وعمر بن عبدالله الاقطع وعلي بن يحيى الارمني . الذين تحملوا أعباء التصدي للبيزنطيين ، فكانوا السور الواقي الذي حافظ على مناطق الثغور في فترة بداية الانحلال والتدهور .

٣ ــ وان البحرية البيزنطية بدأت تستعيد حيويتها تدريجيا ، وفي غياب شبه تام للبحرية الاسلامية ، تمكنت من تسديد عدة ضربات ناجحة على السواحل المصرية .

٣ ــ نظرة تحليلية في اسباب ودوافع العلاقات الحربية :

ان قيام علاقات حربية محتدمة بين دولتين ، كانتا القوتين العظميين في العالم في تلك الفترة . كان لابد أن يقف وراءها جملة أسباب ودوافع عملت على تحفيز هذه الحرب وادامتها قرونا طويلة ، ولم تكن لتنتهي قبل سقوط القسطنطينية نفسها ، وانهاء الامبراطورية البيزنطية من الوجود تماما في عام ١٤٥٣م . وقدم لنا المحدثون عددا وافرا من هذه الاسباب والدوافع ، سنحاول اجمالها بشكل سريع ، حتى يكون بالامكان التعرف على الدوافع الحقيقية لهذه الحرب :

١ ــ الدوافع التاريخية :

أشار الدوري إلى أن من بين أبرز الاسباب المهمة لهذه الحرب ، انها شكلت حلقة في سلسلة طويلة من الحروب الدامية في هذه المنطقة ، عبرت عن طبيعة الصراع المحتدم بين الشرق والغرب . وسايره في ذلك آخرون[٢٧٤] .

٢ ــ الدوافع الدينية :

وظهرت اختلافات في تقدير قيمة هذا الدافع في اثارة الحرب ، فهناك من عدّه الدافع الاساس ، وربما الوحيد ، على أساس أن الجهاد أحد تعاليم الشرع الاسلامي ، وان كل منطقة يجب غزوها والخضاعها للدولة الاسلامية، مع أنه لا يشترط تحويلها بالقوة الى الاسلام[٢٧٥] . في حين عدّه البعض أحد العوامل وليس الوحيد[٢٧٦] . أو أن الخلفاء أرادوا مجرد تطبيق شكلي لواجب الجهاد[٢٧٧] .

٣ ــ الدوافع الاقتصادية :

وتراوحت هذه الدوافع بين الرغبة في الحصول على غنائم ومكاسب مادية[٢٧٨] . وبين الصراع حول ممرات وطرق التجارة بين الشرق والغرب ، التي حظيت بأهمية بالغة عند الطرفين[٢٧٩] .

---

٢٧٤ ــ العصر العباسي الاول ، ٩١ ، شاكر مصطفى ، ١/٣٦٥ .
275—C.M.H, 4/1, P. 696.
٢٧٦ ــ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ١/٢٢٦ .
٢٧٧ ــ الدوري ، العصر العباسي الاول ، ٩٢ ، شاكر مصطفى، ١/٣٣٦ .
٢٧٨ ــ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ١/٢١١ .
٢٧٩ ــ الدوري ، العصر العباسي الاول ، ٩١ ، شاكر مصطفى ، ١/٣٦٥ ، حتي ، تاريخ العرب المطول ، ٢/٣٧٣ .

٤ ـ دوافع تتعلق بالموقع الجغرافي :

فالموقع الممتاز للامبراطورية البيزنطية ، أغرى الشعوب التي حولها وأطمعها بالسيطرة على هذا الموقع والاستفادة منه[٢٨٠] .

٥ ـ الدوافع الخاصة :

وتمثلت برغبة الخلفاء في الحفاظ على هيبتهم[٢٨١] ، وتمرين الجيش وتدريبه على الاعمال العسكرية[٢٨٢] ، واظهار قوة الدولة ورفع شأن أحد الامراء أو ابناء الخليفة من أجل جعله وليا للعهد[٢٨٣] .

وفي الوقت نفسه ، أشارت المراجع الحديثة ، الى أن العباسيين لم يكن في أهدافهم القيام بمشاريع للفتح والتوسع تجاه الاراضي البيزنطية[٢٨٤] . أما أسباب ذلك : الحاجز الجغرافي الجبلي بين الدولتين ، المتمثل بجبال طوروس[٢٨٥] . كما أشار ابن خلدون من قبل الى أن العرب لا يتقبلون ولا يطيقون السكنى الا في المناطق السهلية، وينفرون من المرتفعات الباردة[٢٨٦] . وانصراف العباسيين أيضا الى الاهتمام بأقاليم دولتهم الشرقية بشكل رئيس[٢٨٧] . وأعطى فشل الامويين في فتح القسطنطينية درسا للعباسيين في عدم جدوى أية محاولة من هذا النوع[٢٨٨] . ثم أن حركة التحرير العربية ، كانت تتجه شرقا وغربا ، وأنها متوقفة تقريبا في الاتجاه نحو الشمال أو

280—Baynes-Moss, P. 72.

281—Holt, Vol. 1 A, P. 103.

٢٨٢ ـ الدوري ، العصر العباسي الاول ، ٩٢ ، شاكر مصطفى ، ٣٦٦/١ .

٢٨٣ ـ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ٢٢٦/١ ـ ٢٢٧ .

٢٨٤ ـ الدوري، العصر العباسي الاول، ٩٢ ، فاروق عمر ، العباسيون الاوائل، ٢١١/١ ، شاكر مصطفى ، ٣٦٦/١ .

٢٨٥ ـ عبدالرؤوف عون ، ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

٢٨٦ ـ المقدمة ، ٦٢٣/٢ .

٢٨٧ ـ فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ٢١١/١ .

٢٨٨ ـ شاكر مصطفى ، ٣٣٦/١ .

الجنوب،لاسباب جغرافية[٢٨٩]. وكان لروح العصر — التي تمثلت في انصراف العباسيين نحو بناء دولتهم اقتصاديا وثقافيا واداريا، دورا أساسيا في العزوف عن أعمال الفتح والتوسع[٢٩٠].

بعد استعراض هذه الآراء ، ما الذي يمكن تقريره بشأن هذه العلاقات الحربية ؟ ان هذه العلاقات بوصفها ظاهرة تاريخية كبيرة ، لا بد من النظر اليها من زاويتين ، الاولى : أن نضعها في اطارها التاريخي العام . والثانية : وضعها في اطارها الخاص بطبيعية المرحلة ذاتها ، أو بالاحرى دراسة المؤشرات التي يمكن استخراجها من تفاصيل العلاقات الحربية بين الدولتين . ومن ثم محاولة التعرف على مدى الاتفاق بين الاطارين العام والخاص لهذه الظاهرة.

اولا — الاطار العام :

تمثل الاطار التاريخي العام للعلاقات الحربية بين الدولتين ، في كونها جزء من ظاهرة تاريخية عامة كبيرة هي الصراع بين الشرق والغرب .والذي امتد عدة قرون ، منذ ما قبل الميلاد وحتى العصور الحديثة.ومنذ أن اكتشف الغرب أهمية الشرق ، سعى للسيطرة على هـذه الاصقاع الواسعة ، في حين دأب الشرق دوما للدفاع عن وجوده امام رغبات الغرب التوسعية . وفي خضم هذا الصراع تمكن الغرب مرات عديدة من مد نفوذه الى الشـرق بمديات مختلفة الاتساع . اذ كان الشرق عالما ساحرا بتوابله وحريره وخيراته ، راود خيال كل غربي ، وان اختلفت قيمة هـذا الشرق بالنسبة للغرب ، بين الماضي والحاضر . أما الشرق فلعله لم يجد في الغرب ما يغريه لمد نفوذه اليه . وان برزت عوامل أخرى ، دفعت الشرق للامتداد غربا ، فسجلت حالات قليلة من هذا النوع مثل فتح الاندلس وبعض جـزر البحـر المتوسط أو حتى الفتح

٢٨٩ — شاخت ، تراث الاسلام ، ١/٢٥٧ .
٢٩٠ — سيديو ، تاريخ العرب العام ، ٢١٨ .

العثماني لبعض مناطق اوربا الشرقية. وفي الوقت نفسه ، شهد الشرق حالات تفوق أخرى لم يرافقها امتداد في النفوذ غربا .

اذن : فنحن أمام ظاهرة تاريخية عامة ، تمثلت أساسا ، في رغبة الغرب الاستحواذ على الشرق وخيراته . فهل كانت المعارك المحتدمة بين العباسيين والبيزنطيين ، جزء من هذه الظاهرة العامة ، وبالشكل الذي توصلنا اليه ؟ وبمعنى أدق ، هل سعى البيزنطيون للسيطرة على أراضي الدولة العباسية ، واستعادة ممتلكاتهم في الشرق ؟ ان خسارة البيزنطيين لممتلكاتهم في الجزيرة والشام ومصر وشمال افريقية ، عنت بالنسبة لهم أكثر من شيء.

فهي عنت خسارتهم لاغنى الممتلكات اقتصاديا،خصوصامستودعات القمح في مصر . كما عنت فقدانهم لمصادر الذهب الاساسية التي كانت تمد الامبراطورية . فضلا عن خسارتهم للشريان التجاري الذي طالما ربطهم بالشرق ، وهو ذو اهمية خطيرة .

ان الضربة التي تلقتها الامبراطورية البيزنطية، اثر حركة التحرير العربية، وان لم تكن قاتلة ، الا أنها أصابت الامبراطورية بشلل كبير ، انعكست آثاره واضحة على المؤسستين الاقتصادية والعسكرية . وعلى الدوام كان الميزان التجاري البيزنطي يشكل عامل استنزاف الذهب أمام استيراد الحرير وثروات الشرق الاخرى . وازدادت خطورة هذا النزف بخسارتها ــ الامبراطورية ــ للاقاليم العربية المهمة . وأمام هذا الوضع الخطير ، هل كان بامكان البيزنطيين القبول بالاوضاع التي آلوا اليها والتي أفقدتهم خيرات الشرق بشكل شبه تام ؟ ولم يكن بوسع البيزنطيين من خيار سوى بذل الجهود العسكرية والسياسية لاستعادة الاوضاع القديمة بتحين الفرص المناسبة لتحقيق ذلك . ومن ناحية أخرى هل كانت وسائل البيزنطيين المتيسرة تمكنهم من السير على هذا النهج ، بمعنى هل كانت المؤسسة العسكرية البيزنطية قادرة على تنفيذ هذا المنهج ؟

ثانيا ــ الاطار الخاص :

واذا كانت هذه هي الخلفية التاريخية للعلاقــة بين الجانبين ، فما هو الاطار الخاص التفصيلي لهذه العلاقة ؟ ان اســتعراضنا السابق لتفــاصيل العلاقات الحربية ، كشف لنا عن مؤشرات عــدة ، تمكننا من الخروج بتصور دقيق عن طبيعة هذه العلاقات :

١ ــ ان الشكل البياني الذي مثل النشاط العسكري لكلا الدولتين ، أظهر بوضوح ان النشاط العسكري العباسي كان أوسع وأكثر بكثير من مدى النشاط العسكري البيزنطي ، وكان هذا سائدا في معظم فترة البحث •

٢ ــ ان البيزنطيين هم الذين كانوا في معظم الاحيان يثيرون العمليات العسكرية في مناطق التخوم ، وفي الفترات الرئيسة لتصعيد العمل العسكري في مناطق التخوم ، كان البيزنطيون هم البادئين ، كما حــدث في الاعوام ١٣٣ هـ/٧٥١م ، ١٣٨هـ/٧٥٥ـــ٧٥٦م ، ٢١٤هـ/٨٢٩م ، ٢٢٣هـ/٨٣٧ ــ ٨٣٨ م • وتسبب بعض هذه الحالات ، بــرد عباسي واســع في الاراضي البيزنطية •

٣ ــ ان البيزنطيين هم الذين قدموا عروض الصلح والسلام ، في كــل الحالات التي شهدت السلام بين الطرفين ، في حين تراوح رد العباسيين بــين الرفض أو القبول •

٤ ــ في الحالات التي تفوق فيها أي من الطــرفين على الطرف الآخر ، عسكريا ، لم يرافق ذلك السيطرة على أراضي جديدة وضمها ، عدا ما يخص القلاع والنقاط الستراتيجية ، وهي لا تمثل توسعا واستحواذا على الاراضي ، بل غرضها السيطرة على الموقف في مناطق التخوم •

٥ ــ ان البيزنطيين هم الذين خرقوا حالات عقد الصلح بين الطرفين ، اذ سجلت ثلاث حالات من هذا النوع : نقضهم الاتفاق الاول بين الرشــيد

وايريني ، ونقض نقفور للاتفاق الثاني بينهمـا أيضا • ثم نقض نقفور اتفاقـه مع الرشيد الذي تلى فتح هرقلة •

٦ ــ توغل العباسيين عدة مرات في العمق البيزنطي ، بل أن بعضـا من الخلفاء فكر في حصار القسطنطينية ، غير ان هذه الافكار لم تنفذ ، أو أنها أخفقت قبل الشروع بالتنفيذ •

وأمام هذه المؤشرات ، التي ميزت العلاقات الحربية ، ما الذي يمكن أن نقرره ؟قبل تقرير أي شيء ، كيف يجب أن نفهم هذه المؤشرات ؟ انها تفسر بعضها البعض ، وبذا يمكن اختصارها الى مؤشرات أخرى اساسية :

١ ــ ان ارتفاع مدى النشاط العسكري العباسي ، لم يعن الرغبـة في التوسع ، لأننـا وجدنا في مؤشـر آخر ، ان القوات العباسية توغلت في الاراضي البيزنطية ، دون ان يصاحب ذلك توسع وضم للاراضي • واذا كان المأمون قد فكر في ذلك ، الا انه لم ينفذه • كما ان العباسيين ــ بغنـاهم الاقتصادي ــ لم يكونوا بحاجة الى استياق بضعة آلاف من الماشية ، كما لم يكن في الاقـاليم الشـرقية للامبـراطورية ما يغري حملـه غنائمـا •

فلماذا اذن هذا الارتفاع في معدل العمليات العسكرية ، ولماذا كان هـذا التوغل في الاراضي البيزنطية ؟

٢ ــ من ناحية أخرى ، فان انخفاض مـدى النشـاط العسكري البيزنطي ، وطلبهم عقد الصلح مرات عديدة ، لم يعن رغبتهم الحقيقيـة في احلال السلام بينهما ، بدليل خرقهم المستمر لفترات السلام والهدوء بينهما • وان العباسيين برفضهم عروض السلام البيزنطية، عبروا عن ادراكهم حقيقـة هذه العروض ، التي لجأ اليها البيزنطيون تخلصا من مأزق او ظرف طارىء •

فماذا تعني هذه المؤشرات للامبراطورية البيزنطية ، ولماذا لم يتوسعوا في الاراضي العباسية في فترت تفوقهم ؟

ان الاجابة عن هذين السؤالين، هي التي تفسر طبيعة العلاقة بين الدولتين،

اذ عمل البيزنطيون باستمرار على تكييف اوضاعهم لتحقيق نجاحات صغيرة ، لتجعل منها بعد ذلك نجاحا كبيرا ، فبدأوا على تحين الفرص المناسبة لمباشرة عملياتهم العسكرية ، غير أن عدم توفر الامكانات الكافية للمؤسسة العسكرية البيزنطية ، بسبب ما تلقته الامبراطورية من ضربات اقتصادية ، والقلة النسبية للسكان قياسا الى الدولة العباسية ، أضعف كثيرا من قدرات هذه المؤسسة ، فضلا عن انشغال القسطنطينية بصد غارات البلغار ، حال دون القائها بكل ثقلها على التخوم مع العباسيين • ولكن ما أن انتهى خطر البلغار ، وما أن دب الوهن في أوصال الدولة العباسية ، حتى بدأ البيزنطيون بزيادة ضغطهم على اراضي الدولة العباسية محاولين التوسع بهذا الاتجاه • وهنا يمكننا الاجابة عن السؤال الاول ، وهو ان العباسيين زادوا من ضغطهم العسكري على البيزنطيين لتدمير أية امكانية للتفوق العسكري البيزنطي ، بتدمير المؤسسة العسكرية نفسها والاقتصادية أيضا ، للحيلولة دون تفكيرهم بالتوسع على حساب الاراضي الاسلامية ••

ان كل هذه التفاصيل تؤكد التطابق بين الاطارين العام والخاص للعلاقة بين الدولتين • فالبيزنطيون ــ ممثلين للغرب ــ عملوا على استعادة أمجادهم السابقة في الشرق • وان هذا الشرق ــ ممثلا للعباسيين ــ كان مدافعا عن وجوده أمام هذا المد الغربي • ووفقا لذلك ، فان هذه الحرب ، كانت حلقة في سلسلة الصراع المحتدم بين الشرق والغرب ، والذي اكتسى بطابع خاص ودوافع خاصة في كل مرحلة من مراحله • ومع هذا تبقى هناك أسباب أخرى أساسية لهذا الصراع تتمثل في :

١ ــ الرغبة في الاستحواذ الاقتصادي على خيرات الشرق والتنعم بها ، وهذه الرغبة تمثل الجانب الاقتصادي من دوافع هذه الحرب •

٢ ــ الدافع السياسي ، والذي تمثل أساسا في تجاوز قوتين كبيرتين لبعضهما ، والذي لابد أن ينجم عنه احتكاك عسكري بينهما • ولعل هذه الحقيقة تتجسد عبر كل مراحل التاريخ ، حتى الوقت الحاضر •

الفصل الثالث

العلاقات السياسية

١ ــ العلاقات الدبلوماسية :

لا أعتقد ان استخدام كلمة « دبلوماسية » للدلالة على مجريات العلاقات السياسية بين الدولتين ــ العباسية والبيزنطية ــ يشكل وضعا للكلمة في غير موضعها . فاذا كانت الكلمة تشير الى ادارة علاقات دولة ما مع دولة أو دول اخرى ، فان هذا ينطبق على ما كان سائدا بين هاتين الدولتين في تلك الفترة، في الاقل من حيث الشكل العام لهذه العلاقات وأساليبها .

واستخدمت مصادرنا كلمتي « سفارة » أو « وفادة » للاشارة الى أساليب ممارسة العلاقات الخارجية للدولة . ولغويا فان : « السفير : هو الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء»[١] . ويقال أيضا : « وفد فلان على الامير أي ورد رسولا، فهو وافد..وأوفدته أنا الى الامير: أرسلته»[٢]. أما المفهوم الاصطلاحي لاساليب الاتصال الخارجي هذه فهو :

> « عملية استمرار الاتصالات الخارجية على اختلاف أنواعها واشكالها ودرجاتها تؤدى بواسطة السفراء والرسل والمبعوثين ويكونون وكلاء وممثلين للمرسل

١ ــ لسان العرب ، ٤/٣٧٠ .
٢ ــ المصدر السابق ، ٣/٤٦٤-٤٦٥ .

لدى الملك أو الرئيس المرسل اليه في دولة أخرى في أمر من الأمور المعلقة بينهما وينتدب لهذه المهمة من يصلح لها • ويكون نائبا أو وكيلا لمرسله ، في كل ما ينسب اليه في توقيع الاتفاقات والمعاهدات أو انهاء حالة الحرب »[٣] •

واعتمد العمل في الميدان الدبلوماسي ، لا سيما في العصور الوسطى ، على المزايا الشخصية للعاملين فيه • مما ترتب عليه الاهتمام والدقة الكبيرين في اختيار القائمين بمهام العمل في هذا الميدان، وبالذات السفراء والرسل منهم • ويبدو هذا الامر طبيعيا في وقت لم يكن فيه ثمة معاهد متخصصة لاعداد العاملين في الدبلوماسية • ومن خلال ما وصل الينا من نصوص ، يبدو انه لا يوجد أفراد يتولون هذه المهام بصورة مستمرة •أو بالاحرى لم يردما يشير الى وجود ديوان ضم أفرادا شكلوا هيئة دبلوماسية دائمة • بل بقي الامر خاضعا لمقتضيات الحاجة الآنية ، التي تفرض اختيار شخص ما ليقوم بمهمة المفاوض أو السفير الى الجانب البيزنطي • وأجمل ابن الفراء في كتابه رسل الملوك ــ وهو أقرب المصادر المعنية بهذا الموضوع الى فترة بحثنا هذا ــ أبرز الصفات ، التي وجب أن تتوفر فيمن يتم اختياره لهذه المهام ، وهي :

١ ــ صفات ومزايا تتعلق بالاداء الكلامي والصوتي ، كوضوح الصوت وحسن الاداء والبيان ، والقدرة على التعبير بدقة عما يريد قوله ، مدركا لطبيعة مهمته بدقة[٤] •

٢ ــ مزايا وصفات تتعلق بالمظهر الخارجي ، كأن يكون السفير رجلا لا امرأة ، وأن يكون مقبول الشكل ، ليس ضئيلا تقتحمه العين وتتجاوزه

---

٣ ــ يونس عبدالحميد السامرائي ، السفارات في التاريخ الاسلامي حتى قيام الدولة العباسية ، ١١ •

٤ ــ رسل الملوك ، ١١ •

بسهولة ، بل مهابا في نفوس الآخرين[٥] .

٣ ــ مزايا تتعلق بالقدرات الشخصية ، فلا بد أن يكون جريئا مقداماً ذا رزانة ووقار ، يعرف متى ومع من يشتد أو يلين[٦] .

٤ ــ ولابد للسفير أن يكون سليما عاقلا ، ضابطا لانفعالاته ، يتسم بالصبر اذا ما طال به المقام في البلد الموفد اليه لحين انجاز مهمته، وليس راغبا في انهاء مهمته بسرعة ، لان ذلك يفوت عليه الفرص المناسبة لتحقيق أفضل النتائج[٧] .

٥ ــ أن يكون واثقا بنفسه ، مطمئنا الى نجاح مهمته ، يقبل على عمله بهمة ونشاط عاليين ، بعيدا عن اليأس والقنوط ، لان ذلك يترك أثره على قدرته في انجاز المهمة الموكل بها[٨] .

٦ ــ ولابد أن يكون السفير مشهودا له بالفضل والعلم والدهاء ،واسع المدارك ، له مكانته الاجتماعية المعروفة ، عارفا بأحوال البلاد الموفد اليها سياسيا واقتصاديا وغيرها[٩] .

٧ ــ وأن يكون مدركا لطبيعة المهمة المنوطة به ، لا يتعداها الى غيرها ، ويتصرف ويجتهد في ايجاد الاساليب والحجج لتحقيق الغرض من ارساله[١٠] .

٨ ــ ومن الامور الضرورية ، مراعاة الاحوال المالية للسفراء والرسل ، بتلبية احتياجاتهم في هذا الجانب ، ان كانوا بحاجة الى ذلك . حتى لا يترك مجالا لاغرائه من الجانب المرسل اليه ، لان ذلك اذا ما تحقق يفشل مهمته ،

---

٥ ــ المصدر السابق ، ١١ ، ٢٠ .
٦ ــ المصدر السابق ، ١٢ ، ١٣ .
٧ ــ المصدر السابق ، ١٥ .
٨ ــ المصدر السابق ، ١٩ .
٩ ــ المصدر السابق ، ٩ ، صلاح الدين المنجد ، فصول في الدبلوماسية ، ١١١ .
١٠ ــ رسل الملوك ، ٧ــ٨ .

الا سيما وان الرسول أمين لا أمين عليه[11] •

وكان الخليفة يقوم شخصيا باختيار رسله وسفرائه ، من مرشحين يقوم ديوان الرسائل بترشيحهم ويمهد لاختيارهم • كما يعد هذا الديوان الكتب والرسائل التي يحملها هؤلاء الرسل معهم •

واذا اختير الرسل في بعض الاحيان من كبار موظفي قصر الخلافة ، مثل عمارة بن حمزة[12] الذي عمل في ديوان صوافي الارض ـ غير أنهم في الغالب لا يكونون كذلك ، بل يختارون وفقا للشروط السابقة • وطبعا ليس هناك ممثلون دائمون أو سفراء مقيمون للدولة العباسية في الدول الاخرى أو بالعكس ، اذ لم ينشأ هذا التطور في العمل الدبلوماسي الا في العصور الحديثة ، دفع اليه تطور العلاقات الدولية ، وتشابك المصالح وتداخلها أكثر من ذي قبل •

أما في الجانب البيزنطي ، فان أحد كبار الموظفين كان يدعى سكرتير الدولة للشؤون الخارجية[13] • ويبدو ان مهمته مشابهة لمهمة ديوان الرسائل في الدولة العباسية ، فعليه تهيئة واعداد ما يتطلبه العمل الدبلوماسي للامبراطورية • بيد أنه لم تتوفر لدينا النصوص التي تبين الاسس التي تم بموجبها اختيار سفرائهم ورسلهم • انها لا تختلف كثيرا عن تلك الشروط والاسس التي يجب أن تتوفر في السفراء الوافدين اليهم • من حيث : قوة الشخصية والثقة العالية بالنفس وسعة المعرفة والاطلاع ورجاحة العقل • ولا أدل على ذلك من اعجاب بعض مصادرنا بدهاء وعلم بعض سفراء القسطنطينية[14] • ويظهر ان أغلب رسل الامبراطورية كانوا من كبار موظفي

---

١١ ــ ابراهيم احمد العدوي ، السفارات الاسلامية الى اوربا في العصور الوسطى ، ٢٤٠ •

١٢ ــ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١٣٧ •

13—Diehl, P. 66.

١٤ ــ ابن الفراء ، ٣٩ ، العيون والحدائق ، ٣/٢٦٦ •

الدولة ، حيث كان معظمهم من البطارقة ــ قادة وحكام البنود ــ[١٥] أو من رجال البلاط، مثل سفارة يوحنا النحوي ، الذي قدم الى بغداد في مطلع حكم ثيوفيل[١٦] •

أما بخصوص معاملة السفير الوافد الى الدولة العباسية ، منذ وصوله أو مسلحة ــ كجهة رسمية ــ وحتى خروجه الى بلاده ، فان لذلك اصولا تحكمها جملة من الضوابط والشروط • وربما كانت هذه متشددة بعض الشيء مع السفارات القادمة من القسطنطينية ، بحكم ان الطابع العام المميز للعلاقات بين الدولتين ، هو الطابع الحربي • ومن المحتم أن يرافق ذلك النظر بعين الشك والريبة الى هؤلاء القادمين من الاراضي البيزنطية • حتى يتم التأكدمن صفتهم الرسمية ، خشية أن يكونوا جواسيس لا رسل • ووضع الفقهاء جملة من الضوابط والشروط للتعامل مع هؤلاء ، قال أبويوسف:

« فان قال أنا رسول الملك بعثني الى ملك العرب وهذا كتابه معي، وما معي من المتاع والدواب والرقيقفهدية له فانه يصدق قوله • اذا كان أمرا معروفا ، فان مثل ما معه لا يكون الا على مثل ما ذكر من قوله انها هدية من الملك الى ملك العرب ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، الا أن يكون معه شيء له خاصته حمله للتجارة ، فانه اذا مرّ به على العاشر عشره[١٧] •

وفي طريق عودة الرسل الى بلادهم :

«لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا

---

١٥ ــ الطبري ، تاريخ ، ٣٢١/٨ ، ابن العبري ، تاريخ ، ٣٦ .
16—Bury, E.R.E, P. 256.

١٧ ــ الخراج ، ١٨٨ .

رقيق مما أسر من أهل الحرب . فان اشـــتروا من ذلك شيئا يرد على الذي باعه منهم ورد اولئك الثمن اليهم، فان كان مع هذا الرسول .. سلاح جيد فأبدله بسلاح أشـــر منــــه أو دابة فأبدلها بأشـــر منهـــا فذلك جائز ولا بأس أن يترك يخرج بذلك . وان كان ابدله بخير منه رد عليه سلاحه ودابته ورد ذلك على صاحبه الذي أبدله ولا ينبغي للامام أن يترك .. رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق أو السلاح مما يكون قوة لهم على المسلمين»[18] .

ووضع الشيباني ، تفاصيل أكثر دقـــة في مجال التعامل مع السفراء أو الرسل ، فقرر انه :

١ ــ لا يقبل من السفير ادعاؤه بالسفارة ، الا بابراز ما يثبت ذلك رسميا، عندها يمنح الامان ، على أن يكون ذلك بغالب الظن[19] . تأكيدا لمنطق الشك والريبة تجاهه .

٢ ــ من حق الخليفة احتجاز السفير ، لا سيما اذا كان الخليفة مع جيوشه في بلد السفير نفسه ، خشية اطلاع هذا السفير على أســـرار خاصة بالجيش ، يفيد بها بلاده ، ويستمر هذا الحجز حتى زوال الخطر . والسفير في ذلك آمن على حياته[20] . ومن حق الخليفة عدم اطلاق السفير ، حتى اذا وعد بعـــدم افشاء أية أسرار ، ولا يصدق في ذلك ، على أنه لا يجوز تقييده بالاغلال[21] . وللخليفة أن يأخذه معه في عودته من هجومه ، ويســـتمر الحجز حتى يبلـــغ

١٨ ــ المصدر السابق ، ١٨٨ــ١٨٩ .
١٩ ــ شرح كتاب السير الكبير ، ٢٩٦/١ .
٢٠ ــ المصدر السابق ، ٥١٥/٢ .
٢١ ــ الشيباني ، ٥١٦/٢ .

الخليفة مأمنه • وحتى اذا استوجب الامر ادخاله الى اراضي المسلمين ، فـاذا رفض الدخول اكره عليه(٢٢) •

٣ ـ وعند اطلاق السفير، لا سيما اذا كان ادخل الى الاراضي الاسلامية، يتعين على الخليفة تجهيزه بالمال اللازم لسفره ، اذا طلب ذلك ، ويكون هـذا المال من أموال النفقة ، بشرط ان يكون هذا السفير قد اجبر على الدخول ، فاذا تم ذلك باختياره ، فلا يمنح مالا لعودته(٢٣) •

٤ ـ واذا خشي السفير من اللصوص وقطاع الطرق ، توجب على الخليفة أن يرفقه بقوة تحميه، وتوصله الى مكان يأمن له ، ويتقي به خطر هؤلاء(٢٤) •

أما عن اصول البروتوكول التي سادت هذه الفترة ، فالمصادر لم تقـدم معلومات وافية بهذا الخصوص • غير أنه وردت اشارات متفرقة تفيد في هذا الامر ، من ذلك رواية تضمنت ان الوزير يقوم أولا باستقبال السفراء ، سواء كانوا بيزنطيين أو غيرهم ، حيث يتم اجراء المفاوضـات « المؤامرات » بـين الطرفين • بما في ذلك وضع القواعد الاساسية لما سيطرحه السفير على الخليفة • يعقب ذلك استقبال الخليفة للسفير ، حيث تتخذ القرارات الاخيرة بشأن ماجاء من أجله السفير • وكان الوزير يستغل فرصة اجتماعه الى السفير لاستحصال معلومات عن أحوال بلاده بتوجيه بعض الاسئلة اليه • على أنه يتوجب وضع اجابات السفير ، دائما ، موضع الشك والريبة ، فربما قصد منها التهويل أو التضليل(٢٥) •

وقد تستغرق المفاوضات بين الوزير والسفير ، أشهرا • ففي أعقاب فتح عمورية أرسل ثيوفيل الى المعتصم سـفارة استغرقت مفاوضاتها مع الوزير

---

٢٢ ـ المصدر السابق ، ٢/٥١٧ •
٢٣ ـ المصدر السابق ، ٢/٥١٧ـ٥١٨ •
٢٤ ـ المصدر السابق ، ٢/٥١٩ •
٢٥ ـ ابن الفراء ، ٣١ـ٣٢ ، الحصري • زهر الآداب ، ١/٢٥٣ •

العباسي ستة أشهر ، حتى أصبح بالامكان وضع القواعد الرئيسة لما سيطرحه السفير على المعتصم[٢٦] .

وقد يرافق استقبال الخليفة للسفير صيغا معينة، مثل استعراض الجيش، والذي يبدأ من مقر اقامة السفراء الى مقر الخليفة . وفي قصر الخلافة ،يتخذ الخليفة مجلسا فخما محاطا بكبار قادته وموظفيه . ويرتدي بقية موظفي القصر الزي الرسمي ، متخذين أماكنهم المخصصة لهم ــ واذا كان هذا الامر جزءامن اصول البروتوكول ، فان له أغراضا أخرى سنأتي اليها ــ وفي أول اللقاء ، يقدم السفير هدايا الامبراطور الى الخليفة ، ثم تجري المجاملات بينهما . وقد يحظى بعض السفراء بتكريم بالغ من الخليفة اذا ما نال اعجابه[٢٧] .

وتتضمن اصول البروتوكول ، القيام بجولة في العاصمة . يطلع السفير فيها على معالم المدينة ومدى فخامتها وابهتها وما تتمتع به من خيرات[٢٨] .

أما اصول البروتوكول في الجانب البيزنطي ، فيبدو من التقارير التي عرضتها مصادرنا ، انها لا تختلف كثيرا عن تلك التي شاهدناها في الدولة العباسية . وربما كان هذا سائدا في العصور الوسطى . على أية حال، فان أبرز ما جرى عليه البروتوكول البيزنطي هو :

تقوم جهات معنية باستقبال السفارة القادمة الى القسطنطينية ، قبل ترتيب لقائها مع الامبراطور . اذ روى نصر بن الازهر،انه التقى مع بيتروفانس قبل لقائه بالامبراطور[٢٩] ، وهدف ذلك ، في الاغلب ، تسوية أمر اللقاء وما يجب طرحه فيه . وقبول وصول السفير الى بهو الامبراطور، فانه يمر بسلسلة

---

٢٦ ــ ابن الفراء ، ٣٥ .
٢٧ ــ العدوي ، السفارات الاسلامية الى اوربا ، ٥٤ــ٥٥ .
٢٨ ــ مثلا : ابن بكار ، الاخبار الموفقيات ، ٦٨ــ٦٩ ، ابن الفراء ، ٣٩ ، الجهشياري ، ١٣٣ .
٢٩ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢١٩ .

من الخدع[٣٠] . هدفها كشف مدى قوة أو ضعف السفير ، فضلا عن أغراض أخرى سنأتي اليها . ثم يدخل السفير البهو الامبراطوري ، الذي يكون واسعا في العادة ، يبدو فيه عرش الامبراطور فخما جـدا وعاليا بعض الشيء . ثم يجري تقديم الهدايا ، وما يستوجبه الامر من مجاملات أيضا . ويحضر اللقاء عدد من المترجمين ، يقومون بالترجمة بين السفير والامبراطور . وأدرك بعض السفراء خطورة دور هؤلاء ، لا سيما ما يتعلق باضافـة بعض العبارات الى ما يريد السفير قوله ، أو سوء تفسير له[٣١] . .

وفي اللقاء بين السفير والامبراطور ، يجـري الاتفـاق النهائي بشأن الغرض من السفارة . ثم يقسم الطرفان على الالتزام بما أتفق عليه . وانتبـه بعض السفراء الى أن الامبراطور لا يؤدي القسم بنفسه ، بل هناك من ينوب عنه في ذلك،مما دفعهم الى التأكد من أن هذا القسم ملزم للامبراطور أيضا[٣٢] . ويبدو انه كان يتم تجريد السفير من سلاحه عند دخوله لمقابلة الامبراطور ، الا أن هناك من أصر على عدم تنفيذ هذا البند من البروتوكول[٣٣] . وفي بعض الاحيان يعتري المفاوضات تأخيرا أو تأجيلا ، لسبب أو لآخر . مما يطيل اقامة السفير في العاصمة البيزنطية[٣٤] . وهناك أيضا جولات يقوم بها السفير في العاصمة ، وربما رافقه الامبراطور نفسه في هذه الجولة[٣٥] . وأحيانا هناك فقرة خاصة بزيارة السفراء لمعسكرات الاسـرى المسلمين في القسطنطينية ، للاطلاع على أوضاعهم والاستفسار منهم عن أحوالهم[٣٦] .

أما بخصوص أساليب الدبلوماسية المتبعة عند كلا الطرفين ، فقد وردت

---

٣٠ ــ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١٣٧ .
٣١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢١٩ــ٢٢٠ .
٣٢ ــ المصدر السابق ، ٩/٢٢٠ .
٣٣ ــ المصدر السابق ، ٩/٢١٩ .
٣٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٢٠ .
٣٥ ــ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١٣٨ .
٣٦ ــ ابن الفراء ، ٤٨ .

اشارات متناثرة ، تكشف عن بعض جوانب هـذا الموضوع • ففي الجانب العباسي كان يتم اجراء عرض للجيش أمام السفير ، الغرض منه اظهار ضخامة هذا الجيش وقدراته الكبيرة • واظهار ضخامة الحاشية وما يحيط بالخليفة من قادة وموظفين[٣٧] • وقصد من هذه الامور ، أن تترك انطباعا في نفس السفير عن مدى قوة الدولة ، بما يجعل المفاوض العباسي في موقع القوة • وربما قصد منها أيضا ادخال الوهن والضعف في نفس المفاوض البيزنطي • وهو أمر يترك أثره في المكاسب التي يحققها أي من الطرفين في المفاوضات• ومن ناحية أخرى ، فان السفير العباسي الى القسطنطينية تجري تهيئته بحيث يترك انطباعا بالمهابة في نفوس الجانب البيزنطي ، بما يعكس قوة واقتدار الدولة العباسية، فيدخل المفاوضات بمركز قوة حتى في قناعة الجانب البيزنطي نفسه • ويعزز موقف السفير ما يحمله من هدايا ثمينة ، تعبر عن الاقتدار الاقتصادي للدولة • وبهذه الوسائل نال أحد سفراء المعتصم مكانة كبيرة في نفس الامبراطور ، اذ كان موكبه مهابا للغاية[٣٨] •

أما الدبلوماسية البيزنطية ، فلها هي الاخرى أساليبها الخاصة ، لتحقيق ما تصبو اليه من أهداف • منها بعض الخدع الميكانيكية ، التي قد تنطلي على بعض السفراء • وقدم لنا ابن الفقيه صورة حية جاء فيها :

> « قال عمارة (أحد السفراء العباسيين) فانتهيت الى مكان يحجب منه الرجل على مسافة بعيدة ، فجلست حتى أتى الاذن فسرت الى مكان آخر فجلست حتى أتى الاذن ثلث مرات ثم وصلت الى داره (الامبراطور) فادخلت دارا واذا على على طريقي أسدان عن جنبي الطريق وطريقي عليهما لا أجد من ذلك بدا فقلت لابد

---

٣٧ ــ العدوي ، السفارات الاسلامية الى اوربا ، ٥٤ •

٣٨ ــ ابن الفراء ، ٣٢ــ٣٣ •

من الموت فلن أموت عاجزا فحملت نفسي فلما صرت
بينهما سكنا فجزت ودخلت دارا أخرى واذا سيفان
يختلفان على طريقي فحزرت أنه لو مرّ بينهما ذبابة
لقطعاها فقلت الذي سلمني من الاسدين يسلمني من
السيفين فاستخرت الله ومضيت فلما صرت بينهما سكنا
ثم دخلت دارا ثالثة وفيها الملك فلما صرت الى بهوه اذا
هو في بهو فسيح أكاد أن لا أبصره لبعد مسافة البصر
بيني وبينه حتى انتهيت الى قدر ثلثه فغشيتني سحابة
حمراء لم أبصر شيئا فجلست مكاني ساعة ثم تجلت
عني فقمت فمشيت فلما بلغت نحو الثلثين غشيتني
سحابة خضراء فغشى بصري منها فجلست حتى تجلت
ثم قمت فمشيت فانتهيت الى الملك فسلمت عليه»[٣٩].

وقصد من هذه الاساليب ادخال الضعف والوهن في نفس السفير مما
يضعف موقفه في المفاوضات ، وربما هذا ما تحقق فعلا ، اذ يفهم من بقية رواية
ابن الفقيه ، ان هذا السفير فشل في تحقيق مهمته[٤٠].

وكان بذخ البلاط ، جزءا من أساليب الدبلوماسية البيزنطية ، لاعطاء
صفة المهابة والقوة للامبراطورية . وتحدثت بعض تقارير السفارات العباسية
عن مدى فخامة بلاط الامبراطور[٤١] . وكان السفير البيزنطي الى الدولة
العباسية يقدم هداياه لكل من يتصل به مظهرا الثراء والبذخ والسخاء . وهو
ما فعله يوحنا النحوي في سفارته الى بغداد، حين أرسله ثيوفيل لاعلام الخلافة
العباسية باعتلائه العرش[٤٢] .

٣٩ ـ مختصر كتاب البلدان ، ١٣٧ـ١٣٨ .
٤٠ ـ المصدر السابق ، ١٣٨ .
٤١ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢١٩ ـ ٢٢٠ ، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان .
١٣٧ ـ ١٣٨ .

42—Bury, E.R.E, P. 256.

وتطرقت مصادرنا الى العديد من السفارات المتبادلة بين الدولتين ، ومن المؤكد ان هناك الكثير مما لم ترد الاشارة اليه . فموضوع هـذه السفارات ربما لم يكن ذا قيمة عند مؤرخينا ، فلم تحض بما تستحقه من اهتمام ، فجاءت أخبارها مختصرة موجزة ، بعضها تضمن اخطاءا تاريخية واضحة . وعلى أية حال ، فانه مما ذكر عن سفارات ، يمكن أن تحدد أهـدافها وغاياتها بالشكل الآتي :

١ ـ انهاء حالة الحرب وعقد الصلح بين الدولتين ، وكان خط سير هذه السفارات قادما من القسطنطينية الى العباسيين ، وهي كثيرة ، في حين اكتفى العباسيون بالرفض أوالقبول[٤٣] . وقد تطرقنا الى ذلك وأسبابه في بحثنا للعلاقات الحربية .

٢ ـ وهناك سفارات أخرى لفداء الاسرى أو تبادلهم[٤٤] . اذ احتـل موضوع الاسرى مكانا واسعا في تاريخ العلاقات بين الدولتين ، سنأتي الى تفصيله في الفقرة القادمة .

٣ ـ وثمة سفارات مهمتها الابلاغ بنقض صلح أو انهاء اتفاق جرى بين الطرفين . وهو أمر أقدم عليه البيزنطيون أكثر من مرة[٤٥] .

٤ ـ كما كانت مهمة بعض السفارات التهديد بشن الحرب على الطرف الآخر ، لهذا السبب أو ذاك[٤٦] .

---

٤٣ ـ انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، ٢٠٥/٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، البـلاذري ، فتوح ، ٢٢٨/١ ، الطبـري ، تاريخ ، ٤٦/٨ ، ١٥٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٩ ، ابن اعثم ، ٣٣٥/٨ ، المسعودي ، مروج ، ٤٥٥/٣ ،
Bury, E.R.E, P. 266.

٤٤ ـ انظر : ابن خياط ، ٣٧١/٢ ، الطبري ، تاريخ ، ٢١٣/٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ابن الفراء ، ٣٤ ، ابن العبري ، تاريخ ، ٣٨/٣٦ ،
Bury, E.R.E, PP. 273-274.

٤٥ ـ الطبري ، تاريخ ، ٣٠٧/٨ـ٣٠٨ .

٤٦ ـ ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ١٣٧ ، ابن الفراء ، ٤٤ .

٥ ـ وكان من بين أهداف هـذه السفارات تسهيل وترويج العلاقـات التجارية بين الطرفين[٤٧] • مع أن مثل هذه السفارات لم تلق نجاحا كبيرا •

٦ ـ وكانت هناك سفارات خاصة لاغراض علميـة وثقافيـة ، عززت العلاقات الثقافية بين البلدين[٤٨] •

٧ ـ ومن الاغراض الاخرى لهذه السفارات ، تقديم التهاني بتولي خليفة أو امبراطور جديد حكم البلاد ، أو اعلام أحد الطرفين الطرف الآخر ، بـأن خليفة أو امبراطور قد تولى الحكم[٤٩] •

٨ ـ وكانت هناك سفارات أخرى ، أرسـلها بعض الخلفاء العباسيين تضمنت دعوة الامبراطور البيزنطي الى الاسلام أو اداء الجزية أو الحرب • من ذلك : رسالة هارون الرشيد الى الامبراطور البيزنطي[٥٠] التي من المرجح انها أرسلت بعد نقض البيزنطي الصلح الاول المعقود بين الرشيد وايريني ، وهو أمر واضح من بعض الاشارات التي وردت في الرسالة •

وأخيرا كانت هناك السفارات التي حملت الجزية البيزنطية الى بغداد ، اذ فرضت أكثر من مرة على بيزنطة • وكا لابد لهذه الجزية من سفارات تحملها الى بغداد ، منها السفارة التي رافقت الرشـيد حـاملة الجزية الى الخليفة المهدي[٥١] •

وهنا لابد من تقديم بعض الملاحظات عن طبيعـة المراسلات التي جرت بين عاهلي الدولتين • وان كان ما بين أيدينـا من نصوص هـذه الرسـائل

---

٤٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٢٩ •

٤٨ ـ أبن خرداذبة ، ١٠٦ــ١٠٧ •

٤٩ ـ البغدادي ، ١/٩١ ، كذلك :

Bury, E.R.E, P. 256.

٥٠ ـ احمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، ٣/٢٥٢ــ٣٢٤ •

٥١ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/١٥٢ــ١٥٤ •

قليل جدا لا يشكل مادة متكاملة لغرض تحليلها ، مع هـذا يمكن أن نخرج منها بالملاحظات الآتية :

يبدو ان هذه الرسائل كانت تبدأ ـ وفقا لعرف ربما كان سائدا في تلك الفترة ـ باسم المرسل اليه ، ثم اسم المرسل . لذا فان المأمون ، حين وردت اليه رسالة ثيوفيل التي بدأها باسمه ، استنكر ذلك ورفض قراءة بقية الرسالة ، مما اضطر ثيوفيل لاعادة كتابة رسالته وفقا لاصول البروتوكول المتبع مقدما اسم الخليفة المأمون على اسمه . وهناك أيضا رسالة نقفور الى الرشيد ناقضاً فيها الصلح بين الدولتين ، اذ بدأها بنفسه أيضا . ولا يبدو ان هذا كان هو الحالة الاعتيادية . اذ أن هناك رسالة أخرى من نقفور الى الرشيد جاءت بالشكل الآتي : « لعبدالله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم»(٥٢) .

وتميزت هذه الرسائل بالاختصار الشديد ، لا تتضمن أية استطرادات ، بل تشير الى غرضها مباشرة ، واضحة في مدلولاتها ، ليس فيها أي غموض . ومن هذه الرسائل ، رسالة من نقفور الى الرشيد ، ونصها :

« لعبدالله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم .
سلام عليكم ، أما بعد أيها الملك ، فان لي اليك حاجة
لا تضرك في دينك ولا دنياك ، هينة يسيرة ، أن تهب
لابني جارية من بنات أهل هرقلة ، كنت قد خطبتها على
ابني ، فان رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته »(٥٣) .

وفي أحيان قليلة جدا تكون الرسالة مطولة ، بحسب موضوعها والغرض منها ، مثل رسالة الرشيد السابق ذكرها ، والتي كتبها له أبو الربيع محمد بن الليث ، متضمنة دعوة الامبراطور الى الاسلام .

---

٥٢ ـ المصدر السابق ، ٨/٣٢١ .
٥٣ ـ نفس المصدر والصفحة .

وتضمنت هذه الرسائل ، أحيانا ، اكثر من غاية واحدة ، مثل تضمنها الدعوة الى الصلح وتوسيع العلاقات التجارية وتبادل الاسرى ، بل حتى التهديد بالحرب ، كل ذلك في رسالة واحدة ، موجزة وبليغة(٥٤) •

وامتزجت في بعض الرسائل ، لغة الموادعة والسلام ، مع لغة التهديد والوعيد(٥٥) • أو أن يجري الامر على ارسال رسالتين ، تتضمن الاولى عرضا للصلح والمهادنة ، في حين تتضمن الثانية التهديد والوعيد• فان فشلت الرسالة الاولى في تحقيق غرضها ، فلعل الثانية تفلح فيها(٥٦) •

أما بخصوص معاهدات الصلح التي عقدت بين الدولتين ، أو العروض الخاصة بذلك والتي قدمها الجانب البيزنطي ، فهي قسمان :

الاول منها خاص بعقد الصلح بينهما وانهاء حالة الحرب أو ايقافها مؤقتا بهدنة لعدة سنوات • وجرى عقد عدة معاهدات من هذا النوع بين الدولتين ، بسبب استمرار حالة القتال بينهما •

والقسم الثاني من هذه المعاهدات ، فهو خاص بفداء الاسرى أو تبادلهم• وهو ما سنأتي الى تفصيله في الفقرة اللاحقة • وعموما ، فان نصوص هذه المعاهدات لم تصل الينا كاملة • لذا فانه لا يعرف اسلوبها أو صيغتها ، وان ما وصل الينا منها لا يمثل الا جانبا من مضامينها ، ونحن ما زلنا نفتقر الى نصوص أو وثائق كاملة ، الامر الذي شكل خسارة كبيرة في دراسة تاريخ العلاقات الدولية •

وفي عام ١٦٥هـ/٧٨١–٧٨٢م ، عقدت معاهدة صلح بين الرشيد وايريني ، سبقت الاشارة اليها ، تضمنت بشكل عام قيام الامبراطورية

---

٥٤ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٢٩ •
٥٥ ـ المصدر السابق ، ٨/٦٢٩–٦٣٠ •
٥٦ ـ ابن العبري ، تاريخ ، ٣٦–٣٧ •

البيزنطية بدفع جزية سنوية للعباسيين ، وتبادل الاسرى • ثم هدنة لثلاث سنوات • فضلا عن فقرات أخرى • كما أن السنوات الاخيرة من حكم ايريني شهدت عقد اتفاق آخر للصلح مع الرشيد أيضا • وتضمن هو الآخر : دفع البيزنطيين الجزية للعباسيين وتبادل الاسرى وهدنة للسلام بينهما • وثمة اتفاق آخر بين الدولتين أعقب سقوط هرقلة تضمن بنودا مشابهة للاتفاقات السابقة• وتضاف الى هذه الاتفاقات ، مجموعة من عروض الصلح ، قدمها الجانب البيزنطي ، بيد أنها لم تر النور، لانها لم تحض بموافقة الدولة العباسية•وهي لا تختلف في مضامينها عن المعاهدات والاتفاقات التي عقدت فعلا • ومن خلال ما قدمنا يمكن أن نخرج بنتيجة ، مفادها ان كل هذه المعاهدات ، دارت حول محاور أساسية هي :

١ ـ يقدم البيزنطيون الجزية لبغداد •

٢ ـ تبادل الاسرى بين الدولتين •

٣ ـ عقد هدنة للسلام بينهما •

ويتضح من هذه الاتفاقات ، ان كفة الدولة العباسية هي الراجحة فيها، وهو أمر لا شك فيه • قرره ميزان القوى الذي كان في معظم الاحيان لصالح الجانب العباسي، الامر الذي دفع الجانب البيزنطي الى الاتقاء بهذه المعاهدات تجنبا للضغط العباسي •

أما بخصوص الجزية ، التي أدتها بيزنطة للعباسيين ، فانها لا تمثل كسبا ماديا للطرف الثاني • فهي مهما كان مقدارها لا تشكل سوى قدر قليل من موارد العباسيين • بل أن غايتها كانت أساسا سياسية خالصة • وان كان هذا لا يعني من الناحية العملية خضوع الامبراطورية البيزنطية لسيطرة وادارة واشراف الدولة العباسية • بل بقيت مستقلة في شؤونها الداخلية والخارجية• بل أكدت هذه الجزية حالة التفوق العباسي على بيزنطة ، مذكرة العدو بضعفه على الدوام ، مما يحول دون عدوانه • كما أن هذا الامر أكد هيمنة الدولة العباسية وقوتها عند مواطنيها •

٣ ــ **فداء الاسرى وتبادلهم :**

نجم عن دوام واستمرار العلاقات الحربية بين الدولتين ، وقوع أعداد كبيرة من الافراد من كلا الطرفين في الاسر • ولما كانت هذه الاعداد متزايدة باستمرار ، كان لابد من ايجاد حل مناسب يعالج هذه المسألة • من هنا ظهرت عمليات فداء الاسرى وتبادلهم ، لتكون حلاً مناسبا لهذه المشكلة •

وقدمت المصادر العربية معلومات لا بأس بها عن هذا الجانب المهم من العلاقات بين الدولتين • واذا كان للطبري دوره المهم في تقديم هذه المعلومات ، فان المسعودي اضطلع بمهمة جمع هذه المعلومات وتبويبها واضافة أشياء جديدة اليها ، وجعل لمبحثه هذا عنوانا هو « الافدية بين المسلمين والروم » • ونقل المقريزي عنه هذه المعلومات حرفيا[٥٧] • في حين تضمنت المصادر الاخرى اشارات مقتضبة حول هذا الموضوع •

وجرت المصادر على اطلاق عبارة « فداء الاسرى » على كل أشكال اطلاق سراحهم التي جرت بين الدولتين • في الوقت الذي أخذت فيه هذه العملية أشكالا أربعة هي :

١ ــ فداء الاسرى •
٢ ــ تبادل الاسرى •
٣ ــ اهداء الاسرى تمهيدا لعقد اتفاق للصلح بين الطرفين •
٤ ــ اطلاق الاسرى ثمنا للصلح بين الطرفين •

١ ــ **فداء الاسرى :**

وتعني هذه العملية عادة انقاذ الاسرى بالاموال • وهي أول شكل من أشكال اطلاقهم جرى اتباعه بين الدولتين • ففي عام ١٣٩هـ/٧٥٦ــ٧٥٧م ، قام

---

٥٧ ــ المواعظ والاعتبار ، ٢/١٩١ــ١٩٢ •

المنصور بمفاداة من بقي حياً من أسرى قاليقلا[٥٨] • وفي عام ١٥٦هـ/٧٧٥ـ ٧٧٦ م ، هاجم البيزنطيون سميساط ، وأخذوا معهم عددا كبيرا من الاسرى، فأرسل المهدي مولاه صغيرا ، فتمكن من استنقاذهم[٥٩] • وعنى ذلك على الاغلب مفاداتهم بالاموال ، وليس استرجاعهم بعمل عسكري • على أنه ليس ثمة مسوغ للتشكيك بصحة هذه الرواية[٦٠] •

ومن المؤسف حقا أنه لم تصل الينا أية معلومات أو تفاصيل عن عمليات فداء الاسرى ، ومقدار الفدية التي كانت تدفع عن كل أسير ، وهل ان هذا المقدار متساوٍ عند افتداء الاسرى من الرجال والنساء والاطفال،أم انه مختلف حسب هذه الحالات ؟ ان هذه التساؤلات ستبقى مبهمة بلا أجوبة ، طالما ان المصادر ضنت علينا بمثل هذه المعلومات •

٢ ـ تبادل الاسرى :

وهي العملية التي جرت بنطاق أوسع من الاشكال الاخرى • وكانت متعاقبة تجري بين فترة وأخرى ، وفي الغالب على نهر اللامس • وقدم لنا المسعودي تقريره المفصل ـ نسبياً ـ عن هذه العملية • وما يهمنا منها ما جرى في العصر العباسي الاول فقط • فذكر المسعودي خمسة عمليات لتبادل الاسرى ، جرت جميعها على نهر اللامس المذكور • ولعل هذا هو ما دفع المسعودي الى عدّ التبادل الذي جرى في عام ١٨٩هـ/٨٠٤ـ٨٠٥م ، هو الاول بين الطرفين • اذ ربما أخذت العملية طابعا منظما دقيقا •

وجرى التبادل الاول ـ حسب قول المسعودي ـ في عام ١٨٩هـ/ ٨٠٤ـ٨٠٥م ، في فترة حكم كل من الرشيد ونقفور ، وكلف القاسم بن الرشيد رسميا للاشراف على العملية من الجانب العباسي • ولانه كان مقيما في دابق ،

٥٨ ـ البلاذري ، فتوح ، ٢٣٦/١ ، الطبري ، تاريخ ، ٥٠٠/٧ •
٥٩ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ١٤٦/٣ •
60—Santoro, P. 306.

لذا تولى أبو سليم فرج الخادم الاشراف الفعلي على عملية التبادل • وحضر معه سالم البرنسي البربري قائدا لثلاثين ألف من الجند النظامي • وبالغ المسعودي بقوله : « وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الامصار وغيرهم من نحو خمسمائة ألف • وقيل أكثر من ذلك بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة • قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء » • وأضاف ان سفن البيزنطيين أقبلت تحمل أسرى المسلمين • واستمرت عملية التبادل (١٢) يوما • بودل فيها (٣٧٠٠) من أسرى المسلمين ، وربما أكثر من ذلك أو أقل • أما مجمل الايام التي استغرقتها عملية التبادل، وما سبقها وتبعها من استعدادات وترتيبات ، فقد بلغت (٤٠) يوما • ومما قيل عن الرشيد في هذا التبادل :

وفكت بك الأسارى التي شيدت لها
محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيا المسلمين فكاكها
وقالوا سجون المشركين قبورها[٦١]

وقدم الطبري اشارة موجزة عن هذا التبادل ، وأكد أنه لم يبق بيد البيزنطيين أحد من المسلمين الا وجرت مبادلته[٦٢] • ولم تشر المصادر ــ كما في أغلب الاحيان ــ الى عدد الاسرى البيزنطيين في هذا التبادل • ولنا أن نتوقع ان عددهم لابد أن يكون مساويا لعدد الاسرى المسلمين • فلمرات عدة جرت مبادلة الاسرى واحدا بواحد • كما أن مصادرنا لم تشر الى اتخاذ البيزنطيين أو عدم اتخاذهم للاحتياطات العسكرية كما فعل العباسيون تحسباً لاي طارىء • واذا كانت السفن التي أقلت الاسرى المسلمين هي سفن حربية،

---

٦١ ــ التنبيه والاشراف ، ١٦٠ــ١٦١ •
٦٢ ــ تاريخ ، ٨/٣١٨ •

فهل ان القوات البيزنطية التي حضرت عملية التبادل هم من مشاة البحرية أم لا؟ غير أن مصادرنا أهملت الاجابة عن مثل هذه التساؤلات ، فبقيت مبهمة..

أما التبادل الثاني ، عند المسعودي، فقد تم في عام ١٩٢هـ/٨٠٧-٨٠٨م، وفي فترة حكم كل من الرشيد ونقفور أيضا . وجرى باللامس كذلك . وبالغ المسعودي مرة أخرى بقوله ان الذين شهدوا عملية التبادل كانوا عدة مئات من الالوف . وأشرف على العملية من الجانب العباسي ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي ، أمير الثغور الشامية ، وبودل في هذه المرة أكثر بقليل من ألفين وخمسمائة رجل وامرأة[٦٣] . ولم يضف الطبري أية معلومات جديدة سوى قوله ان التبادل تم على البدندون وليس على اللامس[٦٤] .

أما التبادل الآخر ، فتم في فترة حكم كل من الواثق وميشيل الثالث ، وعلى اللامس أيضا ، في العاشر من محرم عام ٢٣١هـ/١٦ أيلول ٨٤٥م[٦٥] . وبدعوة من الامبراطور البيزنطي[٦٦] . وأشرف على التبادل من الجانب العباسي خاقان الخادم التركي وشاركه في ذلك كل من أحمد بن يحيى بن آدم الكرخي المعروف بأبي رملة وجعفر بن أحمد الحذاء ومعهما أحد الكتاب . وأوكلت بهما مهمة امتحان الاسرى بمسألتي خلق القرآن وعدم رؤية الذات الالهية يوم القيامة ، وعلى الجسر المخصص لعبور الاسرى المسلمين. فمن قال بذلك بودل واكرم ، أما من رفض القول به ترك بيد البيزنطيين . الامر الذي فضله عدد من الاسرى[٦٧] . وكان جعفر بن أحمد الحذاء قائدا للقوة التي

---

٦٣ - التنبيه والاشراف ، ١٦١ .
٦٤ - تاريخ ، ٣٤٠/٨ .
٦٥ - اليعقوبي ، تاريخ ، ٢٢١/٣ ، الطبري ، تاريخ ، ١٤١/٩ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ١٦١ .
٦٦ - اليعقوبي ، تاريخ ، ٢٢١/٣ .
٦٧ - المصدر السابق، ٢٢١/٣ ، الطبري ، تاريخ، ١٤٢/٩ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ١٦٢ .

حضرت عملية التبادل،والتي بلغت (٧٠) ألفا ممن يحملون الرماح وغيرهم[٦٨] .
في حين جعل الطبري هذه القوة (٤) آلاف فارس وراجل[٦٩] . ويبدو ان هذا التقدير منطقي وأقرب للقبول . وحضر عملية التبادل أيضا أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي والي الثغور والعواصم[٧٠] .وقدم لنا الطبري المفاوضات التي جرت بين الطرفين بخصوص عملية التبادل . وكان الوزير ابن الزيات مفاوضاً عن الجانب العباسي . وتضمن العرض البيزنطي عدم مبادلة الشيوخ والعجائز والاطفال . كما رفض الوفد مبادلة شخص بشخص . الا أن الجانب العباسي بعد مفاوضات استمرت عدة أيام، أفلح في اقرار اتفاق تضمن مبادلة الشيوخ والعجائز والاطفال . وأن تتم المبادلة شخصا بشخص[٧١] . وذكر ابن العبري ، ان رفض الوفد البيزنطي مبادلة الواحد بالواحد ، انطلق من أن الاسرى المسلمين كان معظمهم من الضباط الذين أسروا في المعارك الحربية ، في حين كان الاسرى البيزنطيون من الفلاحين الذين أخذوا من قراهم[٧٢] .

وأعقب انتهاء المفاوضات ، ارسال وفد عباسي الى القسطنطينية رأسه أحمد بن أبي قحطبة للتأكد من عدد الاسرى الذين ستجري مبادلتهم، فوجدهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة[٧٣] . وبعد استكمال هذه الاستعدادات الاولية ، اتفق الوفد البيزنطي وخاقان الخادم على الالتقاء في العاشر من محرم ٢٣١هـ/١٦ أيلول ٨٤٥ م عند اللامس مكان تبادل الاسرى . وفي أواخر عام ٢٣٠هـ/٨٤٥م ، خرج خاقان الخادم ومن معه الى هذا المكان تمهيدا للعملية ولاتخاذ الترتيبات اللازمة[٧٤] .

---

٦٨ ـ اليعقوبي ، تاريخ ، ٣/٢٢١ .
٦٩ ـ تاريخ ، ٩/١٤٣ .
٧٠ ـ ابن خياط ، ٢/٧٩٧ ، الطبري ، تاريخ ، ٩/١٤٢ .
٧١ ـ تاريخ ، ٩/١٤٢ .
٧٢ ـ تاريخ ،، ٣٩ .
٧٣ ـ الطبري ، تاريخ ، ٩/١٤٢ .
٧٤ ـ المصدر السابق ، ٩/١٤١-١٤٢ .

أما عدد الاسرى الذين بودلوا في هذه العملية ، فكان مثار اختلاف كبير بين المصادر . فذكر ابن خياط انه بلغ (٤٦٠٠) رجل و (٦٠٠) امرأة[٧٥]. في حين جعلهم اليعقوبي (٥٠٠) رجل و (٧٠٠) امرأة[٧٦] . وقدم الطبري عدة أرقام حول ذلك . فالسفير العباسي الى القسطنطينية وجد هناك (٣٠٠٠) رجل و (٥٠٠) امرأة من المسلمين . ثم قدم رواية أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، جعل فيها الاسرى المبادلين (٤٦٠٠) شخص بينهم (٦٠٠) امرأة وطفل وحوالي (٥٠٠) من أهل الذمة ، والبقية رجال من أنحاء الدولة. ثم قدم الطبري روايته الثالثة التي مفادها ان الاسرى بلغوا (٤٤٦٠) بينهم (١٠٠) أو أقل من أهل الذمة . وأردف قائلا انه جرت مبادلة كل الاسرى المسلمين في الاراضي البيزنطية « ممن علم موضعه »[٧٧] بمعنى ان هناك عدد من الاسرى لم يبادلوا لعدم التعرف على أماكن وجودهم . أما المسعودي فذكر ان عملية التبادل استغرقت عشرة أيام بودل خلالها (٤٣٦٢) رجل وامرأة ، أو (٤٠٤٧) أو أقل من ذلك . وكان بين هؤلاء اهل زبطرة ، ومعهم ايضا مسلم بن أبي مسلم الجرمي ــ وقد سبق ذكره ــ[٧٨] . وكان الطبري قد جعل فترة التبادل أربعة أيام فقط[٧٩] . ويبدو ان ما ذهب اليه المسعودي أكثر قبولا ، لا سيما ان عدد الاسرى الذين بودلوا كان كبيرا . وان الايام الاربعة غير كافية لانجاز هذه المهمة .

وبخصوص عدد الاسرى المبادلين ، فقد ذكر الطبري ان عدد الاسرى البيزنطيين لم يكن كافيا . فأنفذ الواثق كتبه الى بغداد والرقة لشراء الرقيق، فلم يكتمل العدد ، فأخرج النساء والعجائز البيزنطيات من قصره لاتمام العدد

٧٥ ــ تاريخ ، ٢/٧٩٧ .
٧٦ ــ تاريخ ، ٣/٢٢١ .
٧٧ ــ تاريخ ، ٩/١٤٢ ، ١٤٣ .
٧٨ ــ التنبيه والاشراف ، ١٦٢ .
٧٩ ــ تاريخ ، ٩/١٤٤ .

اللازم[٨٠] . وهنا لابد من التوقف قليلا . ذلك ان النقص في عدد الاسرى كان كبيرا ، حتى اقتضى الامر شراء الرقيق لمبادلتهم وجعلهم ضمن الاسرى البيزنطيين .

وفي اعتقادنا ان الامر سوي بلجوء الخلافة الى اسلوب امتحان الاسرى المسلمين ، بالكيفية التي ذكرناها . فالجهات المعنية كانت واثقة ان عددا منهم سيرفض القول بآراء المعتزلة ، ومن ثم لا يبادلون، وربما أسهم هذا في موازنة أعداد الاسرى عند الطرفين . أما قول الطبري السابق ، انه لم يبق أحد من الاسرى الا وبودل ، فلا يمكن قبوله منطقيا . اذ لابد بين الاسرى من رفض مقولات المعتزلة هذه . بل هو ما أكده المسعودي في روايته آنفة الذكر .

أما بصدد الاختلاف في أعداد الاسرى المبادلين ، فانها رغم تشعبها ، يمكن تصفيتها ، فأولا لابد من استبعاد رواية اليعقوبي التي جعلت الاسرى المبادلين (١٢٠٠) بودلوا في عشرة أيام . فهو عدد قليل قياسا الى ما كان يجري تبادله في مثل هذا العدد من الايام . أما رواية الطبري التي أشارت الى أن السفير العباسي وجد (٣٥٠٠) من الاسرى عند البيزنطيين قبل بدء التبادل . فان الطبري أضاف : ان البيزنطيين احضروا معهم عددا آخر من الاسرى فيما بعد ومعهم محمد بن عبدالله الطرسوسي،الذي قضى في الاسر ثلاثين عاما[٨١] . وربما بلغ عدد هؤلاء حوالي (١١٠٠) شخص . لان الطبري ذكر ان عدد الاسرى المبادلين أصبح (٤٦٠٠) شخصا . وبعد هذا تصبح الروايات متقاربة بشكل كبير ، وربما كان مرد الاختلافات البسيطة ، تفاصيل العناصر المكونة للاسرى من رجال ونساء وأطفال وعوائل وأهل ذمة.وربما لم يحتسب بعضهم أهل الذمة بين الاسرى المبادلين .

أما عن الكيفية التي تمت بها عملية التبادل ، فقد أمدنا الطبري بروايتين حول هذه المسألة ، جاء في الاولى ان المسلمين وقفوا على الجانب الشرقي من

---

٨٠ ــ المصدر السابق ، ٩/١٤٣ .
٨١ ــ المصدر السابق . ٩/١٤٣ .

اللامس ، ووقف البيزنطيون على الجانب الغربي منه . والنهر ـ حسب هـذه الرواية ـ مخاضة قليلة العمق ، يمكن للاسرى عبورهـا . فيرسل المسلمون أسيرا من عندهم ، ثم يرسل البيزنطيون أسيرا مسلما من عنـدهم ، فيلتقي الاسيران وسط النهر . ويكبّر المسلمون عند وصول الاسير المسلم ، ويصيح البيزنطيون بما يشبه ذلك عند وصول أسيرهم بقولهم : «كرياليسون»[٨٢]. أما رواية الطبري الاخرى ، فأشارت الى نصب جسـرين على النهر . نصب المسلمون أحدهما ونصب البيزنطيون الآخر . فيرسل المسلمون أسـيرا من جسرهم ، ويرسل البيزنطيون أسيرا من جسرهم في الوقت نفسه . كما رفضت هذه الرواية أن يكون النهر مخاضة[٨٣] . على أنه لابـد من ترجيح الروايـة الثانية ، لان اليعقوبي أشار في سياق روايته ـ وقد مرت بنا ـ ان الشخصين اللذين امتحنا الاسرى ، وقفا على الجسر الذي عبره الاسرى المسلمون .

ذكر اليعقوبي ، ان الاسير عند مبادلته كان يمنح ديناران وثوبا[٨٤] .في حين ذكر الطبري ان الواثق أمر باعطاء دينار واحد لكل أسـير من مالـه الخاص[٨٥] . ثم ذكر ان الاسير كـان يمنح دينارين عند مبادلته[٨٦] . ويبدو ان أحد الدينارين كان من مال الواثق الخاص والدينار الآخر من مال النفقة. ومن بين التفاصيل التي ذكرها الطبري ، انه كان بين الاسرى المسلمين المبادلين (٣٠) شخصا ممن تنصروا[٨٧] . واضاف ايضا انه بقي بيد المسلمين عدد غير يسير من الاسرى البيزنطيين ، فقرر خاقان الخادم المنّ على البيزنطيين بمئة من الاسرى يمنحهم اياهم دون مقابل ، في حين باع الآخرين في طرسوس[٨٨] .

---

٨٢ ـ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ١٤١ .
٨٣ ـ تاريخ ، ٩/١٤٣ـ١٤٤ .
٨٤ ـ تاريخ ، ٢/٢٢١ .
٨٥ ـ تاريخ ، ٩/١٤٢ .
٨٦ ـ المصدر السابق ، ٩/١٤٤ .
٨٧ ـ نفس المصدر والصفحة .
٨٨ ـ نفس المصدر والصفحة .

وربما اتضح من هذا ان عدد الاسرى الذين رفضوا مقولات المعتزلة كان كبيرا بعض الشيء. وكانت مسألة امتحان الاسرى السبب الرئيس وراء هذه النتيجة، لان دخولهم الاراضي الاسلامية بعد رفضهم مقولات المعتزلة، ربما كان يعني تعرضهم للموت، لاسيما وان الواثق امر بقتل اربعة من سكان الثغور رفضوا مقولات المعتزلة هذه[٨٩]. وليس بعيدا وصول مثل هذه الاخبار الى الاسرى في أسرهم. فآثر عدد منهم البقاء في الاراضي البيزنطية حفاظا على حياتهم. ومهما تكن تلك الاسباب التي أوجبت مثل هذه الاجراءات، فانه ليس مشروعا استغلال أوضاع الاسرى السيئة، لفرض موقف سياسي معين عليهم، ثمنا لانقاذ أنفسهم من الاسر، أو أن يقضوا في الأسر أمدا غير معلوم.

وكان من الامور اللازمة لعملية التبادل، قيام هدنة قصيرة بين الطرفين تسبق عملية التبادل وتعقبها. وفي هذا التبادل خشي البيزنطيون من القوة الاسلامية الكبيرة التي حضرت التبادل، فقرر خاقان الخادم عقد هدنة أمدها أربعون يوما مباشرة بعد انتهاء عملية التبادل، حتى يصل البيزنطيون مأمنهم[٩٠].

أما التبادل الرابع، فجرى في شوال من عام ٢٤١هـ/شباط ٨٥٥م، في فترة حكم المتوكل وميشيل الثالث، وأشرف عليه شنيف الخادم مولى المتوكل. وشاركه في ذلك جعفر بن عبدالواحد الهاشمي القرشي القاضي، وعلي بن يحيى الارمني والي الثغور الشامية. واستمر هذا التبادل سبعة أيام، بودل فيها بـ (٢٢٠٠) رجل أو ألفي رجل ومائتي امرأة. وكان هناك أيضا ما يزيد على المئة من الاسرى النصارى بودلوا أيضا[٩١]. ويفهم من كلام اليعقوبي انه في هذه المرة أيضا، لم يكن عدد الأسرى البيزنطيين كافيا، اذ « حمل من

---

٨٩ — المصدر السابق، ٩/١٤١.
٩٠ — الطبري، تاريخ، ٩/١٤٤.
٩١ — التنبيه والاشراف، ١٦٢.

كل بلد من فيه أسرى الروم واشترى عبيد النصارى»[٩٢] • وقـدم الطبري رواية أكثر تفصيلا ، فأشار الى أن « تذورة » وهي تيودورة ، الوصيـة على العرش البيزنطي ، أرسلت جورجس بن قريفاس الذي قـدم عرضـا لتبادل الاسرى ، وكان لدى البيزنطيين عشـرين ألفا من الاسرى المسلمين • فأرسـل المتوكل نصر بن الازهر بن فرج للتأكد من صحة المعلومات المقدمة من الجانب البيزنطي • وأضاف الطبري ، انه بعد خروج نصر من القسطنطينية ، أمـرت تيودورة بعرض النصرانية على الاسرى، فمن تنصر ترك لحاله ومن رفض قتل، فجرى قتل (١٢) ألفا لهذا السبب ـعلى انه لابد من الشك في صحة مثل هذه المعلومات والارقام الكبيرة التي وردت فيها • ومع أن العملية بحد ذاتهـا غير مستبعدة ، الا أن عدد الاسرى هذا كبير جدا ، لانه لم تجر حمـلات كبيرة تمكن القوات البيزنطية من أسر مثل هذا العدد ـ • وأضاف الطبري ، انـه «يقال» ان الخصي «قنفلة» هو الذي نفذ هذه العملية دون علم تيودورة[٩٣] •

ووجه المتوكل كتبه الى عمال الثغور ، بشأن الاتفاق الذي جـرى بين شنيف الخادم وجورجس بخصوص عملية التبادل ، اذ تضمن هـذا الاتفاق هدنة بين الطرفين أمدها ثلاثة أشهر تقريبا بدءا من خمس ليال خلون من رجب/ ١٩ تشرين الثاني ٨٥٥م ، وحتى سبع ليال بقين من شوال من هذه السـنة / ٥ آذار ٨٥٦ م • وجاءت الهدنة بناء على طلب من الجانب البيزنطي• كما يبدو ان الوفد البيزنطي أقام في منطقة الثغور الاسلامية لحين حلول موعد التبادل، وضم هذا الوفد (٥٠) شخصا بين أعضاء للوفد وخدمهم• وفي حوالي منتصف شعبان/الاول من كانون الثاني ٨٥٦م ، خرج شنيف الخادم لاتخاذ ترتيبات التبادل • وخرج في اثره جعفر بن عبدالواحد ومعه عدد من وجوه بغداد • ثم

---

٩٢ ـ تاريخ ، ٣/٢٢٩ •
٩٣ ـ تاريخ ، ٩/٢٠٢ •

جرت عملية التبادل يوم الاحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال • وكان عدد الاسرى المسلمين (٧٨٥) رجلا و (١٢٥) امرأة[٩٤] •

ويظهر ان هناك تباينا كبيرا بين ما ذكرته الروايات في أعداد الاسرى المبادلين هذه المرة • فاذا كان الطبري قد أورد في روايته ان من بقي حياً من الاسرى المسلمين هم (٨) آلاف ، فكيف جرت مبادلة أقل من ألف فقط ؟ ثم لماذا تم شراء العبيد النصارى ــ حسب رواية اليعقوبي ــ ؟ وهل كان عدد الاسرى البيزنطيين قليلا جدا الى هذا الحد ؟ وتبقى رواية المسعودي أكثر انسجاما مع الواقع • ذلك انه لم تجرِ حملات كبيرة بين الطرفين ، لذا لابد أن يكون عدد الاسرى قليلا ، لا سيما البيزنطيون منهم ، فنشاط العباسيين العسكري كان أقل من النشاط البيزنطي في هذه الفترة • مما حتم شراء العبيد النصارى لاتمام العدد اللازم • ثم ان سبعة أيام من أعمال التبادل كثيرة على عدد من الاسرى أقل من الالف • في حين ان الرقم الذي قدمه المسعودي اكثر رجحانا وهو (٢٢٠٠) شخص •

أما التبادل الخامس، فقد تم في شهر صفر من عام ٢٤٦هـ/ مايس ٨٦٠م • وفي فترة حكم المتوكل وميشيل الثالث أيضا • وأشرف عليه علي بن يحيى الارمني، أمير الثغور الشامية، ومعه نصر بن الازهر بن فرج الطائي • واستمرت عملية التبادل سبعة أيام أيضا ، بودل فيها (٢٣٦٧) أسيرا بين رجل وامرأة[٩٥] • ثم قدم الطبري تفاصيل أخرى ، ففي صفر من عام ٢٤٥هـ/مايس ٨٥٩م ، أرسل الامبراطور البيزنطي وفدا رأسه « أطروبيلس » مقدما عرضا لتبادل الاسرى • ونزل الوفد عند شنيف الخادم • واستكمالا للمفاوضات أرسل نصر بن الازهر الى القسطنطينية ، غير ان عملية التبادل لم تجرِ الا في العام التالي[٩٦] • فبعيد

---

٩٤ ــ الطبري ، تاريخ ، ٩/٢٠٢ــ٢٠٣ •
٩٥ ــ التنبيه والاشراف ، ١٦٢ــ١٦٣ •
٩٦ ــ تاريخ ٢١٣/٩ •

وصول نصر ، جاءت الاخبار الخاصة بتمرد حامية لؤلؤة ، مما دفع الامبراطور الى غض النظر عن الوفد العباسي ولمدة أربعة أشهر • ثم عادت المفاوضات الى مجراها بعد فشل محاولة كسب حاميــة لؤلؤة من قبل البيزنطيين • ثم جرى الاتفاق على أن يسلم كلا الطرفين ما عندهما من الاسرى جملة • وكان الاسرى البيزنطيون أكثر من ألف بقليل ، في حين كان عدد الاسرى المسلمين اكثر من ألفين ، بينهم عشرون امرأة وعشــرة أطفال • ثم أقسم الجانبان على الالتزام بهذا الاتفاق[97] • واتفق المسعودي والطبري في هذه المرة في عدد المبادلين من الاسرى وهو كما ذكرنا (٢٣٥٧) شخصا[98] • كان بينهم عدد ممن تنصر • كما كان هناك اثنان من رهائن حامية لؤلؤة ، تركا بيـــد البيزنطيـين ولم يبادلا[99] •

وهناك عمليات أخرى لتبادل الاسرى لم يشــر اليها المسعودي ، منها التبادل الذي أعقب اتفاق الرشـــيد وايريني الاول عام ١٦٥هـ/٧٨١ — ٧٨٢م[100] • وأشار ابن خياط الى تبادل آخر تم في عام ١٦٧هـ/٧٨٣—٧٨٤م، أشرف عليه عبدالحميد بن الضحاك[101] • وأضــاف ابن خياط انه في عــام ١٧٠هـ/٧٨٦—٧٨٧م ، جرى تبادل آخر بين الطرفين[102] • وأشار المسعودي الى عمليات تبادل أخرى ، لكنه عدّها غير موثوقة • منها التبــادل الذي تم أيام المهدي ، ولم يحدد تاريخه : أشرف عليه النقاش الانطاكي ، وتبادل آخر في شوال ١٨١هـ/كانون الاول ٧٩٧م على يد عياض بن ســنان والي الثغور الشامية[103] • وذكر ابن خياط ان الرشـــيد ارسل في عام ١٨٤هـ/٨٠٠م

---

٩٧ ــ الطبري ، تاريخ ، ٢١٩/٩ ــ ٢٢٠ •
٩٨ ــ المصدر السابق ، ٢١٩/٩ •
٩٩ ــ المصدر السابق ، ٢٢٠/٩—٢٢١ •
١٠٠ ــ المصدر السابق ، ١٥٣/٨ •
١٠١ ــ تاريخ ، ٦٩١/٢ •
١٠٢ ــ المصدر السابق ، ٧٠٩/٢ •
١٠٣ ــ التنبيه والاشراف ، ١٦٦ •

صالح بن بيهس الكلابي الى القسطنطينية، للتفاوض حول تبادل الاسرى[١٠٤].
ومن بين عمليات التبادل الاخرى والتي عدّها المسعودي غير موثوقة ، ما جرى أيام الامين في ذي القعدة ١٩٤هـ/آب ٨٠٩م ، أشــرف ثابت بن نصر ، وأضاف ان هذا أشرف على تبادل آخر في أيام المأمون في ذي القعدة من عام ٢٠١هـ/حزيران ٨١٦م . ثم ذكر تبادلا آخر في عام ٢٤٧هـ/٨٦٠-٨٦١م ، أشرف عليه محمد بن يحيى[١٠٥] .

ولا بدكانت هناك جملة من القواعد والاسس التي جرت وفقها مفاوضات واتفاقات تبادل الاسرى . ذكرها المسعودي في كتبه التي لم تصل الينا[١٠٦]. فبقيت هذه التفاصيل مبهمة لدينا ، لان المصادر الاخرى لم تشر اليها. وعلى الرغم من ذلك فيمكن وضع خطوط عامة للمسائل الخاصة بتبادل الاســرى ، وعلى النحو الآتي :

١ ــ يقدم أحد الطرفين عرضا لتبادل الاســـرى بينهما . وفي معظم الحالات ، وربما كلها ، فان الجانب البيزنطي هو الذي قدم هــذه العروض ، بارسال الوفود الى العاصمة العباسية ، لاجراء المفاوضات بهذا الخصوص.

٢ ــ يعقب هذه المفاوضات وما يجري فيها من اتفاق ، قيام وفد عباسي بزيارة القسطنطينية . إما لوضع اللمسات الاخيرة الخاصة بعملية التبادل ، أو للتوثق من عدد الاسرى المسلمين عند الجانب البيزنطي ، وربما لمتابعــة كلا الامرين معا . ولا بد أن يرافق ذلك التعرف على أحوال الاسرى وأوضاعهم.

٣ ــ تجري المفاوضات ، سواء في بغداد أو القسطنطينية ، على الاسس الخاصة بعملية التبادل . وغالبا ما كان أساس التبادل هو مبــادلة الواحــد

---

١٠٤ ــ تاريخ ، ٢/٧٣١ .
١٠٥ ــ التنبيه والاشراف ، ١٦٦ .
١٠٦ ــ التنبيه والاشراف ، ١٦٦ .

بالواحد ، شيخا كان أو امرأة أو طفلا • أو أن يكون الاتفاق على أساس اطلاق الطرفين للاسرى جملة مهما كان العدد •

٤ ــ تتشكل هيئة للاشراف على عملية التبادل تتكون من أحد كبار موظفي السلطة المركزية ووالي الثغور ــ وغالبا ما يكون الثغور الشامية لأن العملية كانت تجري ضمن منطقة عمله ــ وتضم هذه الهيئة قائدا عسكريا ليتولى قيادة القوة التي تحضر عملية التبادل • كما تضم كتاباً ومحاسبين ، للاشراف على عملية الصرف المالي الخاص بالعملية • وربما كانت هناك هيئة مشابهة من الجانب البيزنطي للمهام نفسها •

٥ ــ وعادة تكون هناك هدنة ، تتوقف فيها العمليات العسكرية في مناطق التخوم ، تسبق وترافق وتعقب عملية التبادل ، يتوقف أمدها على طلب أي من الجانبين • والمعتقد أنها يجب أن لا تتجاوز كثيرا فصلا واحدا الى أربعة أشهر • والراجح ان اقرار الهدنة ومدتها ، من صلاحيات رئيس الهيئة المشرفة على عملية التبادل •

٦ ــ ولكي يجري التبادل بصورة منظمة ودقيقة ، لابد أن يجري في منطقة من التخوم فيها نهر أو حاجز بين الطرفين • لذا كان نهر اللامس أو البدندون ــ أحيانا ــ المكان المفضل لهذه العملية • وفي الحالات التي يكون فيها التبادل واحدا بواحد ، يجري انشاء جسر أو جسرين ، تتم عبرهما عملية التبادل • بأن يطلق كل من الطرفين أسيرا في وقت واحد ، وتستمر العملية عدة أيام •

٧ ــ وهنا لابد من ملاحظة مهمة ، وهي أنه على الرغم من العلاقات الحربية التي تكاد لا تنقطع ، فان المفاوضات الخاصة بتبادل الاسرى ــ بل في كل الامور الاخرى ــ كانت تجري بصورة مباشرة دون وسيط ثالث ، وبمبادرة من أحد الطرفين ، وربما كان لهذا دور مهم في تسهيل ترتيبات عملية التبادل •

٨ ــ وفي العادة كان يجري تقديم مساعدة مالية وعينية من قبل الدولة العباسية للاسرى المسلمين الذين تجري مبادلتهم ، تراوحت بين دينار واحد أو دينارين مع ملابس جديدة • مع ان مثل هذا المبلغ لا يعد قليلا ، فهو كافٍ لعودة الاسير الى أهله وتسديد نفقات الطريق واحتياجاته وربما يزيد •

وكانت الاوضاع السياسية للدولة العباسية ، تفرض نفسها على عمليات التبادل في بعض الاحيان ، وبما يخص الاسرى المسلمين طبعا • كما حدث بشأن امتحانهم بمسألةخلق القرآن ــ على الرغم مما ذكرناه منأسباب أوجبت ذلك ــ • وتضمنت عمليات التبادل ، مبادلة الاسرى من أهل الذمة من رعايا الدولة العباسية • بل مبادلة من تنصر أيضا في أسره من المسلمين • مع أن الشريعة الاسلامية لها موقفها الخاص والحازم تجاه المسلم المرتد عن دينه •

أما لماذا كانت الامبراطورية البيزنطية هي التي تسعى في غالب الاحيان، الى تقديم العروض الخاصة بتبادل الاسرى ؟ ان ذلك يعود أساسا الى اصول تعامل كل من الطرفين مع الاسرى الذين بحوزته • فالدولة العباسية عدّت الاسرى فيئاً يجري بيعهم بعد انتهاء المعارك الحربية ، فيتحولون الى رقيق في المنازل • وربما وفرت هذه الحالة ظروفا حياتية أفضل مما كان يعيشه الاسرى المسلمون في الامبراطورية البيزنطية• فالاسير البيزنطي في بيت سيده تتوفر له كل حاجاته ، لان الشرع الاسلامي أوصى بحسن معاملة العبيد والاسرى • ونحن وان كنا لا نفترض ان هذا الاسير عاش في ظروف مثالية ، ولا أن كل السادة عاملوا هؤلاء وفق ما أوصى به الشرع • الا أن أحوالهم ، على أية حال ، كانت أفضل من حياة معسكرات الاسرى التي عاش فيها الاسرى المسلمون ، الذين تعرضوا أحيانا لارهاب السيف لتحويلهم عن دينهم • وبما أن الاسرى المسلمين عاشوا في معسكرات، لذا ترتب على السلطة الامبراطورية الانفاق عليهم ، على العكس من حال الاسرى البيزنطيين ، اذ لم تنفق عليهم الدولة العباسية أي شيء ، لانه ليس هنالك ما يبرر هذا الانفاق • في حين ترتب

على السلطة الامبراطورية زيادة انفاقها على الاسرى كلما زاد عـددهم • لذا فانها كلما أحست بوطأة اعباء الانفاق ، قدمت للدولة العباسية عرضا لتبـادل الاسرى •

٣ ـ اهداء الاسرى تمهيدا لعقد اتفاق للصلح بين الطرفين •

وشكلت هذه العملية احدى الحالات التي تم من خلالها اطلاق أسـرى أحد الجانبين • وفي الغالب ، فان الجانب البيزنطي هو الذي قام بمثل هـذه المبادرات • فالبيزنطيون ـ كما ذكرنا ـ طالما قدموا عروضا للصلح والهدنة• ورافق تقديم هذه العروض اطلاق سراح اسرى من المسلمين ، لتهيئة الاجواء لقبول عروضهم ، او اثباتا لصدق نياتهم في عروضهم •

ومن الحالات التي اشارت اليها المصادر بهذا الخصوص، ان الامبراطور ثيوفيل وجه رسله في عام ٢١٦هـ/٨٣١م الى المأمون ومعهم (٥٠٠) من الاسرى المسلمين، جاعلا من هذه المبادرة مفتاحا لباب المفاوضات بينهما بقصد الوصول الى اتفاق للصلح[١٠٧] • ومرة اخرى عندما ارسل ميشيل الثالث وفـدا الى العاصمة العباسية مقدما عرضا لتبادل الاسرى ، وارسل مع هذا الوفد (٧٧) من الاسرى المسلمين[١٠٨] •

وكانت أمثال هذه الحالات محدودة جدا • وكان الرد العباسي عليها ، أحيانا ، بعكس ما يشتهي الامبراطور البيزنطي من نتائج هدف اليها • ثم ان أعداد الاسرى الذين أطلق سراحهم في هذه الحالات، كان في الغالب محدودا وقليلا •

٤ ـ اطلاق الاسرى ثمنا للصلح بين الطرفين :

وهي الشكل الاخير لاطلاق الاسرى ، حين يراد به أن يكون ثمناً لصلح

---

١٠٧ ـ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٢٥ •
١٠٨ ـ المصدر السابق ، ٩/٢١٣ •

أو انسحاب عن بعض الحصون • ففي عام ١٨٧هـ/٨٠٢–٨٠٣م ، أطلق نقفور (٣٢٠) من الاسرى المسلمين مقابل فك القاسم بن الرشيد حصاره عن قرة وسنان[١٠٩] • وفي عام ٢١٥هـ/٨٣٠م، أطلق أهل قرة ما بحوزتهم من أسرى المسلمين عندماحاصرهم المأمون،مقابل منحهم الامان • فتم لهم ما أرادوا[١١٠]•

وكان هذا الشكل من اطلاق الاسرى محدودا وقليلا هو الآخر، لجأ اليه البيزنطيون ، لافتداء سلامة قلاعهم وحصونهم• كما ان الاسرى المطلقين كانوا قليلين في عددهم أيضا •

واذا كانت الحالات التي ذكرناها، قد حدثت فعلا ، فان ثمة حالاتأخرى بقيت مجرد عروض ومقترحات لم تخرج الى حيز التنفيذ ولم يجر الاتفاق عليها • من ذلك ما عرضه الامبراطور ثيوفيل على المأمون أكثر من مرة لاحلال الصلح بينهما واطلاق الاسرى ، غير أنها لم تحض بقبول المأمون[١١١] • وما عرضه الامبراطور نفسه على المعتصم في أثناء تقدم الاخير الى عمورية ، اذ قدم عرضا للصلح مقابل اطلاق جميع الاسرى المسلمين ، لكن المعتصم رفضه بحزم[١١٢] • لأنه كان مصمما على انزال أقسى العقاب بالامبراطورية • ثم هناك العرض الذي قدمه ثيوفيل الى المعتصم أيضا وفي أعقاب فتح عمورية، اذ وقع بيد المسلمين عدد كبير من الاسرى، كان بينهم عدد كبير من كبار القادة والموظفين،فقدم الامبراطور عرضا لفاداتهم،الامر الذي لقي الرفض أيضا[١١٣]•

ان عمليات فداء الاسرى وتبادلهم ، كانت أكثر جوانب العلاقة بين الدولتين نجاحا وتوفيقا • اذ كان ممكنا على الدوام معالجة هذه المسألةبحلول

---

١٠٩ – المصدر السابق ، ٣٠٧/٨ •
١١٠ – ابن أعثم ، ٣٣٤/٨ •
١١١ – انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، ٢٠٥/٣ ، ٢٠٩ ، الطبري ، تاريخ، ٦٢٩/٨•
١١٢ – اليعقوبي ، تاريخ ، ٢١٥/٣•
١١٣ – ابن الفراء ، ٣٤–٣٥ ، ابن العبري ، تاريخ ، ٣٦–٣٧ •

انسانية ، مكنت من انقاذ آلاف الاسـرى من الطرفين واعادتهم الى حيـاتهم الطبيعية .

ومن الضروري أن نشير هنا الى أن الاهتمام بالاسرى، لم يكن محصورا بالجهات الرسمية ، بل هناك من العامة من بذل جهـده وماله لتقديم العون لاخوانه الاسرى لدى العدو . فالتاجر البغدادي ابن رزق الله اتفق مع أحـد الرهبان البيزنطيين، على أن يزود الاول الثاني بأغطية وأكسية يحتفظ بها عنده ويدثر بها الاسرى المسلمين في قريته ، كلما مر به جماعة منهم . مقابل أن ينفق ابن رزق الله على أحد الاديرة في الدولة العباسية مبلغا من المال سنويا ، طالما احتفظ هذا الراهب بالاكسية والاغطية لاسرى المسلمين(١١٤) .

١١٤ ــ التنوخي ، نشوار المحاضرة ، ١/٥٦ .

الفصل الرابع

العلاقات الحضارية

١ ـ العلاقات الثقافية :

لم تكن الصدامات المسلحة الدامية بين الدولتين العباسية والبيزنطية الوجه الوحيد للعلاقة بينهما . بل ثمة وجه آخر لا يقل أهمية من الناحية التاريخية . ذلك هو العلاقات الثقافية بينهما . واذا كانت المادة التي وصلت الينا عن هذه العلاقات نزرة يسيرة، لا تعدو كونها اشارات متناثرة في صفحات متباعدة، فمرده أن المصادر اهتمت أساسا بأخبار العلاقات الحربية والسياسية. مما شكل صعوبة كبيرة في جمع مادة هذه المباحث .

قال المستشرق جرونيباوم:

« وكثيرا ما كانت تسيطر على كل من القسطنطينية وبغداد موجات قوية من الافكار والعواطف المتماثلة ، فالروح التي ألهمت المعتزلة في الاسلام هي التي ألهمت وراء الحدود الاسلامية أصحاب فكرة تحطيم الصور والتماثيل . وكانت المسائل التي تستهوي البيزنطي والعربي وتشغل عقليهما واحدة »[1] .

---

١ ـ حضارة الاسلام ، ٤٢ .

واذا كانت الروح التي ألهمت مجتمعات العصور الوسطى واحدة ، فانها لم تنتقل بين هذه المجتمعات عبر الاثير، بل لابد أن تكون هناك أسباب وعوامل وأساليب أدت الى وجود هذا التماثل في الافكار والاهتمامات والتوجهات في كلا المجتمعين ، العباسي والبيزنطي . وهو ما سنأتي عليه بعد أن نعرض ونلم بالموضوعات التي كانت مادة تأثير متبادل ، والتي تنوعت بين مادية وفكرية وروحية وهي :

اولا ـ الحركة اللا ايقونية :

أشرنا في الفصل الثاني من الباب الاول ، لدى الحديث عن هذه الحركة، الى آراء القدامى والمحدثين في التأثيرات الاسلامية على هذه الحركة . ودون اللجوء الى اعادة ذلك الحديث ، فاننا نجمل ذلك بالقول أن البعض رأى أن التأثيرات الاسلامية كانت أساسية ، في حين رأى البعض الآخر ان الحركة مجردة من أي تأثير اسلامي في حين عدّ آخرون هذه التأثيرات غير مباشرة.

غير أننا سنشير هنا الى ملاحظة مهمة . ففضلا عن هذه التأثيرات الاسلامية ، فانه خرج من مجتمع الدولة العربية الاسلامية أشد الانصار والمتحمسين لعبادة الايقونات . منهم يوحنا الدمشقي ، الذي شغل منصبا مهماً في قصر الخلافة الاموية ، ثم أصبح من رهبان دير القديس سابا في القدس. وكان من كبار لاهوتيي عصره . وكان لمقالاته أكبر الاثر في الرد على مقولات الحركة اللا أيقونية . وان مقالاته الثلاث التي كتبها لهذا الغرض ، هي أكثر مقالاته شهرة ، وأكثر أصالة وابتكارا . وهو لغرض تفنيد التهمة الموجهة الى عبادة الايقونات ، والتي عدّت احياءً للوثنية ، بيّن أن الايقونة رمز وسيط في مفاهيم الافلاطونية الحديثة ، فبرر استخدام تمثال السيد المسيح اعتمادا على مذهب التجسيد. ان هذا العمل المنظم الذي قدمه يوحنا الدمشقي، حدد

ما دخل من تطور في مفاهيم عبادة الايقونات[٢] • وأصبحت مقالاته الثلاث هذه ، أساسا لاية كتابات مماثلة في الفترات اللاحقة[٣]• ومن بين أبرز مؤلفاته الاخرى « ينبوع المعرفة » عرض فيه العقيدة المسيحية عرضا منطقيا على طريقة أرسطو ، معتمدا على ما قررته المجامع الكنسية منذ المجمع المسكوني الاول • وعلى ما قاله آباء الكنيسة أيضا • فكانت سلاحاً ماضيا بيد أنصار عبادة الايقونات[٤] •

ولم تكن كتابات يوحنا الدمشقي وحدها التي دخلت الاراضي البيزنطية، بل كتابات تيودور أبو قرة أيضا • وهو أسقف حران الذي عاش في الفترة ٧٤٠ـ٨٢٠م/١٢٣ـ٢٠٥هـ • وكتب مؤلفاته بالعربية والاغريقية والسريانية• وكان من اشد انصار عبادة الايقونات والمتحمسين لها[٥] • ولنا أن نتوقع ان هناك آخرين أثرت كتاباتهم في تطور الحركة الايقونية وعقيدتها •

ويتضح ان تأثيرات مجتمع الدولة العربيـة الاسلامية ، كان مزدوجا في هذا المجال • اذ حقق تأثيراته في الحركتين الايقونية واللا ايقونية • واذا كان تأثيره ايجابيا على المجتمع البيزنطي من خلال الحركة اللا ايقونية • فان بعض رجال اللاهوت المسيحي في الدولة العباسية مثلوا رد الفعل السلبي على ذلك بما قدموه من كتابات ناصرت وأيدت الحركة الايقونية •

ثانيا ـ انتقال الافكار الخاصة عن المجتمع البيزنطي

ان الاشارات المتناثرة في مصادرنا ، لا سيما عند الجاحظ ، اذا ما جمعت الى بعضها ، تمكننا من تقرير أن المجتمع الاسلامي امتلك تصورا كاملا عن طبيعة الحياة العامة في المجتمع البيزنطي • مع اننا لم نتناول الاشـارات التي

2 — Ostrogorsky, P. 164.
3 — Runciman, P. 73.
٤ ـ اسد رستم ، ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١ .
5 — C.M.H, 4/1, P. 68.

وردت بعد العصر العباسي الاول•وكان اعتمادنا أساسيا على ما قدمه الجاحظ، وهو بحق شاهد عيان هذا العصر في معظمه •

تناول الجاحظ بعض العادات الاجتماعية البيزنطية ، لا سيما الخصاء وانتشاره بينهم ، وأسبابه ودوافعه ووسائله أيضا[٦] • وذكر أهمية الخنزير في مجتمعهم،وكيفية تعرفهم على أوقات النهار من خلال حركاته وأصواته[٧]• وان أفضل من يقوم على رعاية الابل هم الروم ، مع ان دخولهـا بلادهم يعني هلاكها[٨] • وأشار الى انتشار الزنى في المجتمع البيزنطي ، مساويا له بذلك بالمجتمعين الهندي والفارسي • وعلل ذلك بكثرة ظهور نسائهم أمام الرجال واختلاطهن بهم[٩] • وعندما تكلم على بخل البيزنطيين، قال ان الصقالبة أبخل منهم ، لكنه عد البيزنطيين أبعد روية منهم وأشد عقولا[١٠] • وانهم يعـدون الغناء فلسفة[١١] •

وحوت كتاباته اشارات اقتصادية عديدة ، فالبيزنطي عنده أكثر اتقانا للصناعات من الصيني[١٢] • ومن حكمهم في التجارة ، ان التاجر الذيلايرزق في أرض عليه أن ينتقل الى غيرها[١٣] • وقدم اشارات لغوية وبلاغية خاصة بهم ، فأكثر ما يتردد على ألسنتهم هو حرف السين ، وان لغتهم ليس فيهـا ضاد[١٤] • وعرف البيزنطي البلاغة بأنها « حسن الاقتضاب ، عنـد البداهة

---

٦ ـ الحيوان ، ١/١٢٤
٧ ـ المصدر السابق ، ٢/٢٩٤ •
٨ ـ المصدر السابق ، ٣/٤٣٤ •
٩ ـ المصدر السابق ، ٧/٢٨-٢٩ •
١٠ ـ رسائل الجاحظ ، ١/١٩٦ •
١١ ـ المصدر السابق ، ٢/١٥٨ •
١٢ ـ مجموعة رسائل ، ١٠٤ •
١٣ ـ التبصر بالتجارة ، ١١ •
١٤ ـ البيان والتبيين ، ١/٤٨ •

والغزارة يوم الاطالة »[١٥] • وعدّ البيزنطيون أحد أربع أمم ســادت فيهــا الاخلاق والآداب والحكم والعلم[١٦] • وضم المجتمع البيــزنطي جماعات من اليهود ممن غلو في العزير[١٧] •

ويتضح من هذا العرض المقتضب ان بعض أحكام الجاحظ تنم عن اتصال مباشر بالبيزنطيين ، أو النقل عمن قام بذلك • ولعل الاسرى البيزنطيين كانوا مصدرا مهماً لمثل هذه المعلومات • ومما لا شك فيه ان هنالك اشارات أخرى متفرقة ، لم نحصها وهي تشكل بمجموعها صورة متكاملة عن الحياة العامــة لهذا المجتمع •

ثالثا : انتقال العلوم والمعارف بين الدولتين

واذا كان لابد هنا من الحديث عن الترجمة ، فاننا لا نعد ما ترجم من كتب اغريقية ولاتينية معبرة وممثلة للتراث البيزنطي • لان بيزنطة وان تبنت اللغة الاغريقية بعد اللاتينية ، فان ما ترجم من كتب عن هذه اللغة ، مثل الحضــارة الاغريقية ، لانها تنتسب اليها وتعود الى فترتها • وان كــانت بيزنطة الوريث الشرعي للحضارتين الاغريقية واللاتينية ، غير انه لا يمثل الحضارة البيزنطية الا ما برز فيها فعلا من ابداع وابتكار ، وان ما سبقها لا يمثل ابداعها •ويمكن أن نعدّ بيزنطة الوسيط المباشر بين الحضارتين الاغريقية والعربيةالاسلامية• بما قدمته من كتب احتفظت بها في خزائنها وسراديبها • وذكر جرجي زيدان، ان البيزنطيين نادرا ما استفادوا مما كان بحوزتهم من كتب ، لا سيما بعدموت جستنيان[١٨] • وربما عاد ذلك الى أن المسيحية عدّت هذه الكتب معبرة عن الوثنية • كما أن للانقسامات الدينية التي شهدتها المسيحية دور في ذلك •

---

١٥ ــ المصدر السابق ، ١/٦٤ .
١٦ ــ المصدر السابق ، ٢/٢٠ .
١٧ ــ ثلاث رسائل ، ٣٥ .
١٨ ــ تاريخ التمدن الاسلامي ، ٣/١٤٢ .

ان ما ترجم من كتب بيزنطية فعلا قليل جدا ، منهـا كتاب في الزراعة ، وضعه العالم البيزنطي «كاسيانوس باسوس» الذي نبغ في حدود عام ٥٥٠م. اذ جرى نقله من السريانية الى العربية[١٩] .

وبخصوص تأثير حركة الترجمة في الحضارة العربية الاسلامية ، فقـد قيل الكثير بشأن « دور حركة الترجمة والقائمين بها » وتأثيرها في حضارتنـا الزاهية وبما يخص دور هذه الحضارة في الابـداع والابتكار . واذا كان جرجي زيدان أحصى ما ترجم من كتب في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافية والميكانيك لم تتعد (١٧٥) كتابا[٢٠] . فان هذا العدد لا يشكل الا رفاً واحدا في مكتبة عربية ضخمة في هذه المجالات وغيرها ، مثلت الابـداع الحضاري العربي الاسلامي . ان حركة الترجمة لا تعدو أكثر من كونها المحفز الذي أثار الاهتمام بهذه المجالات في العقلية العربية الاسلامية . اذ سارعت هذه العقلية لان تكون لها خصوصيتها المتميزة في اغناء الحضارة الانسانيـة بما قدمته من ابداعات وابتكارات في مجالات العلم والادب التي سادت في وقتها . فقدم العلماء المسلمون اضافات كبيرة من ابداعهم من خلال بحوثهم الخاصة وتجاربهم العملية وملاحظاتهم ومشاهداتهم في جوانب عـدة كالطب والزراعة والجغرافية وغيرها[٢١] . وان ما قدمته وابدعته حضارتنا المجيدة ، لعب دور المحفز للعقلية الاوربية فيما بعد ، بما اطلق فيها من قدرات الابداع والابتكار . وعليه فليس هناك ما يسوغ هذا التهويل في دور حركة الترجمة والقائمين بها ، في حضارتنا العربية الاسلامية .

ومن مظاهر الاتصال الثقافي ، رغبة بعض الخلفاء في استخدام عدد من علماء القسطنطينية الى بغداد مثل يوحنا النحوي[٢٢] . ومن لطيف ما أشـار

---

١٩ ــ توماس آرنولد ، تراث الاسلام ، ٤٦١ .

٢٠ ــ تاريخ التمدن الاسلامي ، ١/١٦٧-١٧٣ .

21—Bernard Lewis, The Muslim Discovery of Europe, P. 221.

٢٢ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ٣٥٨ .

اليه سيديو أن المأمون بدأ بشن عملياته العسكرية على الاراضي البيزنطية لان الامبراطور رفض ارسال عالم الرياضيات البيزنطي ليون الى بغـداد(٢٣) • وعبّر هذا عن اهتمام الخلفاء العباسيين بما ساد من علوم في بيزنطة•

وكانت هناك حالة مشابهة في الجانب البيزنطي ، فقد حظي الامبراطور ثيوفيل بتعليم جيد ، وكان مهتماً بالعلوم والفنون ، ليس ما كان سـائدا منها في عاصمته فقط ، بل ما كان قائماً في بغـداد أيضـا ، حتى انه كان متحمسا للثقافة العربية الاسلامية(٢٤) • وانه سعى الى تقليد ومحاكاة هارون الرشيد في سيرته • فتجول في عاصمته مكلما الفقراء مطلعا على أحوالهم مستمعا الى شكواهم ، وعاقب بشدة من تجاوز على حقوقهم(٢٥) • وربما عبر هـذا عن امتلاك الامبراطور صورة متكاملة عن الاوضاع العامة في الدولة العباسية، لا سيما في بغداد • وربما انتقلت أجزاء هذه الصورة عن طـريق السفارات المتنقلة بين عاصمتي البلدين • وربما عن طـريق الاقاصيص التي تناقلت بين الناس ، والتي شكلت فيما بعد مجتمعة روايات ألف ليلة وليلة، والتي عكست في بعض جوانبها الحياة العامة والخاصة في الدولة العباسية •

ومن الامور التي عبّرت عن اهتمام الخلفاء بالاتصال الثقافي بين الدولتين، تلك السفارة التي أرسلها الواثق الى بيزنطة طالبا السماح للسفارة بالاطلاع على أصحاب الرقيم • وكان على رأس السفارة محمد بن موسى المنجم الذي حمل رسالة الخليفة الى الامبراطور ، والذي بدوره أرسل المرافقين مع الوفد لزيارة مكان أصحاب الرقيم والاطلاع عليهم • وعلى أية حـال ، فان أعضاء الوفد أصيبوا بخيبة أمل ، ويبدو انهم لم يجدوا ما تمنوا أن يجدوه(٢٦)•

---

٢٣ ـ تاريخ العرب العام ، ٢١٦ •

24—Ostrogorsky, P. 206; Lewis, Byzantium and Islam, P. 36.
25—Ostrogorsky, P. 207.

٢٦ ـ ابن خرداذبة ، ١٠٦ـ١٠٧ •

ومن الحالات التي عبّرت عن الاتصال الثقافي بين المجتمعين، انتقال عدد من الكلمات العربية الى اللغة اليونانية ، وبالعكس • غير ان هذه الكلمات أخذت أشكالا محرفة ، حتى لم يعد سهلا الوصول الى الاصل المختفي وراءها[٣٧] •

رابعا : التأثيرات المتبادلة في فنون العمارة والبناء

ولعل أول ما طالعنا بهذا الخصوص ، تلك الرواية التي أوردتها بعض المصادر حول نقل اسواق بغداد الى خارج المدينة المدورة بمشورة سفير بيزنطي قدم الى الخليفة المنصور[٢٨] • وأشارت بعض المصادر الحديثة الى هذه المسألة ، وتقبلتها على انها حقيقة واقعة[٢٩] • مع ان مصادر مهمة متقدمة أشارت الى عملية نقل الاسواق دون ذكر مشورة السفير البيزنطي المزعومة هذه[٣٠] • ثم أن الطبري أورد روايات أخرى لم تشر الى مشورة هذا السفير، غير أنه لم يفاضل بين هذه الروايات[٣١] •

وبصدد عملية نقل الاسواق ، لابد من ملاحظة أمر له أهميته هنا ، هو أن بغداد ، لم تبنَ حتى تكون مدينة سكنية ، بل لتكون قلعة حصينة ومعسكرا للاسرة الحاكمة ومؤيديها وأنصارها وجيشها ، فضلا عن اتخاذها مقرا اداريا للخلافة • ووفقا لهذا التصور صممت المدينة وخططت • بيد أنه بعد سنوات قليلة أصبحت بغداد واحدة من أعظم مدن العالم آنذاك، اذ انتقلت اليها أعداد

---

٢٧ ــ فازيليف ، بيزنطة والاسلام ، ٣٨٩ •
٢٨ ــ الطبري ، تاريخ ، ٧/٦٥٣ ، ابن الفقيه ، بغداد مدينة السلام ، ٣٧ــ٣٨، ابن الفراء ، ٣٩ــ٤٠ ، البغدادي ، ١/٧٨ــ٧٩ ، العيون والحدائق ، ٣/٧٦٥ •
٢٩ ــ لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ٦٥ ، حمدان الكبيسي ، اسواق بغداد ، ٧٣ •
٣٠ ــ الفسوي ، ١/١٤٤ ، اليعقوبي ، البلدان ، ٢٥٢ •
٣١ ــ تاريخ ، ٧/٦٥٣ــ٦٥٤ •

كبيرة من السكان من شتى أرجاء الدولة ، ولا ريب في ذلك ، فهي عاصمة لدولة مترامية الاطراف ، لا نشك انها كانت اكبر دولة مساحة وسكانا . فبات طبيعيا لمدينة لم تصمم لاغراض تجارية وسكنية واسعة ، أن تضيق بسكانها وأسواقهم ، حتى بدت غير قادرة على تلبية الحاجات المتزايدة للسكان ، وبما أن توسيع الاسواق داخل المدينة المدورة ، كان أمرا مستحيلا ، فكان لابد لهذا التوسع أن يتم خارج الاسوار . وهذه المسألة بحد ذاتها واضحة لا تستعصي على المعروف من دهاء المنصور ، لا تحتاج الى مشورة سفير بيزنطي .

على أننا يمكن أن نجد آثارا للفن المعماري البيزنطي في بغداد ، لا سيما وانه أسهم في بنائها مهندسون بيزنطيون[٣٢]. فعند وصف اليعقوبي لاساليب بناء بغداد ، أشار الى وجود « طاقات معقودة بالآجر فيها كواة رومية »[٣٣]. اشارة الى اسلوب بيزنطي في البناء ، ربما ادخله المهندسون البيزنطيون.

ومن آثار الفن المعماري والهندسي البيزنطي في بغداد ، ما عرف برحى البطريق ، وهي رحى أشار ببنائها أحد سفراء بيزنطة على الخليفة المهدي ، فعند تجوله في أنحاء بغداد وأطرافها مرّ بمكان جيد يصلح لبناء رحى على نهر سريع الجريان . وكانت واردات الرحى ــ حسب الرواية ــ ترسل الى هذا السفير في بلاده حتى توفي في عام ١٦٣هـ/٧٧٩ــ٧٨٠م ، فحولت هذه الواردات الى مستغلات الخليفة[٣٤] . على اننا لا ندري مدى صحة وجواز الجزء الاخير من الرواية والخاص بواردات الرحى .

وفي فترة لاحقة من العصر العباسي الاول ، بدأت المسألة تأخذ شكلا آخر ، فازدهار الفن المعماري في بغداد وبقية ارجاء الدولة العباسية ، أثار في

---

٣٢ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ٣٥٨ .

٣٣ ــ البلدان ، ٢٣٩ .

٣٤ ــ انظر : اليعقوبي، البلدان ٢٤٣، ابن الفقيه، بغداد مدينة السلام، ٥٣ــ٥٤، البغدادي ، ١/٩١ــ٩٢ .

نفوس أباطرة بيزنطة ذلك الاحساس بضرورة المنافسة في هـذا المجال ، وفي بعض الاحيان الرغبة في التقليد والتأثر • اذ كان ثيوفيل مغرما ببناء القصور وفي عام ٢١٥هـ/٨٣٠م ، قدم له أحد سفرائه الى بغداد ، تقريرا عن القصور التي شاهدها وقد أثار فن العمارة الاسلامية دهشته واعجابه، فحث الامبراطور على بناء قصر مشابه لاحد القصور التي شاهدها في سورية ، وكان سـرور الامبراطور كبيرا بالفكرة ، فأنشأ هذا القصر في Bryas احدى ضواحي القسطنطينية • وحوى هذا القصر ذو الطراز الاسلامي ، مصلى مجاورا لغرفة نوم الامبراطور ، كما ضم كنيسة في وسط باحة القصر ، الذي اتخذ شـكلا مستطيلا ومسيجا[٣٥] •

وذكر ابن الفقيه ، انه رسم تصميم لمدينة بغـداد قدم الى الامبراطور البيزنطي ، ضم بغداد بأرباضها وأسواقها وشوارعها ومبانيها وانهارهـا في جانبيها الشرقي والغربي • وطالما تأمل الامبراطور هذا التصميم الذي أثـار دهشته ، وأبدى فيه آراءه[٣٦] • واتخذ ثيوفيل من قصور بغـداد نموذجا يحتذى به في أبنيته التي أشادها[٣٧] •

ولعل موضوع التأثيرات المتبادلة في الفن المعماري ، بحاجة الى دراسة آثارية ، يمكن لها أن تكشف الكثير من حقائق التأثيرات الثقافية المتبادلة •

سبل وأساليب التأثيرات الثقافية :

انتقلت التأثيرات الثقافية المتبادلة عبر أساليب وسبل متعـــددة ، على الصعيدين العام والخاص ، أي ما يخص المجتمعين بشـكل عام ، أو ما يخص فئة منهما مثل رجال الحكم أو رجال العلم والمعرفة • ويمكن أن نجمل أساليب هذا الاتصال بالشكل الآتي :

35—Cyril Mango, Byzantine Architecture, P. 194.

٣٦ ـ بغدد مدينة السلام ، ٥٩ •

37—Bury, E.R.E, P. 132; C.M.H, 4/1, P. 103.

اولا ـ الاسرى :

اذ كان أسرى الطرفين من أوسع وسائل الاتصال بينهما • وكان هنالك على الدوام عدد كبير من الأسرى في الدولتين • ومثل هؤلاء صورة متكاملة عن حياة كلا المجتمعين بصورة مصغرة • فامتلك الطرفان صورة واضحة من عادات وتقاليد كل منهما الآخر • ولا نعني هنا تبني أي من المجتمعين لعادات وتقاليد المجتمع الآخر ، بل الاطلاع عليها والتعرف بها • ويمكن القول ان الاسرى البيزنطيين كانوا أكثر تأثيرا في هذا المجال ، بحكم تحولهم الى رقيق في المنازل ــ كما أشرنا ــ لذا كانوا على احتكاك واتصال مباشر بالمجتمع • ثم ان هؤلاء الاسرى ، قاموا بدور آخر ، هو نقلهم لمشاهداتهم في المجتمع الذي استضافهم أسرى الى مجتمعهم بعد عودتهم •

وكما قلنا ، فربما كانت اشارات الجاحظ عن المجتمع البيزنطي قدوصلته عن هذا الطريق • وعن مشاهدات الاسرى نقل ابن رسته،ان الاسرى المسلمين في القسطنطينية كانوا يحضرون الاحتفالات الدينية هناك[٣٨] • كما أشارت مصادرنا الى أديرة أو محلات خاصة بالاسرى البيزنطيين في بغداد[٣٩] • لقد أسهم هؤلاء الاسرى بشكل واسع في نقل صورة الحياة العامة في المجتمعين الى بعضهما •

ثانيا ـ السفارات المتبادلة :

وكان لها دورها المهم في نقل المشاهدات التي تصادفها في كلا الدولتين لا سيما ما يتعلق بأفراد الطبقة الحاكمة فيهما • اذ جرى التعرف على تقاليد واصول الحكم عند الطرفين وما يتعلق بحياتهما الاجتماعية • وتجسد ذلك في التقارير التي قدمها السفراء العباسيون الى بيزنطة • كما أن الهدايا التي

٣٨ ــ الاعلاق النفيسة ، ١٢٥ •

٣٩ ــ ياقوت الحموي ، ٢/٥١١ ، ٥١٦ ، اليعقوبي ، البلدان ، ٢٤٤ •

حملتها السفارات حملت بعضا من جوانب الاتصال الثقافي ، وربما عكست في بعض الاحيان أفكارا خاصة بصورة غير مباشرة ، وعلى هذا السبيل أهدى أحد الاباطرة الى هارون الرشيد ، سيفا كتب عليه « أيها المقاتل احتل تغنم ولا تفكر في العاقبة تهزم » • وعلى الوجه الآخر « اذا لم يصل سيفك فصله بالقاء خوفك»[٤٠] • هذا فضلا عن وجود سفارات علمية بحتة هدفت الى الاطلاع والمشاهدة وأسهمت في تعزيز الاتصال الثقافي بين المجتمعين •

ثالثا ــ الرحلات الخاصة :

اتخذت هذه الرحلات أشكالا عدة ، منها الحج ، فحركة التحرير العربية لم تحل دون زيارة قبر السيد المسيح من قبل الرعايا الاوربيين بمن فيهم البيزنطيون[٤١] • واذ لم تشر مصادرنا الى ذلك ، فلأنه كان من الامور الطبيعية والاعتيادية التي لا تستوجب الاشارة اليها • ولا بد ان هؤلاء الحجاج لعبوا دورا مشابها لما قام به الاسرى في نقل صورة للحياة العامة في المجتمع الاسلامي• وربما أسهموا في نقل أفكار العقيدة المسيحية بين مجتمعاتهم والنصارى من رعايا الدولة العباسية وبالعكس •

ومن الرحلات الخاصة الاخرى ، تلك التي جابت أنحاء الامبراطورية البيزنطية بحثا عن الكتب القديمة لغرض ترجمتها ، ولا تخلو أمثال هذه الرحلات من احتكاك بالمجتمع البيزنطي أو برجال العلم فيه[٤٢] •وكان للخليفة المأمون دور مهم في توجيه هذه الرحلات ،فقد كتب الى الامبراطور البيزنطي مستأذنا في ارسال بعض رجاله لاختيار وجلب ما يحتاجه من الكتب،وكان ممن

---

٤٠ ــ الماوردي ، نصيحة الملوك ، ٤٩٧ــ٤٩٨ •

٤١ ــ آرنولد ، ١٢٩ •

٤٢ ــ ابن جلجل، طبقات الاطباء والحكماء، ٦٥ ، ابن النديم ، الفهرست ، ٣٠٤، ٣٤٣ القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ٢٠٨ ، ابن أبي اصيبعة ، عيون الانباء ، ٢٦٠ •

أرسلهم : الحجاج بن مطر وابن البطريق ومسلم صاحب بيت الحكمة • وكان وراء ذلك قصة موضوعة مفادها :

« ان المأمون رأى في منامه رجلا أبيض اللون ،مشربا بحمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أجلح الرأس ••• قال المأمون : وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة• فقلت : من أنت ، قال : ارسطاليس • فسررت به وقلت: أيها الحكيم أسألك، قال: سل ، قلت : ما الحسن، قال: ما حسن في العقل • قلت : ثم ماذا • قال : ما حسن في الشرع ، قلت : ثم ماذا • قال : ما حسن عند الجمهور • قلت : ثم ماذا • قال : ثم ماذا ثم وفي رواية أخرى ، قلت : زدني ، قال : من نصحك في الذهب ، فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد • فكان هذا المنام من أوكد الاسباب في اخراج الكتب •• فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انقاذ ما يختار من العلوم القديمة »(٤٣) •

وعلى أية حال فليس سهلا قبول هذه الرواية ، والراجح أنها ابتدعت لتسويغ سياسة المأمون في تقريبه للمعتزلة ، الذين مثلوا مدرسة النزعة العقلية في الحضارة العربية الاسلامية •

رابعا ــ الحملات العسكرية :

وكان لهذه الحملات دورها في الاحتكاك الثقافي بين المجتمعين • فالمسلمون لم يحملوا معهم سيوفهم فقط ، في أثناء تجوالهم في آسيا الصغرى،

٤٣ ــ ابن النديم ، ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ، ابن أبي أصيبعة ، ٢٥٩ ــ ٢٦٠ •

يل حملوا أفكارهم ايضا وثقافتهم ومعارفهم واخلاقهم • ثم ان المسلمين بحثوا عن الكتب أيضا في هذه الحملات[٤٤] •

خامسا ــ اللاجئون السياسيون :

ولا بد أن للاجئين السياسيين عند كلا الدولتين ، دورهم ــ وان كان ضئيلا ــ في نقل الافكار والمعتقدات أو عادات اجتماعية معينة ، لا سيما وان كلا البلدين كان ملاذا للمعارضين السياسيين للطرف الآخر• فتوماس الصقلبي وهلبيديوس ومنويل وغيرهم لاذوا بالدولة العباسية • والخرميون وغيرهم لاذوا بالامبراطورية البيزنطية •

٣ ــ الادب والحرب في الدولتين :

واكب الادب ، والشعر منه على وجه الخصوص ؛ الاحداث التي شهدتها الدولة العباسية ، لا سيما ما تعلق منها بالجهاد ، الذي شكل الجانب الاكبر من علاقات الدولة مع البيزنطيين • وعبرت هذه الحالة عن اتصال عدد من الشعراء بالاحداث الكبيرة وتفاعلهم معها • فكان لهم دورهم في شحذ الهمم وتقوية العزائم واثارة حب الجهاد في النفوس[٤٥]•

وكان أبو تمام والبحتري صوتين تردد صداهما في ارجاء العالم الاسلامي، يما أبدعاه وصوراه في شعرهما ، معبرين عن الصراع الحاد الذي شهدته منطقة التخوم بين الدولتين • وهنا تستوقفنا انتباهة مهمة ، هي ان هذين الشاعرين برزا في الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول ، وهي المرحلة التي شهدت بداية الانحلال والتدهور ، وهذا بدوره يثير تساؤلا مفاده، ان الفترة التي مثلت مجد القوة العباسية عسكريا في مواجهة البيزنطيين ، وهي فترة

---

٤٤ ــ انظر : ابن جلجل ، ٦٥ .

٤٥ ــ عبدالكريم توفيق العبود ، الادب والسياسة منذ قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الثالث الهجري ، ١١٩ .

حكم الرشيد والمأمون ، لم يظهر فيها من الشعراء الكبار من تنـــاول منهم موضوعات الجهاد بالصورة التي تناولها أبو تمام والبحتري، حتى يمكن القول انهما تخصصا على وجه أكبر بهذا الموضوع •

لقد برز في هذه الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول ، دور الولاة في مناطق الثغور • فكان دورهم بطوليا رائعا في حمـاية هـذه الثغور • فصب الشاعران شعرهما في مدح هؤلاء الولاة وتصوير بطولاتهم ، فلمـاذا كانت الصورة بهذا الشكل ؟ ويمكن أن نفسر هذه الظاهرة ، بأن فتـرة الرشـيد والمأمون ، لم يهدد فيها الخطر البيزنطي ، جديا ، أمن التخوم واسـتقرارها ، وحتى اذا ما برز مثل هذا الخطر ، فانه يبدو صغـيرا أمام التفوق العسكري الكبير للدولة ، لذا لم يكن هناك ما يشحذ همم الشـعراء • ثم ان فترة القوة هذه شهدت الذروة في الازدهار الاقتصادي وترف الحياة ومباهجها ، فكانت هي الموضوعات التي استهوت الشعراء ، فانصرفوا اليها دون سواها • في حين ظهر الخطر جديا في أواخر العصر العباسي الاول مهددا أمن البلاد، حتى كانت غاراتهم القرع المتتالي على ناقوس الخطر • وقد تجاوب أبو تمام والبحتري مع هذه الحالة الجديدة ، مشكلين بداية صحوة الشعر وضرورة تجاوبه مـع الخطر الذي بدأ يتجسم على التخوم الشمالية،فظهر بعدهما المتنبي وأبوفراس، فنسجا على المنوال نفسه •

على اننا لا نعدم بعضا من الشعراء وعددا من القصائد التي تجاوبت مع الاحداث منذ مطلع العصر العباسي الاول ، لكنها بقيت محاولات لم تبلغ حد النضج والتنامي • أما أبرز الاغراض التي عالجها الشعر في هذه الفترة ، وبما يتعلق بالأوضاع على التخوم فهي :

١ ـ التحريض على الجهاد : اذ قيل الكثير في هـذا الباب من الشعر ، ومما هو لافت للنظر ، ان ما قيل فيه لم يكن من باب الرغبة المسبقة في القتال، بل قيل عادة في أعقاب الغارات التي قامت بها الجيوش البيزنطية ، وما ألحقته

من ضرر بمناطق الثغور أو السواحل الاسلامية . ولم يكن هذا التحريض موجها الى العامة فقط ، بل وجه معظمه الى الخلفاء ، من ذلك :

يا ابن الخلائق من رواية هاشم
ذهبت بلادك عنك ان لم تأتها[٤٦]

ومنها ما أنشده ابراهيم بن المهدي أمام المعتصم بعد فاجعة زبطرة :

يا غارة الله قد عاينت فانتهكي
هتك النساء وما منهن يرتكب

هب الرجال على أجرامها قتلت
ما بال أطفالها بالذبح تنتهب[٤٧]

وعند نزول البيزنطيين على دمياط وارتكابهم بها ما ارتكبوا من فضائع، قال الشاعر يحيى بن الفضل مخاطبا المتوكل :

أترضى بأن توطا حريمك عنوة
وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دمياط والروم وثّب
بتنيس منه رأي العين وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما
أصابوه بدمياط والحرب ترتب

فلا تنسنا إنّا بدار مضيعة
بمصر وإن الدين قد كان يذهب[٤٨]

---

٤٦ ـ الازدي ، ٤٢٥ .
٤٧ ـ المسعودي ، مروج ، ٣/٤٧٢ .
٤٨ ـ الكندي ، ٢٠١ .

وعندما تعرض أبو سعيد للاضطهاد على يد أبي الحسن النصـراني بأمر المتوكل ليستخرج منه أموالا ، انبرى البحتري قائلا :

يا ضيعـة الدنيـا وضيعـة أهلهـا
والمسـلمين وضيعـة الاسـلام

طلبت دخول الشـرك في دار الهـدى
بـين المـداد والسـن الأقـلام

هـذا ابن يوسف في أيـدي أعدائـه
يجـزى على الايـام بالايـام

نـامت بنو العبـاس عنـه ولم تـكن
عنـه أميـة ــ لو رعت ــ بنيـام[٤٩]

٢ ــ المدح : أفاض الشعراء في مدح الخلفاء والقادة العسكريين ، لمـا قاموا به من دور كبير في الذود عن تخوم المسلمين وبلادهم ودينهم • من ذلك ما قيل في حملة الرشيد عام ١٦٥هـ/٧٨١ـ٧٨٢م :

أطفت بقسطنطينيـة الروم مسـنداً
اليهـا القنـا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتهـا حتى أتتـك ملوكهـا
بجزيتهـا والحـرب تغلي قدورهـا[٥٠]

ومن الطبيعي أن نرى في بعض أعمال المدح شيئا من المبالغة كما في هذه الابيات ، وصف الرشيد وكأنه حاصر القسطنطينية ، في حين انـه لم يصل اليها • ومما قيل في الرشيد أيضا :

---

٤٩ ــ ديوان البحتري ، ٢٠٣٦/٣ ، التنوخي ، الفرج بعـد الشدة ، ١٦/٢ ، الصولي ، ٩٧ـ٩٨ •

٥٠ ــ الطبري ، تاريخ ، ١٥٣/٨ ، المقدسي ، البدء والتاريخ ، ٩٦/٦ •

إمـــام بذات الله أصبـح شـــغله
وأكثر مـا يعنى بـه الغزو والحج[51]

وقيل فيـه أيضا :

فمن يطلب لقـــاءك أو يـــرده
فبالحرمـين أو أقـصى الثغـور

ففي أرض العـــدو على طمـر
وفي أرض الترفـــه في كـــور

وما حـاز الثغـور سـواك خلق
من المتخلفـين على الامـور[52]

ومما قاله أبو تمام في المعتصم في بائيتـه المشهورة ، الابيات الآتية :

بصرت في الراحـة الـكبرى فلم ترها
تنـال الا على جسـر من التعب

إن كان بـين صروف الدهـر من رحم
موصولـة أو ذمـام غير منتضب

فبين أيامك اللاتي نصـرت بهـا
وبين أيـام بـدر أقرب النسب[53]

ولم يكن شعر المدح موقوفا على الخلفاء فقط ، بل شـمل ولاة الثغور والقادة والابطال أيضا . من ذلك ما قاله البحتري في أبي سعيد ، أحد أبـرز ولاة الثغور ، ممتدحا بطولاته ودوره الكبير في صد البيزنطيين :

إذ مضى مجلبـاً يقعقـع في الـدر
ب زئـيراً أنسـى الـكلاب العواء

٥١ ــ الطبري ، تاريخ ، ٢٣٤/٨ .
٥٢ ــ المصدر السابق ، ٣٢١/٨ .
٥٣ ــ ديوان ابي تمام ، ٧٣/١ .

حين خافت من خوفه ربة الرو
م صباحاً وراسلته مساء
وصدور الجياد في جانب البحـ
ـر، فلولا الخليج جزن ضماء[٥٤]

وأضاف:

علم (الروم) أن نزولك ما كا
ن عقاباً لهم ولكن فشاء
بسباء سقاهم البين صرفا
وبقتل نسوا لديه السباء
يوم فرقت من كتائب آرائـ
ـك جنداً لا يأخذون عطاء[٥٥]

وحوى ديوانا أبي تمام والبحتري كثيرا من القصائد في مدح أبي سعيد وابنه يوسف، ويمكن عدّ هذه القصائد مصدرا مهماً لتصوير بطولة أبي سعيد، فبرز من خلالها بأنه ذو دور كبير جدا في صد غارات البيزنطيين، حتى كان سدا واقيا . في فترة كانت الحاجة اليه ماسة فعلا، اذ كانت السلطة المركزية متراخية في دورها في مناطق الثغور بسبب أوضاعها الخاصة[٥٦] .

٣ ـ الوصف وتسجيل الوقائع :

ضمت المصادر التاريخية والدواوين عددا من القصائد التي تضمنت وصفا للمعارك والاحداث السياسية الجارية بين الدولتين . وتضمن بعضها

---

٥٤ ـ ديوان البحتري، ١٦/١ .
٥٥ ـ المصدر السابق، ١٨/١ .
٥٦ ـ زكي المحاسني، شعر الحرب في ادب العرب، ١٨٨ .

حقائق تاريخية مهمة • كالتي ضمتها قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ، حيث أفدنا من عدد من أبياتها للاستدلال على وقائع الحدث ، اذ كانت شاهد عيان تسجل جانبا من الاحداث •

الا أن بعضا من هذه القصائد تضمن أخطاءً تاريخية أو تشويها للحقائق ومبالغة فيها ، وسبقت الاشارة الى قصيدة لابي نواس في فتح هرقلة، وانه تم عنوة لا صلحاً ، فوجه المسعودي نقده الى هذه القصيدة •

وأوقف البحتري أكثر شعره على الحرب مع البيزنطيين ، حتى بالامكان جعل الفترة الاخيرة من العصر العباسي الاول عصر بطولة تجسد فيه دور ولاة الثغور(٥٧) • ويبدو من بعض قصائد البحتري انه حضر المعارك التي خاضها أبو سعيد مع البيزنطيين ، فكان شاهد عيان لها(٥٨) •

وتركت الحروب المستمرة بين الدولتين آثارها واضحة في أدب كلا الجانبين ، وخلقت هذه الاشتباكات نموذجا لبطل قومي تميز بالبسالة والاقدام والكرم، حتى تحول بعضهم الى شخصيات أسطورية ، فاقت قدراتها مايمتلكه الانسان الاعتيادي ، ومن هذه الشخصيات البطل المسلم عبدالله البطال، الذي ربما استشهد في معركة اكرينيون • وأصبح فيما بعد النموذج التاريخي الحي للبطل التركي القومي الاسطوري « سيد بطال غازي » والذي لا يزال قبره يشاهد في احدى القرى جنوبي أسكي شهر الحالية — دور يليوم سابقا —(٥٩) الا أننا مع هذا لا نجد في الشعر العربي ملحمة مطولة كما في آداب الامم الاخرى •

أما في الجانب البيزنطي ، فظهرت في هذه الفترة الملحمة المعروفة التي دارت حول شخصية « ديجيتيس أكرتياي » وصورت هذا المقاتل اليوناني

٥٧ — المرجع السابق ، ٢٠٤ •
٥٨ — المرجع السابق ، ٢٠١ •
٥٩ — فازيليف ، بيزنطة والاسلام ، ٢٨٧–٢٨٨ •

ــ وهو شخصية تاريخية حقيقية قتل في احــدى المعــارك في عام ٧٨٨م/ ١٧١ــ١٧٢هـ ولا يزال قبره قرب سميساطــان هذه الملحمة وما معها من أغان شعبية « اكريتية » نسبة اليه ، صورت المعارك بين الدولتين تصويرا دقيقــا وجميلا في حالات كثيرة ، ولا سيما في القرن التاسع ، عنــدما كانت كفــة العباسيين هي الراجحة[٦٠] . وظهرت أغان شعبية مجدت أعمال ميشيل الثالث العسكرية[٦١] .

٤ ــ العلاقات التجارية :

كانت العلاقات التجارية احدى الاشكال المتعــددة للعلاقات العباســية البيزنطية ، واتخذ هذا التبادل التجاري سبلا مباشرة وأخرى غير مباشرة،على أن من الضروري القاء نظرة على الخلفية التاريخية لهذا التبادل بين الدولتين.

وبخصوص تأثير حركة التحرير العربية على الاوضــاع الاقتصادية في المنطقة ، لا سيما التبادل التجاري في البحر المتوسط ، فهناك وجهتا نظر بهذا الموضوع : عدّت الاولى ان الاســلام هو المسؤول عن تدهور الاوضــاع التجارية في البحر المتوسط .

> « فقد بات مؤكدا ان الملاحة مع الشرق قد توقفت في حدود عام ٦٥٠ م ، على اعتبار ان الاقاليم الواقعة الى الشرق من صقلية ، ومنذ النصف الثاني من القــرن السابع الميلادي أصبحت تشكل الحــد النهائي لغرب البحر المتوسط . وانه منذ بداية القرن الثامن الميلادي، لم يظهر تماما أي مرور تجاري في البحر المتوسط فيما عدا السواحل البيزنطية ... الذي أصبح تحت رحمة

---

٦٠ ــ المرجع السابق ، ٣٨٨ــ٣٨٩ .

61—C.M.H, 4/1, P. 110.

> العرب ، وانهم سيطروا في القرن التاسع الميلادي على الجزر وحطموا الموانىء وقاموا بغاراتهم في كل مكان، فميناء مرسيليا ، الذي كان مركزا تجاريا رئيسا للغرب في تجارته مع الشرق ، أصبح خاويا . وان الوحدة الاقتصادية للبحر المتوسط قد تحطمت وبقيت كذلك حتى الحروب الصليبية »(٦٢) . « وهكذا قدر للبحر الابيض المتوسط ... أن يتحول طيلة الستمائة سنة التالية الى أرض حرام »(٦٣) .

أما وجهة النظر المغايرة ، فترى أن العكس هو الصحيح ، اذ رأى أرشيبالد لويس :

> « بأن هذه الفتوح العربية لم تحدث أول أمرها سوى تغييرات طفيفة في تجارة البحر المتوسط ، ولم تترتب عليها انقلابات اقتصادية حينذاك »(٦٤) .

في حين كان هناك من قرر ان الاسلام أحدث يقظة عارمة في حركة التجارة . وان تدهور التجارة سبق حركة التحرير العربية(٦٥) . واذا كان أرشيبالد لويس يرى أن :

> « العرب باعتبارهم غزاة من البادية ، لم يتوفر لديهم الاستعداد ولا الرغبة في قطع علاقات مصر وسورية الاقتصادية التقليدية . ولم يكن العرب من التجار أو رواد البحار ، وانما كانوا غزاة فقط ، ولذا تركوا

62—Henri Pirenne, Mohammed and Charlemgne, P. 166.

٦٣ — جون باجوت غلوب : امبراطورية العرب ، ٢٧٣ .

٦٤ — القوى البحرية والتجارية ، ١٢٠ .

٦٥ — بروي ، ٣/ ١٤٠ .

ممارسة التجارة لمن كان بيدهم الاشـراف عليها من قبل »[٦٦] .

وهو بذلك يكون قد ارتكب خطأ فادحا بحق العرب عامة ، وقادةعمليات التحرير أنفسهم بشكل خاص . ألم يكن هؤلاء القادة أنفسهم تجارا؟ وان مكة نفسها واليمن كانتا من المراكز التجارية المهمة ، ثم أن معاوية بن أبي سفيان، الذي أمضى في حكم الشام عدة عقود من السنين كان سـليل عائلة تجارية عريقة . ان قادة الدولة العربية ، كانوا ذوي عقلية تجـــارية متفتحة ، بل أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اشتغل بالتجارة فترة من فترات حيـــاته الكريمة . وان ترك الدولة العربية التجارة بأيدي أصحابها السابقين ، مثّل خطوة مشابهة تماما لما قرره عمر بن الخطاب (رض) بتركه الاراضي الزراعية بيد أصحابها . والدولة العربية بخطواتها هذه ، عبرت عن ادراك قادتها لأهمية ومكانة التجارة في استقرار أحوال البلاد سياسيا واقتصـــاديا ، وانه ليس بمقدور الدولة الجديدة الامساك بالتجارة بيدها ، لان الاوضاع العسكرية ، استوجبت الانصراف التام الى الميدان العسكري . وليس بسبب نقص خبرة العرب التجارية .

وأشار أرشيبالد لويس الى أن الدولة الاموية هي التي بدأت بشـــن الحرب الاقتصادية على البيزنطيين، وقال اذا كانت الموجتان الاوليان من حركة التحرير العربية عسكرية حربية ، فان الموجة الثالثة ، فضلا عن ذلك ، كـــانت اقتصادية ، بدأها عبدالملك بن مروان بسك أول دينـــار عربي وما أعقبـــه من اجراءات أخرى[٦٧] . ثم جاءت اجراءات الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز بتعزيزهما للرقابة التجارية[٦٨] . مما نجم عنـــه حرب اقتصادية مماثلة شـــنها

---

٦٦ ــ القوى البحرية والتجارية ، ١٢٠ .
٦٧ ــ المرجع السابق ، ١٣٤ ــ ١٣٥ .
٦٨ ــ المرجع السابق ، ١٣٦ــ١٣٧ .

الجانب البيزنطي[٦٩] • مع أن بيزنطة لا يمكنها الاستغناء عن منتجات العالم الاسلامي[٧٠] •

ان ما يدهش في الامر ، حسبان ذلك النزوع المشروع الى استكمال مقومات بناء الدولة العربية الاسلامية وتحقيق استقلالها الاقتصادي والخروج من نطاق العملة البيزنطية وتأثيراتها حربا اقتصادية • وكأن الامر الذي لابد منه هو استمرار خضوع الدولة العربية الاسلامية لتأثيرات هذه العملة• فكان رد فعل بيزنطة فرض الحصار الاقتصادي على سواحل مصر والشام • غير أنه بدا واضحا ان رعايا الامبراطورية أنفسهم كانوا أقل خضوعا لاجراءات هذا الحصار ، لان علاقاتهم التجارية مع الاقاليم العربية الاسلامية ، كانت عصب حياتهم • كما أسفر عن هذا الحصار احتجاجات داخلية واسعة ، مثل ثورة حاكم صقلية في عام ٧١٨م/٩٩ــ١٠٠هـ ، وثورة اسطول السكلاديز والبنود البحرية في عام ٧٢٨م/١٠٩ــ١١٠هـ ، وربما كان هذا الحصار وراء انشقاق بعض المدن والجزر الايطالية وانضمامها الى اللومبارديين[٧١] •

واذا كان هذا الحصار قد أضر بالاقاليم العربية الاسلامية المطلة على سواحل البحر المتوسط ، فان بيزنطة لابد أن تكون أشد تضررا به ، لانها بــه حكمت على نفسها بالاختناق ، وكذلك بقية السواحل الاوربية ، ومع هذافان أرشيبالد لويس قرر أن بيزنطة وايطاليا لم يصبهما الارباك الناجم عن هــذا الحصار[٧٢] ، وهو ما يثير الدهشة بحق ، فاذا كانت بيزنطة قد تلقت ضربة قاصمة بفقدانها لاغنى ممتلكاتها في الشام ومصر ، فكيف لا يلحقها الضرر بعد خسارتها حتى الوساطة التجارية لهذه الاقاليم مع الشرق ، مع عدم وجود البدائل • بل أنه بامكاننا أن نقرر ان بيزنطة كانت هي الاكثر تضررا جراء هذا

---

٦٩ ــ المرجع السابق ، ١٣٧ •
٧٠ ــ المرجع السابق ، ١٤٠ •
٧١ ــ القوى البحرية والتجارية ، ١٤٢ •
٧٢ ــ المرجع السابق ، ١٩٢ •

الحصار • فأرشيبالد لويس أشار بنفسه الى أن الوساطة التجارية في البحر المتوسط قد تغيرت لصالح شمال أفريقية وايطاليا[٧٣] • وبما ان تجار شمال أفريقية استمدوا بضائعهم التي تاجروا بها مع ايطاليا من تجارات مصر والشام مع الشرق • ثم تصل هذه البضائع الى بيزنطة عن طريق شمال أفريقية فايطاليا ثم الى بيزنطة والغرب ، فان هذا يعني تعدد الوسطاء التجاريين • مما يحتم بدوره ارتفاع الاسعار التي دفعتها بيزنطة على هذه البضائع •

أما في العصر العباسي الاول ، فربما اختلفت الصورة بعض الشيء ، غير أنه لم يكن كبيرا • ويبدو أن بيزنطة كانت على استعداد كبير ، في أواخر العصر العباسي الاول،للتخلي عن الحصار الاقتصادي الذي مارسته من قبل• ولعل رسالة ثيوفيل الى المأمون ــ انظر الملحق رقم ٢ ــ والتي دعا فيها الى توسيع العلاقات التجارية بين الدولتين خير دليل على ذلك • وفي هذه الفترة تحولت عقدة طرق النقل التجاري من الشام الى العراق ، تبعا لانتقال المركز السياسي لادارة الدولة من دمشق الى بغداد •

حوت مصادرنا العربية الاسلامية عددا من الاشارات الى قيام علاقات تجارية مباشرة أو غير مباشرة بين الدولتين • منها ما أورده الطبري، من انه في اعقاب الاتفاق الذي عقد بين الرشيد وايريني في عام ١٦٥هـ/٧٨١ــ٧٨٢م ، قدم الى بغداد وفد بيزنطي حاملا الجزية والهدايا الى الخليفة المهدي ، وكان من بين ما حمله هذا الوفد (٦٤) ألف دينار بيزنطي و (٢٥٠٠) دينارعربي[٧٤]• ومن الراجح ان هذه العملة العربية وصلت بيزنطة عن طريق التبادل التجاري بينهما • ومن هذه الاشارات أيضا ، ما ذكره ميشيل السوري انه في أعقاب الاتفاق الذي جرى بين الرشيد ونقفور بعد فتح هرقلة ، عادت الاتصالات الطبيعية بين البلدين بما فيها التبادل التجاري[٧٥] • وثمة اشارة من الجاحظ

---

٧٣ ــ المرجع السابق ، ١٩٨ •

٧٤ ــ تاريخ ، ١٤٥/٨ •

75—Canard, La prise d'Héraclée, P. 377.

بخصوص أهم السلع والبضائع التي كانت تستورد من الامبراطورية البيزنطية(٧٦) .

وتم هذا التبادل التجاري عبر عدد من السبل منها ما هو مباشر وما هو غير مباشر . ومن هذه السبل ما كان يجري عبر مناطق التخوم بين الدولتين . اذ وضعت كتب الفقه صيغ التعامل مع هؤلاء التجار « الحربيين » القادمين من بيزنطة ، ومنحهم الامان لهذا الغرض . وفُرِضَ على التجار البيزنطيين العشر ، اذ كان عليه ان يمرّ على العاشر حتى يعشره ، وكان ذلك ردا على ما اتخذه البيزنطيون تجاه التجار المسلمين(٧٧) . وقدم أبو يوسف تفاصيل التعامل مع هؤلاء التجار ، فالعشر لا يفرض على التاجر البيزنطي ، الا اذا بلغت تجارته (٢٠٠) درهم أو (٢٠) مثقالا من الذهب . أما اذا كانت أقل من ذلك فلا يُفرَضُ عليه شيء . وأضاف ان هذا التاجر اذا قدم عدة مرات بتجارته في السنة الواحدة وكانت في كل مرة أقل مما هو مقرر عليه العشر ، فلا يفرض عليه شيء حتى اذا بلغ مجموع هذه التجارات ألف درهم . وأضاف ان العشر الذي يؤخذ على تجارة لا يسقط عنها اذا نقلها أكثر من مرة في السنة بين البلدين(٧٨) .

وذكر عبدالحي شعبان ان حماس الاستيطان في مناطق الثغور لم يكن سببه رغبتهم الشديدة في الجهاد والذود عن حياض المسلمين ، بقدر ما كان سببه رغبتهم الكبيرة في الاستفادة من الصعوبات الاقتصادية في المنطقة،حيث يسهل فيها التخلص من الضرائب . وبالتالي ممارسة تجارة أكثر ربحا مع البيزنطيين . وأضاف ان المقاتلين الذين منحوا أراضي زراعية، مارسوا الزراعة في أوقات فراغهم ، وكان انتاجهم وافرا . وان الاسعار كانت رخيصة . وفي

---

٧٦ ــ التبصر بالتجارة ، ٢٧ ، ٢٨ــ٢٩ ، ٣٣ــ٣٤ .
٧٧ ــ ابن سلام ، الاموال ، ٦٣٨ ، قدامة ، ٢٤٢ .
٧٨ ــ الخراج ، ١٣٢ــ١٣٣ .

ضوء هذه الاوضاع بحث هؤلاء عن السوق الخارجيــة لتصــدير انتاجهم الفائض،فكانت المناطق البيزنطية المجاورة والقريبة أفضل سوق لهذا الانتاج• واستطرد في الحديث ، ذاكرا ان قوات البلدين في أثناء عودتهما من الغزوات، حتى الناجحة منها ، كانت تشتري مؤونتها من أراضي العدو ، مما اوجدسوقا رابحة ورائجة « ومن الواضح ان هذا الوضع الخطير ، يحول جهــاز الدفاع الامبراطوري (العباسي) في وجه عدوه الاول الى مهزلة ، هنا قرر الرشيد أن يتخلص من جميع هذه المواقع المتقدمة على الحدود الشمالية »[٧٩] •

على أنه من الضروري التوقف عند هذه التخريجات والتوثق من صحتها أو عدمها • فاذا كان هؤلاء الساكنون في مناطق الثغور أشد رغبةفي الاستفادة الاقتصادية من الاوضاع الخاصة لمناطق الثغور ، فلماذا هــذه الغزوات التي كانت في أحيان كثيرة فصلية وليست سنوية فقط ؟ ألم تشكل هذه الغــارات التهديد الاكبر لمصالحهم الاقتصادية والتجارية بالذات ، بما تتعرض له طرق النقل من مخاطر الحرب في كلا الطرفين ؟ ثم انه لا يمكن تصوير الهم "الوحيد لهؤلاء المقاتلين هو تحقيق زيادة في الانتاج لغرض التصدير ، هذا فضلا عن حقائق أخرى لابد من أخذها بنظر الاعتبار عند الحديث في هذا الموضوع ، منها أن هؤلاء الساكنين لم يأتوا الى مناطق الثغور بمحض ارادتهم ، بــل ان الدولة هي التي نقلتهم اليها على شكل قوات عسكرية • ثم لماذا هذه الافاضة في الحديث عن الاوضاع الخاصة المتساهلة في مناطق الثغور ، وقد مر" بنا ان بعض هذه المناطق كانت خراجية حتى أيام المتوكل حيث جعلها عشرية •

أما بخصوص مؤن الجيشين في حملات كلا الطرفين، وانها كانت تشترى من أراضي عدو كل منهما ، فانه ليس سهلا أن نجعل من الحالة الخاصةظاهرة عامة • ويبدو أن شعبان اتخذ من الحالة التي جــرت في اتفاق عام ١٦٥هـ/ ٧٨١ـ٧٨٢م ، الذي تضمن اقامة البيزنطيين الاسواق في طــريق عودة حملة

---

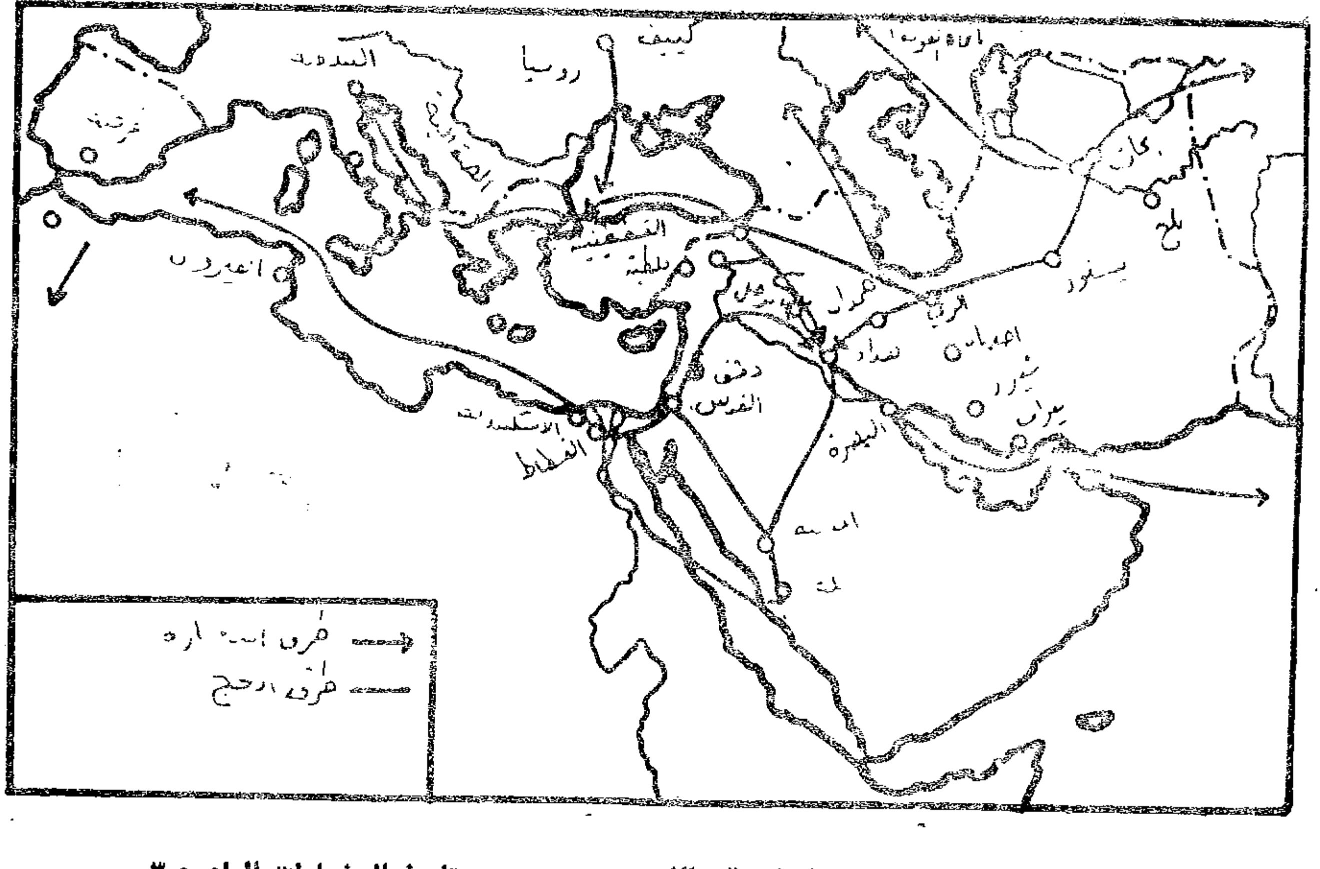
٧٩ ـ الدولة العباسية ، ٤٥ـ٤٦ •

الرشيد ، دليلا على حالة مارسها الطرفان ، ليعقب ذلك بنتيجـة هي تحول دفاعات الثغور الاسلامية الى « مهزلة » ويبدو انها كانت كبيرة لأن الرشيد ، عنده ، تخلى عن الثغور بوصفها خطا دفاعيا أولا متراجعا الى الوراء ، جاعلا من العواصم الخط الدفاعي الاول • على أنه من الواضح تماما ان نتـائج شعبان هذه لا أساس لها من الصحة يسندها • اذ أن جزءا رئيسا من تكتيك الجيش البيزنطي قام على أساس سحب كل أشكال المؤن من طريق تقـدم أو انسحاب القوات العباسية ــ الامر الذي سبق ذكره ــ في سبيل انهاك هـذه القوات، حتى يسهل الانقضاض عليها•فكيف يسمح البيزنطيون لرعاياهم ببيع « عدوهم » ما يحتاجه من المؤن ؟ الا اذا كان ذلك باتفاق رسمي خاص بينهما• ان انسحاب القوات العباسية المهاجمة وبسرعة ، بعد أن تنهي مهامها، كان أمرا ضروريا للتخلص من تعقب العدو لهم أو كمائنـه المنتظرة • ثم أن القوات المهاجمة ــ وهي في حالة حرب ــ لابد أنها تجد ما يكفيها من الغنائم تسـد حاجتها من المؤن • وهو أمر ينطبق على الجانبين معا •

على أنه ليس غرضنا أن نخرج بنتيجة تلغي امكانية وجودعلاقاتتجارية عبر مناطق التخوم ، بل أن وجود هذه العلاقات أمر لا شـك فيه • لكن الراجح ان أكثر ممارسيها هم من السكان المحليين القدامى في المنطقة، اذ أنهم يجيدون اللغة الاغريقية،ولهم علاقاتهم الاجتماعية مع مجاوريهممن البيزنطيين، وهي أمور تسهل قيام التبادل التجاري عن هذا الطريق•

ومن طرق التجارة الاخرى بينهما ، الطريق القادمة من الشرق عبر ايران وارمينية ثم طربزون • أو من الشرق عبر المحيط الهندي والخليج العربي • ثم الى بغداد ومنها التقدم شمالا الى طربزون أيضا[٨٠] • وكان الرشيد قد أزمع على انشاء قناة تربط بين البحرين الاحمر والمتوسط ، لكنه اشـير عليه بعدم

٨٠ ــ رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ١٩٩ ، بروي ، ٣/ ١٩٠ •



شكل رقم ١٢ طرق التجارة بين الدولة العباسية والغرب عن بروي ، تاريخ الحضارات العام جـ٣

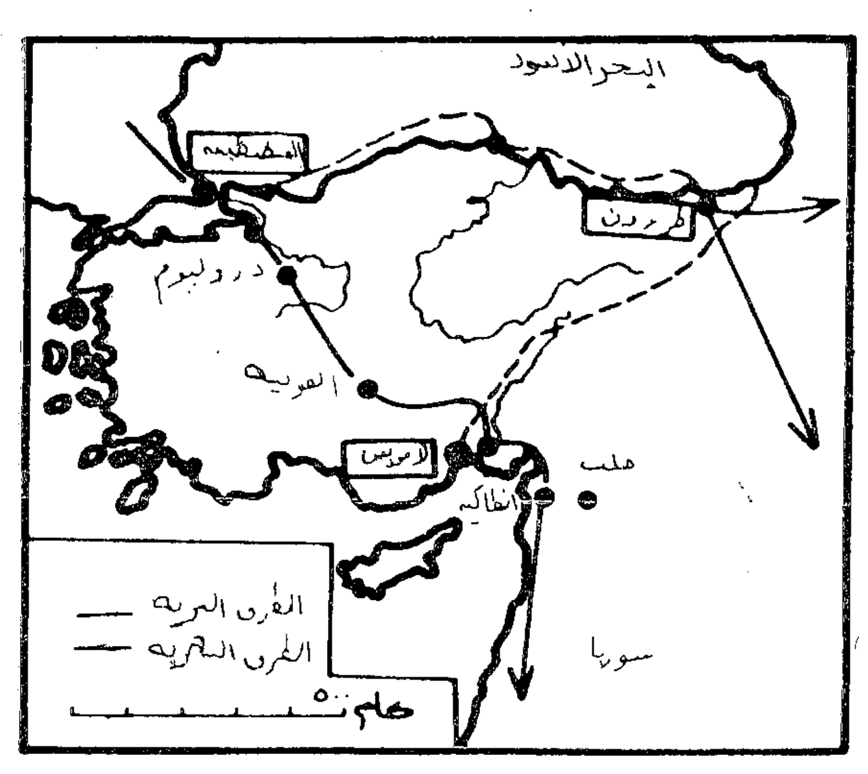
تنفيذ هذا المشروع خوفا على الاماكن المقدسة من الاساطيل البيزنطية[٨١] . وليس كما ظن رانسيمان ان الرشيد خشي من سيطرة البيزنطيين على تجارة البحر الاحمر[٨٢] . فليس سهلا أن تبحر السفن التجارية البيزنطية في البحر الاحمر وعبر هذه القناة بدون موافقة الدولة العباسية .

ومن السبل الاخرى التي طرقها التجار المسلمون ، التقدم مع نهر الفولغا نحو نهر الدون ثم الى كييف ، ومنها يتفرع الطريق التجاري ، اما الى سواحل بحر البلطيق أو الى البحر الاسود وبيزنطة . أو السير نحو براغ ونهر الدانوب الى ايطاليا[٨٣] . ولعب التجار الروس ، أحيانا ، دور الوسطاء التجاريين بين الدولتين العباسية والبيزنطية . واتبع هؤلاء أكثر من طريق ، منها الطريق البحرية عبر بحر قزوين ، أو الطريق البرية من جرجان الى بغداد[٨٤] . وأخذت التجارة بين البلدين، أحيانا ، طريقا ملتوية عبر شمال أفريقية والمدن الايطالية، ثم الى بقية الاراضي البيزنطية . وهو ما سبقت الاشارة اليه . ان الاتفاقات المعقودة بين الاغالبة وحكام صقلية ، تضمنت بنودا خاصة بالتجارة، مما يرجح وجود تجار كلا الطرفين في كلا البلدين[٨٥] .

أما أهم السلع التي انتقلت وجرى تبادلها بين الدولتين فهي : ما كان ينتقل من الدولة العباسية الى الاراضي البيزنطية مثل الحرير والديباج والاحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج والتوابل والعطور والطيب والأبانوس[٨٦] . أما السلع التي انتقلت بالعكس فهي أنواع معينة من الاقمشة الرقيقة التي احتفظ البيزنطيون بأسرار صناعتها والتي تعطي ألوانا عديدة بانعكاس الضوء عليها

---

٨١ ــ المسعودي ، مروج ، ٢/٢٥٥ .
٨٢ ــ الحضارة البيزنطية ، ١٩٩ .
٨٣ ــ اومبار ، ٣٤٤ .
84—Bury, E.R.E, P. 414.
٨٥ ــ ارشيبالد لويس ، ١٧٦ .
٨٦ ــ لومبار ، ٣٤٤ .



شكل رقم ١٤

والتي تدعى هيبوكلامون « أبو قلمون » وكذلك أقمشة الكتان ، ثم المواشي التي استوردت من أرمينية البيزنطية الى شمال سورية[٨٧] • وأشار الجاحظ الى المفروشات المستوردة من الاراضي البيزنطية ، وعدّها أفضل أنواع المفروشات[٨٨] •

واذا كانت بيزنطة قد استفادت من وساطة المسلمين التجارية ، الا أنها بمرور الوقت فقدت تحكمها بالاسواق التجارية ، حتى لم تتمكن من فتح أسواق جديدة أمام اجتياح التجار المسلمين أسواق العالم وفي اوربا أيضا[٨٩] •

---

٨٧ ــ المرجع السابق ، ٣٤٠ •
٨٨ ــ التبصر بالتجارة ، ٢٧ ، ٢٨ــ٢٩ •
٨٩ ــ بروي ، ٣/١٩٢ •

كما أنه أصبح ثابتا ان حركة التجارة البيزنطية تميزت بالسلبية وقبعت في حيز جغرافي ضيق ، ولم تستطع مسايرة النظم المالية والاساليب المتقدمة في العمل التجاري في العالم الاسلامي[٩٠] •

اما الميزان التجاري بين الطرفين ، فقد كان لصالح الدولة العباسية • وكان الذهب القادم من بيزنطة الى الاراضي العباسية على شكل عملة وليس خاما • ولم يكن بمقدور بيزنطة التخلي عن وساطة التجار المسلمين ، اذ أنهم يحيطون بها من الجنوب والشرق[٩١] • الامر الذي أسهم وعلى الدوام في استنزاف ذهب بيزنطة ، فأصبح ميزانها يعاني من عجز دائم[٩٢] •

---

٩٠ ــ المرجع السابق ، ٣/١٩٦ •
٩١ ــ لومبار ، ٣٣٨ •
٩٢ ــ المرجع السابق ، ٣٤١ •

الخاتمــة

شهد تاريخ العلاقات الدولية ، قديما وحديثا ، حالات متباينة ، تراوحت بين صراع دائم وعلاقات سلمية هادئة•وقد تجسدت كلتا الحالتين في العلاقات العباسية البيزنطية • واذا كانت هذه العلاقات ، في بعض جوانبها ، امتـــدادا للعلاقات الاموية البيزنطية وما سبقها • فان هذه العلاقات اكتسبت من ناحية أخرى ، شكلا متميزا في هذه الفترة •

وقد شهدت العلاقات العربية البيزنطية في فترة صدر الاسلام ، توسعا كبيرا على حساب ممتلكات الامبراطورية البيزنطية، واذا كنا قد سقنا ما سوغ هذا التوسع ، فلا بد هنا من تأكيده • وأساسا فان هذا التوسع اســتوجبته الضرورات العسكرية، متمثلة بأمن وسلامة الدولة العربية الاسلامية فيمرحلة التأسيس • وتحقق ذلك بتحرير الشام ومصر وشمال أفريقية • لذا فان نشاط الامويين في هذا الجانب كان محدودا على الجبهة الشمالية ، ولم يشمل أكثر من الامتداد نحو المراكز والنقاط الستراتيجية على هذه الجبهة ، وللاغراض السابقة نفسها • وفي الوقت نفسه ، فان هــذه الفترة شهدت ثلاث محاولات لاسقاط القسطنطينية ، بعمليات عسكرية واسعة ، للتخلص نهائياً من جـارة سعت دوما لاستعادة الاوضاع القديمة ، حتى اضطر الامويون مرتين لاتقـاء الخطر بالمال •

أما العصر العباسي الاول ، فانه لم يشهد أي شكل من أشكال التوسع السابقة ، وان الرغبة في فتح القسطنطينية ، لم تكن أكثر من مجرد أفكار لم تخرج الى حيز التنفيذ العملي ، بل أن شكل العمليات العباسية كان دفاعيـا

انتقاميا. ولا بد أن نؤكد هنا ، ان الحالات المتعددة التي عرض فيها البيزنطيون الصلح على العباسيين لا تقوم دليلا على نيات سلمية تجاه الدولة العباسية. بل لا تعدو كونها مخارج ينفذون منها عند تأزم أوضاعهم ، سواء كان ذلك على التخوم العباسية أو البلغارية . ان البيزنطيين هم المسؤولون في معظم الاحيان، عن حالات التصعيد العسكري على التخوم . وفي ضوء هذه الحقيقة ، يجب أن نفهم تطلعات العباسيين ، التي مثلها المأمون والمعتصم ، للقضاء على الامبراطورية البيزنطية .

لقد جسد الموقف العباسي تجاه البيزنطيين ، انقاذا للموقف العربي الذي وصلت اليه الاوضاع في السنوات الاخيرة من عمر الدولة الاموية. اذ أشارت الشواهد الى أن الامويين عانوا في هذه الفترة من صعوبات كبيرة في الحفاظ على تخوم الدولة من الخطر البيزنطي ، وكان همهم الاساس التخلص من المشكلات الداخلية . فجاء قيام الدولة العباسية ، ليوقف حالة التداعي والانهيار التي شهدتها الاوضاع على هذه التخوم. وتمكن العباسيون الاوائل من تعزيز الجبهة بشكل متين وحفظوا التخوم من الخطر البيزنطي وأوقفوا توغله الى ما وراء خط الثغور . حتى تمكنوا من نقل الموقف العربي الى حالة الهجوم الوقائي ، بدلا من موقف الدفاع السلبي .

ان عدم نجاح مشاريع العباسيين في القضاء على الامبراطورية البيزنطية، عائد أساسا الى العاملين الآتيين :

١ ــ ان حركة التحرير العربية ، عصر صدر الاسلام والدولة الاموية ، اعتمدت بشكل رئيس على العرب ، فكانوا مادة هذه الحركة ، وهم الذين استقروا في المناطق الجديدة وأمسكوا بالارض ، بحيث مكنوا السلطة من ممارسة السيادة في هذه المناطق . أما في العصر العباسي الاول ، فان الدولة كانت في أقصى حالات الاتساع ، فاستنزف كل ما يمكن أن يكون هناك من مادة بشرية عربية ، الى الحد الذي وصلت فيه الامور درجة لم يستطع

العباسيون فيها من تجهيز حملات واسعة من العرب الذين يجب أن يستقروا في المناطق المفتوحة ويؤكدوا سيادة الدولة عليها ٠

٢ ــ ان الحاجز الجغرافي الطبيعي ، المتمثل بعاملي الارض والمناخ، أعاق وبشكل حقيقي مثل هذه المشاريع٠ فالعربي لم يستسغ الاستيطان والاستقرار في المناطق الجبلية ذات المناخ البارد ٠ وهو الذي توطن على المناخ الدافيءفي المناطق المستوية والمنبسطة ٠ كما ان هذا الحاجز الجبلي حال دون وصول امدادات كبيرة وسريعة الى القوات المتقدمة لتنفيذ العمليات العسكرية ٠

ولأن العباسيين لم يتمكنوا من تحقيق هذه المشاريع ، فقد سعوا الى تحطيم المؤسستين العسكرية والاقتصادية للبيزنطيين ، ليصبحوا عاجزين عن القيام بأية عمليات عسكرية في مناطق الثغور ٠ ونجح العباسيون في تحقيق هذه الغاية الى حد بعيد ، غير ان هذا النجاح لم يكن تاما ، لان البيزنطيين تمكنوا في أواخر العصر العباسي الاول من القيام بعمليات عسكرية واسعة في مناطقالثغور ، امتدت الى مناطق لم يسبق لهم الوصول اليها من قبل ٠ ولعل هذا كان انعكاسا واضحا لحالة التدهور والوهن التي دبت في أوصال الدولة العباسية في هذه الفترة ٠

ان استمرار العلاقات الحربية بين الدولتين عبّر عن أحد مساوىء دبلوماسية العصور الوسطى وفشلها في حل العديد من المشكلات، وفي الاقل ما يخص الدولتين العباسية والبيزنطية٠ اذ ان هذه الدبلوماسية كانت في أحد جوانبها استعراضا للقوة قام به كلا الطرفين ٠ الامر الذي أسهم بهذا القدر أو ذاك في تصعيد حدة التوتر بينهما ٠ في حين نجحت هذه الدبلوماسية في حل أهم المشكلات المعلقة بينهما ٠ تلك هي قضية أسرى الحرب ٠ اذ تم تنفيذ عدة عمليات لتبادلهم ، دون وساطة جهة ثالثة ٠ ولعل هذا الامر بحد ذاته عبر عن امكانية التفاهم المباشر بين الدولتين ٠ غير أن هذا لم يشمل انهاء حالة الحرب بينهما ٠

على أن هذا لايعني الفشل المطلق لهذه الدبلوماسية في اقامة الصلح بين الدولتين ، بل نجحت في عقد ثلاث اتفاقيات للصلح ، بيد أن هذه الاتفاقيات خرقت من قبل الجانب البيزنطي قبل نفاد مدتها ، في الوقت الذي كان هـذا الجانب هو الذي يبادر الى الدعوة اليها • ولعل هذا كان من اهم العوامل التي أحجم العباسيون بسببها عن الاستجابة لمثل هذه العروض •

ومن ناحية أخرى ، عبرت هذه الاتفاقيات عن تفوق الدولة العباسية سياسيا وعسكريا ، ولا ريب فان هذه الاتفاقيات عقدت في قمة ازدهار الدولة العباسية • ولعل اهم مظاهر هذا التفوق أن بيزنطة دفعت الجزية للدولة العباسية أكثر من مرة • وان كان هذا الامر لا يعبر عن سيادة عباسية على بيزنطة وسياستها الداخلية والخارجية ، بل عبر عن التفوق لا غير • فالسيادة على سياسات الدول وتوجيهها من الخارج ،حالة شهدتها العصور الحديثة فقط ، وبما اصطلح عليه بـ « الاستعمار الحديث » وهو حالة لم تشهدها العصور القديمة والوسطى •

وفضلا عن العلاقات الحربية والسياسية ، شهدت العلاقات بين الدولتين اتصالات ثقافية واقتصادية عديدة ، وان كانت في نطاق أضيق ، فطغيان العلاقات الحربية ، لابد أن يكون على حساب الاتصالات الثقافية والاقتصادية •

الملاحـــق

ملحـق (١)

خلفاء العصر العباسي الاول ومعاصروهم من الاباطرة البيزنطيين[١]

الخليفة	الامبراطور البيزنطي	
أبو العباس ١٣٢–١٣٦/٧٥٠–٧٥٤	قسطنطين الخامس	٧٤٠–٧٧٥
المنصور ١٣٦–١٥٨/٧٥٤–٧٧٥		
المهدي ١٥٨–١٦٩/٧٧٥–٧٨٥	ليو الرابع (الخزري)	٧٧٥–٧٨٠
الهادي ١٦٩–١٧٠/٧٨٥–٧٨٦	قسطنطين السادس (ومعه أمه ايريني وصيـة على العرش)	٧٨٠–٧٩٧
الرشيد ١٧٠–١٩٣/٧٨٦–٨٠٩		
	ايريني	٧٩٧–٨٠٢
	نقفور	٨٠٢–٨١١
الامين ١٩٣–١٩٨/٨٠٩–٨١٣	استوراكيوس	٨١١
	ميشيل الاول	٨١١–٨١٣
المأمون ١٩٨–٢١٨/٨١٣–٨٣٣	ليو الخامس (الارمني)	٨١٣–٨٢٠
	ميشيل الثاني (العموري)	٨٢٠–٨٢٩
المعتصم ٢١٨–٢٢٧/٨٣٣–٨٤٢	ثيوفيل	٨٢٩–٨٤٢
الواثق ٢٢٧–٢٣٢/٨٤٢–٨٤٧	ميشيل الثالث (ومعه امه تيودورة وصية على العرش)	٨٤٢–٨٥٦
المتوكل ٢٣٢–٢٤٧/٨٤٧–٨٦١	ميشيل الثالث منفردا	٨٥٦–٨٦٧

١ ـ ما يتعلق بالاباطرة البيزنطيين فانه مأخوذ من ملحـــق كتاب رانسيمان ، الحضارة البيزنطية .

ملحق (آ)

رسالة من الامبراطور ثيوفيل ورد المأمون عليها(٢)

« أما بعد ، فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حريا أن تدع الحظ يصل الى غيرك حظا تعوزه الى نفسك ، وفي علمك كاف عن إخبارك، وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة، راغبا في فضيلة المهادنة ، لنضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق والبيضة فان أبيت فلا أدب لك في الخمر ، ولا أزخرف لك في القول، فاني لخائض اليك غمارها ، آخذ عليك أسدادها ، شأن خيلها ورجالها ، وان أفعل فبعد أن قدمت المعذرة ، وأقمت بيني وبينك الحجة . والسلام » .

وأجاب المأمون على هذه الرسالة بالرسالة الآتية :

« أما بعد ، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت اليه من الموادعة ، وخلطت فيه من اللين والشدة ، مما استعطفت به ، من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الاسرى ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة والاخذ بالحظ في تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه ، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجلا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من أليم شوكتكم ، ثم أوصل اليهم من الامداد، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد ، هم أظمأ الى موارد المنايا منكم

٢ ــ الطبري ، تاريخ ، ٨/٦٢٩ــ٦٣٠ .

الى السلامة مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم احدى الحسنيين : عاجل غلبة ، أو كريم منقلب ، غير اني رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة ، من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فانأبيت ففدية توجب ذمة ، وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الابلاغ في القول والاغراق في الصفة . والسلام على من اتبع الهدى » .

المصـــادر والمراجع

أولا ــ المصادر والمراجع العربية

المصــادر :

أ ــ المخطوطات :

ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي. (ت٥٩٧هـ)

١ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، القسم التاسع .

مخطوط المجمع العلمي العراقي تحت رقم ٧٨٠ .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر . (ت٢٧٩هـ)

٢ ــ انساب الاشراف ، الجزء الثالث .

مخطوط مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت رقم ١٦٣٦ .

البلخي : أبو زيد احمد بن سهل . (ت٣٢٢هـ)

٣ ــ صور الاقاليم .

مخطوط مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت رقم ٣٢٩ .

البنداري : الفتح ابي علي بن محمد بن الفتح . (ت٦٣٩هـ)

٤ ــ تاريخ بغداد ، الجزء الاول .

مخطوط مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت رقم ١٢٣٧ .

سبط ابن الجوزي . (ت٦٥٤هـ)

٥ ــ مرآة الزمان ، القسم الاول . . . .

مخطوط المجمع العلمي العراقي تحت رقم ١٣٤٦ .

ب ــ المصادر المنشورة :

٦ ــ القرآن الكريم .

ابو داؤد : سليمان بن الاشعث السجستاني . (ت٢٧٥هـ)

٧ ــ السنن (القاهرة : ١٩٥٢)

البخاري : ابو عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي . (ت٢٥١هـ)

٨ ــ الصحيح (القاهرة : د/ت) مطبوعات محمد علي صبيح واولاده .

مسلم : ابو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري. (ت٢٦١هـ)

٩ ــ الصحيح (القاهرة : ١٩٥٥) دار احياء الكتب العربية .

ابن ابي اصيبعة : موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم . (ت٦٦٨هـ)

١٠ ــ عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق : نزار رضا (بــيروت : ١٩٦٥) مكتبة الحياة .

ابن الاثير : عزالدين ابي الحسن بن ابي الكرم . (ت ٦٣٠ هـ)

١١ ــ الكامل في التاريخ (بيروت : ١٩٦٥) دار صادر ودار بيروت .

ابن اعثم الكوفي . (ت ٣١٤ هـ)

١٢ ــ كتاب الفتوح . ط ١ (حيدر آباد : ١٩٧٥) دائرة المعارف العثمانية .

ابن البطريق : سعيد انتيشيوس . (ت ٣٢٨ هـ)

١٣ ــ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت : ١٩٠٥) مطبعة الآبــاء اليسوعيين .

ابن بكار : الزبير . (ت ٢٥٦ هـ)

١٤ ــ الاخبار الموفقيات ، تحقيق : سامي مكي العاني (بغداد : ١٩٧٣) مطبعــة العاني .

ابن جلجل : ابو داؤد سليمان بن حسان الاندلسي . (ت ٣٧٧ هـ)

١٥ ــ طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق : فؤاد سيد (القاهرة : ١٩٥٥) مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية .

ابن حوقل : ابو القاسم النصيبي . (ت ٣٦٧ هـ)

١٦ ــ صورة الارض (بيروت : ١٩٧٩) مكتبة الحياة .

ابن خرداذبة : ابو القاسم عبيد الله ين عبدالله . (ت في حدود ٣٠٠ هـ)

١٧ ــ المسالك والممالك ، تحقيق : دي خويه ، مصور باوفســيت مكتبة المثنى عن طبعة بريل : ١٨٨٩ .

ابن خلدون : عبدالرحمن . (ت ٨٠٨ هـ)

١٨ ــ تاريخ ابن خلدون (بيروت : ١٩٧١) مؤسسة الاعلمي .

١٩ ــ المقدمة ، تحقيق علي عبدالواحد وافي (القاهرة : ١٩٦٥) لجنة البيــان العربي .

ابن خياط : خليفة . (ت ٢٤٠ هـ)

٢٠ ــ تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق : سهيل زكار (دمشق : ١٩٦٨) منشورات وزارة الثقافة .

ابن دحية : ابو الخطاب عمر بن ابي علي . (ت ٦٣٣ هـ)

٢١ ـ النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق : عباس العزاوي .
(بغداد : ١٩٤٦) مطبعة المعارف .
ابن رسته : ابو علي احمد بن عمر . (ت٣٣٢هـ)

٢٢ ـ الاعلاق النفيسة ، تحقيق : دي خويه ، مصور باوفسيت .
مكتبة المثنى عن طبعة بريل : ١٨٩٢ .
ابن الساعي : علي بن أنجب . (ت٦٧٤هـ)

٢٣ ـ مختصر اخبار الخلفاء (القاهرة : ١٣٠٩هـ) المطبعة الاميرية ببولاق .
ابن سلام : ابو عبيد القاسم . (ت٢٢٤هـ)

٢٤ ـ كتاب الاموال ، تحقيق : محمد خليل هراس (القاهرة : ١٩٥٦) مكتبة الكليات الازهرية ودار الفكر .
ابن الشحنة : ابو الفضل . (ت٨٨٤هـ)

٢٥ ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق : يوسف الدمشقي
(بيروت : ١٩٠٩) المطبعة الكاثوليكية .
ابن الطقطقى : محمد بن علي بن طباطبا . (ت٧٠٩هـ)

٢٦ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت:١٩٦٦)دار صادر.
ابن طيفور : ابو الفضل احمد بن أبي طاهر . (ت٢٨٠هـ)

٢٧ ـ كتاب بغداد ، تحقيق : هنس كلر (باسل ـ سويسرا : ١٩٠٨)
ابن عبدالحق : صفي الدين عبدالمؤمن . (ت٧٣٩هـ)

٢٨ ـ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي
(القاهرة : ١٩٥٥) دار احياء الكتب العربية .

ابن عبد ربه . (ت٣٢٨هـ)

٢٩ ـ العقد الفريد ، اختيار يوسف محمود زايد (بيروت : ١٩٦٧) .
ابن العبري : ابو فرج الملطي . (ت٦٨٥هـ)

٣٠ ـ تاريخ الدول السرياني ، تحقيق : اسحاق ارملة السرياني، مجلة المشرق، بيروت : كانون الثاني ـ آذار ١٩٥١ ، الجزء الاول ، بادارة آباء جامعة القديس يوسف .

٣١ ـ تاريخ مختصر الدول ، تحقيق : انطوان صالحي اليسوعي (بيروت : ١٩٥٨) المطبعة الكاثوليكية .
ابن العديم : كمال الدين ابي القاسم محمد بن احمد. (ت٦٦٠هـ)

٣٢ ــ زبدة الحلب في تاريخ حلب (دمشق : ١٩٥١) المطبعة الكاثوليكية ببيروت .
ابن العمراني : محمد بن علي بن محمد . (ت ٥٨٠ هـ)

٣٣ ــ الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق : قاسم السامرائي (لايدن : ١٩٧٣) .
ابن الفراء : ابو علي الحسن بن محمد . (ت في اواخر القرن الرابع هـ)

٣٤ ــ رسل الملوك ومن يصلح منهم للرسالة والسفارة ، تحقيق : صلاح الدين المنجد (القاهرة : ١٩٤٧) لجنة التأليف والترجمة والنشر .
ابن الفقيه : ابو بكر احمد بن محمد الهمداني . (ت ٢٩٠ هـ)

٣٥ ــ مختصر كتاب البلدان ، تحقيق : دي خويه ، مصور بأوفسيت . مكتبة المثنى بغداد عن طبعة ليدن : ١٨٨٥ .

٣٦ ــ بغداد مدينة السلام ، تحقيق : صالح احمد العلي (باريس : ١٩٧٧) دار الطليعة .
ابن قتيبة : أبو عبدالله محمد بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ)

٣٧ ــ المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، ط٢ (القاهرة : ١٩٦٩) دار المعارف .

٣٨ ــ عيون الاخبار . (القاهرة : ١٩٧٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب .
ابن كثير : ابو الفدا اسماعيل ابن عمر . (ت ٧٧٤ هـ)

٣٩ ــ البداية والنهاية (بيروت : ١٩٧٧) مكتبة المعارف .
ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . (ت ٧١١ هـ)

٤٠ ــ لسان العرب (بيروت : ١٩٥٦) دار صادر ودار بيروت .
ابن النديم : ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب . (ت ٣٨٠ هـ)

٤١ ــ الفهرست ، تحقيق : رضا ــ تجدد (طهران : ١٩٧١) .
الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد بن الياس . (ت ٣٣٤ هـ)

٤٢ ــ تاريخ الموصل ، تحقيق : علي حبيبة (القاهرة : ١٩٦٧) دار التحرير للطباعة والنشر .
الاصبهاني : ابو فرج . (ت ٣٥٦ هـ)

٤٣ ــ الاغاني ، مصور عن طبقة بولاق الاصلية (بيروت : ١٩٧٠) دار الفكر .
الاصطخري : ابو اسحاق ابراهيم بن محمد . (ت ٣٤١ هـ)

٤٤ ــ المسالك والممالك ، تحقيق : دي خويه ، مصور بأوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة ليدن : ١٩٢٧ .
أبو تمام : حبيب ابن اوس . (ت ٢٣١ هـ)

٤٥ ـ ديوان ابي تمام بشرح التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام .
(القاهرة : ١٩٦٦) دار المعارف .

ابو الفدا : عمادالدين خليل . (ت٧٣٢هـ)

٤٦ ـ المختصر في اخبار البشر (القاهرة : د/ت) المطبعة الحسينية .

ابو يوسف : يعقوب بن ابراهيم . (ت١٨٢هـ)

٤٧ ـ الخراج ، ط٣ (القاهرة : ١٣٨٢هـ) المطبعة السلفية .

البحتري . (ت٢٨٤هـ)

٤٨ ـ ديوان البحتري ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، ط٢ (القاهرة : ١٩٧٢) دار المعارف .

البغدادي : ابو بكر احمد بن علي الخطيب . (ت٤٦٣هـ)

٤٩ ـ تاريخ بغداد (بيروت : د/ت) دار الكتاب العربي .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر . (ت٢٧٩هـ)

٥٠ ـ فتوح البلدان ، تحقيق : صلاح‌الدين المنجد (القاهرة : ١٩٥٦) مكتبة النهضة المصرية .

٥١ ـ انساب الاشراف ، تحقيق عبدالعزيز الدوري ، الجزء الثالث (بيروت : ١٩٧٨) .

التنوخي : ابو علي الحسن بن علي . (ت٣٨٤هـ)

٥٢ ـ الفرج بعد الشدة ، تحقيق : عبود الشالجي (بيروت:١٩٧٨)دار صادر .

٥٣ ـ نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي (د/م :١٩٧١) .

الجاحظ : ابو عمرو عثمان بن بحر . (ت٢٥٥هـ)

٥٤ ـ البيان والتبيين ، تحقيق : عبدالسلام هارون (بيروت : ١٩٦٨) دار الفكر للجميع .

٥٥ ـ الحيوان ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، ط٢ (القاهرة : ١٩٦٥) شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده .

٥٦ ـ كتاب البلدان ، تحقيق : صالح احمد العلي ، مستل من مجلة كلية الآداب (بغداد : ١٩٧٠) مطبعة الحكومة .

٥٧ ـ التبصر بالتجارة ، تحقيق : حسن حسني عبدالوهاب (بيروت : ١٩٦٦) دار الكتاب الجديد .

٥٨ ـ مجموعة رسائل (القاهرة : د/ت) مطبعة التقدم .

٥٩ ــ ثلاث رسائل، تحقيق: يوشع فنكل وطه الحاجري، ط٢ (القاهرة :د/ت)
المطبعة السلفية .
٦٠ ــ رسائل الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون (القاهرة : ١٩٦٤ــ١٩٦٥)
مكتبة الخانجي .
٦١ ــ جمهرة رسائل العرب .
نشرها وحققها احمد زكي صفوت (القاهرة : ١٩٣٧) مكتبة مصطفى بابي
الحلبي واولاده .
الجهشياري : ابو عبيدالله محمد بن عبدوس . (ت٣٣١هـ)
٦٢ ــ الوزراء والكتاب ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط١
(القاهرة : ١٩٣٨) مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده .
الحصري : ابو اسحاق . (ت٤٥٣هـ)
٦٣ ــ زهر الآداب وثمر الالباب ، تحقيق : زكي مبارك ، ط٢ (القاهرة : ١٩٢٩)
المكتبة التجارية .
الحموي : ابو الفضايل محمد بن علي . (ت٦٤٤هـ)
٦٤ ــ التاريخ المنصوري ، تحقيق : بطرس غريازينويج (موسكو : ١٩٦٣) .
الحموي : شهاب‌الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله . (ت٦٢٦هـ)
٦٥ ــ معجم البلدان (بيروت : ١٩٥٦) دار صادر ودار بيروت .
الدينوري : ابو حنيفة احمد بن داؤد . (ت٢٨٢هـ)
٦٦ ــ الاخبار الطوال ، تحقيق : عبدالمنعم عامر ، ط١ (القاهرة : ١٩٦٠)
وزارة الثقافة والارشاد القومي .
الذهبي : الحافظ شمس الدين . (ت٧٤٨هـ)
٦٧ ــ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام (مكتبة القدسي : د/ت) .
الزبيدي : محمد مرتضى . (ت١٢٠٥هـ)
٦٨ ــ تاج العروس (بيروت : ١٩٦٦)
السيوطي : جلال‌الدين عبدالرحمن بن ابي بكر . (ت٩١١هـ)
٦٩ ــ تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد ، ط٣ (القاهرة :
١٩٦٤) مطبعة المدني .
الشافعي : محمد بن ادريس . (ت٢٠٤هـ)
٧٠ ــ كتاب الام ، باشراف محمد زهري النجار (القاهرة : ١٩٦١) مكتبة
الكليات الازهرية .
الشهرستاني : ابو الفتح عبدالكريم .

٧١ ـ كتاب الملل والنحل ، على هامش كتاب الفصل في الاهواء والنحل الامام ابو محمد علي بن حزم الاندلسي (القاهرة : د/ت) .

الشيباني : محمد بن الحسين . (ت١٨٩هـ)

٧٢ ـ شرح كتاب السير الكبير باملاء السرخسي ، تحقيق : صلاح الدين المنجد (القاهرة : ١٩٥٧ـ١٩٥٨) .

الصابي : ابو الحسين هلال بن المحسن . (ت٤٤٨هـ)

٧٣ ـ رسم دار الخلافة ، تحقيق : ميخائيل عواد (بغداد : ١٩٦٤) مطبعة العاني .

الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى . (ت٣٣٥هـ)

٧٤ ـ اخبار البحتري ، تحقيق : صالح الاشتر (دمشق : ١٩٥٨) المطبعة الهاشمية .

الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير . (ت٣١٠هـ)

٧٥ ـ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة : ١٩٦١ ـ ١٩٦٩) دار المعارف .

٧٦ ـ كتاب الجهاد وكتاب الجزية واحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء ، تحقيق : شاخت (ليدن : ١٩٧٣) .

٧٧ ـ جامع البيان في تأويل القرآن ، ط٢ (القاهرة : ١٩٥٤) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده .

الفسوي : ابو يوسف يعقوب بن سفيان . (ت٢٧٧هـ)

٧٨ ـ المعرفة والتاريخ ، تحقيق : اكرم ضياء العمري (بغداد : ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦) مطبعة الارشاد .

قدامة بن جعفر . (ت٣٢٩هـ)

٧٩ ـ الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق : محمد حسين الزبيدي (بغداد : ١٩٨١) دار الرشيد للنشر .

القفطي : جمال الدين ابو الحسين علي بن يوسف . (ت٦٤٦هـ)

٨٠ ـ اخبار العلماء بأخبار الحكماء (بيروت : د/ت) دار الآثار .

الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف . (ت٣٥٠هـ)

٨١ ـ الولاة والقضاة ، تحقيق : رفن كست ، مصور بأوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة بيروت : ١٩٠٨ .

المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي . (ت٣٤٦هـ)

٨٢ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط٦ (بيروت : ١٩٨٤) دار الاندلس .

٨٣ ـ التنبيه والاشراف ، تحقيق : عبدالله اسماعيل الصاوي (القاهرة: ١٩٣٨) دار الصاوي .
مسكويه : ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب . (ت ٤٢١هـ)

٨٤ ـ تجارب الامم ، تحقيق : دي خويه ، مصور بأوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة ليدن : ١٨٧١ .
المقدسي : ابو عبدالله محمد بن احمد . (ت ٣٨٧هـ)

٨٥ ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، تحقيق : دي خوية ، مصور بأوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة ليدن : ١٩٠٦ .
المقدسي : مطهر بن طاهر . (ت ٣٢٢هـ)

٨٦ ـ البدء والتاريخ ، تحقيق : كلمان هوار ، مصور باوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة باريز ١٩٠٣ .
المقريزي : تقي الدين ابي العباس احمد بن علي . (ت ٨٤٥هـ)

٨٧ ـ المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية (بيروت : د/ت) مصورة بأوفسيت دار صادر .
مؤلف مجهول .

٨٨ ـ العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، تحقيق : دي حوية ، مصور باوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة ليدن : ١٨٧١ .
الهرثمي صاحب المأمون .

٨٩ ـ مختصر سياسة الحروب ، تحقيق : عبدالرؤوف عون (القاهرة: د/ت) المؤسسة المصرية العامة .
الواقدي : محمد بن عمر . (ت ٢٠٧هـ)

٩٠ ـ فتوح الشام (بيروت : د/ت) دار احياء التراث العربي.
اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب (ت ٢٩٢هـ)

٩١ ـ تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم (النجف : ١٩٧٣) المكتبة الحيدرية .

٩٢ ـ كتاب البلدان ، تحقيق : دي خويه ، ملحق بكتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته .

٩٣ ـ مشاكلة الناس لزمانهم ، تحقيق : ولسم ملورد (بيروت : ١٩٦٢) دار الكتاب الجديد .

المراجع :

أ ـ الكتب :

أبو زهرة : محمد

٩٤ ـ العلاقات الدولية في الاسلام (القاهرة : ١٩٦٤) الدار القومية .

آرنولد : سير توماس ، جمهرة من المستشرقين باشرافه .

٩٥ ـ تراث الاسلام ، ترجمة : جرجيس فتح الله ، ط٣ (بيروت : ١٩٧٨) دار الطليعة .

اوليري : دي لاسي .

٩٦ ـ انتقال علوم الاغريق الى العرب ، ترجمة علي بيثون ويحيى الثعالبي . (بغداد : ١٩٥٨) مطبعة الرابطة .

اومان .

٩٧ ـ الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة : مصطفى طه بدر (القاهرة : ١٩٥٣) ، دار الفكر العربي .

بروكلمان : كارل .

٩٨ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ، ط٧ (بيروت : ١٩٧٧) دار العلم للملايين .

بروي : ادوار .

٩٩ ـ تاريخ الحضارات العام ، ترجمة : يوسف اسعد داغر وفريد داغر ، ط١ (بيروت : ١٩٦٥) منشورات عويدات .

بينز : نورمان .

١٠٠ ـ الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة : حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، ط٢ (القاهرة : ١٩٥٧) الدار القومية .

توفيق : عمر كمال .

١٠١ ـ تاريخ الدولة البيزنطية (الاسكندرية : ١٩٧٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ثابت : نعمان .

١٠٢ ـ الجندية في الدولة العباسية ، ط٢ (بغداد : ١٩٥٦) مطبعة أسعد .

جرونيباوم : جوستاف وآخرون .

١٠٣ ــ حضارة الاسلام ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (القاهرة : ١٩٥٦) مكتبة نهضة مصر .
حتي : فيليب .
١٠٤ ــ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (بيروت : ١٩٥٩) دار الثقافة .
١٠٥ ــ تاريخ العرب المطول ، ط٢ (بيروت : ١٩٥٣) دار الكشاف .
الحسن : محمد علي .
١٠٦ ــ العلاقات الدولية في القرآن والسنة (عمان : ١٩٨٠) مكتبة النهضة الاسلامية .
حسيني : مولوي .
١٠٧ ــ الادارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوي (القاهرة : ١٩٥٨) مكتبة الآداب .
الخربوطلي : علي حسين .
١٠٨ ــ الاسلام في حوض البحر المتوسط (بيروت : ١٩٧٠) دار العلم للملايين .
الدوري : عبدالعزيز .
١٠٩ ــ العصر العباسي الاول (بغداد : ١٩٤٤) .
١١٠ ــ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ط٣ (بيروت : ١٩٨٠) دارالطليعة .
١١١ ــ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بيروت : ١٩٧٤) دار المشرق .
١١٢ ــ الجذور التاريخية للشعوبية ، ط٢ (بيروت : ١٩٨٠) دار الطليعة .
الديب : احمد محمود .
١١٣ ــ الجغرافية السياسية (القاهرة : ١٩٧٣) .
ديل : جارلس .
١١٤ ــ تكوين الامبراطورية البيزنطية ، ملحق بكتاب نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية .
ديموميين .
١١٥ ــ النظم الاسلامية ، ترجمة فيصل السامر وصالح الشماع ، ط ٢ (بيروت : د/ت) دار النشر للجامعيين .
رانسيمان : ستيفن .
١١٦ ــ المدنية البيزنطية ، ترجمة : صالح احمد العلي (بغداد : ١٩٥٦) مطبعة وزارة المعارف العراقية .

١١٧ ــ الحضارة البيزنطية ، ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد .
(القاهرة : ١٩٦١) مكتبة النهضة المصرية .
رستم : اسد .

١١٨ ــ الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ط١
(بيروت : ١٩٥٥) دار المكشوف .
رونسون : مكسيم .

١١٩ ــ الرأسمالية والاسلام ، ترجمة : نزيه الحكيم (بيروت : ١٩٧٤)
دار الطليعة .
رسلر : جاك .

١٢٠ ــ الحضارة العربية ، ترجمة : غنيم عبدون (القاهرة : د/ت)
الدار المصرية للتأليف والترجمة .
الريس : محمد ضياء الدين .

١٢١ ــ الخراج في الدولة الاسلامية (القاهرة : ١٩٥٧) مكتبة نهضة مصر .
الزحيلي : وهبة .

١٢٢ ــ نظام الاسلام (بنغازي : ١٩٧٤) منشورات جامعة بنغازي .

١٢٣ ــ آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، ط٢ (دمشق : ١٩٦٥) المكتبةالحديثة .
زيدان : جرجي .

١٢٤ ــ تاريخ التمدن الاسلامي ، ط ٢ (بيروت : ١٩٦٧) مكتبة الحياة .
سالم : عبدالعزيز .

١٢٥ ــ العصر العباسي الاول (الاسكندرية : د/ت) مؤسسة شباب الجامعة .
السامرائي : عبدالله سلوم .

١٢٦ ــ الغلو والفرق الغالية في الحضارة العربية الاسلامية (بغداد : ١٩٨٢) ،
دار واسط .

سرور : محمد جمال الدين .
١٢٧ ــ الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية في القرنين الاول والثاني
بعد الهجرة (القاهرة : ١٩٧٢) دار الفكر العربي .
سليمان : احمد عبدالكريم .

١٢٨ ــ المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث
والسادس ، ط١ (القاهرة : ١٩٨٢) دار النهضة العربية .
سيديو .

١٢٩ ـ تاريخ العرب العام ، ترجمة : عادل زعيتر (القاهرة : ١٩٤٨)
دار احياء الكتب العربية .
شاخت وبوزورث .
١٣٠ ـ تراث الاسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهودي (الكويت : ١٩٧٨)
سلسلة عالم المعرفة .
شعبان : محمد عبدالحي .
١٣١ ـ الدولة العباسية (بيروت : ١٩٨١) الدار الاهلية للنشر والتوزيع .
١٣٢ ـ صدر الاسلام والدولة الاسلامية (بيروت : ١٩٨٣) الدار الاهلية للنشر
والتوزيع .
١٣٣ ـ الثورة العباسية ، ترجمة: عبدالمجيد حسيب القيسي (ابو ظبي:١٩٧٧)
دار دراسات خليجية .
الشنتناوي : احمد وآخرون .
١٣٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية (د/م : ١٩٣٣) .
الشيال : جمال‌الدين .
١٣٥ ـ تاريخ الدولة العباسية (الاسكندرية : ١٩٧٤)
دار الكتب الجامعية .
الصالح : صبحي .
١٣٦ ـ النظم الاسلامية ، ط/٥ (بيروت : ١٩٨٠) دار العلم للملايين .
العاني : حسن فاضل زعين .
١٣٧ ـ سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية (بغداد : ١٩٨١)
دار الرشيد للنشر .
العبادي : احمد مختار وآخرون .
١٣٨ ـ تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام (بيروت : ١٩٧٢) دار الاحد.
العبادي : عبدالحميد وآخرون .
١٣٩ ـ الدولة الاسلامية تاريخها وحضارتها (القاهرة : د/ت) دار نهضة مصر.
عبدالرزاق : علي .
١٤٠ ـ الاسلام واصول الحكم (بيروت : د/ت) مكتبة الحياة .
عثمان : فتحي .

١٤١ ـ الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري.
(القاهرة : ١٩٦٦) دار الكتاب العربي.
العدوي : ابراهيم احمد .

١٤٢ ـ الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ط٢ (القاهرة : ١٩٥٨)
مكتبة الانجلو مصرية .

١٤٣ ـ السفارات الاسلامية الى اوربا في العصور الوسطى (القاهرة : ١٩٥٧)،
دار المعارف .
العريني : السيد باز .

١٤٤ ـ الدولة البيزنطية (بيروت : ١٩٨٢) دار النهضة العربية .
العزيز : حسين قاسم .

١٤٥ ـ البابكية (بغداد : د/ت) مكتبة النهضة .
عطية الله : احمد .

١٤٦ ـ القاموس السياسي ، ط٣ (القاهرة : ١٩٦٨) دار النهضة العربية.
علي : سيد أمير .

١٤٧ ـ مختصر تاريخ العرب ، ترجمة : عفيف البعلبكي ، ط ٢ (بيروت :١٩٦٧)
دار العلم للملايين .
العلي : صالح احمد .

١٤٨ ـ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري.
(بغداد : ١٩٥٣) مطبعة المعارف .
عمران : محمود سعيد .

١٤٩ ـ معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية (بيروت : ١٩٨١) دار النهضة
العربية .
عمر : فاروق .

١٥٠ ـ العباسيون الاوائل (بغداد : ١٩٧٧) مطبعة جامعة بغداد .

١٥١ ـ بحوث في التاريخ العباسي (بيروت : ١٩٧٧) دار العلم .

١٥٢ ـ التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين (بيروت : ١٩٨٠) مؤسسة
المطبوعات العربية .
عون : عبدالرؤوف .

١٥٣ ـ الفن الحربي في صدر الاسلام (القاهرة : ١٩٦١) دار المعارف.
غلوب : جون باجوت .

١٥٤ ــ امبراطورية العرب ، ترجمة : خيري حماد (بيروت : ١٩٦٦) دار الكتاب العربي .

فازيليف .

١٥٥ ــ العرب والروم ، ترجمة : محمد عبدالهادي شعيرة (القاهرة : د/ت) ، دار الفكر العربي .

١٥٦ ــ بيزنطة والاسلام ، ملحق بكتاب نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية .

فلهوزن : يوليوس .

١٥٧ ــ تاريخ الدولة العربية ، ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريدة (القاهرة : ١٩٦٨) لجنة التأليف والترجمة والنشر .

فلوتن : فان .

١٥٨ ــ السيادة العربية ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم (القاهرة : ١٩٣٤) مطبعة السعادة .

كاشف : سيدة اسماعيل .

١٥٩ ــ مصر في عصر الولاة (القاهرة : د/ت) مكتبة النهضة المصرية .

كاهن : كلود .

١٦٠ ــ تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة : بدرالدين القاسم (بيروت : ١٩٧٧) دار الحقيقة للطباعة والنشر .

الكبيسي : حمدان عبدالمجيد .

١٦١ ــ اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي (بغداد : ١٩٧٩) منشورات وزارة الثقافة والفنون .

لاندو : ردم .

١٦٢ ــ الاسلام والعرب ، ترجمة : منير البعلبكي (بيروت : ١٩٦٢) دار العلم للملايين .

لسترنج .

١٦٣ ــ بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة : بشير يوسف فرنسيس (بغداد : ١٩٣٦) المطبعة العربية .

١٦٤ ــ بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد : ١٩٥٤) مطبعة الرابطة .

لومبار : موريس .

١٦٥ ــ الاسلام في مجده الاول ، ترجمة : اسماعيل العربي ، ط٢ (الجـزائر : ١٩٨٤) المؤسسة الوطنية للكتاب .
لويس : ارشيبالد .

١٦٦ ــ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : احمـد محمد عيسى (القاهرة : ١٩٦٠) مكتبة النهضة المصرية .
لويس : برنارد .

١٦٧ ــ العرب في التاريخ ، ترجمة : نبيه امين فارس ومحمود يوسف زايد (بيروت : ١٩٥٤) دار العلم للملايين .
ماجد : عبدالمنعم .

١٦٨ ــ العصر العباسي الاول (القاهرة : ١٩٧٣) مكتبة الانجلو مصرية .
المحاسني : زكي .

١٦٩ ــ شعر الحرب في ادب العرب (القاهرة : ١٩٦١) دار المعارف .
محمصاني : صبحي .

١٧٠ ــ الاوزاعي (بيروت : ١٩٧٨) دار العلم للملايين .
محمود : حسن احمد واحمد ابراهيم الشريف .

١٧١ ــ العالم الاسلامي في العصر العباسي الاول (القاهرة : ١٩٦٦) دار الفكر العربي .
مصطفى : شاكر .

١٧٢ ــ دولة بني العباس (الكويت : ١٩٧٣) وكالة المطبوعات .
المنجد : صلاح الدين .

١٧٣ ــ فصول في الدبلوماسية ، ملحق بكتاب رسل الملوك .
موس : سانت .

١٧٤ ــ ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد . (القاهرة : ١٩٦٧) عالم الكتب .

ب ــ الرسائل الجامعية :

خليل : عماد اسماعيل .

١٧٥ ــ السياسة الداخلية والخارجية للدولة العباسـية في عهـد ابي اسحاق المعتصم ، رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية/جامعة الازهر ، ١٩٧٩ .
السامرائي : يونس عبدالحميد .

١٧٦ ـ السفارات في التاريخ الاسلامي حتى قيام الدولة العباسية ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم / جامعة الازهر ، ١٩٧٦ .

العبود : عبدالكريم توفيق .

١٧٧ ـ الادب والسياسة منذ قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الثالث الهجري ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب / جامعة بغداد ، ١٩٧٧ .

العبيدي : عبدالجبار منسي .

١٧٨ ـ دور الخليفة المهدي العباسي في اقرار النظم العباسية ، رسالةدكتوراه، كلية الآداب/جامعة القاهرة ، ١٩٧٩ .

قادر : نزار محمد .

١٧٩ ـ الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة العربية الاسلاميةمنذ تأسيسهاوحتى سقوط بغداد ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب/جامعة الموصل،١٩٨٤ .

القرغلي : جهادية .

١٨٠ ـ التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الاول ، رسالة دكتوراه ، كلية البنات/ جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ .

حـ ـ المقالات :

الحياري : مصطفى علي :

١٨١ ـ طرسوس مدينة الثغور الشامية ، مجلة دراسات/العلوم الانسانية (عمان : ١٩٨١) الجامعة الاردنية ، المجلد الثامن ، العدد الاول .

السامرائي : حسام .

١٨٢ ـ السياسة الزراعية للدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجري ، مجلة كلية الامام الاعظم (بغداد : ١٩٧٤) العدد الثاني .

العدوي : ابراهيم احمد .

١٨٣ ـ قوانين الاصلاح الزراعي في الامبراطورية البيزنطية ، مجلة كلية الآداب والتربية (الكويت : ١٩٧٣) جامعة الكويت ، العددان ٣ـ٤ .

العلي : صالح احمد .

١٨٤ ـ استيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب (بغداد : ١٩٥٩) العدد الثاني .

عمر : فاروق .

١٨٥ ـ البابكية وفكر القرن العشرين ، مجلة آفاق عربية (بغداد : ١٩٧٧) العدد الخامس .

١٨٦ ـ الجند الاموي والجيش العباسي ، مجلة المورد (بغداد : ١٩٧٩) المجلد الثامن ، العدد الرابع .

١٨٧ ـ نظرات في سياسة الخليفة العباسي المتوكل ، المجلة التاريخية العراقية (بغداد : ١٩٧٢) العدد الثاني .

١٨٨ ـ الجيش العباسي اول جيش نظامي في الاسلام ، ندوة النظم الاسلامية ابو ظبي ، ١٩٨٥ (مكتب التربية لدول الخليج العربي) .

١٨٩ ـ عناصر الجيش العربي الاسلامي (الموارد البشرية) الفصل الاول من الجزء الثالث من كتاب الجيش والسلاح في العراق، وزارة الثقافة والاعلام بغداد ، ١٩٨٧ .

١٩٠ ـ نظام الاستخبارات العسكرية ، الفصل السابع من الجزء الثالث من كتاب الجيش والسلاح في العراق . بغداد ١٩٨٧ .

١٩١ ـ التعبية وأساليب القتال ـ الفصل التاسع من الجزء الرابع من كتاب الجيش والسلاح في العراق .

١٩٢ ـ الرايات والالوية ، مجلة الرسالة الاسلامية ، بغداد ، ١٩٨٧ .

المراجع الاجنبيه :

أ ـ الـكتب :

Baynes: Norman and Moss.

1 — Byzantine Studies, London: 1955.

2 — Byzantium, Oxford: 1961.

Brehier: Louis.

3 — The Life and Death of Byzantium, translated by: Margrate Vaugan, North Holand: 1977.

Bury: J.B.

4 — A History of the Eastern Roman Empire, London: 1912.

ورمزنا له بـ

E.R.E

5 — The Cambridge Medieval History, Volume, 2, Cambridge:

Diehl: Charles.

6 — Byzantium: Greatness and Decline, translated by: Naomi Walford, New Brunswick: 1957.

Fahmy: Ali Mohamed.

7 — Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean, Cairo: 1966.

Finlay: George.

8 — History of the Byzantine State, London: 1935.

Gibbon: Edward.

9 — The Decline and Fall of the Roman Empire, London: 1966.

Holt: Lambton and Bernard Lewis.

10—The Cambridge History of Islam, Cambridge: 1978.

Hussey: J.M.

11—The Cambridge Medieval History, Volume, 4, Part, 1, Byzantium and its Neighboure, Cambridge: 1967.

12—Part, 2, Government, Church and Civilisation, Cambridge: 1967.

C.M.H. 4/1. ورمزنا له بـ

C.M.H, 4/2. ورمزنا له بـ

13—War and Peace in the Law of Islam, Baltimore; 1962.
Khadduri: Majid.
Lemerle: Paul.
14—Le mond de Byzance: Historie et Institutions, London; 1978.
Lewis: Bernard.
15—The Muslim Discovery of Europe, London: 1982.
Lopez: Robert.
16—Byzantium and the World around it.. London: 1978.
Levy: Reuben.
17—The Social Structure of Islam, Cambridge: 1965.
Mango: Cyril.
18—Byzantine Architecture, New York: 1976.
Oman: Charles.
19—A History of the Art of War, New York; 1924.
Ostrogorsky: George.
20—A History of the Byzantine State, translated by: Joun Hussey, Oxford: 1968.
Pirenne: Henri:
21—Mohammed and Charlamagne, translated by: Bernard Miall, London: 1965.
Postan and Rich.
22 — The Cambridge Economic History of Europe, Cambridge: 1952.
Rice: David Talbot.
23—The Byzantinse, London: 1965.
Runciman; Steven.
24—The Byzantine Theoracy, Cambridge: 1977.
Caunders: J.J.
25—A History of Medieval Islam, London: 1972.
Vasiliev: A.A.
26—History of the Byzantine Empire, Madison: 1952.

ب الرسائل الجامعية غير المنشورة :

Arvites: James Anathony.

27—Irene: Woman Emperor of Constantinpole her life and time. A dissertions submitted to the Faculty of the University of **Mississipi-1979.**

Biddle: David White.

28—The Development of the Bureaucracy of the Islamic Empire during the late Umayyad and early Abbasid Period. A dissertation submitted to the Faculty of the Graduate School of the University of Taxas at Austine-1972.

Blay-Abramski: Irit Irene.

29—From Damascus to Baghdad: The Abbasid Administrative System as a product to the Umyyad heritage (41/661-320/932). A dissertation submitted to the department of Near Eastern Studies of Princeton University-1982.

George: Arbagi Martin.

30—Byzantine in Latin eyes 800-1204. A thesis submitted to the Graduate School Rubgess University-1969.

Nicol: Norman Douglas.

31—Early Abbasid Administration in the central and eastern provences 132-218/750-833. A dissertation submitted to University of Washington-1979.

Santoro: Anathony.

32—Byzantium and the Arabs during the Isaurian Period 717-800 A.D. Athesis submitted to the Graduate School of the Rutgers-The State University of New Jersey-1978.

AL-Tikriti: Bahjat Kamil.

33—The Religius Policy of AL-Mutawakkil Ala Allah AL-Abbasi 232-247/847-861. A thesis submitted to the institute of Islamic Studies-Faculty of Graduate Studies and Research, Mc Gill University Montreal, Canada-1969.

د ـ الموسوعات :

40—Dictionary of Warld History.
ed., Howat, London: 1973.

41—The Encyclopedia Americana.
Company of editors, New York: 1967.

42—The Encyclopedia Britannica.
U.S.A: 1980.

43—Encyclopedia of Islam.
ed., Gibb and others, New edition, Leiden-London: 1960-1971.

E.I (2)

44—Encyclopedia of Islam

ed., Houtsman and others, First edition.
Layden-London: 1913-1936.

E.I (1)

45—Encyclopedia of Religion and Ethics.
ed., James Hastings. Edinburgha-New York.

46—An Encyclopedia of World History,
ed., William Langer. London: Fifth edition.

ج ـ المقالات .

Baynes: Norman.

34—The Emperor Heraclius and the Military System, English Historical Review, 6 7(1952) PP. 380-381.

Brooks.

35—Arabic Lists of the Byzantine Theme, Journal of Hellenk Studies, 21 (1901) PP. 67-77.

36—The Arab Occupation of Grete, English Historical Review, 28 (1913) PP. 431-443.

Canard,

37—La prise d'Héraclée et les relation entre Harun AR-Rashid et L'Empereur Niccphore, Byzantion, 32 (1962) PP. 345-379.

Lewis: Bernard.

38—Byzantium and Islam, Byzantion Oslavian, 20 (1975) PP. 25-37.

Tuqan: Fawaz Ahmad.

39—Abdallah ibn Ali, ARebellious uncle of AL-Mansur, Studies in Islam, 6 (1969) PP. 1-26.



الفهرست

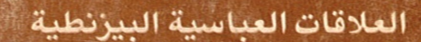
رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٤٠٣
لسنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م

طبـع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد

لسنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م



العلاقات العباسية البيزنطية

تميزت العلاقات العباسية - البيزنطية مجالات من المد والجزر في ازمنة مختلف الخلفاء العباسيين والاباطرة البيزنطيين . الكتاب توثيق تاريخي شامل لهذه العلاقات .

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : رياض عبدالكريم

السعر . اربعة دنانير



بغداد - ١٩٩٢

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

توزيع : الشركة الوطنية للتوزيع والنشر - بغداد

العلاقات العباسية البيزنطية دراسة سياسية حضارية موفق سالم نوري